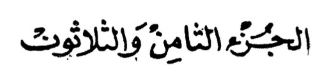
الموسوعة الشاملة

في

تاريخ الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار



دار الفكر

للطباعة والنشر والتوزيع

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

مشاريع ما بعد الحملة السابعة

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكّار

الجزء السادس والثلاثون (٢)

دمشق ١٤٢٠ / ١٩٩٩

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

١ — استرداد الأرض المقدسة لبييردوبوا

٢ — من كتاب الأسرار لمارينوسانوتو

— ٢ —

من كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلال:

أحدث تحرير عكا سنة ١٢٩١ أثراً هائلاً شمل الغرب الأوربي كله، وهنا شرع رجال الكنيسة، ورجال السياسة والحكم، ورجال الفكر والقلم، كل بدوره يعمل في سبيل الإعداد لمشروع حملة صليبية جديدة، تتوفر لها سبل النجاح، وتوفرت هناك قناعة شاملة أن الطريق إلى فلسطين يمر الآن عبر مصر، وهذه القناعات كانت قد تأسست بالفعل منذ أحداث الحملة الثالثة، ومعروف أنه جرت عدة محاولات لاحتلال مصر جبهوياً، كلها باءت بالاخفاق، ولهذا وجد من اقترح الهجوم على مصر جانبياً، وهذا ما حاوله لويس التاسع، لدى نزوله القاتل له، على الساحل التونسي، وراجع الأوربيون خططهم أكثر من مرة، وسعوا إلى الاستفادة من دروس ما وقع خلال قرنين من الزمن، وسلف لنا في القسم الأول أن تعرفنا إلى«كتاب الاسترداد» الذي كتبه المحامي الفرنسي بيير دوبوا، ورأينا مشروع هذا الكتاب مشروعاً أكبر من استرداد الأرض المقدسة، مشروعاً قصد بالفعل إقامة دول كاثوليكية ليس في أوربا الشرقية، بل بالمشرق العربي كله مع تونس في المغرب، وأن ترتبط هذه الدول كلها مع باريس، مقر المملكة الفرنسية، وأراد دوبوا أيضاً تحويل البابوية من روما إلى فرنسا لتكون حكراً على الفرنسيين.

وندع دوبوا ومشروعه الاستعماري الهائل لنتحول نحو إيطاليا، ففي إيطاليا عاصر دوبوا كاتب من رعايا البندقية اسمه مارينو سانوتو Marino Sanuto وشهر بلقب تورسيللو Torsello,كتب بعد تحضيرات استمرت سنوات طوال كتاباً اسمه«كتاب الأسرار للصليبيين

الحقيقيين لمساعدتهم على استرداد الأرض المقدسة» قدمه في سنة ١٣٢١، إلى البابا يوحنا الثالث والعشرين، (ويذكر أحياناً باسم الثاني والعشرين).

ولد سانوتو[١٢٧٠ — ١٣٤٣] في مدينة ريفوالتي Rivoalti من أعمال جمهورية البندقية، في منطقة سينت سيفرو Seivero ،وكان والده من وجهاء البندقية وعضواً في مجلس شيوخها، وقد شغل أدواراً هامة في حياة البندقية وشؤونها البحرية.

ونشأ سانوتو نشأة دينية، وغالباً ما مارس العزف في الكنيسة على آلة موسيقية جديدة، ألمانية المنشأ عرفت باسم تورسيللوTorsello ،ولاختصاصه بالعزف على هذه الآلة بات يعرف بلقب تورسيللو.

وتقلد سانوتو عدة مناصب، من ذلك مستشاراً في محكمة بلرم ثم في البندقية نفسها، وبحكم الأجواء التي عاشها شارك بالاهتمام بالحروب الصليبية وبأوضاع الأرض المقدسة، وازداد هذا الاهتمام منذ سنة ١٣٠٧، أيام البابا كليمنت الخامس، وإلى هذا البابا قدم مذكرة حول أفكاره وما يراه من مشاريع وكان ذلك سنة ١٣٠٩، وتقدم ورأينا من قبل، في المدخل إلى كتاب دوبوا أن هذا البابا عدّ فرنسياً، وفي فرنسا عاش، وكان قد وصل إلى عرش البابوية سنة ١٣٠٥، أي أن سانوتو تحرك بمشروعه بعد بيير دوبوا بوقت قصير، وعلى هذا عبر مع دوبوا عن تيارات جيلهما، ولا بد هنا من افتراض وجود مؤثرات متبادلة غير مباشرة بين الرجلين.

وكان ملك فرنسا آنذاك — كما رأينا — فيليب الجميل، حفيد القديس لويس، وصحيح أن هذا الملك لم يعرف جده، لكنه حاول أن يتلبس شخصيته، ولا سيما في المجال الديني، والمشاعر الصليبية، وقد

وصف نوغاريت الذي كان المستشار الرئيسي لفيليب من ١٣٠٣ حتى ١٣١٣، مليكه بقوله:«كان مليئاً بالنعمة، محسناً، تقياً، ورحيماً، يمارس دوماً العدل ويتبع الصدق، ولم يكن بذيئاً في كلامه، مؤمناً متحمساً، ومتديناً في حياته، ويبني الكنائس، وينشغل في أعمال التقوى»، ويذكرنا هذا الوصف بأوصاف جوانفيل للقديس لويس، وكان جوانفيل قد كتب كتابه أيضاً في هذه الآونة.

وكان فيليب الجميل في الثالثة من عمره عندما توفي جده، وقد تسلم العرش سنة ١٢٨٥ وهو في السابعة عشرة من عمره، وحين تسلم السلطة كانت المملكة الفرنسية مثقلة بالديون، وتحتاج إلى أكثر من ثلاثمائة سنة لوفاء ماعليها، لهذا عمد إلى إنقاص عيار العملة، وإلى فرض ضرائب ثقيلة على البورجوازية في مملكته، وإلى محاولة مصادرة ممتلكات الكنيسة، وقام بتصفية طائفة الداوية واستولى على ثرواتها، وفعل ذلك وهو يتذكر كيف تمنع الداوية عن مساعدة جده في دفع المتوجب عليه من فدية بعد فكاك أسره من المنصورة.

وأدت أعمال فيليب هذه، وصراعاته مع إدوارد الأول ملك إنكلترا، ونشاطاته الأخرى في سبيل الاستقلال الدنيوي إلى الصراع مع البابا بونيفيس الثامن، وإلى تبادل التهم والرسائل القاسية، لا بل إلى محاولة اعتقال هذا البابا في سنة ١٣٠٣ في أناني، وكتب فيليب في إحدى المرات إلى بونيفيس يقول:«من فيليب، بفضل الرب ملك فرنسا، إلى بونيفيس العامل بمثابة حبر أعظم، قليلاً من الصحة أتمنى لكم، أو لا شيء، لتكن حماقتكم العظمى معروفة واعلموا أننا في المسائل الدنيوية لا نخضع لأحد أبداً».

وقام البابا بونيفيس بحرمان الملك الفرنسي كنسياً، وقد مرت بنا بعض تفاصيل أخبار الصراعات بين البابا والملك، وكان البابا «يمارس الجنس بنوعيه، ولا شك أنه كان كاثوليكياً في تذوقه الجنسي، فقد

احتفظ بامرأة متزوجة مع ابنتها بين العاملين على خدمة فراشه، وحاول أن يغوي عدداً من الشباب ذوي الطلعة البهية، والقوام المشوق، ويبدو أنه نجح في ذلك إلى أبعد الحدود، وقد نقل عنه قوله في تعريف الجنس وممارسته، أن هذه الممارسة(لا يتعدى إثمها قيامك بفرك يديك ببعضهما)، ولا شك أن بونيفيس قد مارس الزنا واللواطة»، وكانت هذه الممارسة القاعدة التي استند عليها نوغاريت في حملته عليه، وقد رأينا أصداء ذلك لدى دوبوا، وفي التشدد على ضرورة الاصلاح الكنسي الشامل، وأن هذا شرط أساسي لاسترداد الأرض المقدسة.

ولا شك أن سانوتو الايطالي الذي عمل في الكنيسة قد عاش هذه الأجواء، وتأثر بها، لكن ذلك لم يثبط من عزيمته، على أساس أن الدعوة الصليبية كفيلة بإحداث التغييرات الداخلية الشاملة في العالم الكاثوليكي، وفي سبيل مشروعه ارتحل سانوتو إلى بلدان المشرق، فزار أرض الشام والاسكندرية، ويحتمل أنه زار أيضاً تونس ثم منطقة القبائل في الجزائر الحالية، وعرف الأراضي البيزنطية واهتم كثيراً بدولة أرمينيا في كليكية الشامية، وأثارته حملات السلطان بيبرس ضدها.

واكتمل مشروع كتابه سنة ١٣٢١ حيث قدمه إلى البابا، فشكل البابا لجنة لفحص هذا الكتاب، الأمر الذي حدثنا سانوتو عنه في مطلع كتابه، وبعد ذلك تابع عمله، وقدم نسخاً عن كتابه سنة ١٣٣٣، إلى بعض ملوك وحكام عصره.

وكنا لدى التعامل مع كتاب بيير دوبوا، قد عددناه مرآة لعصره، وقلنا أنه من الصعب الحديث عن تأثير هذا الكتاب على السياسة الفرنسية الرسمية، لأن دوبوا عجز عن الدخول إلى دائرة المستشارين الملكيين، وعلى عكس دوبوا، أثر كتاب سانوتو على السياسة البابوية وعلى مشاريعها الصليبية، ومثلما وضح لدينا أن أفكار دوبوا قد نهلها من مصادر عصره وسواه ولم يبتكرها، كذلك نجد أن سانوتو قد نهل

من كتابـات معاصيه، ولاسيما مما كتبـه الراهب الفرنسيسكاني فيـدانزيد دي بادوفا ,Fidenzio de Padova الذي كتب عن تحرير الأرض المقدسة.

هذا وتزوج سانـوتومتأخراً، ورزق بولد واحد، كما أنـه كتب رسائل أخرى مع بعض الكتب غير كتاب الأسرار، وجاء كتاب الأسرار بمثابة موسوعـة كبيرة ليس كل ما فيها يهم موضـوع الحروب الصليبية بشكل مباشر، لذلك وقع الاختيـار على المهم من الكتاب، إنما جـرت المحافظة على ثبت محتوى الكتاب كاملاً، وكان قد جعل كتابه في ثلاثة كتب، كل كتاب منهـا في عدة أقسام وفصـول، ولعله يكفي القول أنه توجب على العرب التعـرف إلى هذا الكتاب منذ زمن طويل، فنحن نـرى فيه أسس المشروع الصهيوني الذي طبق في مشرقنا العربي، كما نرى فيه نصاً أخطر بكثير من«بروتـوكـلات حكماء صهيـون»، وليس من الغلـو بمكان أننا نرى فيـه مخططاً تاريخيـاً لما حـدث في كامب ديفيـد، ومـا يحدث في هذه الأيام.

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين

وموضوعه الحفاظ على المؤمنين وطرد الكفرة واضمحلالهم، وكذلك العمل من أجل استراد الأرض المقـدسة، والمحافظة عليهـا هي ومناطق أخرى كثيرة، وإبقاء الجميع بسلام وأمان .

المؤلف هو مـارينو سانوتو، المعـروف بلقب تورسيللو، الذي هو من مدينة ريفوالتي، ومن منطقة سينت سيفرو، من أعمال البندقية.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

في ٢٤ أيلول لعــام ١٣٢١، أدخلت أنا مــارينـو سـانـوتو، الملقب بتورسيللـو، من البندقية، بنعمـة غامرة، إلى حضرة أبينـا، قداسة البـابا، وقدمت له نسختين من رسالة حـول استرداد الأرض المقدسة، والحفاظ على المؤمنين، نسخة مغلفـة باللون الأحمر، والثانيـة بصليب، وقدمت له أيضـاً أربعة مصـورات أرضية، الأول عن البحـر المتوسط، والثـاني عن الأرض والبحر، والثالث عن الأرض المقدسة، والرابع عن أرض مصر، وكل مـا كنت عـازمـاً على قـوله لـه، سلمتـه إياه مكتـوباً، كما هو وارد فيمايلي:

وقبل الأب الأقـدس كل الذي ذكرته أمـامـه، بكل لطف وعرفـان، وأمر بـأن تتلى عليه المقدمـة،وجزء مـن المحتوى وبعضاً مـن النصوص بحضوري، ولم يكتف بهذا بل سألني عن عـدد من القضايا واستوضح حولها، وقد أجبته على كل مـا سألني عنه، وفي الختام قال لي مايلي:«أريد إخضاع هذه الرسـالة للفحص»، فأجبته بكل احترام:«هـذا ما يطيب لي على أن يتسم الفـاحصـون بالأمـانة»، فأجـابني:«لا يسـاورك أدنى شك حـول هـذا الشأن»، وأضـاف مطمئناً لي يقــول:«يمكنك الذهاب حيثما ترغب»، وعندها غـادرت، وتلطف بـذاته فـاستـدعى بوانتيـودي است Boentio de Ast ،وكان من رهبنة الدومنكان، ونائبـاً أسقفياً في بلاد أرمينيـا، ويعقـوب دي كــامـرينوJacob de Camerino ،من رهبنة طائفـة الفرنسيسكان الملتحين، وكان عـائداً من زيارة لأخـوانه في بلاد فارس، ومتى القبرصي، وبولينو مـن التابعين للبندقية، وكـانا أيضاً من طائفة الرهبـان الفرنسيسكان، وناولهم نسخة الرسـالة المغلفة بشكل

صليب، وطلب القيام بتفحصها بكل دقة، وأن يرفعوا تقريراً حولها إليه، وانصرف الجميع نحو دراسة الرسالة بدقة وأمانة، وأكبوا على عملهم في بيت بولينو Paulino ، وكتبوا تقريرهم ورفعوه بالاجماع، وبعد مضي ثلاثين يوماً، من تسلم البابا التقرير، وفي يوم السبت من بعد الظهر استدعى الرهبان المذكورين، ثم قابلني أنا أيضاً بترحاب، وسأل الرهبان المذكورين مراراً:«هل أنتم على رأي واحد بهذا الصدد»؟ فأجابوه باحترام:«نعم أيها الأب الأقدس، نحن على رأي واحد، ومتفقين وقد كتبنا رأينا حول الموضوع»، وسألهم البابا أسئلة أجابوه عليها، وأجبت أنا على بعضها، ثم أنهى الجلسة بقوله:«لقد تأخر الوقت، اتركوا تقريركم الخطي هنا، ولسوف نستدعيكم من بعد»، وهكذا غادرنا وبقيت الرسالة عنده مع التقرير.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

أنا مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، من تابعية البندقية، أتقدم إلى قداستكم بكل تواضع وتقوى، بشأن الموضوع الذي مثلت من أجله في حضرتكم، وهو الموضوع المتعلق بشكل خاص بالصالح العام للمسيحية جميعاً في الماضي والحاضر، وأنا لست مدفوعاً من قبل أي ملك أو أمير، أو جماعة، أو محرض من قبل أي شخص على الاطلاق، بل مدفوعاً بمحض إرادتي ورغبتي، ذلك أنني بعد التأمل ملياً حول الخير العميم، وحول المحصلة التي من الممكن لقداستكم تحقيقها بنفقة زهيدة، لابل من دون أية نفقة أو إنفاق، والتمكن من إذلال كبار أعداء الايمان المسيحي وإبادتهم، وخاصة سلطان القاهرة، وأزبك خان التتار المتحكمين بالبلاد الجنوبية، وهوالذي انتشر خبره لدى عدة شعوب على أنه قوي جداً، ومثله الترك الذين هاجموا بلاد الامبراطورية البيزنطية حتى تخوم جزيرة المورة، التي هي تحت حكم اللاتين، يضاف إلى هذا أنه من الممكن مساندة سلطان التتار الحاكم في توريز(تبريز)، وفي بلاد العجم، ذلك أنه عدو لكل من سلطان القاهرة وخان الجنوب، وقد حدث فيما مضى أنه دافع بكامل قدرته عن مملكة أرمينيا ضد المسلمين المعتدين.

ولقداستكم تقدير ضرورة إبادة الأمة الإسلامية، التي نشرها محمد(ﷺ)، ولتعلم قداستكم أن هذا أمر ممكن تحقيقه، حسبما سيتضح الأمر لكم من خلال ما جاء في هذا الكتاب، وسترون أنكم ستتمكنون — بعون الرب — بسهولة ويسر من احتلال أرض الميعاد المقدسة، ومعها باقي المناطق المجاورة، وسيكون بإمكان قداستكم إعادة الاغريق

وباقي المراطقة إلى حضن الكنيسة الرومانية الأم، وأستطيع أنا أن أقول بكل تأكيد: لقد تشوقت نفسي إلى مثل هذا اليوم، اليوم الذي أجاب فيه إلى ما أنتظر، وأستطيع فيه المثول أمام حضرتكم، لأهدي إليكم كتبي كلها.

وكنت، في سبيل مشروعي هذا، قد عبرت البحر خمس مرات، حيث ذهبت مرة إلى قبرص، وثانية إلى أرمينيا، وثالثة إلى الاسكندرية، كما ذهبت إلى رودس، وكنت قبل أن أقوم بهذا كله قد أقمت مدة طويلة في كل من الاسكندرية وعكا، وذلك دون خرق للحظر الذي فرضته الكنيسة، وقضيت على كل حال وقتاً طويلاً من أيام حياتي في جزر بلاد الاغريق، ولهذا أعدّ نفسي مطلعاً بشكل جيد على أحوالها، ولاسيما على الأوضاع في إمارة المورة، وقدمت الآن حتى أضمن وضع هذه الكتب أمام قداستكم، من البندقية، عبر طريق البحر إلى بروغو Brugu ،ثم أخذت طريقي براً إلى بلاطكم، وكلي أمل أن تنظر قداستكم في أمر هذه الكتب، أو تتكرموا بتسليمها إلى من يتفحصها، كما يطيب لكم، راجياً من الخالق العلي، ومن علمكم الشائع، ومن لطف قداستكم المعروف في كل مكان، أن تعملوا ما هو نافع وصالح في هذا المقام.

أيها الأب الأعظم قداسة، لقد صليت دوماً وما برحت أصلي وأدعو طالباً من خالق الجميع، أن يتلطف فيحفظ قداستكم طويلاً في كنيسته المقدسة، وأن يمنحكم النعمة لتنجزوا بتوفيق الذي هو نافع لمجده ولحمده، ولانتشار الإيمان المسيحي.

وبالنسبة لي إنني خاضع لأوامركم دوماً، حسبما هو متوجب على مسيحي مؤمن، آمين.

تقرير الأخوة الرهبان

حول رسالة مشروع الأرض المقدسة

حول موضوع الكتاب الأول:

أيها الأب الأقدس: بعد تفحصنا الرسالة بكل دقة، اتضح لنا أنه اعتماداً على محتوى الكتاب الأول، من الممكن تجهيز كل ما هو لازم، بطريقة لائقة، من أجل ركوب البحر، والعبور إلى مصر، ولاشك أن موارد السلطان ستضعف، وستنشل قواه ومقوماته، هذا وإن المواد التي نستوردها من البلدان الخاضعة للسلطان، من الممكن الحصول عليها من بلدان أخرى، وعندنا أن هذا سهل تحقيقه، إذا ما نظرنا إلى الماضي، وإلى ما برح يحدث الآن، ذلك أنه من الممكن الحصول على تلك المواد من توريز ومن بغداد، عبر البحر الكبير، وبراً عبر أرمينيا الصغرى، ويبقى السؤال متعلق بمادة الكتان، حيث لا نعلم هل ينبت الكتان في غير مصر أم لا.

وبين الكتاب أنه للوصول إلى الهدف يتوجب الأخذ بثلاث إجراءات:

الاجراء الأول : أن تكون أوامر الحرمان الكنسي أشد مما اعتيد عليه، وقد تظهر الأوامر متشددة للغاية، غير أن ذلك هو الأنفع، وقد طالب المؤلف في القسم الرابع — الفصل الثاني ، بملاحقة المخالفين، مثلما يلاحق الهراطقة، وأن تطبق على من يدعمهم أو يمنحهم المأوى والحماية العقوبات نفسها التي تفرض بحق الهراطقة، ولانجاح المشروع، ينبغي تعيين مفتشين يتولون ملاحقة أمثال هؤلاء الناس، وإنزال العقوبات بهم.

وبشأن ما قاله في الفصل الخامس من القسم عينه:«ليكن محظوراً على أي إنسان — تحت طائلة العقوبات الواردة أعلاه — شراء أية بضائع يخمن — أو يعرف — أنها قادمة من الأراضي الخاضعة للسلطان» فالذي نراه أن هذا الاجراء سوف يسدد ضربة ماحقة لبلاد السلطان، كذلك كان قد قال في«المختصر الوجيز» بوجوب إلزام أي عامل، أو وكيل، أو جماعة(كومونة) بملاحقة من يخالف قرارات الكنيسة، تحت طائلة الحرمان الكنسي الكبير، وهنا نجد من الضروري التشديد على عبارة«جماعة»، لأن من النادر أن تقوم مدينة بكامل عناصرها بالمخالفة، ثم إنه لم تجر العادة بإنزال العقوبة بمجموعة بشرية كلها، يضاف إلى هذا أنه ورد في المكان نفسه : أن على كل من اطلع على هذا الأمر وجوب التشكي على كل مخالف للقوانين تحت طائلة الحرمان الكنسي، ونحن نرى أن هذا قاسٍ جداً، حيث لم يستثن أية حالة خاصة أو وضع منفرد.

الاجراء الثاني : يتعلق بقوله في الفصل السابع من القسم الرابع بوجوب إعداد عشرة غلايين لمراقبة البحر، ثم يخفض العدد وينزل إلى سبعة غلايين تتولى مراقبة البحر لمدة ثمانية أشهر فقط، والذي نراه أن عشرة غلايين هي بلا ريب ضرورية وأيضاً كافية، لأنه ينبغي مراقبة البحر على مدار أشهر السنة كلها، حيث تعود الناس في أيامنا على ركوب البحر في الشتاء أكثر مما كانوا يفعلونه فيما مضى.

الاجراء الثالث: هو المتعلق بتعيين قبطان واحد يكون رجلاً صالحاً مجرباً، وعظيم المقدرة، والذي نراه أنه من الضروري بسبب الطوارىء التي تحدث بكثرة يومياً تزويد هذا القبطان بمستشارين أمناء، وصالحين، ورجالاً ذوي خبرة ومعرفة بشؤون البحر، وبعادات التجار، وأن يعمل كل شيء بعد التشاور معهم، ذلك أنه إذا ما حدث حدث ما، بدافع من التعجرف، أو الشره، أو لسمة شريرة وجائرة، وعمد إلى

استخراج الغرامـات من غير حق من التجار الشرفاء، قـد تنهار التجارة بكل سهـولة، وقد تطرق المؤلف إلى هذا الموضـوع في الفصل الأول من الكتاب الثاني، والذي نراه أنه يكفي أن يكون في كل غليون رجلاً نزيهاً يتولى عمل المشرف الأعلى.

حول موضوع الكتاب الثاني:

نرى أنه بالنسبـة لما جـاء في الجزء الأول، أن الحل الأمثل هو أن على قـائـد الجيش الثـاني، أي الجيش المكون من خمسـة عشر ألف رجل، مع ثلاثمائة فارس، أن«يختار قاعدة له في أحد المراسي المصرية، حتى يستقبل هناك جماعات العـابرين بحراً»، وبهذا المقام نتسـاءل:أي مرسى سيكون هذا المرسى، على الرغم من سماعنا عن شـواطىء تتوافق مـواصفاتها مع التي وردت في الكتاب؟

ونحن نقـرّ الجزء الأول، باستثناء قـولـه:«أن تتم الدعـوة للحملة الصليبيـة في السنة الثانيـة أو الثالثـة»فالذي نراه وجـوب الشروع بذلك الآن على الفور، وطبعاً بعد الإعداد الموائم.

وفيما يتعلق بما قـاله في خـاتمة الجزء الثـاني من أنه«ينبغي عـدم قيـادة جيش الرب مبـاشرة بطريق البر إلى المرسى المصري المشار إليـه أعلاه»، نرى وجوب أن يضاف هنا إلى ما تقدم أن الملك القديس لويس، لما عبر البحـر في المرة الأولى، أخـذ طريـق قبرص، في حين أنه لما قـام بحملتـه الثانيـة كان — بعـدما اختبر مـا هو الأفضل — عازمـاً على قصد مصر مبــاشرة، غير أنه بـدّل الطريق واتجه نحــو تونـس، ومن هناك عبر إلى السماء، وكـــان سبب ذلك أنه لم يـؤمّن وصــول الميرة والامـــدادات الأخـرى، وحصل الشيء ذاته مع الأمير إدوارد ، الذي صـار فيما بعـد ملك إنكلترا، فإننا نقرأ أنه بعد تفحص الأماكن والشؤون البحرية، وقع اختيـاره على ما اختـاره[الملك الفـرنسي]، مع أنه كـان أيضـاً عازمـاً في

البداية على الاستيلاء على الأرض المقدسة، وأن يقوم في مرحلة لاحقة بالاستيلاء على مملكة القسطنطينية وتاجها.

وبشأن قوله في خاتمة الجزء الثالث:«على المقاتلين المسيحيين بعد التمركز والتحصن البقاء بشكل دائم»، يبدو لنا أن هذا صحيحاً، إذا ما تحقق ما قيل من قبل حول المرسى المصري.

وتضمن الجزء الرابع وصف أساليب القتال، وأنواع الأسلحة والاحتياطات البحرية، وهذه أمور لا خبرة لنا فيها، ولسنا مؤهلين بما فيه الكفاية لإصدار الرأي حولها، ويبدو لنا — مع ذلك — أن ما قيل عنها متوازن ومرتب ترتيباً حسناً.

حول موضوع الكتاب الثالث:

الكتاب الثالث كتاب تاريخي، رسم الماضي لإعطاء تحذير للمستقبل، وجاء في القسم ما قبل الأخير وصف للترتيبات المتعلقة بمملكة سورية ومصر، وخاصة الأرض المقدسة، وحوى الجزء الأخير أمثلة كثيرة تعلقت بالجيش وبالاحتياطات المتوجب اتخاذها أثناء الحرب، وجاء في النهاية عرض لقانون ملوك القدس.

ويساعد كل ما تقدم على المحافظة على البلاد، أكثر مما يساعد على الاستيلاء عليها، وأبحاث الكتاب أبحاث طويلة ومسهبة جداً، مما دفعنا إلى عدم تفحصها كلها، ومهما يكن الحال، الذي نراه هو أن الأسلوب أسلوب جيد، وجدير بالثناء.

أسرار الصليبيين الحقيقين

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي

آمين

مـذكـرة مرفـوعـة إلى جـلالة الملك، بكل احترام وخضـوع، من قبل مـارينو سانتـو، المعروف بلقـب تورسيللو، من البندقية، الذي قـدم إلى جلالتكم الكتب والمصورات الأرضية من أجل احتلال الأرض المقدسة والمحـافظة عليهـا مع المناطق المجـاورة لها، وهو يقـول: إنه لن يكون لجلالتكم مجد من جـراء الاستيلاء على العـالم ونيل الفـردوس، أدنى مما ناله الاسكندر الذي استولى على العـالم، ويمكن أن يتم لكم ذلك باتباع الترتيب التالي، والطريقة الموضحة فيمايلي:

أولاً: على جلالتكم الشروع برحلة عبور البحر، وفق الطريقة المعدة، أو وفق أية طريقة قد تروق لجلالتكم، وإذا ما تعذر تنفيذ ذلك فوراً مع عـدد كبير من الناس، فليكن ذلـك — على الأقل — بوسـاطة عشرة غلايين، كل غليون منها مشحون بمائتين وخمسين رجلاً، للتحكم بالبحر ومـراقبته، وثلاثمائـة فارس، وألف من الرجـالة الشجعان للحفـاظ على بلاد أرمينيـا، ذلك أنه سيكون أذى عظيماً وعـاراً كبيراً على المسيحيـة كلها، إذا ضاعت تلك البلاد.

ثانياً : ينبغي إعداد ترتيبـات مع قداسة البابا كي يرسل مـوفدين من قبله، مع مبعـوثين من قبلكم إلى جميع البلدان المسيحية،لإبلاغهـا أنه إذا مـا توجب الاحتفـاظ بالأرض المقـدسـة تحت السلطة المسيحيـة، فإنه مطلوب من كل بلـد منهـا الاسهـام، وسـوف يخصص لكـل بلد منهـا نصيب من البلاد بقدر ما كان قد ساهم به، وجميع المكاسب التي سوف تتجمع من جـراء ذلك، سـوف توضع في مكان آمن ومضمـون، ولا

يصرف شيء منها، إلاّ لتمويل العبور المقدس.

ثالثاً : حبذا لو تلطفت جلالتكم بعقد ميثاق صداقة مع دوج البندقية وحكومتها.

رابعاً : وأتمنى أن تعينوا من قبلكم قائداً للجيوش، ممن ترونه لائقاً، على شرط اتباع الترتيبات الموضوعة في الكتب التي رفعتها إلى جلالتكم، وإذا ما أنجزت — بعون الرب — جلالتكم هذه الترتيبات، فإنني أعتقد أن الملك روبرت، والملك فردريك صاحب صقلية، وامبراطور القسطنطينية سيكونوا طائعين لكم في كل ما هو معقول، وبهذه الطريقة ستتمكنون من احتلال الأرض المقدسة والبلدان المجاورة لها، لابل كل ما بقي من العالم لن يستطيع الصمود أمام جلالتكم، ويمكنكم التأكد من هذا كله من خلال الكتب ومصورات الأرض المشار إليها من قبل.

وبخصوص البند الأول، إنه إذا ما اعترض معترض وقال بأن القوة المسلحة سوف تكون ضئيلة جداً، فإن مارينو سانوتو يجيب بأن تلك سوف تكون — بعون الرب — كافية للقيام بهذه المهمة، لأنها سوف تجد في قبرص وفي رودس وفي غيرهما من جزر اليونان نحو عشرة غلايين جيدة التسليح سوف تنضم إلى أسطولكم، فضلاً عن هذا، يمكن للجزر المذكورة تجهيز عشرة غلايين أخرى في زمن وجيز، ويضاف إلى هذا، إنه غالباً ما يوجد في ذلك الجزء من البحر عدد من السفن العائدة للتجار، من الممكن الاستعانة بها لا يقل عن عشر سفن منها، شريطة التحكم بالبحر بشكل جيد، بعون الرب.

أما جزيرتا قبرص ورودس فيمكنهما بيسر تأمين ثلاثمائة وخمسين فارساً، يتولون بلا انقطاع حماية منطقة أرمينيا، وعندما سيسمع المسيحيون بالأمر، فإن عدداً كبيراً منهم سوف يهبون لتقديم العون

والنجدات.

وهكذا نجد بشكل منطقي أن بلاد أرمينيا وقبرص ورودس وغيرها من جزر البحر، ستنال حراسة كافية، وبذلك سوف تتضاءل كثيراً موارد السلطان ولسوف يلحقه ضرر عظيم من جراء ذلك، وستجد الشعوب المسيحية القانطة من رؤية أي عمل مفيد، تشجيعاً كبيراً، ولسوف تتبرع بما لديها بسخاء أعظم للتفريج عن الأرض المقدسة ومساعدتها، وإذا لم تتم المبادرة باتخاذ إجراء سريع وفعال، سوف يلحق الشعوب المسيحية اليأس، وسيحدق بالمسيحية كلها خطر عظيم، وخاصة بالمسيحيين القاطنين في تلك البقعة من البحر إذا لم تبادر جلالتكم(*) فتتلطف بتقديم العون وسبل الخلاص.

* — يرجح أن هذا الخطاب قد رفع إلى فيليب الجميل ملك فرنسا.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

هناك في الوقت الحالي ثلاثة إجراءات ملحة لصالح المسيحية هي:

١ — المحافظة على منطقة أرمينيا.

٢ — إحـداث تنظيم على الأرض وفي البحـر بشكـل دائم لليـوم وللمستقبل، والقيام بملاحقة المخالفين. وتعيين مشرفين لهذه الغاية.

٣ — شحن غلايين لمراقبـة البحر، مع وجـوب تطبيق عملها حسبما هو موضح ضمن هذا الكتاب.

وقـد يسأل سائل:«كم من الجند سـوف يلزم للحفاظ على أرمينيـا»؟ وله أجيب باحترام، أنا مـارينو سـانـوتو، المعـروف بلقب تورسيللو من البندقية قائلاً: إنه يلزم للحفاظ عليها ثلاثمائة فارس وألف من الرجالة، وعشرة غلايين، جيـدة التجهيز، تموها الكنيسة الرومـانية بالاشتراك مع مملكة قبرص وجزيـرة رودس، وجزر بلاد الاغريق، لأنه إذا مـا تأمنت الحراسـة البحرية بـوساطة الغـلايين المذكـورة، وغيرها من أنواع السفن التي تكـون هنا وهناك، ســوف يكون بـإمكان مملكة قبرص أن تـؤمن باستمـرار إرســال الامـدادات إلى أرمينيـا، هذا وفيما يتعلق بفــرســان الاسبتـارية، إنه بسبب إنخفـاض النفقــات التي تقتضيهـا حماية جـزيرة رودس ، وبسبب الامـدادات المرسلة من قبرص ومن أرمينيـا، يمكنهم بيسر تأمين نفقـات مـائـة وخمسين فـارسـاً مـن المجهـزين للذهاب إلى أرمينيـا، وسوف يبـادر العـديد من الكاثوليك من بلدان عـدة — لدى سماعهم بالعون الذي تقـدمه الكنيسة — إلى المسـاهمة، وكذلك سيفعل الأرمن حسب إمكاناتهم، ذلك أنهم سيتوقفون وقتها عن دفع الجزية إلى

السلطان، ويسخـرون من جهة أخـرى إمكاناتهم لتجهيز جيش خـاص بهم.

ومن الممكن عقـد آمـال عـاليـة — دون الخشيـة من الانتكاسـة — بالحصـول على موافقة التتـار، ومساعـدة الذين يحكمون في بـلاد فارس وفي بلاد الكلدانيين، حتى وإن كـانوا بغـالبيتهم من أتباع تلك العقيـدة المنبوذة، ذلك أن المرجح هو تطلعهم أولاً إلى ما هو مفيد لصالحهم قبل صالح الآخرين.

وللوصـول إلى غـاية هذا كلـه، سـوف تتكلف الكنيسـة مبلغ مـائـة وخمسين ألف فلورين ذهبي، وبالمقـابل سـوف يلحق بالسلطان خسـارة سنوية مقـــدارهامليـون فلوريـن ذهبي، فضـلاً عن بقيـــة الأضرار التي سـوف يتحملهـا هو والشعـوب التـي تحت سيطرته، شريطة أن تستمـر الكنيسة بملاحقة المخالفين بوساطة المشرفين التي تولت تعيينهم.

وإذا ما سئلت لماذا يقـوم سلطان مصر بشن هذا العـدد من الحملات ضـد منطقة أرمينيـا، طالما أنه يتسلم من الأرمن جزية أعظم من المبـالغ التي يجبيها من مملكته ومن الخاضعين لـه، فضلاً عن أن هذه الحملات، تستدعي الكثير من النفقات؟ أجيب إن لذلك أسباب ثلاثة:

أولها : إنه بعمله هذا يقوم بتحويل طريق التجارة التي كانت تمر عبر أرمينيا إلى أراضيه.

وثانيهـا : هو أن أرمينيا تقع فيها بين تركيـا المدعـوة بآسيا الصغـرى، وبين الأراضي الخاضعة للسلطان، فإذا ما استولى عليها سوف تتضاعف قـــدرته وإمكانات الأتراك وغيرهـم من المسلمين الموجـــودين في بلدان مجاورة، ويجعله هذا يضمـــن أن بمقـــدوره الوقـــوف في وجـــه التتـــار، المتسلطين على بلاد فارس وبلاد الكلدانيين، ولهذا السبب حاول العديد من المسلمين مراراً توحيـد كلمتهم، وقد ساعـدهم في ذلك بعض التتار

مع بعض الأرمن.

وثالثها: الرغبة في تدمير قوى المسيحيين الموجودين في الجزء المقابل من البحر، فإذا لم نبادر ونتخذ أسباب الحيطة، فإن أرمينيا لن تتمكن من البقاء طويلاً تحت سلطان المسيحيين، ولن تكون الوحيدة في مواجهة هذا المصير، بل ستتعرض للمخاطر نفسها قبرص ورودس وما تبقى من جزر بيزنطة.

وإذا ما حدث — لا سمح الرب — وتحالف — كما هو متوقع — السلطان والأتراك فإنهم سينالون العون من التتار الذين يحكمون بلاد الخزر(القبيلة الذهبية) وغيرها من المناطق الجنوبية، ذلك أن إرادتهم اليوم غير موحدة، ومع ذلك يخشى أن يتبدل حالهم في المستقبل، لهذا نتمنى على قداستكم إيجاد العلاج المناسب الذي ترونه.

الألقاب التي تطلقها رعايا السلطان عليه

السلطان الأعظم، السيد الأجل، السلطان الناصر، الشاهنشاه، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، سلطان الاسلام والمسلمين، فلان الدنيا والدين، مبيد الطغاة والبغاة والكفار، ولي أمير المؤمنين، سلطان العرب والعجم والترك، فاتح الأقطار، وهازم جيوش التتار، اسكندر الزمان، ومولى الاحسان، ملك البحرين، مملّك أصحاب المنابر والأسرة والتيجان، سيد الملوك والسلاطين محمد ابن السلطان الملكي، سلطان البسيطة، السلطان الملك قلاوون».

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي
آمين

أول رسالة كتاب الأسرار للحفاظ على المؤمنين، ولطرد الكفرة ولاضمحلالهم، وللعمل كذلك من أجل استرداد الأرض المقدسة، والمحافظة عليها، هي وغيرها من المناطق، وإبقاء الجميع بسلام وأمان.

إلى قداسة مولانا البابا، الحبر الأعظم للكنيسة المسكونية الرومانية، من مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، الذي هو من مدينة البندقية، ومن منطقة سينت سيفرو، من أعمال البندقية.

بعد لثم قدميكم المقدستين بتواضع واحترام.

في سبيل مجد الرب القدير، وإكراماً لمولانا يسوع المسيح، ومن أجل إعلاء شأن الايمان المسيحي، قد أخذت على عاتقي القيام بعمل شاق، وقد سهرت الليالي الطوال كي أعثر على سبيل يقود إلى استرداد أرض الميعاد المقدسة، والحفاظ عليها، بشكل أعظم ضماناً من الماضي، ففي تلك الأرض جرى خلق العالم، وفيها كان خلاصه حسبما جاء في الكتابات المقدسة، ففي الخليل(حبرون) تكوّن آدم، الأب الأول للبشر، وفي القدس صلب الرب لفداء العبد والبريء بدلاً من المذنب، وبدّل الرب الطينة، وهناك أيضاً كما ذكر يوئيل قول الرب :«أجمع كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهوشافاط، وأحاكمهم» [يوئيل : ٣ / ٢].

ومرد هذا كله محبة الأرض المقدسة في كل قلب لامس شغافه حب الرب وحب موطنه، واسترداده وزيارته، وخير الرب وجلالته واحترامه، والخوف والرعشة الدنيوية، وأداء الحساب الأخير.

لأول عشق سحر خاص وجاذبية، وهكذ يبحث المولود حديثاً عن أمه وعن ثدييها، وكذلك ترجع الأنهار إلى البحار، أي إلى حيث

خرجت، وأيضـاً يجذب المغناطيس، لأن في المغناطيس طاقـة تجذبه دوماً إلى القطب الذي جاءت منه بدايته.

ومثل هذا لا يستطيع المؤمن صم أذنيه لدى سماعـه الرب وهو يقول ليعقـــوب:«قـم اخـــرج من هـذه الأرض وارجـع إلى أرض ميـلادك»[خـروج:٣١ / ١٣]، فبـدلاً عـن ذلك عـادت إلى هناك تلك الأمة الآثمـة المفسدة، التي لم توجه قلـوبها قط نحو الرب، ولا أسلمت إليه عقولها، بل مثل الصل، أصمت آذانها.

ويتـوجب الآن على المسيحيين الحاليين التحـرك بـدافع العـرفـان للمخلص وإكرامـاً له، فهو الذي صعـد على الصليب، مثلما يصعد على سفينة، وكان قد أوضح للذين فـداهم بدمه ضرورة حمل الصليب ذلك أنه هو الذي قال:«من لا يحمل صليبـة ويتبعني ليس جديراً أن يكون لي حـوارياً»، ولهذا عندمـا صعـد إلى السفينة(لحقـه حـواريوه) وكـان ذلك صـورة ورمزاً ليسـوع الذي صعـد السفينة، ثم ذهب إلى مدينتـه(حسبما سيأتي في الفصل الثـاني)، وهكذا لن نتمكن من الذهاب إلى تلك المدينة إلاّ على سفينة الصليب، والخوف والرعشـة من الحساب الصـارم سوف تخيم علينا عندما يأتي الديان غاضبـاً، وعندما يأتي يكون كل شيء أمامه مكشوفاً ومعـرى بما في ذلك القدس حيث قال:«ويكون في ذلك الوقت أني أفتش أورشليم بالسرج»[صفنيا : ١ / ١٢]، فهل يا ترى سيبقى أي شيء مغطى في مصر، عندما يفتش الرب بسرجـه كل شيء في القدس،؟ ولسوف يدعو صوت الملاك جميع الخلق إلى وادي شعفاط منادياً:«قوموا أيها الموتى، وهلمـوا إلى الحســاب»، فلنبــادر بالذهاب إلى هناك، إمــا شخصياً، أو بالمساهمة بما نتبرع به، ومن الأفضل أن نمضي إلى هناك قبل أن نسبق، ولنبذل قصارى جهدنا للحصول على قطعة من تلك الأرض، إما بالحرب، أو بالمال، حتى لا نكون يوم القيامة ضيوفاً وغرباء بل من سكان بيت الرب وأتبـاع القديسين، لأنه كما قـال زكريا:«من لا يصعـد

من قبـائل الأرض إلى أورشليم ليسجـد للملك رب الجنود، لا يكون عليهم مطر»[زكريا : ١٤ / ١٧].

وبالنسبة لي لقد أثارتني هذه الأمـور، فكان أن عمدت إلى كتابة هذه الرسـالة حول أرض الميعـاد المقـدسة، ونسقـت كتبها ورتبت أجـزاءها لأرفعها إلى صاحب الكرسي الرسـولي المقدس، حتى ينظر إلى محتوياتها، ويستـدرك مـا فيهـا من نقـائـص ويصلحهـا عند الضرورة، ويقـرر مـا سيكون نافعاً لمجد الرب، ولمجد كنيسته المقدسة.

وإكراماً للثـالوث الأقدس قمت بتقسيم هذه الرسالة إلى ثلاثة كتب، لأنه عندما يكون الجسم عليلاً يعطى ثلاث وصفات سريعاً:

١ — بلسم لتحسين أوضـاعه، لأن الدواء لا يعطي مفعـولاً، إلا إذا كانت استعدادات المريض موائمة.

٢ — الدواء الموائم، لإزالة المرض، وإعادة الصحة.

٣ — وللمحافظة على الصحة يعطى راتباً غـذائياً موائماً، يتجنب فيه كل ما هو مضر حتى وإن كـان شهياً، ذلك أن علينا اختيار مـا هو مفيد للصحة حتى وإن كان مراً.

وبناء عليـه يحتوي الكتـاب الأول على نوع من الشراب، أي على مـا يلزم لتحـرير الأرض المقدسـة ومعـالجة أمورها، ذلك أنها رازحـة منذ زمن طويل كـالسقيم المقعد تحت سلطان شعب فـاسد، ويقـود الكتاب الثاني إلى الصحة، وإلى التحرر التام، وأما الكتاب الثالث، فهو يرشد إلى كيفية العمل للمحافظة عليها حتى لا تقع مجدداً تحت حكم الكفار،

والكتب مقسمة بدورها إلى أقسـام عامة، تسهل استيعـاب مضمونها بسرعة وإيجاز، ومثل هذه الأقسام مجزأة إلى فصـول تساعد على فهم كل موضوع يجري بحثـه بوضوح وبدقة، وهكذا نجوز مما هـو شامل إلى ما

- ٣٤٧٠ -

هو مفصل، أمـا محتـوى تلك الكتب والأقسام، والفصـول فقـد رتبناها كمايلي:

الكتاب الأول حول مشروع الأرض المقدسة

ويحتوي على الاجراءات والاستعدادات المتوجبة لاسترداد الأرض المقدسة، وهو في خمسة أقسام:

القسم الأول: ويشتمل على طرق إضعاف قدرة السلطان، وتبيان كيف أن باستطاعة المؤمنين بالمسيح الحصول على المنتجات اللازمة دون الاضطرار إلى الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، وتقدير للأذى العظيم وللأضرار الكبيرة التي سيتكبدها الكفار أتباع السلطان، إذا توقف التعامل البحري معهم، وهذا القسم في ستة فصول:

الفصل الأول: تبيان للأرباح التي يجنيها السلطان وشعبه من المنتجات القادمة من الهند، مع أسماء المراسي إلى حيث تشحن تلك المنتجات، وكيفية تحويلها عن المناطق الخاضعة لنفوذ السلطان.

الفصل الثاني : إيضاح كيف أن المنتجات التي نحتاجها، والقادمة إلينا من بلاد السلطان، يمكن الحصول عليها من بلاد المسيحيين.

الفصل الثالث: تبيان طريقة لمنع عبور الأفاوية والكتان والقنب والأقمشة المنسوجة، من مصر إلى البحر المتوسط فأوربا، ذلك أن الإتجار بها يعود بأرباح كبيرة على السلطان وعلى الشعب الخاضع له.

الفصل الرابع : ذكر للأضرار التي سوف تلم بالسلطان وبالشعب الخاضع له في حال إيقاف تصدير الذهب والفضة والحديد وبقية أنواع المعادن وغير ذلك من المنتجات إليهم.

الفصل الخامس: تبيان للخسائر الفادحة وللنفقات الكبيرة التي ستتوجب على السلطان وتنزل به إذا أُوقف تصدير المواد الغذائية، والمنتجات المتنوعة، من بلاد المسيحيين إلى بلاده.

الفصل الســـادس : وصف بلاد مصر، وتبيـــان الضرر العظيم الذي ســـوف يلم بمصر إذا مـــا انقطعت عنهـــا السفن مع بـاقي الأصناف المحتاجة للملاحة البحرية.

القسم الثـاني: ذكـر كيف أن أحـدى المناطق الخاضعـة للسلطان قـد تعرضت للضعف، وهو في فصلين:

الفصل الأول: شرح كيف تضـاءلت ثروة إحـــدى المناطق الخاضعـة للسلطان، والمعني بذلك المنطقة الواقعـة خلف البادية وكذلك في بعض أرجاء سورية.

الفصل الثـاني : يوضح كيف أن عـــدد السكان وخـاصـــة الرجـال المقاتلين، قد تضاءل في الأراضي الخاضعة للسطان .

القسم الثالث: ذكر للبضائع التي يحتاجها المسلمون، والتي لا بد لهم من الحصول عليها من الخارج، ويقع هذا في فصلين:

الفصل الأول: الأسبـاب الداعيـة لمنع تصـديـر السفن وباقي اللوازم المحتاجة للملاحة إلى المسلمين في مصر.

الفصل الثاني: تبيان للطـرق والاجراءات التي يتخذهـا المسلمون في مصر للمحـامـاة عن منطقتهم، ولكي يحصلوا من البلدان الأخـرى على الغلمان والجواري.

القسم الرابع: وجوب إيجاد إجراء للمقاطعة أنفع من الاجراء الحالي، وكيفية إعـداد الغلايين اللازمة للدفـاع عن المسيحيين الساكنين في تلك المناطق من البحـر، وبالوقت نفسـه لتدمير المسلمين، وكيفيـة العمل لمنع أية أعمال تجارية على الإطلاق مع البـلاد الخاضعـة للسلطان عبر البحـر المتوسط، ويحتوي هذا القسم على سبعة فصول:

الفصل الأول : لماذا يتـــوجـب منع أي اتجار مع المسلمين الخاضعين

للسلطان من دون استثناء، أو اتصال بهم، أو سفر إلى بلادهم.

الفصل الثاني: لماذا يتوجب على جميع المسيحيين مطاردة المخالفين لأوامر الكنيسة في هذا المجال، في كل مكان، وليس فقط في البحر بل وفي البر.

الفصل الثالث : وجوب إغلاق الطرق في وجه البضائع التي اعتاد التجار على نقلها من الأراضي التابعة للسلطان، عبر أفريقيا كلها، ثم عبر الأندلس حيث يقيم المسلمون.

الفصل الرابع: أسباب وجوب أن يشمل هذا الحظر حتى الشمال من نهر سيحان حتى آني Annia .

الفصل الخامس: الأسباب المسوغة لمنع أي مسيحي من شراء أية بضائع مجلوبة من البلدان الخاضعة للسلطان، مهما كانت الطرق التي جاءت منها.

الفصل السادس: العقوبات المتوجب إنزالها بالأمراء وبحكام المناطق وبالجماعات التي لا تلتزم بهذه الإجراءات، فتستقبل تلك البضائع في مراسيها، أو في أراضيها.

الفصل السابع : مراقبة البحر وحراسته، وكيفية تأهيل الجهاز الأمني الأول للمسيحيين — أي الجيش — للحرب، ومقدار التكاليف.

القسم الخامس: الأسباب المسوغة لتوجب يقظة الكنيسة في هذا المجال وهو في ثلاثة فصول :

الفصل الأول: الحث على متابعة تنفيذ هذا المشروع بعد الإقلاع به مباشرة.

الفصل الثاني: التوجه بشكل ملح بنداء نحو المسيحيين في البلدان الأوربية وطلب النجدة منهم ومن زعمائهم وملوكهم.

الفصل الثالث: خاتمة فيها خلاصة كل ما ورد في الكتاب الأول.

بدايةالكتاب الثاني من هذه الرسالة.

ويحتوي على الطرق الواجب اتخاذها والوسائل

المتوجب استخدامها لاسترداد الأرض المقدسة

وهو في أربعة أقسام

القسم الأول : تنظيم الجيش المسيحي الثـاني وشكله، وهو في أربعـة فصول:

الفصل الأول : وجـوب وجـود قبطان واحـد، مـع المؤهلات التي ينبغي توفرها فيه، وعدد معاونيه والأماكن المتوجب عليه الرسو فيها.

الفصل الثاني : الدولة البحرية الأكثر مواءمة لتنفيذ هذا المشروع.

الفصل الثالث: الإعداد للإبحـار، والتجهيزات الواجب تهيئتهـا من أجل عبـور مجمـوعـة من الجنود، وتحضير الامـدادات، وسبل اكتسـاب صداقة التتار.

الفصل الرابع: كمية النفقات اللازمة لجيش قوامه خمسة عشر ألفاً من الرجالة وثلاثمائة من الفرسان، والعطاء الواجب أن يؤمن لهم.

القسم الثاني: تحديد الطرق التي يرى بعضهم أنها أكثر مواءمة ليركبها الجيش تحت راية الكنيسـة، وتسميـة أفضل طريق بحـرية للوصـول إلى مصر، وهو في عشرة فصول.

الفصل الأول : في أنه لا يجوز أن تسلك راية الكنيسة طريق البر.

الفصل الثاني : ردّ رأي القائلين بوجـوب رفع هذه الراية على أرض أرمينيا أو سورية أو القدس في الأرض المقدسة، أولاً.

الفصل الثالث: رفض رأي القائلين بوجوب الإنزال البحري في قبرص، أولاً.

الفصل الرابع: التحصينات وملحقاتها، وحديث حول التفكير الدأوب لدى البابا ولدى أخوانه بشأن حشد هذا الجيش من رعيته ومن المؤمنين بغية ضمان التحصينات، والذي تم في الماضي للاستيلاء على تلك التحصينات، وما ينبغي الآن القيام به للغاية نفسها.

الفصل الخامس: مثل رمزي يتعلق بشجرة يتوجب اقتلاعها، وما هو متعلق بها، وبالينابيع التي ترويها، وبالثمار التي تعطيها وتنتجها، وحول الذين يذهبون لشراء ثمارها، وكذلك حول الأمراء الأتقياء الذين لم يريدوا ولا أرادوا ومازالوا يريدون اقتلاعها، وحول ما تمّ ويمكن أن يتم بهذا الشأن.

الفصل السادس: حديث حول التحصينات وما لف لفها.

الفصل السابع: حديث حول الشجرة وتوابعها.

الفصل الثامن: ضرب مثل فيه برهان على ضرورة محاربة المسلمين في مصر، إذا ما أردنا استرداد الأرض المقدسة، وهو برهان مقتبس مما جرى بين أهل البندقية، والسيد بطريرك أكويلا أثناء الخلاف حول النمسا.

الفصل التاسع: سوق برهان آخر باهر، صدوراً مما حدث في مصر أيام القديس ملك فرنسا، وفي أيام اثنين من ملوك القدس اللاتين.

الفصل العاشر: الذي ينتظره الذين يطبقون — بعون يسوع المسيح — تدابير هذه التوصية.

القسم الثالث: بناء سور أمني في مصر البحرية، واختبار تطبيقي للقدرة على محاربة المسلمين، وهو في أربعة فصول.

الفصل الأول: حـول الوسيلـة التي يستطيع المسيحيـون بوسـاطتهـا الاستمرار في تحصينات مصر البحـرية، وذلك وفقاً لما قـامت به البندقية التي تمكنت من الصمود في وجـه الغالبين حين زحفوا ضـدها، وكذلك في وجه الأفارقة والقبارصة وأتيلا، واللومبارد، وسواهم.

الفصل الثاني: حول الاستعدادات التي يمكـن للمسيحيين بوساطتها حماية أنفسهم في مصر، ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة.

الفصل الثـالث: كيف يمكن للصليبيين أن يزعـزعـوا أركـان مصر، ضرب مثل بما تمكن من صنعــه البنادقـة وأصحــاب المدن، والأمـاكن القائمة على مستنقعات وعلى أنهار.

الفصل الرابع: جواب مقنع لما قد يثار من شكوك.

القسم الرابع: ويدور حول الخطة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكن حدوثهـا في حال نشوب المعـارك وما يتعلق بها، وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقـدسـة بنجاح، وفيـه إيضـاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض، وفيه تسع وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: مـا يثار من اعتراضـات حول قـدرة الجيش المسيحي، وحول العـوائق المفترضة، التي قـد تحول بينه وبين الوصـول إلى النتيجة المتوخاة، وجواب منطقي لتلك الاعتراضات.

الفصل الثاني : بعض الحجج حول إمكانيـة أن يهاجم السلطان من جهة النيل، والإجابة لهذه الحجج.

الفصل الثـالث: المثل الذي ضربه قـورش ملك الفـرس، ووثائق الجيش الصليبي.

الفصل الرابع: التساؤل عما إذا كـان عدد المراكب التي عند المسلمين

على النيل يمكنها مقاومة جيش الصليبيين، وإيجاد حل لهذه المشكلة.

الفصل الخامس : حول المؤن والدفاع وتجهيز سفن الجيش الصليبي.

الفصل السادس : ما يفترض أن تكون عليه السفن حتى تكون صالحة لعبور البحر، وتحقيق مشروع مصر بنجاح.

الفصل السابع: حول السفن المؤهلة لنقل الامدادات وباقي الأشياء المناسبة للجيش سواء عن طريق البحار، أو عن طريق الأنهار، وحول كيفية الملاحة في المياه العذبة، وحول ما هو أكثر فائدة لإنجاز المشروع المذكور.

الفصل الثامن : أصناف الأسلحة وتعدد أشكالها من دفاعية وهجومية، وذلك مما يحتاجه الجيش الصليبي.

الفصل التاسع: كيف يقوم القبطان بتنظيم عناصر ذلك الجيش، وكيفية توزيع المؤن عليها، حتى يسير كل شيء بنظام وبوئام.

الفصل العاشر: كميات الميرة، والطرق المتبعة لدى أهل البندقية لتوزيع الميرة على العاملين في غلايينهم، وعدد الأفراد المستخدمين، والزمن،والوزن، والعيارات، والمقاييس، وكل ما يناسب منطقياً إكماله.

الفصل الحادي عشر: عدد الغلايين التي يحتاجها الجيش الصليبي، وأشكالها، في أعماله البحرية لكي يستولي على بلاد مصر، وكيف على القبطان التصرف لإنجاح ذلك.

الفصل الثاني عشر: الأسلوب الفني المتبع لصناعة الأدوات للملاحة، والزمن المحتاج، والترتيب المأخوذ به لحفظها ولتكون أسرع وخاصة المجاذيف.

الفصل الثالث عشر: حول أنواع باقي السفن التي يحتاجها الجيش الصليبي لنقل الميرة وبقية أشكال المواد اللازمة للصليبيين الذين

سيعبرون البحر فيها بعد، وحول الأماكن وأسمائها وعددها، والترتيب الواجب اتباعه لإيصال الميرة، وحول الأماكن التي يتوفر وجودها، أو يمكن الحصول عليها. وفي هذا الفصل إيضاح أن السفن العائدة للكنيسة الرومانية المقدسة لاتناسب ولا تفيد.

الفصل الرابع عشر: إيضاح كيف أنه للا بحار إلى مصر ينبغي توفر رؤية جيدة، ومناخ مناسب، وإيضاح لفوائد مناخ مصر وكثرة المياه فيها.

الفصل الخامس عشر: المواصفات المطلوبة من الأشخاص الذين يمكن للكنيسة الرومانية المقدسة أن تتعاقد معهم لقاء عطاء، حتى يتحقق هذا المشروع.

الفصل السادس عشر: حول شكل تبديل عناصر الجيش وطريقة ذلك، وحول المشافي للمرضى، وكيف ينبغي تأمين كل شيء سلفاً، وحول النساء المتزوجات المرافقات لرجالهن، وحول شؤون الأرامل والورثة وغير ذلك من الأمور الواجب أخذها بعين التقدير.

الفصل السابع عشر : حول المناطق الأماكن التي يمكن أن يتوفر بها ملاحون مهرة للملاحة في المياه العذبة مثلما في البحار.

الفصل الثامن عشر: حول الملاحين القاطنين في الشطر الآخر من ألمانيا، وهم من حيث المبدأ صالحون لإعطاء إرشاداتهم، ومفيدون في الإسهام في إنجاح الحملة .

الفصل التاسع عشر: حول التبشير من أجل حملة صليبية عامة، وأنواع العساكر اللازمين لاحتلال مصر.

الفصل العشرون: حول عدد الرجال اللازمين لكل غليون، لتأمين الحماية الموائمة له، ووظائف هؤلاء الرجال، وأعمالهم، والمرتبات،

والوقت، ونفقات الأطعمة اللازمة لثلاثمائة فارس وأجورهم.

الفصل الحادي والعشرون: إيضاحات وتنبيهات، وأوامر، وإجراءات احتياطية متعلقة بذلك الجيش.

الفصل الثاني والعشرون: حول صناعة الأعتدة، والأسلحة، وخاصة آلات الرمي، والمقذوفات، وكل ما من شأنه تطوير تلك الأسلحة.

الفصل الثالث والعشرون: كيف يمكن للمأجورين من قبل الكنيسة الأم المقدسة، القيام، بعد نزولهم على شواطىء مصر البحرية، بإرباك المنشقين والمسلمين بوساطة غلايينهم، وتكبيدهم الأضرار الكبيرة والخسائر الفادحة، وذلك قبل وصول جحافل الصليبيين.

الفصل الرابع والعشرون : إعدادات متقدمة وتنظيمات واحتياطات موائمة تماماً تتعلق بالأسطول البحري.

الفصل الخامس والعشرون : وصف المناطق البحرية الخاضعة للسلطان وأسماء الشواطىء والمراسي البحرية، والجزر، والفوارق بين مكان وآخر مع وصف للشواطىء التونسية التي هي امتداد بحري لها.

الفصل السادس والعشرون : وصف للمناطق البحرية الواقعة تحت سيطرة أرمينيا وصولاً إلى المناطق الخاضعة للسلطان، وكذلك المناطق التابعة لتركيا من جهة الشمال.

الفصل السابع والعشرون : حول دور الصليبيين المأجورين من قبل الكنيسة الرومانية المقدسة، لدى نزول الجيش المسيحي على الشاطىء المصري،وحول ضرورة الاستيلاء على نهر النيل، وتبيان لكيفية الاستيلاء على جزيرة رشيد، وكم ينبغي أن يبلغ تعداد أولئك الصليبيين، وفيه إيضاح على أن من المتوقع منطقياً اضطرار المسلمين إلى التخلي عن أرض مصر للمسيحيين.

الفصل الثامن والعشرون: أسئلة وأجوبة حول الاعتراضات المثارة ضد قدرة المسيحيين: أي هل سيستطيعون بعد إخضاع أرض مصر مجابهة قوات السلطان، لابل وقوات المسلمين جميعاً، ومن ثم متابعة العمل للاستيلاء على أرض القدس وسورية، وإيجاد حلول للمشاكل الناجمة عن مجاورة القدس وسورية، ووسائل اكتساب صداقة التتار.

الفصل التاسع والعشرون: مذكرة خاصة بالأمراء والأعيان الذين يفكرون بهدوء وعقلانية حول شؤون السلاح والحروب.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة

ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على

أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة

مطمئنة، وذلك بعد إخضاعها للسلطة المسيحية،

في سبيل مجد الرب وشرف الكنيسة الكاثوليكية

ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر قسماً

القسم الأول: حول الأمم المتعددة التي توالت على الحكم في الأرض المقدسة، ويتألف من أربعة عشر فصلاً.

الفصل الأول: تبيان الأسباب التي جعلت أرض الميعاد المقدسة عرضة لهجمات جميع الأمم، ولماذا حدث لأهلها أن نكبوا مراراً، وطردوا من أرضهم.

الفصل الثاني : كيف بدأ أبناء حام بزراعة أرض الميعاد، ولماذا طردوا منها.

الفصل الثالث: كيف زرع بنو إسرائيل المنحدرين من سام من خلال إبراهيم، لوض الميعاد، بعدما طردوا منها أبناء حام أو استبعدوهم.

الفصل الرابع: كيف كـان سلوك بنو إسرائيل في أيام القضاة الأربعـة عشر.

الفصل الخامس: كيف أخـذ الشعب ينصب لنفســه ملوكـاً، وكيف انقسمت المملكـة إلى مملكتين، مملكة يهوذا، ومملكة الأسبـــاط العشرة، ونهاية المملكة الثانية.

الفصل السادس: تطور مملكة يهوذا — أي القدس — ونهايتها.

الفصل السابع: مـوت إرميا وحـزقيـال، سبي من بقي من يهوذا إلى بابل، وكيف احتل قورش بابل.

الفصل الثامن: نهاية السبي، والعـودة أيام الكاهن يشـوع، والشروع بإعادة بناء الهيكل.

الفصل التاسع: أخبار يهوديت، وعزرا، ونحميا، وإستير ومآثرهم في أيام الكاهن الأعظم يواكيم إيليا، وفي أيام يهوذا.

الفصل العاشر: الضغينةا لتي أظهـرها الكاهن يوحنا ثم خلفه جـاد، وموت الاسكندر أيام أونيا، اضطهاد بطليموس لليهود، وترجمة الكتاب المقدس على يد السبعين مترجماً أيام الكاهن الأعظم أليعازر.

الفصل الحادي عشر: الخلافات بين اليهـود أيام أونيا، والحروب التي شنت عليهم من سـوريـة ومن مصر، واضطهـاد سلوقس وأنطيخـوس ملكي سـورية لليهـود، وخلع أونيـا ومــوته، وكـذلك أخبـار المكابيين وبطولاتهم.

الفصل الثاني عشر: عودة حكم الملوك إلى أرض الميعاد.

الفصل الثالث عشر: الجريمـة الفظيعــة التي اقترفهـا اليهــود لدى ملاحقتهم للمسيح ولرسله.

الفصل الرابع عشر: دمـار القـدس، وطرد اليهـود ونفيهم من تلك الديار على أيدي الرومان أبناء يافث.

القسم الثاني: بداية قيام الكنيسة الشرقية وهو في أربعة فصول.

الفصل الأول: البداية المجيدة للكنيسة الشرقية.

الفصل الثـاني: فتـور الحماس الأول في الكنيسـة، ومـا تبع ذلك من أحزان على يد كسرى.

الفصل الثالث: انتصار هرقل على كسرى.

الفصل الرابع: الاضطهـاد الاسـلامي للكنيسـة الشرقيـة، وتبيـان أوضاعها المقلقة حتى قدوم الحملـة الصليبية الأولى بقيادة غودفري دي بولليون، وبطرس الناسك، وهو في ثمانية فصول.

الفصل الأول: وقـوع هرقل في الهرطقـة، واحتـلال عمـر خليفـة محمد(ﷺ) للأرض المقدسة.

الفصل الثاني : بداية ظهور محمد(ﷺ) وكيفية استيلائه على البلدان.

الفصل الثالث:حياة محمد(ﷺ) وموته واقتسام إرثه.

الفصل السادس: حملة شارلمان للتفريج عن الأرض المقدسة.

الفصل السابع: رجوع شارلمان ومعه الآثار المقدسة.

الفصل الثـامن: تدهور أوضـاع أرض الميعـاد المقدسـة، لا سيما بعـد اندحار امبراطورية القسطنطينية.

القسم الرابع: حول النهضـة الرائعة لشعـوب الغرب من أجل تحرير الأرض المقدسة أيام بطرس الناسك، وهو في أربعة عشر فصلاً.

الفصل الأول: ابتهـال من القلب من أجل الخلاص، وبداية الخلاص

المؤمل.

الفصل الثاني: معاودة الاحتشاد بسرعة من أجل العبور إلى الأرض المقدسة.

الفصل الثالث: زيارة غالتيري Gualteri للقدس، ومواكبته حتى القسطنطينية.

الفصل الرابع : الحج الذي قاده بطرس الناس حتى القسطنطينية وضم حشداً كبيراً من الناس.

الفصل الخامس: أخبار الحجاج ومآثرهم أثناء وجودهم في الضفة الأخرى من بحر الروم المسمى ذراع القديس جرجس(البوسفور).

الفصل السادس : تدمير الحشود الفوضوية التي قادها إلى الحج الكاهن كاندسكوكو Condescauco.

الفصل السابع : الاخفاق التام للحشود الشعبية التي توجهت إلى الحج بدون أن يكون على رأسها قائد مسؤول.

الفصل الثامن: حج هيوج الكبير ووقوعه بالأسر، وكيف أن بوهيموند قد عزم على التوجه إلى الحج.

الفصل التاسع : حج غودفري دي بولليون، وإطلاق سراح هيوج الكبير.

الفصل العاشر: شجار بين الحجاج وبين امبراطور القسطنطينيةثم مصالحة.

الفصل الحادي عشر: زحف بوهيموند نحو القسطنطينية.

الفصل الثاني عشر: حملة كونت طولوز(صنجيل) مع أتباعه وما جرى له مع الامبراطور.

الفصل الثالث عشر: الاستيلاء على مدينة نيقية، ووصول بقية البارونات.

الفصل الرابع عشر: الانقسامات بين صفوف الحجاج وهجوم التركمان عليهم.

القسم الخامس: حول انتصارات الحجاج في مملكة القدس، والشقاقات بينهم حتى أيام الملوك، وهو في ثمانية فصول.

الفصل الأول: انتصارات تانكرد وبلدوين، اللذان وصلا قبل سواهما، ونشوب خلاف بينهما، ثم مصالحتهما.

الفصل الثاني: انتصارات ناجحة يحققها بلدوين في الشمال.

الفصل الثالث: زحف الجيش الأساسي ضد أنطاكية.

الفصل الرابع: وصف مدينة إنطاكية، وحصارها.

الفصل الخامس: التحصينات المتنوعة عند المهاجمين وعند المدافعين، والحملات المتبادلةبينهما.

الفصل السادس : سقوط إنطاكية، واكتشاف حربة المخلص التي طعن بها جنب المسيح، وهزيمة كربغا.

الفصل السابع: زحف الحجاج نحو القدس.

الفصل الثامن: حصار القدس وسقوطها.

القسم السادس : تحرير كامل الأرض المقدسة، وتطور مملكة القدس في أيام ملوكها اللاتين، وهو في أربعة وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: اختيار غودفري دي بولليون ملكاً على القدس، وغيرته على الدين.

الفصل الثاني: نصر وهبه الرب للحجاج على حشود لاتعد من الأمة الماكرة.

الفصل الثالث: عودة الحجاج وبقاء عدد ضئيل منهم، وشجاعة مدهشة في الاستيلاء على يافا، ورام الله، وغزة، وكيف حصل بطريرك القدس على ربع المدينة المقدسة.

الفصل الرابع: تتويج بلدوين الأول، والاستيلاء على أرسوف، وقيسارية، وانتصار مزدوج على المصريين، والاستيلاء على كل من طرطوس وعكا.

الفصل الخامس: وقائع وأحداث في كونتية الرها، وفي إمارة أنطاكية، وفي طبرية.

الفصل السادس: الاستيلاء على جبيل وعلى طرابلس، وعصيان بلدوين، وموت تانكرد، وبرترام.

الفصل السابع: نجاح جوسلين، وانتصار روجر على التركمان.

الفصل الثامن: بناء قلعة الشوبك، والحصن المسمى اسكندرون، وموت الملك.

الفصل التاسع: انتخاب بلدوين ملكاً.

الفصل العاشر: انتصار التركمان على الملك، ووقوعه بالأسر، وأسر الكونت جوسلين.

الفصل الحادي عشر: انتصارات على التركمان، ومعاهدة بين السريان وبين دوج البندقية.

الفصل الثاني عشر: وصف لأوضاع صور ولموقعها والاستيلاء عليها.

الفصل الثـالث عشر: إطلاق سراح الملك، وانتصـارات كبيرة على التركمان.

الفصل الرابع عشر: موت الملك بلدوين، وتنصيب فـولك ملكاً ثالثاً على القدس.

الفصل الخامس عشر: الموت المشرف لجوسلين، وانتصـار كبير للملك، وبناؤه الحصنين.

الفصل السـادس عشر: مـوت كـونت طـرابلس، وزحف امبراطور القسطنطينية نحو أنطاكية.

الفصل السـابع عشر: بعض الطرق التي سلكهـا الامبراطور ومـوته، والاستيلاء على مدينة بانياس.

الفصل الثامن عشر: الثناء على الملك فولـك وعلى انتصاراته، تنظيم المنطقة الساحلية كلها، وموت هذا الملك .

الفصل التاسع عشر: بعض مآثر الملك بلدوين الثـالث ملك القدس، وقدوم الامبراطور كونراد، والملك لويس ملك فرنسا، وإنجازاتهما.

الفصل العشرون: موت أمير أنطاكية وكونت طرابلس، وموت الملك بلدوين وحملات متكررة قام بها التركمان.

الفصل الحادي والعشرون: انتصار عمـوري على المصريين، والمعاهدة معهم ضد سلطان دمشق، وبعض مـا جرى في أنطاكية، واغتيـال خليفة مصر.

الفصل الثاني والعشرون: حصار كل من القاهرة ودمياط.

الفصل الثالث والعشرون: حماسة الملك عمـوري وغيرته على الملك، وكيف أراد الموارنة العودة إلى الإيمان الصحيح.

الفصل الرابع والعشرون: مـآثر الملك بلدويـن المجـذوم الذي نصب ملكاً سابعاً، وظروف الانشقاق من أجل تنصيب غي ملكاً ثامناً.

القسم السـابع : صـورة الأوضـاع المزدهرة في الأرض المقـدسـة أيام الملوك اللاتين، وهو يقع في ثلاثة فصول.

الفصل الأول: كيف أثمرت أرض الميعاد بأمراء وبيارونات.

الفصل الثاني: كيف أثمرت الأرض المقـدسة، أرض الميعـاد، برجال دين وبأساقفة، وتقديم وصف لمدينة القدس.

الفصل الثالث:كيف أثمرت الأرض المقدسـة، أرض الميعاد، برهبان، ومتقشفين وبنساك.

القسم الثامن: أسباب دمـار أرض الميعاد المقـدسة، وفقـدانها في أيام صلاح الدين، وفيه ستة فصول.

الفصل الأول: الطقوس الدينية لدى الروم السريان من سكان أرض الميعاد.

الفصل الثـاني: عـادات الذيـن يدعـون باسم البـوليسيين، وكـذلك الموارنة.

الفصل الثالث: الطقوس الدينية لدى الجورجيين والأرمن وعاداتهم.

الفصل الرابع: الطقوس الدينية لدى اليعاقبة والنساطرة والمستعربين.

الفصل الخامس: انحطاط أخلاق كثير مـن الغربيين الذين قـدموا إلى الأرض المقدسة.

الفصل السادس: تدهور أحوال رجال الدين والرهبان.

القسم التاسع: ضياع أرض الميعاد المقدسة في أيام صلاح الدين، وفيه ثمانية فصول.

الفصل الأول: عقاب الرب العادل الذي أنزله بالسكان الفاسدين في الأرض المقدسة.

الفصل الثاني: كونتية الرها، وأسر كونتها وحاكمها الشقي، وقلعة عرقة ومدينة بانياس.

الفصل الثالث: كيف تمكن صلاح الدين من التملك على مملكتين هما، مملكة مصر ومملكة دمشق.

الفصل الرابع: حظر مجمع اللاتيران لنقل الأسلحة وما شاكلها إلى المسلمين. مذبحة مروعة اقترفها صلاح الدين بحق الشعب الصليبي.

الفصل الخامس: ضياع المنطقة الساحلية بكاملها تقريباً.

الفصل السادس: خسارة كل من مدينتي القدس وعسقلان.

الفصل السابع: بكاء راثي لضياع مدينة القدس المقدسة.

الفصل الثامن: كيف حاصر صلاح الدين مدينة صور.

القسم العاشر: النجدات التي قدمت من البلدان الغربية إلى الأرض المقدسة، أيام صلاح الدين، وفيه تسعة فصول.،

الفصل الأول: ردات الفعل المدهشة التي عبر عنها الغربيون، واهتمام الحبرين الأعظمين بتنظيم حملة جديدة.

الفصل الثاني: سفر امبراطور روما، وموته[غرقاً]، وأيضاً حصار عكا من قبل غي ملك القدس.

الفصل الثالث: وصول نجدات إلى الصليبيين وإلى المسلمين سواء، ووقوع وقائع هائلة.

الفصل الرابع: وصول كل من ملكي فرنسا وإنكلترا، والاستيلاء

على مدينة عكا.

الفصل الخامس: الأوضاع البحرية في المنطقة، ونشوب خلافات مؤسفة بين الملكين المسيحيين، وعودة ملك فرنسا إلى بلاده.

الفصل السادس: خطة الحشد الصليبي لحصار القدس، ثم تراجعه عن متابعة تنفيذ المشروع، وإعادة بناء عسقلان، والطنطورة.

الفصل السابع: إعلان غي ملكاً على قبرص.

الفصل الثامن: عودة ملك إنكلترا نحو بلاده، وتتويج أول ملك على أرمينيا، حج الألمان، وموت صلاح الدين، والحكم في الأرض المقدسة حتى تسلمه من قبل عموري ملك قبرص.

الفصل التاسع: خلافات وانقسامات بين المسلمين، ونص اتفاقات الهدنة.

القسم الحادي عشر: حملات جديدة إلى الأرض المقدسة، شرح لأوضاعها وتقلب الأوضاع، وتداول الحكم فيها منذ وفاة صلاح الدين حتى صليبية القديس لويس، وفيه ستة عشر فصلاً.

الفصل الأول: انطلاق أعداد كبيرة من الصليبيين إلى الجانب الآخر من البحر، بفضل دعوة فولكون Fulcone.

الفصل الثاني: خرق الهدنة من قبل المسلمين.

الفصل الثالث: تمزقات داخل الجيش الصليبي، وإعادة النظر في الهدن. موت الملك عموري، وعقد مؤتمر من أجل زواج وارثة العرش.

الفصل الخامس: وصول جين دي بريين وتتويجه، وهجوم المسلمين على عكا وعلى من فيها من الصليبيين.

الفصل السادس : الحشد العام للعبور إلى عكا، والذي أنجز في أرض الميعاد.

الفصل السابع: حصار دمياط،و الصراع بين النائب البابوي والملك، ثم فقدان مدينة القدس المقدسة.

الفصل الثامن: الاستيلاء على دمياط، وسرعة الانغماس في الرذيلة والآثام.

الفصل التاسع: اشتباكات متفرقة، وخيبة الحشد الصليبي، وخسارة دمياط.

الفصل العاشر: قلق الحبر الأعظم واهتمامه مع الكرادلة بإرسال الامدادات إلى الأرض المقدسة، انتقال مملكة القدس إلى كونراد بن الامبراطور فردريك الثاني.

الفصل الحادي عشر: عبور الامبراطور على رأس قوة صغيرة، على الرغم من معارضة الكنيسة، والذي صنعه في قبرص.

الفصل الثاني عشر: أعمال الامبراطور في الأرض المقدسة، وتجديد الهدنة.

الفصل الثالث عشر: تقديم طلب إلى الامبراطور بإرسال ابنه كونراد إلى مملكة القدس. ونقل النائب الفاسد.

الفصل الرابع عشر: نقض المعاهدة المعقودة بين[أهل الأرض] وبين الامبراطور فردريك حول مملكة القدس.

الفصل الخامس عشر: عبور ملك نافار إلى الشرق، وإعادة النظر في بقية الهدن.

الفصل السادس عشر: عبور رتشارد دي كورنبي أيضاً، وانتقال ملك

مملكة القدس إلى أيدي الملكة إليزابث.

القسم الثاني عشر: القديس لويس وحملتيه، مشاكل متواصلة ومتنوعة في الأرض المقـدسـة، حتى طرد الصليبيين منهـا، وفيهـا اثنان وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: كيف حمل لويـس ملك فـرنسـا الصليـب، معـارك الصليبيين في الأرض المقدسة، ضياع القدس المدينة المقدسة.

الفصل الثاني: عبور الملك لويس واحتلاله لمدينة دمياط.

الفصل الثالث: وقوع الملك لويس بالأسر، وإعادة دمياط.

الفصل الرابع: أوضاع الأرض المقدسة يوم كان القديس هناك.

الفصل الخامس: خلافات بين أهل جنوى وأهل البندقية والبيازنة.

الفصل السادس: حروب التتار ضد المسلمين،وضد المسيحيين أيضاً.

الفصل السـابع: مطالبـة إليـزابث بمملكة القـدس من النائب هناك. تدمير بعض المناطق من قبل الصليبيين ومن قبل المسلمين.

الفصل الثـامن: حملات متفـرقـة لسلطان مصر ضـد الصليبيين، ومؤامرات متبادلة بين الجنويين وبين البنادقة.

الفصل التـاسع: حملات متفـرقـة من البنـدقـداري ضـد الصليبيين، وفقدان مدينة أنطاكية.

الفصل العاشر: عبور ملك فرنسـا، القديس لويس إلى تونس وموته. معاهدة فيما بين ملك صقلية وبين ملك تونس.

الفصل الحادي عشر: حملات البندقـداري ضـد الصليبيين، وكيف حرض الصليبيون التتار ضده، ومحاولة للتهادن غير موفقة.

الفصل الثاني عشر: مغادرة الأمير ادوارد للأرض المقدسة. إرسال بعض الامدادات من قبل الكنيسة ومن قبل ملك فرنسا، وحوادث متفرقة.

الفصل الثالث عشر: اهتمام مجمع ليون بإرسال حملة إلى الأرض المقدسة.

الفصل الرابع عشر: خلافات داخلية وخارجية بين المسيحيين في الغرب حول إرسال حملة إلى الأرض المقدسة.

الفصل الخامس عشر: البلاط الروماني يضع حداً للخلاف ما بين ملك قبرص والآنسة مريم، وتنازل الأميرة مريم عن حقوقها لصالح شارل ملك صقلية.

الفصل السادس عشر: وصول نائب عن الملك شارل إلى عكا، وتقديم أهل المدينة الولاء له.

الفصل السابع عشر: حروب وموت البندقداري، شقاق بين أمير أنطاكية وبين الداوية، ومحاولة ملك قبرص الاستيلاء على عكا.

الفصل الثامن عشر: مؤتمر للصليبيين والمسلمين في المرقب.

الفصل التاسع عشر: موت هيوج ملك قبرص وهو في طريقه إلى صور، وحصول ابنه هنري على عكا.

الفصل العشرون: ضياع اللاذقية وطرابلس.

الفصل الحادي والعشرون: ضياع مدينة عكا.

الفصل الثاني والعشرون: ضياع باقي أجزاء الأرض المقدسة.

القسم الثالث عشر: بعض الأحداث والنتائج التي أعقبت الفقدان الكامل للأرض المقدسة، وهو في أحد عشر فصلاً:

الفصل الأول : انتقام السماء من المسلمين .

الفصل الثاني: خلافات بين الأمراء البحرية الذين لم يغادروا البلاد.

الفصل الثالث: الأصل المخزي للتتار وبداية الحروب.

الفصل الرابع: انتصار التتار على الأتراك.

الفصل الخامس: توسع مملكة التتار باتجاه الغرب وباتجاه الجنوب.

الفصل السادس: قبول منغوخان المغول للعماد بوساطة ملك أرمينيا، وإرساله لأخيه هولاكو ضد المسلمين.

الفصل السابع: استيلاء هولاكو على بلاد فارس وقتله لخليفة بغداد، واستيلائه على شطر من سورية.

الفصل الثامن: مسلك خلفاء هولاكو مع المسيحيين ومع المسلمين.

الفصل التاسع: سمات التتار ومهارتهم في الحروب.

الفصل العاشر: بعض بطولات القبارصة ضد المسلمين. حملة غازان ضد المسلمين والمقاومة التي جوبه بها.

الفصل الحادي عشر: انتزاع حكم قبرص ظلماً من الملك هنري.

القسم الرابع عشر:وصف أوضاع الأماكن، وبشكل رئيسي في الأرض المقدسة.

وهو في اثني عشر فصلاً.

الفصل الأول: وضع الأقاليم التي تحد الأرض المقدسة.

الفصل الثاني: المنطقة الساحلية لسورية كلها.

الفصل الثالث: وضع الأماكن الرئيسية في أرض الميعاد المقدسة.

الفصل الرابع: أوضاع الجبال في المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن نحو الشرق .

الفصل الخامس : وضع الجبال الرئيسية على هذا الجانب من الأردن.

الفصل السادس: مجاري المياه والأنهار في الأرض المقدسة.

الفصل السابع: الحج من عكا خلال الناصرة حتى القدس.

الفصل الثامن: الحج خلال مدينة القدس المقدسة وجبل صهيون.

الفصل التاسع: الحج إلى الأماكن المقدسة من حول القدس.

الفصل العاشر: الحج إلى الأماكن المنسية في القدس.

الفصل الحادي عشر: الحج إلى بيت لحم وإلى الخليل.

الفصل الثاني عشر: أوضاع مملكة مصر.

القسم الخامس عشر: الإجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرةالتي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: الإجراء الضروري للاحتفاظ بها، دراسة للخطط العسكرية، وللقيام بتدريب متواصل على استخدام الأسلحة.

الفصل الثاني: الفائدة الكبرى للعازمين على الذهاب إلى قتال العدو، بعدم كشفهم عن مقاصدهم وخططهم.

الفصل الثالث: ضرورة الاهتمام بمعرفة خطط أعدائهم.

الفصل الرابع: أمثلة عديدة حول ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب المخاطر الكثيرة التي تتعرض الجيوش لها بالعادة وهي على طريقها.

الفصل الخامس: كيفية إقامةالمخيم.

الفصل السادس: توضيحات وأمثلة تدلل على خطورة ترك العدو يستدرجنا إلى خوض المعركة.

الفصل السابع: مواصفات المكان الموائم لخوض المعركة.

الفصل الثامن: الاحتياطات الواجب اتخاذها لدى قيادة الجيش لخوض المعركة.

الفصل التاسع: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لهزم جيش العدو.

الفصل العاشر: بعض الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لإعادة تنظيم الجيش في حال إصابته بانتكاسة.

الفصل الحادي عشر: بعض الإجراءات الاحتياطية والأمثلة لنصب كمائن للعدو.

الفصل الثاني عشر: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لقطع طريق الفرار على العدو.

الفصل الثالث عشر: بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لإخفاء الكمائن.

الفصل الرابع عشر بعض الاجراءات الضرورية اتخاذها في حال تحقيق النصر في المعركة، وإجراءات احتياطية ضد الفارين.

الفصل الخامس عشر: طرق متعددة لإلقاء الحصار، والإجراءات الاحتياطية اللازمة.

الفصل السادس عشر: توصيات مفيدة للعساكر والتعليمات.

الفصل السابع عشر: وجوب الاكتفاء بملك واحد بعد الاستيلاء

على أرض الميعاد.

الفصل الثـامن عشر: يتـوجب على الملك الامتناع عن النفقـات غير الضرورية وغير ذلك من الأباطيل.

الفصل التاسع عشر: الجرم الذي يقترفه الملك الفاسد الأخلاق، ضد المملكة.

الفصل العشرون: كيف ينبغي على الملك، بدافع من القناعـة وبإرشاد من العقل لجم شهواته وملذاته الجسدية.

الفصل الحادي والعشرون: كيف يمكن للملك لجم شهـواته وملذاته الجسدية، وتأمين الثروات الوافرة.

الفصل الثـاني والعشرون: اهتمام الملك بشريعـة الرب وغيرته عليهـا، وطاعته لوصاياه.

الفصل الثـالث والعشرون: تقـوى جلالة الملـك ولطفه وعطفـه على رعيته.

الفصل الرابع والعشرون: عدالة الملك وإنصافه وصحة أحكامه.

الفصل الخامس والعشرون: إعادة مـوجزة لكل مـا قيل بشأن الحفاظ على الأرض المقدسة.

بداية الانجيل المقدس للقديس يوحنا

«في البـدء كـانت الكلمـة، والكلمـة كـانت عند الرب، وكـان الرب الكلمـة، هذا كـان في البـدء عند الرب.كل شيء به كـان وبغيره لم يكن شيء مما كان. فيـه كانت الحياة، والحيـاة كانت نور الناس. والنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه.

كان إنسـان مرسل من الرب اسمـه يوحنا. هذا جاء للشهـادة ليشهد للنور لكي يؤمـن الكل بواسطتـه. لم يكن هو النور، بـل ليشهـد للنور. كـان النور الحقيقي الذي ينير كل إنسـان آتيـاً إلى العـالم. كـان في العـالم وكون العالم به، ولم يعرفه العالم. إلى خـاصته جاء وخاصته لم تقبله. وأما كـل كل الـذين قبلـوه فأعطـاهم سلطـاناً أن يصيروا أولاد الـرب، أي المؤمنون باسمـه، الذين ولـدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسـد، ولا من مشيئة رجل، بل من الرب.

والكلمة صـارت جسداً، وحل بيننا، ورأينا مجده مجداً كما لـوحيد من الأب مملوءاً نعمة وحقاً»[يوحنا: ١ / ١ — ١٤]

من إنجيل مرقس

قال يسوع في ذلك الزمان لحوارييه:

«فأجـاب يسـوع وقـال لهم، ليكن لكم إيمان بالرب.لأني الحق أقـول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحـر ولايشك في قلبه بل يؤمن أن ما يقـوله يكون، فمهما قال يكون له. لذلك أقـول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم. ومتى وقفتم تصلون فـاغفـروا إن كـان لكم على أحـد شيء لكي يغفـر لكم أيضـاً أبوكم في السموات زلاتكم. وإن لم تغفروا أنتم لا يغفر أبوكم الذي في السموات

أيضاً زلاتكم»[مرقس : ١١ / ٢٢ — ٢٦].

من إنجيل لوقا

قـال يسـوع في تلك الأيام لحوارييـه:«وأنا أقـول لكم اسألوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يفتح لكم».[لوقا : ١١ / ٩]

من إنجيل متى

«لما جاء يسـوع إلى نواحي قيصرية فيلبس(بانيـاس) سـأل تلاميـذه قـائـلاً: مـن يقـول الناس إني أنا ابن الإنسـان؟. فقـالـوا، قـوم: يوحنا المعمـدان وآخـرون إيليـا، وآخرون إرميـا، أو واحـد من الأنبيـاء، قـال لهم:وأنتم من تقولـون إني أنا؟. فأجاب سمعان بطرس وقـال: أنت هو المسيح ابن الرب الحي. فأجاب يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحماً ودمـاً لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السـوات. وأنا أقـول لك أيضـاً : أنت بطرس وعلى هـذه الصخـرة أبني كنيستـي وأبواب الجحيم لن تقوى عليهـا. وأعطيك مفاتيح ملكوت السمـوات، فكل ما تربطه على الأرض يكـون مـربـوطاً في السمـوات، وكل مـا تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات».[متى : ٦ / ١٣ — ١٩].

ارحمنا يا رب، أبانا الذي في السموات

«أمل أذنك يا إلهي واسمـع، افتح عينيك وانظر خـربنا والمدينة التي دعي اسمك عليهـا لأنه لا لأجل برنا نطرح تضرعنا أمـام وجهك، بل لأجل مـراحمك العظيمـة. يا سيـد اسمع، يا سيـد اغفـر، يا سيـد اصغ واصنع، لا توخر من أجل نفسك يا إلهي لأن اسمك دعي على مدينتك وعلى شعبك».[دانيال : ٩ / ١٨ — ١٩].

بسم الأب والابن والروح القدس
آمين

سنة الرب ١٣٠٧.

في سنة ١٣٠٧ لتجسيد ربنا يسوع المسيح، الذي هو نورنا وحياتنا، وفي شهر كانون الثاني، باشرت بتصنيف هذا الكتاب، وبالملخص الموجز الأول المتعلق بالأرض المقدسة، لأن الحقيقة هي من الروح القدس، وغير مهم على لسان من يعلنها.

في سبيل إضعاف قوى السلطان مع الشعب الخاضع له، يتوجب تطبيق الحظر بجدية أكبر وبفعالية أعظم مما كان عليه الحال في الماضي، بحيث أن لا يتمكن أي إنسان من الوصول إلى البلدان الخاضعة للسلطان، حسبما سنري فيمايلي في الفصل الأول من القسم الرابع، على أن يسري ذلك ليس على البحر فقط، بل على البر أيضاً، كما سنبين في الفصل المقبل، وأن يجري إنزال عقوبات بالذين يخالفون وكذلك بالذين يتعاملون معهم، لا سيما في حقل التجارة، وأن تكون هذه العقوبات مثل التي تطبق ضد الهراطقة، وليكن على الجميع محرماً تحت طائلة عقوبة مماثلة، تسلم بضائع واردة من أفريقيا، لابل حتى من إسبانيا من المناطق المقطونة من قبل المسلمين، وكذلك أية سلع قادمة من الهند عبر المناطق الخاضعة للسلطان كما سنرى في الفصل الثالث من القسم الرابع.

وليكن محرماً بالطريقة ذاتها على أي إنسان شراء المنتوجات المذكورة أعلاه من البلدان الشمالية، الممتدة من حدود أرمينيا إلى تخوم آني، كما سنوضح في الفصل الرابع من القسم الرابع.

وليحرم أيضاً، بالشكل نفسه على أي إنسان شراء أو تسلم البضائع التي مصدرها الأراضي الخاضعة للسلطان، سواء أتم ذلك في بلاد اليونان أو جزرها، أو في أي بقعة من العالم، وأن يشمل ذلك أيضاً البضائع التي تأتي تسللاً، وذلك كما سنوضح في الفصل الخامس من القسم الرابع.

وليكن هذا أيضاً محظوراً، تحت طائلة العقوبة الجسيمة التي يتم تحديدها، والتي ينبغي إنزالها بحق سادة المناطق والجماعات والتكتلات البشرية، وبحق كل من يخالف ما رسمته الكنيسة، وينبغي ملاحقة هؤلاء وعدّهم هراطقة، وملاحقة كل من يود دعمهم بمساعدة أو بمشورة، أو بمنح امتياز، حسبما هو وارد في الفصل السادس من القسم نفسه.

وليصدر أيضاً أمر بإنزال عقوبة الحرمان الكنسي بحق كل من يعرف بوجود أفراد أو أشخاص خالفوا هذه الأوامر، ولم يبادروا إلى الإبلاغ عنهم بأسرع ما يمكن، وبطريقة مشروعة.

ويشترط هنا بشكل مطلق عدم إفشاء اسم الشاكي لا للمشتكى عليهم ولا لأي إنسان كان، وإذا صدر الحكم بعدم وجود ما يدعو لإنزال عقوبة الحرمان الكنسي، أو مهما كان الأمر، ينبغي إعطاء الشاكي ثلث ما ينتزع من المشتكى عليه، ومهما يكن من أمر يبقى سريان الالتزام بالسرية كما بينا أعلاه.

وإذا راق لقداسة الحبر الأعظم التنفيذ الفعلي لهذه القرارات، فليعمد إلى تطبيق الأمر الكنسي بكل دقة، ودونما إهمال من قبل أي إنسان، وذلك بأن يعلن عنه في جميع المدن البحريةفي أيام الآحاد والأعياد، لأننا نرى بالواقع أن الأوامر المتقدمة التي صدرت عن المجامع المقدسة أو عن البابوات، طواها الزمن ونسيت، لأنه لم يعلن عنها في الكنائس،

حتى أن رجالاً مثقفين ما برحوا يعتقدون أن تصدير البضائع العادية إلى البلدان الخاضعة للسلطان أمراً جائزاً.

والطريقة الأفضل للاعـلان عن ذلك القرار الكنسي، كما نرى هو أن يجري ذلك بعـد تلاوة الانجيل، وقبل الشروع بالصـلاة، فهـذا أجـدى وأنسب، فهو الوقت الذي يكون الشعب بالعادة مجموعاً به ومهيئاً أكثر.

ولتنفيذ هذا المشروع هناك حاجـة إلى غلايين، كما هو مبين في الفصل الســابع من القسم الرابع من هذا الكتـاب، ومن الضرورة بمكان تعيين مشرفين رسميين يتولون إنزال العقوبة بحق من يخالف هذه القرارات.

بسم الرب الأزلي
آمين

سنة الرب ١٣٠٦

في السنة ١٣٠٦ لميلاد مـولانا يسوع المسيح، وفي شهـر آذار، وبشكر للرب الكلي القدرة، وفي سبيل مجد اسمـه القدوس وإكـرامه، ومن أجل كرامة سيدنا وأبينا البابا الحبر الأعظم، وأيضاً من أجل رفع شأن الإيمان المسيحي، ولخزي السلطـان وكل مـن يتبع محمـــــداً(ﷺ)، وفي سبيـل عودتهم ورجـوعهم إلى الكنيسة الأم الحنون، ومن أجل ازدهار الإيمان بالصليب الفـادي المحبـوب، باشرت العمل بهذا الكتــاب، بنعمـة منه تعـالى، أنا مارينو سـانوتو، المشهور بلقب تورسيللو، من منطقـة سينت سيفـرو، ومـدينة ريفـوالتي مـن أعمال البندقيـة، وأنا أيضـاً خـادم أمين متواضع، كنت ملتحقـاً من قبل بخدمـة أبينا ومولانا في المسيح، الطيب الذكـر، الذي كان معيناً كـردينالاً شماساً على كنيسـة القديس يوستـاكي Eustachii .

فلقـد ظل يقلقني طوال حياتي همّ واحـد هو القيـام بإجراء أبحـاث حـول المعطيات التي وجـدت فيها الأرض المقـدسة مع باقي مناطق مـا وراء البحـر، سـواء في البحر أو البر، وهـذا ما سأعـرضـه بكل نشـاط ومحبة، منحنياً بتواضع عميق، جاثياً على ركبتي، كمسيحي أمين.

بداية الكتاب الأول حول مشروع الأرض المقدسة

وهو يتضمن الترتيبات اللازمة والاستعدادات لاسترداد الأرض المقدسة وهو في خمسة أقسام.

القسم الأول

ويشتمل على طرق إضعاف السلطان، وتبيان كيف أن باستطاعة المؤمنين بالمسيح الحصول على المنتجات اللازمة دون الاضطرار إلى الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، وتقدير للأذى العظيم والأضرار الكبيرة التي سيتكبدها الكفار أتباع السلطان، إذا توقف التعامل البحري معهم، وهذا القسم في ستة فصول:

الفصل الأول: تبيان للأرباح التي يجنيها السلطان وشعبه من المنتجات القادمة من الهند، مع أسماء المراسي إلى حيث تشحن تلك المنتجات، وكيفية تحويلها عن المناطق الخاضعة لنفوذ السلطان.

ينبع القسط الأكبر من العظمة والهيبة، والمداخيل التي ينعم بها السلطان والشعوب الخاضعة له، من كون الأصناف النادرة، والبضائع الكثيرة، لا تنتج كلها في أراضي السلطان والبلدان الخاضعة له، بل في بلاد الهند وأراضيها، وهي تعبر من المحيط الهندي نحو الغرب بطريق البحر،ولهذاالمحيط في تلك المناطق مرسيان هما: المليبار، وكولم، ذلك أن الأصناف النادرة والمنتجات الواردة من الهند ترسل إلى هذين المرسيين،ومن هناك تحمل من جديد على مراكب من أجل تصديرها نحو الغرب، انطلاقاً من أربعة مراسي، ثلاثة منها واقعة في الأراضي والشواطىء التي يسيطر عليها التتار سادة بلاد فارس، وواحد من هذه

المراسي موجود على اليابسة، واسمه هرمز، والثاني موجود في جزيرة صغيرة اسمها كيش، والثالث عند مصب النهر النازل من بغداد، وكانت الكمية الأكبر من الأصناف النادرة ومن المنتجات التي كانت تصدر في الماضي نحو الغرب، تمر عادة ببغداد، ومن هناك إلى أنطاكية وكليكيا على البحر المتوسط، وكانت الأصناف النادرة في ذلك الزمن مع غيرها من منتجات الهند، تصل بكميات أكبر، وبأسعار أرخص مما هي عليه الآن.

أما المرسى الرابع فهو الذي اسمه مرسى عدن، وهو قائم في شبه جزيرة ثابتة في بلاد المسلمين، وتشحن الأصناف النادرة والبضائع القادمة من الهندمجدداً من ذلك المرسى، وترسل من هناك عبر أراضي المسلمين في رحلة تستغرق تسعة أيام على ظهور الجمال، حتى تصل إلى مكان اسمه قوص، وتنقلها القوافل من هناك إلى القاهرة عن طريق نهر النيل خلال خمسة عشر يوماً، ويفيض النيل في حوالي تشرين الأول ولهذا فإن الأصناف النادرة والبضائع النازلة إلى القاهرة عبر ذلك النهر، تنقل عبر تعرجات طولها ما بين القاهرة والاسكندرية حوالي المائتي ميل، وتسهيلاً للسفر تواكب المراكب الضفة اليسرى التي يسيطر عليها المسلمون، ومن القاهرة تتوجه الأصناف النادرة وغالبية البضائع القادمة من الهند، إلى الغرب، عبر طريق الاسكندرية، ويستوفي السلطان عند مختلف مواقع التعشير مبالغ تساوي ثلث مداخل خزينته، هذا عدا عن المرابح والمنافع التي يجنيها التجار والشعب.

وهناك كمية أقل من الأصناف النادرة ومن البضائع المرسلة إلى الغرب، تنزل الآن باتجاه المراسي الثلاثة المذكورة أعلاه، والواقعة في المناطق الخاضعة للتتار، ومن هناك ترسل إلى بغداد، ومن بغداد هناك طرق كثيرة يمكن لتلك البضائع أن تنقل عبرها نحو البحر المتوسط، وهذا ما يجري الآن فعلياً، دون المرور مطلقاً بالمراسي أوبالشواطىء، أو

بالأراضي الخاضعة للسلطان.

وبناء عليه ينبغي الوقوف في وجه الذين يسعون نحو بلاد السلطان لابتياع الأصناف النادرة، وبقية أنواع البضائع، ومن ثم نقلها عبر البحر المتوسط، ومن المتوجب منع هؤلاء، حسبما تقدم الذكر في الموجز، ففي هذا الموجز جرى التركيز على وجوب منع أية بضائع قادمة من الأراضي الخاضعة للسلطان، بشكل قطعي ودقيق، وقتذاك سوف تتحول جميع هذه الأصناف النادرة والبضائع عن مساراتها المعتادة، لتسلك طرق بلاد التتار، لأنه مثلما تنساب المياه طبيعياً إلى الوديان، كذلك تتدفق البضائع عبر الطرق التي يوجد عليها عدد أكبر ممن يشتريها، وبناء عليه سيجد الشعب المسيحي الكميات الكافية من كل ما يلزمه من تلك البضائع، ويجني التجار نصيبهم الكامل من الأرباح.

ثم ماذا بعد هذا؟ بعد هذا يمكن للتجار المسيحيين سلوك ذلك الطريق، أي الاتجاه إلى الهند عبر طريق بلاد التتار، وبالفعل يمكن لكثيرين القيام بهذه الرحلة، ذهاباً وإياباً، ذلك أن السلطان لا يسمح لمسيحي واحد بالمرور بأراضيه إذا كانت لديه نية بالذهاب إلى الهند، والذي يحدث الآن فعلياً يبرهن لنا على صحة هذا الطرح، فعندما توضع عراقيل في وجه انتقال البضائع، وحواجز تحول دون وصولها إلى مكان ما عن طريق واحد، نجد التجار، وهم الساهرون على مصالحهم الذاتية يفكرون ويبحثون عن طريق آخر يمكن ركوبه،حتى يتمكنوا من توصيل بضائعهم إلى ذلك المكان ذاته، وقد قيل:«التاجر الصالح هو المدرك للمصالح»،فهو لا يمنح نفسه طعم الراحة مالم يكتشف طريقاً للوصول ببضائعه إلى حيث الحاجة إليها أكبر، وبالتالي إلى حيث يمكنه جني أكبر قدر من المرابح، ويمكن لقداستكم أن تتبين بشكل جيد ما أعنيه، فكل واحد يعرف أنه من جهة التتار، أي عن طريق بغداد وتوريز كانت البضائع تسير منذ زمن بعيد ولاتزال تسير حتى اليوم كل

البضائع تقريباً نحو البحر المتوسط، ولاسيا البضائع التي خفّ وزنها وارتفع ثمنها، من أمثال التوابل والقرفة والجوز هندي وغير ذلك.

أما ما تبقى من بضائع هي أكثر وزناً وأقل ثمناً مثل الفلفل والزنجبيل والبخور والقرفة وغيرها فإنها تحمل من عدن إلى الاسكندرية، بكميات أكبر من تلك التي تحمل عبر الطريق الآخر المشار إليه من قبل.

هذا وإن البضائع المحمولة عن طريق بلاد فارس والكلدانيين — حسبما أشرنا من قبل — هي أفضل نوعية بما لا يقاس من البضائع التي تحمل إلى الاسكندرية، وخاصة الزنجبيل والقرفة أيضاً.

وواقع الحال أن الزنجبيل المحمول عن طريق التتار هو من نوع أفضل وأعلى ثمناً من ذلك المحمول إلى الاسكندرية وذلك بنسبة تتراوح ما بين عشرة بالمائة إلى عشرين بالمائة، وسبب ذلك هو أن البضائع الأعلى جودة تحمل عن طريق التتار، لأن حمل تلك البضائع عبر ذلك الطريق وإن استوجب نفقات أعلى للحمل والنقل غير أن المكوس ضئيلة، في حين أن نفقات نقل البضائع من جهة مصر زهيدة،لأن المراكب تسير على محاذاة الضفة اليمنى للنهر بكل سهولة، لكن المكوس التي تدفع إلى السلطان هي أعلى.

ولهذا يختار التجار للطريق الأول بضائع أعلى جودة، لأنهم يعرفون جيداً جميع هذه الميزات، ويعرفون أن نفقات النقل هي هي سواء أكانت البضائع ثمينة أم لا، فضلاً عما تقدم، إن الزنجبيل المحمول إلى الاسكندرية مجفف وفيه كثير من التلف والتسوس، وهذه النسبة أعلى منها بالنسبة لما يحمل عبر الطريق الآخر، ويعتقد أن مرد ذلك هو أن الطريق البحري أطول من طريق بلاد التتار، لأن من المعروف أن الزنجبيل صنف يتعرض للفساد بسهولة.

الفصل الثاني: إيضاح كيف أن المنتجات التي نحتاجها، والقادمة إلينا من بلاد السلطان يمكن الحصول عليها من بلاد المسيحيين.

يبلغ إنتاج الحرير والسكر من بلدان السلطان كميات كبيرة لا يستهان بها، ويجني السلطان ومثله المسلمون من ذلك أموالاً كثيرة كرسم مرور وكضرائب فإذا توقف المسيحيون عن استيراد ذلك، فإن هذا يلحق بالسلطان، وبالمسلمين ضرراً كبيراً بالغاً، لاسيما وأنه من الممكن إنتاج الكميات التي نحتاجها من السكر في قبرص، ومن هنا يمكن للمسيحيين تأمينها، يضاف إلى هذا يجري إنتاج السكر في رودس والمورة ومالطة، وكذلك في صقلية وغيرها من البلدان، وعلى هذا يمكن تأمين ما نحتاجه من سكر وإنتاجه إذا ما تمّ الاهتمام بالموضوع، ومن الممكن كذلك إنتاج الشرانق في أبوليا وفي صقلية، وكريت وجزر اليونان وقبرص، وذلك بكميات وافرة، وإذا ما طبق أمر الحظر بشدة أكبر مما جرى في الماضي، وقتها من الممكن إنتاج الشرانق بكميات أكبر في هذه المناطق وفي غيرها من البلدان التي من الممكن أن يعيش فيها دود القز، وبناء عليه إذا ما أمعنا النظر في الأمور، يمكن للمسيحيين إنتاج ما يكفيهم من الحرير، ولن يعانوا كثيراً في سبيل تأمين ما يلزم من سكر.

الفصل الثالث: تبيان طريقة منع عبور الأفاوية والكتان والقنب والأقمشة المنسوجة من مصر إلى البحر المتوسط فأوربا، ذلك أن الاتجار بها يعود بأرباح كبيرة على السلطان وعلى الشعب الخاضع له.

ينبت الكتان في مصر بكميات كبيرة، ومنه تصنع أنواع كثيرة من الأقمشة، كما أنهم ينسجون الكتان ممزوجاً بالحرير، وتصنع ثياب الحرير الخالص في مصر، مع أن مصر لا تنتج الحرير، هذا وتحمل تلك الأقمشة مع الكتان والبضائع المذكورة أعلاه، باستمرار عبر تركيا أو عبر أفريقيا على مراكب مسيحية وإسلامية حتى البحر الأبيض الكبير

والبلدان الأوربية، ومع أن الكتان متوفر بوفرة في البلدان المسيحية،غير أنه أدنى جودة من الكتان المصري الذي يصدر إلى الغرب، وبما أن الكتان المصري هذا من غير الممكن إنزاله إلى السوق بشكل مربح عبر المتوسط، إذا ما طبق الحظر بشكل دقيق، وكانت هناك مراقبة صارمة للبحر، وبذلك سوف يتكبد السلطان مع مسلمي الأندلس خسائر جسيمة، ولنتذكر هنا أيضاً أن الأراضي الخاضعة للسلطان تنتج بشكل خاص الأفاوية والقرفة بكميات كبيرة في مصر، ويصدر من هذه الأصناف كميات كبيرة جداً إلى بلدان مختلفة من العالم عبر المتوسط.

الفصل الرابع: ذكر للأضرار التي سوف تلم بالسلطان، وبالشعب الخاضع له، في حال إيقاف تصدير الذهب والفضة والحديد وبقية أنواع المعادن وغير ذلك من المنتجات إليهم.

بما أنه لا يوجد في البلدان الخاضعة للسلطان لا ذهب ولا فضة خالصة ولا قصدير ولا معادن أخرى، يضاف إلى هذا لايوجد فيها لامرجان ولا عنبر فكل هذه الأصناف تصل إلى بلاده عبر الطرق البحرية، ويفرض السلطان عليها في الاسكندرية مكوساً عالية.

وكان الرسم الذي يستوفى في الماضي على الذهب الواصل إلى السكة ستة وثلاثين بالمائة، وحيث أن أسعار الذهب عالية جداً في الغرب، فقد جرى في هذه الأيام إهمال الذهب، والاعتماد على الفضة التي ازداد استيرادها، ويستوفى في الاسكندرية عن تجارة الفضة رسم يبلغ أربعة ونصف بالمائة، لكن حصل بعض التجار في أيامنا هذه على امتياز أن لا يدفعوا عن الفضة سوى رسم مقداره ثلاثة ونصف بالمائة، ويتقاضى السلطان على جميع الفضة المستوردة لصالح السكة في القاهرة رسماً مقداره العشر، أما النحاس فإن الرسم المستوفى عليه في الاسكندرية وغير الاسكندرية من المركز قد يصل إلى ما يقارب الربع، أما القصدير فإن الرسم المفروض عليه في مختلف مراكز التعشير فقد يصل إلى

الخمس، هذا وبالإضافة إلى ما يستوفيه السلطان من مكوس عالية على القصدير والفضة الصرفة، ويستوفي أيضاً مثل ذلك على المرجان والعنبر، ويجري توزيع هذه البضائع كلها في مصر امتداداً إلى الحبشة وإلى الهند.، ولا شك أن في هذا مرابح وافرة لصالح السلطان والتجار لديه ولشعبه.

الفصل الخامس: تبيان للخسائر الفادحة وللنفقات الكبيرة، التي ستتوجب على السلطان وستنزل به، إذا أُوقف تصدير المواد الغذائية والمنتجات المتنوعة من بلاد المسيحيين إلى بلاده.

فضلاً عما تقدم يحمل التجار إلى الإسكندرية وإلى الأراضي الخاضعة للسلطان كميات كبيرة من الزيت والعسل والأعلاف للمواشي، واللوز وأنواع الصمغ، وباختصار إن عائدات السلطان في مختلف مراكز التعشير هي الربع، ويحمل التجار أيضاً الحرير والأقمشة والصوف، والمنسوجات الحريرية أو المنسوجات الكتانية مع أشياء أخرى كثيرة كلها يدر على السلطان وعلى شعبه أرباحاً وفيرة وقد يحدث في بعض الأحيان قصور بفيضان النيل، وبذلك فإن الأراضي التي لا يلحقها الفيضان لا تعطي غلالاً، وذلك مثلما حدث بعد مدة قصيرة من سنـ عكا وسورية، ولولا إمدادات القمح التي بعثت إلى المصريين لاضـ وقتذاك في غالبيتهم إلى الموت أو ترك البلاد.

الفصل السادس: وصف بلاد مصر، وتبيان الضرر العظيـ سوف يلم بمصر إذا ما انقطعت عنها السفن مع باقي الا المحتاجة للملاحة البحرية.

لما كانت الأخشاب غير متوفرة في مصر، وأيضاً لا يوجد فيهـ ولا القار، وهذه هي المواد التي تتحكم بتطور الملاحة البـ وبجودتها، وبما أن المسلمين لا يقدرون على الحصول عليها ...بر

المتوسـط، فإنه إذا لم تكن لديهم سفن فمن الصعب أن تتمكن مصر من الصمود، ولا سيما القاهرة، ومثلها في ذلك مثل المناطق المكتظة بالسكان في بلادهم.

ومرد ذلك إلى أن القاهرة قائمـة على ضفاف نهرالنيل، والمسافة من القـاهرة إلى البحـر تبلغ قـرابة المائـة ميل، ونهر النيـل يصب في البحـر المتوسط، وله أربعة فروع، واسم الفرع الأول منها فرع تنيس، من جهة الصحـراء، واسم الفـرع الثاني فـرع دميـاط، واسم الفرع الثـالث فـرع البرلس، وأمـا الفـرع الرابع فهـو فـرع رشيد، وفـرع رشيـد قـريب من الاسكندرية وهو من جهتها، وبين هذه الفروع الأربعة اثنان أكبر حجماً وأهميـة وهما فرعـا دمياط والبرلس، ولأحـد الفرعين الآخـرين المسمى فرع تنيس حـوض أعمق، وهو قادر على استقبـال السفن الأكبر حجماً، والأكثـر ثقلاً، حيث يوجـد داخل الحوض بحيرة كبيرة وفسحة واسعـة تسمح لعـدد كبير من السفن أن ترسـو فيهـا، والميناء مـوجـود في الميـاه المالحة، وأمـا الفرع الآخـر المدعـو البرلس، فإن حـوضه أقل عمقـاً من الثـلاثة الآخرين، ويستقبل سفناً أقل ضخـامة، هذا وتستطيع الغـلايين دخوله في موسم الفيضان، وبعده بمسـافة وجيزة بحيرة ثانية، واحد من أجـزائها تارة عـذباً وتارة أخرى مـالحاً، ويبلغ داخل الزوايا الأربع لهذه الفـروع نزولاً من الدلتا حتى البحـر مائـة وعشرين ميلاً، وإذا مـا سرنا من دمياط إلى الاسكندرية بمحـاذاة البحر فـالمسافة مـائتي ميل، وإذا ما سايرنا مجرى النيل من القاهرة نحو الجنوب، يقال إن الذي تحت سيطرة السلطان يبلغ مسافة مائة ميل، وللنيل الواقع تحت حكم السلطان فروع عديدة، حولها بحيرات كثيرة، ومستنقعات وتشعبات وأقنية كثيرة تجري في أرض مصر وتتدفق فيها وتسقي الأراضي وتؤمن ريها.

وعلى ضفـاف النيل وفـوق ميـاهه عـدد كبير من المحطات، ولهذا السبب تنقل البضـائع والأغذية، ومختلف أنواع البضـائع والمنتجات على

السفن، وحركة النقل والتجارة هذه نشطة جداً، هذا ويستوفي السلطان مكوساً على الأخشاب والحديد والقار التي تحملها السفن هنا وهناك ما يعادل ربع قيمتها، ولا شك أن هذا مبلغاً كبيراً، ويستوفي السلطان على كل مركب مبحر سواء أكان كبيراً أم صغيراً ثلاثة دنانير ذهبية، وهي تعادل ثلاثة فلورينات ذهبية ونصف فلورين.

ويتضح من هذا كم هو مهم عدد السفن التي تمر في موسم الفيضان عندما يجري حمل القمح إلى القاهرة، فوقتها تزداد كثافة حركة الملاحةعلى النيل وعلى بحيراته ذهاباً وإياباً، وإذا ما تأملنا كثافة حركة الملاحة وكثرة الرحلات، نرى بالفعل ما يثير الدهشة.

ويسكن في القاهرة مجموعات كبيرة من التجار والحرفيين، ويحكم في قلعة القاهرة السلطان ويقيم بها قادته وأعوانه، وتمتد سلطته لتشمل مساحة قدرها نحو ألفي ميل، وأعداد المسلمين في مصر كبيرة، وبما أن سلطة السلطان متمركزة في مكان واحد، فهو على ذلك السيد الوحيد الذي يحكم مصر كلها مع الصحراء والمناطق التي خلفها امتداداً إلى أرمينيا والمياه الباردة المتاخمة للأراضي الخاضعة للمغول، وهكذا إذا ما حرم المسلمون من القدرة على الملاحة، لن يعود بالإمكان نقل البضائع والمؤن والامدادات لا إلى القاهرة ولا إلى القلعة، لأنه وقتذاك تصبح كلفة النقل أعلى من ثمن تلك البضائع، آخذين بعين الاعتبار أنه لا يمكن نقلها عن طريق البر.

ولهذا إنه من المناسب أن يتشتت سكان القاهرة وجند القلعة، والشعب الموزع بينهم، في جميع أرجاء مصر، التي هي مناطق شاسعة واسعة، فإذا تشتتوا في أنحاء مصر، يغدو من الطبيعي وقوعهم منطقياً تحت حكم سلطات متعددة مما يثير المنازعات بينهم، وحيث يستبد التشتت تسود التفرقة، وقد كتب«كل أمة منقسمة على ذاتها تخرب».

القسم الثاني :

ذكر كيف أن إحدى المناطق الخاضعة للسلطان قد تعرضت للضعف وهو في فصلين:

االفصل الأول: شرح كيف تضاءلت ثروة إحدى المناطق الخاضعة للسلطان، والمعني بذلك المنطقة الواقعة خلف البادية، وكذلك في بعض أرجاء سورية.

كانت — فيما مضى — المناطق الخاضعة لحكم السلطان خارج مصر، فيما وراء الصحراء باتجاه أرمينيا، وصولاً إلى المياه الباردة، الموجودة على حدود البلاد الخاضعة للتتار، أكبر، وأقوى، وأغنى منها اليوم، أي لما كان الصليبيون يسكنون في عكا وسورية، وأسباب هذا التراجع عائدة إلى أن منتجات السكان المحليين وبضائع وتجارات غيرهم من الشعوب، التي كانت تعبر من عكا ومن سورية قد بقيت في كانها في البلاد الاسلامية، لأن الذين كانوا يستلمون تلك البضائع نوا من المسيحيين،ولأن شعب المسلمين شعب خامل كسول.

الفصل الثاني: يوضح كيف أن عدد السكان، وخاصة الرجال المقاتلين قد تضاءل في الأراضي الخاضعة للسلطان.

لقد تفضل الرب وتكرم في تنصيب رجل حازم سيداً على أرمينيا هو الأخ يوحنا، من رهبان طائفة الفرنسيسكان ليذل السلطان والمسلمين وليردعهم،. فقد عمل بدهاء ولمدد طويلة من أجل تحريض التتار وإثارتهم ضدهم، وكانت محصلة ذلك حرمان أرض المسلمين الممتدة إلى مصر، لحقب طويلة من عدد كبير من الرجال، ومن كميات لا تحصى من الثروات، وكانت المحصلة ضياع وتشتت غالبية جنود السلطان، وإفلاس الشعب المسلم، لأن الكثيرين منهم غادروا البلاد، وباتت الأحوال في الوقت الحاضر ووصلت إلى حد أنه لم يعد في هذا الجزء من

-٣٥١٥-

البلاد لا رجال ولا ثروات، مقارنة بما كـانت عليه الأوضاع فيما مضى، ولولا المساعدات التي يبعث بها السلطان إلى هناك، لما كان قد بقي أحد أو أي شيء على الاطلاق.

القسم الثالث

ذكر للبضائع التي يحتاجها المسلمون، والتي لا بد لهم من الحصول عليها من الخارج، ويقع هذا القسم في فصلين:

الفصل الأول : الأسباب الداعية لمنع تصدير السفن وباقي اللوازم المحتاجة للملاحة، إلى المسلمين في مصر.

يمكن لكل إنسان أن يرى بكل وضوح ما حدث في الماضي عندما قررت حكمة سلفكم تعميم قرارها الرسمي بحظر تصدير الأخشاب والحديد والقار إلى بلاد المسلمين لأن الايرادات والأرباح من الرسوم التي يستوفيها السلطان في أرض مصر، كانت بالكامل وما تزال مرتبطة بالذين يديرون أعمال الملاحة، وبفضل هذه الملاحة نال السلطان وما برح ينال ثروات ثمينة، وإذا ما تمعنا بالدراسة، نتيقن بأن سلطته قائمة فقط بفضل المرابح التي يجنيها من أعمال الملاحة.

الفصل الثاني: تبيان للطرق والاجراءات التي يتخذها المسلمون في مصر للمحاماة عن منطقتهم، ولكي يحصلوا من البلدان الأخرى على الغلمان والجواري.

فضلاً عما تقدم إن الناس الذين يولدون في أرض مصر وأحوازها غير صالحين إطلاقاً لحمل السلاح، مقارنة بالمجلوبين من مناطق أخرى، فقد استغل السلطان والقادة لديه الثروات المجنية من وراء الملاحة بالبحر، وأخذ السلطان يرسل تجاراً يشترون من عدة بلدان غلماناً مسيحيين، ووثنيين سواء، وذلك من أي مكان يستطيعون ابتياعهم فيه بالمال، وكانوا بعد الحصول عليهم يدربونهم على استخدام السلاح، ويعلمونهم فنون القتال، وهم الآن بالفعل سادة المناطق المصرية، والبلدان الخاضعة للسلطان، وبهم يحفظ السلطان بلاده ويحميها،

-٣٥١٧-

ويفضل قــوتهم طرد السلطان الصليبيين من أرض الميعــاد، ويجلب في الوقت نفســه إلى البلدان الخاضعة للسلطان جـواري من مختلف المناطق سواء أكـانت مسيحية أم وثنيـة، فهم يحصلون عليهن للمتعة الجسـدية، ويخضعوهن — هلاكاً لأنفسهن — لشريعة محمد(ﷺ).

القسم الرابع

وجوب إيجاد إجراء للمقاطعة أنفع من الإجراء الحالي، وكيفية إعداد الغلايين اللازمة للدفاع عن المسيحيين الساكنين في تلك المناطق من البحر، وبالوقت نفسه لتدمير المسلمين، وكيفية العمل لمنع أية أعمال تجارية على الاطلاق مع البلاد الخاضعة للسلطان عبر البحر المتوسط، ويحتوي هذا القسم على سبعة فصول:

الفصل الأول: لماذا يتوجب منع أي إتجار مع المسلمين الخاضعين للسلطان من دون استثناء، أو اتصال بهم، أو سفر إلى بلادهم.

للاقلاع بها العمل المقدس الهادف إلى استرداد الأرض المقدسةالتي روّاها بدمه الغالي مولانا يسوع المسيح، الابن الوحيد للرب الحي، ولإكمال ذلك من الضروري تماماً أن يعمم الحظر رسمياً في العالم كله، أي الاعلان بشكل عام إنه ممنوع أن يرسل إلى هناك الخشب والحديد والقار، وأن يؤخذ من هناك بشكل عام أي صنف من الأصناف، وسبب ذلك هو مايلي:

عندما يود المسيحيون استلام المنتجات الخاصة والسكر والحديد، ومختلف أنواع البضائع من المشرق، يذهبون إلى هناك، ويعودون، ومعهم البضائع التي من المؤكد أنها غير مخالفة للحظر، وهنا يحدث أن المسيحيين المخالفين ومثلهم كذلك المسلمين، الذين يمتلكون هم أيضاً سفناً خاصة بهم، أنهم يقدمون إلى الغرب محملين بالبضائع ومن ثم يعودون وهم يحملون على سفنهم الأخشاب والحديد والقار، والرقيق، إلى مصر والأراضي التابعة للسلطان، وهكذا يحدث أن المسيحيين الذين يريدون أن يكونوا طائعين للكنيسة، يتورطون في تقديم المساعدة إليهم، وإنه لمن الأفضل لهؤلاء المسيحيين المخلصين أن يتجمعوا على البحر أو

على اليابسة، في المراسي، أو في أي مكان، وأن يحتشدوا سوية مع سفن المسيحيين المخالفين، وهناك لا بد من وجود المسلمين مع سفنهم المحملة خشباً وحديداً وقاراً، ورقيقاً، وإذا ما غضوا النظر عنهم، يكونوا قد ساعدوهم وأنقذوهم وسهروا على سلامتهم، ودعموهم.

وإذا ما تصرفنا على عكس ذلك، يتوجب إلقاء القبض على الأشخاص التابعين للبلدان والأراضي الخاضعة للسلطان، ومصادرة بضائعهم، ووقتها لن يتجرأوا ثانية على ركوب البحر من جديد.

وبناء عليه يتضح تمام الوضوح أنه في حال الاعلان الرسمي عن هذا الحظر في العالم كله، وفي حال تطبيقه بشدة، أي أن يكون واضحاً تماماً لكل من يعمل في قطاع البحر،أنه ممنوع تمام المنع السفر إلى الأراضي التابعة للسلطان، وأن كل من يخالف هذا الحظر، خرقاً لأوامر سادتهم وجماعاتهم سينال العقاب، ولسوف يلقى القبض على المسيحيين المخالفين وعلى المسلمين غير الملتزمين بهذا المشروع المقدس، ووقتها سيكون الذين أوكلت إليهم أمور الإشراف والرقابة على البحر على استعداد لتأدية مهامهم طواعية وعن طيبة خاطر، ومن ثم فرض الالتزام بهذا التدبير المفيد.

وعلينا على كل حال أن نتذكر أنه لما ضاعت عكا وسورية أعلن رسمياً الحظر على الذين يذهبون إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، أو الذين يعودون منها محملين بالبضائع، وكان الحظر قد قضى بالإعلان بأن الذين يخالفونه هم سفلة، ويعدّون محرومين من الوصية، أي إنهم لا يستطيعون كتابة وصاياهم، ولا وراثة ما ترك لهم في وصايا غيرهم، مع الإعلان أنهم غير مؤهلين للقيام بأي حصر إرث سواء أكان ذلك من جهة المعطي أو من جهة المستفيد، ثم طردهم من جميع الوظائف العامة التي يشغلونها، ومنع منحهم أية وثيقة شرعية، وبشكل عام يتوجب مصادرة جميع ممتلكاتهم، وإذا ما ألقي القبض عليهم يتوجب إبقاءهم

سجناء تحت حراسة الذين ألقوا القبض عليهم.

الفصل الثاني: لماذا يتوجب على جميع المسيحيين مطاردة المخالفين لأوامر الكنيسة في هذا المجال، في كل مكان، وليس فقط في البحر بل وفي البر:

كان الحظر فيما مضى يطبق في مجالات البحر فقط، أي كانت تجري ملاحقة المخالفين بحراً لا براً، والآن إذا قررت قداستكم بإلهام من الروح القدس تنفيذ الأوامر المذكورة أعلاه، وأعلنت أنه مقدس وموائم تماماً التشدد في تطبيق هذا الحظر — أقول بكل تواضع بشكل دائم — على الأرض وفي العالم كله، وقتها من الممكن تطبيق إجراء ملاحقة المخالفين بشكل أشد وأكثر جدوى، ذلك أن مراقبة البحر لوحده لا يكفي، ولا يمكن منع هذا أو ذاك عن الابحار كلياً، أو عبور البحر حتى الأراضي التابعةللسلطان، ومرد ذلك إلى أن الغلايين لا يمكنها البقاء في عرض البحر أمام العواصف، ولا حتى عندما يكون البحر هادئاً، ثم إنه في بقائها في فصل الشتاء ليلاً خارج الميناء خطر، يضاف إلى هذا لايمكنها البقاء في فصل الصيف لأيام طويلة في عرض البحر، من دون التردد على الشاطىء للتزود بالماء للشرب وللاستخدامات الأخرى، هذا ومن غير الممكن مراقبة البحر مراقبة عامة مجدية بوساطة البوارج حتى وإن شحنت بالمقاتلين، لأن البحر واسع جداً، وما أن تبتعد عن الشاطىء إلى عرض البحر حتى تتمكن سفن المخالفين من الابحار أيضاً، ومن ثم في مرسى من مراسي بلاد السلطان ترسو به ، وستجد الترحيب والمعاملة الطيبة، لأن الناس هناك بحاجة إليها، ومثلما يكون بمقدور هؤلاء المنافقين الذهاب إلى الأراضي الخاضعة للسلطان، يكون أيضاً بمقدورهم العودة منها إلى بلادهم، وبناء عليه إذا أردنا أن يعطي الحظر النتائج المتمناة، يجب إيقاف أي تحرك تجاري نحو الأراضي والأماكن الخاضعة للسلطان وفوقها أيضاً، والقيام من ثم بمطاردة

المخالفين ومصادرة بضائعهم سواء في البر أو في البحر، ونظراً لأن هؤلاء المسيحيين المنافقين الآثمين، كانوا في تلك الأزمان — أي لما بدأ العمل بذلك الحظر — لدى عودتهم إلى بلدانهم سبباً للأذى ولمحنة شيطانية لجماعات عديدة، فبسبب كثرة البضائع والأرباح التي كانوا يعودون بها، جاء عملهم بمثابة محرض لغيرهم لكي يخالفوا مثلهم، وذلك لهلاك أنفسهم، ومن جراء ذلك أقدم العديد على المخالفة وراحوا ورجعوا عدة مرات،وبذلك افتتحوا المسيرة اللعينة لهذه العادة البائسة، لذلك فإن هؤلاء يستحقون أن يعاملوا معاملة الهراطقة لمخالفتهم هذا الأمر المجيد، كما ينبغي ملاحقتهم هم وبضائعهم في العالم كله كيلا يصبحوا مثلاً شريراً يقتدى به، وكيلا يدفع موقفهم أناساً آخرين إلى التشكك، وذلك بسبب ما اقترفوه في الماضي من شرور، ولهذا يتوجب معاقبتهم عقاباً رادعاً ليكونوا عبرة لمن اعتبر، ولاشك أن الرعب سوف يحل في قلوبهم إذا ما جرى نشر عدد من الغلايين التي ترفع علم الكنيسة، ويساعد هذا على تنفيذ هذا المشروع المقدس والمفيد.

الفصل الثالث: وجوب إغلاق الطرق في وجه البضائع التي اعتاد التجار على نقلها من الأراضي التابعة للسلطان عبر أفريقيا كلها، ثم عبر الأندلس حيث يقيم المسلمون.

من الموائم إيقاف حركة نقل البضائع القادمة من الأراضي التابعة للسلطان، وبناء عليه من الضروري منعها من المرور من جبال برقة المجاورة للأراضي الخاضعة للسلطان، وكذلك من أراضي ملك تونس، ومن الأراضي الواقعة تحت سيطرة المسلمين في الأندلس، وكل من يتجرأ على تسلم أية بضائع أو أصناف نادرة أو منتجات قادمة من الهند، أو شرانق الحرير أو السكر أو الكتان، ينبغي إنزال العقوبات نفسها المقررة على من يتلقى بضائع واردة من أراضي السلطان وبلاده،

وبذلك لن يتجرأ هؤلاء المسلمون المغاربة من الجنوب على ركوب طرق أراضي السلطان لكي يبتاعوا منها تلك الأصناف والبضائع، وهذا ما وقع في الماضي يوم كان تطبيق الحظر تطبيقاً شديداً وأكثر دقة.

الفصل الرابع: أسباب وجوب أن يشمل هذا الحظر حتى الشمال من نهر سيحان وصولاً حتى آني:

وأيضاً ليكن من جهة الشمال عند تخوم كليكية، المدعوة في هذه الأيام أرمينيا، من النهر المسمى سيحان، مروراً حتى الشاطىء التركي الذي كان فيما مضى تابعاً لبيزنطة، ونزولاً حتى آني، ليكن محظوراً على أية بضائع قادمة من الهند أو من أراضي السلطان المرور، وبالطريقة نفسها هذه المتقدمة الذكر بخصوص بلاد المغرب، وينبغي أن يكون ذلك تحت طائلة الحرمان الكنسي، وسبب ذلك أنه في تلك المناطق حركة نشطة، وخاصة في منطقة كلايا وأضاليا، لبيع الخشب والقار والرقيق من الغلمان والجواري من المسيحيين والوثنيين، وكذلك الحرير وغير ذلك من البضائع التي تنقل جميعاً إلى هناك من الأراضي التابعة للسلطان، وبشكل خاص من مصر، ذلك أن هذه البضائع تفرغ هناك، ومن ثم يعاد تصديرها وبيعها، وإرسالها مجدداً إلى تركيا، كما يجري إرسال السكر والكتان والتوابل وأصناف أخرى كثيرة، فبهذه السلع يجري إغراق تلك المناطق، ونظراً لوفرتها يجري شحن الفائض منها بحراً نحو البلدان الأوربية.

وكما تقدم بنا القول، وإنه نزولاً من آني يقضي بالوصول حتى سكوتاري Scutari الواقعة في الوسط مقابل القسطنطينية، لأن الأتراك — الذين هم أسوأ الخلق بين المسلمين — قد استولوا على جميع البلاد الواقعة فيما وراء أويدوس Auedos شرقاً، وقد قتلوا العديد من الاغريق، وأسروا الكثيرين، وباعوهم في أسواق النخاسة،فضلاً عن هذا عاد أولئك الأتراك من جديد، فأخذوا يمخرون عباب البحر، وقد

دمروا جزراً عديدة في المنطقة بكل وحشية مذهلة، إلى حد أن تلك الجزر قد خربت تماماً.

ويلزم الانتباه إلى أن الشخص الذي سوف تتولى كنيسة الرب المقدسة، الأمر بتعيينه قائداً، قد يتمكن من أن يوجب على المسلمين القاطنين في تلك المناطق الامتناع عن تصدير أو استيراد أية سلعة من الأراضي التابعة للسلطان، وسوف يلتزم هؤلاء بالأوامر، لأنهم أنفسهم يحتاجون إلى القمح وبضائع غيرها كثيرة، فضلاً عن هذا سيخافون من الغلايين المسيحية، وإذا لم يلتزموا، يتوجب تطبيق الحظر ذاته المطبق تماماً ضد كل مسيحي يتجرأ على الذهاب إلى الأراضي التابعة للسلطان، على الذين يقدمون على قصد المناطق التركية وسيلحق هذا بالأتراك أذى عظيماً، لأن الأتراك هم أسوأ المسلمين الذين لهم علاقة بالمسيحيين الأشرار ويتعاملون معهم تجارياً، مخالفين بذلك قرارات الكنيسة ومعطلين لأوامرها أكثر من أي شعب آخر في العالم.

الفصل الخامس: الأسباب المسوغة لمنع أي مسيحي من شراء أية بضائع مجلوبة من البلدان الخاضعة للسلطان، مهما كانت الطرق التي جاءت منها.

ينبغي ألا يتجاسر أحد من الناس، في أية بقعة من بقاع الدنيا، ولا سيما في بلاد الاغريق، وفي الجزر التابعة لها على شراء أو تسلم أية أصناف نادرة أو بضائع من الهند، ولا شرانق حرير ولا سكر ولا كتان، إذا ما خمن، أو تأكد أنها مجلوبة بحيلة أو وسيلة من الأراضي التابعة للسلطان، وإذا فعل تنزل عقوبة الحرمان نفسها، وسبب ذلك أنه في الماضي عندما كان المسيحيون يمتنعون من الذهاب إلى بلاد السلطان، أكثر مما يفعلوه اليوم، كانت جزراً ومناطق بحرية كثيرة تستقبل المهربين الواصلين محملين بضائع من بلاد السلطان، ونجم عن ذلك أن غالبية من التجار المسيحيين في المناطق البحرية، كانوا يحملون — في ظل هذه

الأوضاع — البضائع الموائمة، ويستخدمون الأراضي التابعة للسلطان، فيعبرون إلى تلك الجزر والمناطق، وكانوا من هناك يسمحون لأنفسهم — بضميرهم الواسع — بإرسالها إلى البلدان المسيحية في الغرب.

الفصل السادس: العقوبات المتوجب إنزالها بالأمراء وبحكام المناطق وبالجماعات التي لا تلتزم بهذه الاجراءات، فتستقبل تلك البضائع في مراسيها، أو في أراضيها.

ومن أجل أن تطبق هذه القضية المقدسة تطبيقاً كلياً لمجد سيدنا يسوع المسيح، وحمده، ولكي تنزع من أمام الجناة فرصة الخطيئة، ليتلطف الأب الأقدس وليوافق على أن يزاد على هذا الحظر: إن على كل حاكم أو مسؤول عن منطقة أو أي شخص معهود إليه القيام بمثل تلك المهمة، أن يتعهد ألا يقبل بأي شكل من الأشكال على أراضيه أو أراضي أتباعه، الذين ينتهكون هذا الحظر، أو حدوث شراء لبضائعهم هناك، أوأن يقدم لهم النصح أو أي عون أو منحة أونجدة،أو بأن يدعموا بأية طريقة من الطرق، وذلك تحت طائلة العقوبة نفسها، التي يستحقها الذين يدعمون فساد الهراطقة أو يشايعونهم.

فإذا ما تم ذلك كله، فإن الرب سوف يفتح الطريق لتحقيق هذا المشروع كله، أما إذا لم يرق لقداستكم إنزال هذا النوع من العقوبة بحق هؤلاء الناس، فإنني أعتقد أننا لن نستطيع قهر الكفرة غير المؤمنين ونفيهم، ومثلهم أيضاً المنافقين الذين اغتصبوا من المؤمنين ملكية الأرض المقدسة، ما دمنا غير قادرين على إلزام حتى التابعين لنا بالتنفيذ، وعاجزين عن منعهم بأن يحملوا إلى أعدائنا مثل هذه المساعدة، وهذا الامتياز، لكن إذا راق لقداستكم فرض هذا الالزام، وهذا الحظر، فكل شيء يمكن أن يتم بسهولة ويسر.

الفصل السابع: مراقبة البحر وحراسته، وكيفية تأهيل الجهاز الأمني

الأول للمسيحيين — أي الجيش — للحرب، ومقدار التكاليف.

ما أن توافق قداستكم على الحظر المذكـور في الموجز المتقدم، أتمنى أن تتكرم قداستكم بالهام من الروح القـدس، أن تأمروا بالاعلان عن ذلك في كل مكان، من أجـل مـراقبـة البحـر، لملاحقـة المسلمين والمسيحيين الآثمين الذين يروحـون ويغـدون من وإلى الأراضي التـابعـةللسلطان، وكل من يخرق هذا الأمر المحق تماماً، من أمثال هؤلاء، ينبغي أن يتولى مطاردتهم في كل مكان، وبشكل دائـم القـائـد الذي تعينه كنيسـة الرب المقـدسة، وعلى ذلك القـائـد اتخاذ التدابير الكفيلـة بعدم دخـول الحديد وبقية أنواع البضائع إلى أرمينيا، وذلك عندما يتأكد أنه من الممكن إعادة تصـديرها من هناك إلى البلدان الخاضعـة للسلطان، والسبب هو مـايلي: إن أرض ملك أرمينيـا متاخمة لبـلاد السلطان وبلاد غيره من المسلمين، ومن المتـوجب إعطاء قبطانكم — أقـول دومـاً بكل تواضع — عشرة غـلايين، يوجههـا إلى الجهـة التي تأمـر بها قـداستكم، وذلك من أجل العبـور الكبير، ويشترط تسليح تلك الغـلايين، ويقصـد منه إنجـاح مشروعكم لحمـد الرب ومجده، وعلى هذا ينبغي أن يتحلى الذي سيكون القبطان بمـؤهلات لا تدع مجالاً لأي مسيحي مطيع القيـام بمعـارضتـه مطلقاً.

ويتـوجب شحن تلـك الغـلايين لمدة تسعـة أشهـر وتزويـدها بطاقم مـدرب وأن تكون أحوالها جيـدة، فيها كل مـا يلزم من مؤن وسـلاح، وينبغي على القبطان القيام بمـراقبة البحـر لمدة سنة، وأن يمنح امتياز أن كل ما يستولي عليـه هو ورجاله الذين تحت إمرته يكون له ولهم، وبهذه الوسيلة سيـزدادون يقظة، وغيرة من أجل الكشف عن كل من تسـول له نفسه مخالفـة هذا الأمر المقدس ومـلاحقته، ونيل هذه الأسـلاب أمر ضروري لهم تماماً من أجل الانفاق على عيشهم، وأداء مهمتهم.

وإذا ما رغبت قـداستكم في معرفـة كم سيكلف هذا كله، نجيب أن

شراء الغلايين وشحنها بالعتاد والسلاح سوف يحتاج إلى مبلغ خمسة عشر ألف من الفلورينات، مقابل الرواتب ونفقات الأطعمة وبعض الحاجيات الأخرى على أساس أن يكون على ظهر كل غليون مائتين من الرجال مع مشرف أعلى يكون شهماً وكفئاً، يمكن للقبطان أن يجد لديه، وقت الحاجة، النصيحة والمساعدة والدعم، ويضاف إلى المجموع مبلغ ألفين وخمسة وتسعين من الفلورينات، وإذا ما أضفنا إلى هذا كله رواتب تسعة أشهر ، يصبح المجموع سبعين ألفاً من الفلورينات، على أساس أن كل فلورين يساوي سولديين من نقود البندقية الفضية.

وجدير بالأخذ بعين التقدير، أننا إذا ما أردنا أن نكون مسلحين بشكل جيد، وأن تكون طواقم الغلايين مدربة بما فيه الكفاية حول شؤون البحر والملاحة فمن الضروري الشروع بتوقيع العقود منذ أيام عيد الميلاد، وفي الحقيقة تبدأ كل المؤسسات التي تريد إرسال سفن إلى بلدان مختلفة باكراً باختيار الطاقم المناسب، وهكذا إننا إذا ما تأخرنا نحصل على عناصر أدنى كفاءة، ويزيد مثل هذا التأخير في كلفة الغلايين.

وإذا رأت قداستكم في البداية أن نفقات هذه الطواقم عالية جداً، فبإمكانكم الاكتفاء بسبعة غلايين ضمن المواصفات والشروط المبينة أعلاه، وإذا شكك أحدهم بإمكانية توفر قبطان يتمتع بالمؤهلات المطلوبة، نجيب بأنه من المنطقي العثور عليه، لا سيما عندما نغريه بالراتب وبالحصة التي سينالها من الغنائم، التي نقدر عقلانياً سوف تكون كبيرة جداً على الأرض، وفي البحر، وبذلك تكون كلفة هذا الجيش نحواً من خمسين ألف من الفلورينات، ما عدا كلفة الغلايين وتجهيزها وتسليحها، والمهم في الأمر أن يحقق المشروع النتيجة المتوخاة.

ومن المؤكد أن هذه الغلايين ستكون ضرورية جداً للدفاع عن الأراضي الأوربية نفسها، ولضمان سلامة المؤمنين الساكنين فيها،

وللانطلاق بنية مهاجمة المسلمين، وبشكل خاص الذين يركبون البحار ويتاجرون مع المناطق التابعة للسلطان، ولملاحقة المسيحيين المخالفين والمنشقين والمسلحين وجميع أنواع الكفرة المتبقين، لمنعهم من استيراد السلع والتجارات إلى الأراضي المذكورة، أو تصديرها، ولسوف تكون النتيجة أعظم فعالية إذا طبقت الإجراءات ذاتها على البر، وإذا عمل بالأسلوبين معاً، فوقتها ستكون النتيجة أفضل بكثير، وباختصار إنني كلما تفحصت المسألة وتأملتها ملياً، وتفكرت بالفوائد والمنافع التي ستنتج عن الالتزام بهذه الاجراءات على الأرض، وعن ملاحقة من يخالفها مع بضائعهم، وإذا ما أخذنا بعين التقدير العون الذي يمكن أن تقدمه الغلايين التي تستطيع قداستكم الحصول عليها من جزر اليونان وقبرص وغيرها، وإذا ما رسمت قداستكم الرسولية السامية هدفاً أولياً ورئيسياً لتحقيقه، أعتقد أنه بخمسة غلايين فقط، سيكون — كما تقدم وقلنا — من الممكن في الوقت الحالي، الحصول على النتيجة المرتقبة، بما فيه الكفاية.

وستبلغ نفقات هذه الغلايين الخمسة خمسة وثلاثين ألفاً من الفلورينات كل سنة، دون أن نحسب ثمن الغلايين وتجهيزها وتسليحها، وفي الحقيقة إذا كانت الغلايين مسلحة بشكل جيد، وإذا ما أنزلت الكنيسة أوامر حرمان كنسية أشد مما كان في الماضي، فمن الممكن بيسر الحيلولة دون نشوب خلافات ونزاعات بين رجالات الأمراء والجماعات البحرية وبين الكنيسة، وذلك حسبما توقع الكثير حدوثه، مثلما وقع ما بين فرسان الاسبتارية وأهل جنوى في أيام الراهب فولكونيس دي فيلاريتو Fulconis de Vilareto الذي كان يشغل آنذاك منصب المقدم الأعلى للفرسان الاسبتارية، وبدون ذلك لن يكون تنفيذ مراقبة البحر أمراً ممكناً، وبناء عليه سيكون تطبيق هذه دون تلك ناقصاً، وهذا ما أوضحناه في القسم الرابع.

أما بخصوص الغلايين اللازمة في البلدان الأوربية:

إنه إذا ما رغبت قداستكم في تنفيذ المشروع على الأرض، ومن ثم إرسال بعض الغلايين التي جرى الحديث عنها من قبل، من أجل حراسة البحر، وأن يمتلك القبطان الذي يتسلم إمرة الأسطول، الصلاحيات المطلقة للعمل أين يرى وكيف يتدبر، من الممكن له بسهولة تأمين العدد الكافي والجيد من الغلايين، حيث يمكنه الحصول على غليون من جنوى من عند آل زكريا، الذين هم سادة جزيرة كايوس القريبة من تركيا، وعلى غليون آخر من البندقية من عند السيد وليم سانوتو، وآل غيزو Guise الذين هم في الجزر المجاورة، ويؤمن الغليون الثالث من بطريرك القسطنطينية مع إكليروسه، وبعض سادة جزيرة نغروبونتي Negroponte ، إذا طلب منهم ذلك على أن لا تكون شروطهم أقسى من الشروط التي وضعوها في الماضي، أما الاسبتارية فإنهم سيقدمون اثنين من الغلايين، وذلك من الجزر التي بحوزتهم، وسيتولى رئيس أساقفة كريت تسليح الغليون السادس بمعاونة إكليروسه والأعيان الذين في الجزر المحيطة بهم، ومعهم رجال الاقطاع وسواهم من أهل كريت، إذا ما طلب ذلك منهم خطياً، وإذا ما منحوا الغفران المعتاد منحه في الأحوال المماثلة، وفيما يتعلق بجلالة ملك قبرص وأساقفة الجزيرة وأعيانها، فيمكنهم منطقياً القيام متطوعين بتسليح أربعة غلايين، فهذا أمل معقود عليهم، ذلك أنهم سلحوا فيما مضى أكثر من أربعة غلايين، هذا ولا يمكن للذين يتولون تسليح هذه الغلايين الادعاء بأي حق عليهم، والمفهوم أنهم قد تخلوا عنها لصالح الجميع ولخدمتهم، وبفضلها يمكن تأمين سلامة أعظم ضد غارات الأتراك، وضد النشاط العدواني لغيرهم من المسلمين، كما يمكنهم التحصن ضد الحلف المعقود بين الكاتالانيين وغيرهم من الأشرار المجرمين.

وسوف يكون كل واحد من هذه الغلايين مجهزاً بطاقم يتكون من مائتين وخمسين رجلاً، وهي لن تكلف خزينة الكنيسة الرومانية أية نفقات ،لأن صيانتها واقعة على عاتق من جهزها وقدمها، ويمارس القبطان المعين من قبل الكرسي الرسولي سلطانه على هذه الغلايين وعلى سواها، ويستطيع في المستقبل ملك قبرص والاسبتارية وباقي سادة الجزر اليونانية — إذا دعت حاجة كبيرة وواضحة — تأمين غلايين أخرى وفرساناً ورجالة لبعض الوقت، يضاف إلى هذا من الممكن العثور في تلك المناطق على غلايين يتولى تسليحها التجار، وهذه يمكن في بعض الأحيان وبعض المناسبات استخدامها، لاسيما عندما تلتحق كلها بباقي الغلايين، وهكذا يمكن بعون من بيده تدبير كل شيء وإرادته تحقيق خير كبير، شرط أن تتولى قداستكم تشغيل هذه الغلايين، بقيادة قبطان جيد.

القسم الخامس

الأسباب المسوغة لتوجب يقظة الكنيسة في هذا المجال، وهو في ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الحث على متابعة تنفيذ هذا المشروع بعد الإقلاع به مباشرة.

إذا حسن في ناظري قداستكم الوصول إلى الغاية المتوخاة مما تقدم، فإن ذلك سيكون مؤشراً واضحاً على أن الرب شاء الشروع بتحقيق استرداد الأرض المقدسة، تلك التي رواها بدمه الثمين مولانا يسوع المسيح، وأنه بالفعل قد بدأ بذلك بشكل ملموس، فبناء على طلب صاحب أرمينية، ذلك المسيحي الصالح قامت دولة غريبة، ووجهت ضربة صاعقة إلى السلطان وإلى المسلمين، نعتقد أنها انتقام من عند الرب، بسبب القسوة المتناهية التي ارتكبها السلطان والمسلمون بحق المؤمنين بالمسيح في كل من عكا وسورية، عندما اجتاحوهما، ودمروهما، وخربوهما، وسبوا الكثيرين من أهلهما، ويدلل ما حدث على أن الرب — كما قيل — قد شاء الشروع بتدمير قسم كبير من أرض السلطان وبلاد المسلمين، فأنتم أيها الأب الأقدس، يا من تمثلون الرب، سوف تبذلون كل جهد مستطاع بغبطة وسرور، ونحن واثقون من أن ذلك لاسترداد الأرض المقدسة التي تئن وتنوح بمرارة، ذلك أنها ميراثكم الحي، وميراث الدين المسيحي بأجمعه.

وهذا ما ينتظره أيضاً المتبقي من المناطق التي احتلها السلطان وما يزال يحتلها مع المسلمين المجرمين، وإنني أعلن بكل احترام أيها الأب الأقدس أن في التأخير خطر، ونحن نجد مثلاً ونقرأ:«إن تأجيل ما كان جاهزاً ما كان قط جائزاً»، هذا ومن الضروري التمعن بأمر، وهو أن

المناطق التي يسكنها الكاثوليك تتقلص باستمرار.

ففي آسية لم يعـد ممن يؤمن بالمسيح غير كليكيـة، التي يدعوها عـامة الناس باسم أرمينيا، وهي على كـل حال في وضع كئيب وتعيش في ظل خطر عظيم،وذلـك حسبما سنوضح الوضع في الفصل الـرابع، هذا ولا يزال في أماكن متفرقة هنا وهناك من آسية مسيحيون، أما في إفريقية فلم يعد في حوزة المسيحيين غير جزيرة جربة، ومع هذا ما يزال هناك بعض المسيحيين يسكنون في أفريقيـا، وهم مكبوتون تحت نير المسلمين، ويحتل المسلمـون في أوربا عينهـا مملكة غـرنـاطة، ويوجـد في أجـزاء كبيرة من أسبانيـا التي يسكنها المسيحيون الكثير من المسلمين واليهـود، وإن كانوا يعيشـون تحت سلطـان المسيحيين وحكمهم، ويعيش في جـزر اليـونان الروم المنشقـون، لكن زمـام الأمـور والحكم هناك في بعض المناطق هي بأيدي المؤمنين.

ويتبع البلغـار وملك صربيا عقيـدة الروم، لكن يعتقد بوجـود بعض الكاثوليك في ألبانيا وبعض مناطق الشـاطىء، إنما عددهم صغير مقارنة بعدد غيرهم من الطوائف الأخرى، والبـوسنة هي وكر الهراطقة، وتابع الروتان Ruteni الانشقاق، ويعيشـون مع غيرهم من الملل تحت نير تتـار بلاد الخزر المتاخمين لمسيحيـي بولونيا والمجـر، ويحكم الليتـوان مع رئيس أسـاقفة ريجنسي Rigensi. والأسرة الألمانية المالكة أراضيهم بـأنفسهم، وبهذا يتضـح لنا كـم تبقـى من الأراضي التـي يسكنهـا الكاثوليـك، وألفت النظر بشكل خـاص إلى أنه لم يبق ولا واحـد من الكراسي البطريركية الهامة في حوزة المؤمنين بالمسيح.

الفصل الثـاني: التـوجـه بشكل ملح بنداء نحـو المسيحيين في البلدان الأوربية وطلب النجدة منهم ومن زعمائهم وملوكهم.

نلتمس من حنانكم وعطفكم التلطف بإلقاء النظر على مملكة المؤمنين

الأرمن الرازحين تحت نير أنياب أربعة وحوش ضارية:

فمن الجهة الأولى هناك الأسد — أي التتار — الذين يستوفون من ملك أرمينيا جزية كبيرة، ومن جهة ثانية هناك الفهد — أي السلطان — الذي يبدد في كل يوم المسيحيين والمملكة،وهناك من الجهة الثالثة الذئب — أي الأتراك — الذين يدمرون الممالك والممتلكات، وهناك من الجهة الرابعة الأفعى — أي قراصنة البحر المتوسط — الذين يهشمون يومياً عظام المسيحيين شروعاً من أرمينيا.

ولتتلطف قداستكم أيضاً بإلقاء نظرة فيها شفقة، على المسيحيين الرازحين منذ زمن طويل، وهم يعانون من العبودية في أراضي السلطان، ومن الشقاء بعد سقوط عكا وسورية.

ولتتلطفوا أيضاً بالنظر إلى المسيحيين الساكنين في النوبة وفي الحبشة، التي هي أبعد أراضي السلطان، والذين هم العبيد السود، الذين لاقوا ومازالوا يلاقون من السلطان الاضطهاد والويلات.

ولتتكرم تقواكم بإلقاء ناظريها على جزيرة قبرص، حيث يعيش أولادكم المؤمنون في خطر كبير من قبل الكفار، وأيضاً على جزر اليونان حيث يلاقي اللاتين الضيم على أيدي الأتراك، ويرغمون على دفع الجزية إليهم.

الفصل الثالث: خاتمة فيها خلاصة كل ما ورد في الكتاب الأول:

بناء على ما تقدم إنه إذا ما أعلن قداسة مولانا البابا ذلك الحظر المقدس حسبما بيناه أعلاه، وإذا ما أخذ بهذا الحظر في العالم كله، وإذا ما أرسلت الغلايين لمراقبة البحار من أجل هذه الأهداف المبينة، فإن قوة السلطان والأتراك — بعون النعمة الربانية — سوف تضعف، وسيكون بالإمكان منع السفارات والبعثات والاتفاقيات الثنائية بين امبراطور الروم والسلطان، وكذلك منع تبادل الهدايا الكبيرة التي تجحظ لرؤيتها

عيـون العقلاء، وتجتـذب قلوب الأبرار، وتوهنهـا ،ذلك أن الامبراطور والسلطان كثيراً مـا يتبـادلان الهدايا كالسـلاح، وشقق الحرير والكتـان، والسكر والعطور، والجواهر والـذهب، والفضـة، والحجـارة الكريمـة وغيرها من المجـــوهرات، ومن الممكن بسهــولة مـــداهمة هذه الهدايا والاستيـــلاء عليهـا، فبـــوســـاطة هذه السفـــارات والبعثـات المتبـادلة والمراسـلات توصل السلطان إلى استمالـة خـاقـان التتـار المدعـو أزبك، الذي يحكم بلاد الخزر وباقي البلدان الشمالية إلى درجـة أن هذا الحاكم قد اتبع شريعة محمد(ﷺ) وأخـذ قسم من شعبه يميل إلى الفساد نفسه، ومن ثم صـارت الخشية كبيرة إذا مـا استمـرت هذه الحالة طويلاً بينهم على هذا الوضع، فإن تلك الشريعة المفسـدة ستنتشر بشكل تصاعدي في تلك المنـاطق الشماليـــة، وفي هـذا ضرر كبير وخطر بالنسبـــة للإيمان المسيحي، ذلك أن مصـادر موثوقـة تؤكد أن أزبك هذا يمتلك أعـداداً هائلة من الخيـول، وجيشـه مقسم إلى مجمـوعـات، كل عشرة أفـراد في مجمـوعـة، وإذا مـا أخذنا فقـط ثلاثة أعشـار ذلك الجيش يتكون عندنا جيش جـرار، يمكن تعبئتـة بشكل يصعب تصـديقـه، فإذا قطعت جميع المواصـلات البحـرية بينهما وأغلقت كما تقـدم وبينا، نكون قـد وجـدنا الدواء الفعال والكـافي، ذلك أنه أسهل على المرء المقاومة في البـداية من أن يتمكن من تبـديل مـا ترسخ بعـد بدايتـه على مـرور الزمن، ووقتهـا سيكون البحر مع المؤمنين الـذين على هذا الجانب من البحر أكثـر أماناً، وسيجني المنافع من ذلـك مسيحيـو شـواطىء البحـر المتـوسط، لا سيما الأقوى بينها والأنشط، وهي التي يسافـر سكانها بحراً أكثر من غيرهم، وستكون هذه المنافع كثيرة، وبـذلك سـوف يـدلون مـواقفهم الخاطئة، وكذلك سيفعل العلمانيـون والأكليروس والرهبان، فهؤلاء أيضـاً سوف يجنون من وراء ذلك خيراً عظيماً.

ولسوف تكون حقيقـة الأوضاع حسبمايلي: إذا مـا تعذر الذهاب من

الأراضي المسيحية بحراً مع الذهب والفضة والمجاذيف والنحاس، والزعفران والصموغ وشقق الصوف والحرير والكتان وغير ذلك من البضائع، لإيصالها إلى الأراضي التابعة للسلطان، بسبب الحظر الذي أعلنه الكرسي الرسولي، وإذا أيضاً لم يعد بالإمكان الحصول من أراضي السلطان على الشرانق والسكر والكتان والتوابل، وباقي الأصناف النادرة والبضائع القادمة من الهند، وإذا ما عُرف في كل مكان أن الذين ينقلون تلك البضائع ويتداولون فيها، باتوا عرضة للملاحقة والمحاكمة وإصدار الحرمان الكنسي بحقهم من قبل قداستكم، فإن غالبية الساكنين في الأراضي الساحلية سيبقون في وضع خطير بسبب المشاحنات المتواصلة فيما بينهم وبين من تقدمهم من المخالفين الأوائل.

وفي جميع الأحوال ستزداد أرض أرمينيا ازدهاراً، لأنها تنتج بدورها كميات كبيرة من الشرانق، ولأن الأصناف النادرة والبضائع القادمة من الهند، ستمر من مدينة بغداد نحو شواطىء المتوسط، سوف يجني نصارى أرمينيا من وراء ذلك مرابح كبيرة، تساعدهم في الدفاع عن مملكتهم ضد المسلمين أعداء الكنيسة.

ونظراً لتدمير قسم كبير من أراضي السلطان على أيدي التتار، حسبما أوضحنا من قبل، فإن هذا مؤشر، أنه بعون الرب، وبرضى قداستكم من الممكن تدمير أرض مصر وغيرها من الأراضي في وقت قصير، وسيكون من السهل عبور الحملة الصليبية لتحويل السلطان والمسلمين[إلى الكاثوليكية] ولاسترجاع مدينة القدس التي هي مدينة الرب المقدسة، وإعادة عمارتها، وكذلك لمواساة أولادكم المسيحيين الذين يعيشون في تلك البلدان، ولنيلهم الحرية، وكذلك من أجل ازدياد الإيمان المسيحي في كل مكان.

ومن أجل هذه الأهداف جميعاً، إنني أصلي بتواضع وإخلاص، وأسأل الرب القدير على كل شيء،والعذراء مريم، والرسل القديسين:

بطرس، وبولس، وأندراوس، والقديس مـرقص، وكل المجمع اللاهوتي السماوي، أن يؤول كل ما تعملونه في هذا المجال وفي غيره من مجالات، لحمــد اسم ذلك الرب القــدير ومجده، ولكرامتكـم أنتم يا ســادتنا القـديسين، ومن أجـل خـلاص نفـوس ذويكم كلهم، وجميـع رفـاقكم أحياءً وأمواتاً، آمين.

بسم مولانا يسوع المسيح بن الرب الحي

آمين

ليرحمنا الرب وليبـاركنا، ولينير بوجهه ويتجلى علينا، حتى نعـرف في الأرض طريقك، وفي جميع الأمم خـلاصك، ولتعترف لك الشعـوب يا رب، لتعترف لك جميعها، ولتفـرح الأمم، ولتغني لأنك تدين الشعوب بالاستقــامـة وتهدي الأمم في الأرض، لتعترف لك الشعــوب يا رب، لتعترف لك جميعهـــا، الأرض أعطت ثمــرتها، فليبــاركنـا الرب إلهنا، ليباركنا الرب، ولتعم خشيته أداني الأرض وأقاصيها.

المجد للأب، إلخ .... ارحمنا يارب، أبانا الذي في السموات.

-٣٥٣٧-

مدخل إلى الكتاب الثاني

لتمجيد مولانا يسوع المسيح أصلي، وأسأل القديسة مريم البتول أمه والقديسين:بطرس وبولس، والقديسين يوحنا المعمدان، ويوحنا الانجيلي والقديس مرقص، والقديس جرجيوس ونيقولا، وكل الحشد السماوي، أن يصلوا إلى الرب ليمن عليّ بنعمته حتى أكتب وأقول في هذه الصفحات ما يفضي إلى تمجيد اسمه وتكريمه، وما يرضي مسامع قداستكم، ويؤدي إلى ازدهار الإيمان المسيحي وترسيخه.

وقد تبدو جرأة من عبد حقير مثلي واعتداد، أن يذكّر مولاه السامي بأمور شاقة شديدة، لكن إيمانه وتقواه يدفعان عنه هذه الملامة، وقد تقدم لسلفكم القديسين المثابرة وهم يتطلعون إلى استرداد الأرض المقدسة، وذلك حسبما أعلن عن هذا رسمياً، ونحن أيضاً على ثقة ويقين أن قداستكم تواقة إلى ما يصبو إليه كل مسيحي ورع.

وبقيت أنا مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، ابن السيد ماركو سانوتو، من منطقة سينت سيفرو، ومن مدينة ريفوالتي، من أعمال البندقية،أفكروأتأمل حتى تمكنت من وضع كتاب ثان حول شؤون الأرض المقدسة، وكان ذلك خلال شهر كانون الأول لعام ١٣٠٨، وهو متمم للكتاب الأول، ومثبت له وداعم، موضحاً فيه الوسيلة والأسلوب لاسترداد الأرض المقدسة، من أجل تسبيح الرب، وفي سبيل مجد كنيسته المقدسة ومجد قداستكم .

وقد فرغت من تصنيف الكتاب، في شهر كانون الأول لعام ١٣١٢ لتجسيد مولانا يسوع المسيح، في مدينة كلارنسيا Clarentiae .

بداية الكتاب الثاني من هذه الرسالة
ويحتوي على الطرق الواجب اتخاذها
والوسائل المتوجب استخدامها لاسترداد
الأرض المقدسة. وهو في أربعة أقسام

القسم الأول

تنظيم الجيش المسيحي الثاني وشكله. وهو في أربعة فصول:

الفصل الأول: وجوب وجود قبطان واحد، مع المؤهلات التي ينبغي توفرها فيه، وعدد معاونيه، والأماكن المتوجب عليه الرسو فيها.

عندما قررت وضع هذا الكتاب، وقمت بتنفيذ العمل فيه، كان السبب والمقصد والدافع: إضعاف قدرات سلطان مصر، والحيلولة بين كثيرين وبين فرصة التعاون مع أعداء الصليب مراغمة لأوامر الكنيسة، وأيضاً من أجل استرداد الأرض المقدسة، وذلك بمطاردة المخالفين على الأرض، وفي سبيل تسليح تلك الغلايين العشرة أو السبعة، كما تقدم وأوضحنا، وذلك بهدف منع أي تعامل تجاري بين هاهنا وهناك، ويمكن أن تتلطف قداستكم بإصدار الأوامر بهذا الشأن، في الوقت، وحسب الشكل الذي يراه تدبيركم البابوي، بتوجيه من الروح القدس، فإذا عزمت قداستكم على أن تدخل تلك الأوامر حيز التنفيذ، وراق ذلك للأب الأقدس، من أجل التدمير الكلي للسلطان، وبعد انقضاء السنة الثانية أو الثالثة من اتخاذ ذلك التدبير، الذي يحدد المواد التي جرت العادة بحملها إلى أرض السلطان مراغمة لأوامر الكنيسة المقدسة، من الضروري اختيار رجل نشيط، يخشى الرب، وحسن السمعة وعاقل كتوم، وكريم واسع الأفق، وقوي ثابت، وحاسم عادل وعامل لما فيه الصالح العام للمسيحية جميعاً، ومفضل لمصلحتها على مصلحته الذاتية، وأن يكون حائزاً على صداقة أهل البندقية ورضاهم، حتى يتمكن وإياهم من إجراء أعماله، ولكي يجد بالقرب منهم النصيحة والمساعدة.

ويحتاج هذا القبطان إلى ما مجموعه خمسة عشر ألفاً من الرجّالة،

وثلاثمائة من الفرسان، بشرط إذا غاب منهم واحد قام مقامه آخر، وينبغي أن يكونوا جميعاً مأجورين، يتقاضون أجورهم من الكنيسة، وكذلك ميرتهم، ولوازمهم في البحر، وكل ما هو ضروري لهم، وينبغي اسناد القيادة إلى قبطان واحد فقط، لأن العمل المنضبط يتطلب رأساً واحداً، ويتوجب أن يقود القبطان هؤلاء جميعاً إلى الشواطيء المصرية، حتى يستولي هناك على بقعة من الأرض، وفيها يتولى إقامة معسكر حسب النصيحة التي ينالها من قوم خبراء، حيث عليه أن يتولى هناك حشد أسطول بحري ونهري، كي يتمكن بوساطته من الانقضاض على أعداء الايمان في الزمان والمكان الذي يراه موائماً.

الفصل الثاني: الدولة البحرية الأكثر مواءمة لتنفيذ هذا المشروع.

أما ما يتعلق بقبطان ذلك الأسطول، أي قائده الوحيد، فينبغي اختياره من أي مكان نحصل عليه بسهولة،لأن عناصر الجيش والغلايين وسفن النقل إذا اجتمعوا وهم مسلحين من جهات متعددة، لايمكن ضبطهم بسهولة ،وانسجام بعضهم مع بعض بيسر، وتحمل كل فريق منهم الفريق الآخر، وهكذا سرعان ما تقع بينهم الخلافات، وتكون نتيجة ذلك إحباط المهمة كلها.

والذي نراه أن ذلك الأسطول ينبغي أن يكون بشكل رئيسي من رجال البندقية لأسباب عديدة:

أولاً: لأن أهل البندقية رجال صدق، وليس لهم مثيل في العالم في تنفيذ ما يعدون به بشكل جيد.

ثانياً: لأنه يوجد في البندقية وفي أحوازها عساكر وبحارة للملاحة البحرية وللملاحة النهرية سواء، وبأعداد أوفر من أي مكان آخر، وتعمل هذه الكثرة من البحارة لصالح البندقية، ليس فقط في أراضيها،وإنما أيضاً في أحوازها، حيث الكثير من الأنهار والبحيرات،

أراضيهـا،وإنما أيضـاً في أحـوازها، حيث الكثير من الأنهار والبحيرات، ولذلك هناك وفرة بالبحارة الماهرين في الملاحة النهرية.

ثالثـاً: لأن مـا يحتـاجـه الأسطول سـواء للمـلاحـة أم لغيرها من الحاجيات من الممكن توفرها في أي وقت من الأوقات في البندقية، وفي أراضيها وأحوازها بكميات كبيرة.

رابعاً : لأن أهل البندقيـة ولدوا على الماء وعلى الماء تربوا، وغالبـاً ما تعـاملـوا مع جيرانهم عبر الماء وبوسـاطـة الماء، لذلك لهم في ذلك خبرة ومهارة، ويمكن لكم يا صـاحب القداسة التأكد من ذلك من خـلال ما صنعـوه مع جيرانهم ومـا زالوا يصنعـون، وعلى هذا إنهم إذا مـا جـرى تكليفهم بتنفيذ مشروعنا الحاضر بنجاح، لا شك أنهم سينجحون.

خامسـا : أهل البندقيـة بين أهل البحـر الموجودين في الغـرب، وبين الذين يصلحـون لمثل هذا العمل، هم أكثـر من تعـوّد على الملاحة نحـو بلدان المشرق، إمـا لقلة البحـار عندهم، أو لقصر طـريقهم إلى هناك، ولأن لهم مـراسي موزعـة هنا وهناك، حتى في جـزر اليـونان، وطرقهم البحرية قصيرة جداً، ولاسيما في الشتاءبوساطة غلايينهم.

سادساً: لأنه يوجد في مقـاطعة البندقية، في مـدينة كلوغيا Clugia (هي اليـوم شيوغيـا Chioggia) رجـال ذوي بأس شديد، بأعـداد كبيرة،، لهم خبرة ودراية وأهليـة للحفـر سـواء في اليـابسـة أو في المستنقعـات، وبجـرف الأتربة من الأمـاكن المائيـة، وبإيصـال الميـاه إلى الأماكن الجافـة، ولهؤلاء فوائد جمة بالنسبة للاستعـدادات ولتنفيذ المهمة المذكـورةأعـلاه، ذلك أنهم رجـال مـلاحـة صـالحون للعمل في الأنهار والبحيرات، وهم أيضـاً عساكـر مهـرة في استخدام الأسلحـة، ويمكن الاستعانة بجيرانهم،أي أهـل بادوفا Padova وأهل فراريا Ferraria، وخـاصـة أهل سـاروي Cerui وكـذلك أهل كلوغيـا Clugia ، من

أجل تنفيذ المهمة المذكورة.

سابعاً: بسبب أن الشواطىء البحرية، أي شواطىء البندقية من غرادو Grado ، وبالتحديد من القلعة المساة بلفورت مسايرة للشاطىء حتى مدينة فراريا، ومن الشواطىءالمنطلقة من رافينا Ra-vennae ، وسيرفيا Cervia وصولاً إلى أريمينوم Ariminum ، وطول جميعها مائتين وسبعين ميلاً، تشبه الشواطىء المصرية كثيراً، سواء أكان ذلك على ضفاف البحر أو في البحيرات والسباخ والخلجان.

وبناء عليه إنه لكثرة ما اعتاده أهل البندقية من الذهاب والإياب يومياً على تلك الشواطىء، فإنهم في المناطق المصرية أفضل من يمكن استخدامه، وهم جديرون ومؤهلون للاستيلاء على أرض مصر أكثر من أي شعب آخر، يمكن إرساله إلى هناك.

وعلى الرغم من هذا كله، ومع الاقرار حتى بحقيقة ما ذكرته هنا عن أهلية أهل البندقية، إذا رأى مقامكم الرسولي السامي أن هناك شعباً آخر مؤهلاً للإرسال، فلا مانع من ذلك، لأن المهم هو أن يتم بعون الرب نجاح المهمة المطلوبة، شرط أن لا يكون ذلك الشعب مكوناً من جنسيات متنوعة، لكل منها عاداته المختلفة، أو من سلوكه شائن في بلاده، لأنه إذا كثر التباين اشتدت الخلافات، ولأن الشيطان الحسود لكل عمل ناجح، لن يتوقف عن إثارة أسباب الخلاف في داخل الجيش.

الفصل الثالث : الإعدادات للإبحار، والتجهيزات الواجب تهيئتها من أجل عبورمجموعة من الجنود، وتحضير الإمدادات، وسبل اكتساب صداقة التتار.

بعد إعداد هذا كله، سوف يكون من المناسب أن يعمد القبطان المذكور وجماعته إلى تجهيز أكبر عدد من المراكب، وخاصة الزوارق النهرية ، وذلك على نفقة الكنيسة وبرضاها، وأن يؤمنوا الميرة وجميع ما

يحتاجه الذين سيقدمون فيما بعد من الغرب، وقتذاك، إذا ارتأت قداستكم، يمكن الدعوة إلى الحملة الصليبية، في السنة الثانية أو الثالثة، وعندما يجري حشد عدد كبير من الرجال الأشداء الجاهزون للذهاب إلى هناك، فإنهم سيجدون أنه قد تم تحضير الميرة والمعسكر والمراكب للانقضاض على الأعداء،، الذين تقدم إضعافهم في البر وفي البحر، وبهذه الطريقة يمكن الاستيلاء على أرض مصر، لاسيما أن المسيحيين السود الساكنين في النوبة، وفي غيرها من المناطق في صعيد مصر وما وراءها، عندما يشاهدون هذه النجدة القوية القادمة إليهم، لاشك أنهم سينقضون من جانبهم، وسيفعل مثلهم التتار، فيهجمون من مناطق سورية، ولهذا سوف يكون مفيداً جداً اكتساب صداقة التتار، والمحافظة عليها بكل عناية، بوساطة تبادل الهدايا والرسائل الطيبة والتحيات.

فإذا ما طبق هذا المنهج، لابد ـ بعون الرب — أنه في خلال أربع سنوات أو خمس من الاقلاع بهذه المهمة المجدية، ستكون أرض مصر قد أخضعت لسلطانكم، ووقتذاك يمكن لقداستكم تسليم إدارتها إلى الذي — أو الذين — تريدون، وفي أغلب الظن أنه إذا ما أخضعت مصر، فإن أرض الميعاد المقدسة ستعجز بدورها عن الصمود، ومن ثم ستسقط بدورها تحت سلطتكم، وفضلاً عن هذا كله، سوف تستسلم لسلطتكم أيضاً باقي الأراضي التي اعتادت في الماضي أن تكون للفرنجة، وستتحرر من سلطة المسلمين، لأنه إذا اجتثت الجذور يبست الأغصان حتماً.

الفصل الرابع: كمية النفقات اللازمة لجيش قوامه خمسة عشر ألف من الرجالة، وثلاثمائة من الفرسان، والعطاء الواجب أن يؤمن لهم.

وإذا ما رغبت قداستكم أن تعرف كم ستبلغ سنوياً نفقات أولئك الخمسة عشر ألفاً من الرجالة، والثلاثمائة من الفرسان لإبحارهم ولمؤونتهم ولباقي حاجياتهم، والكلف الموائم صرفها في هذا السبيل على

التتار، أجيب بدقة:

إنها ستبلغ إحـــدى وعشرين مـــرة ضعف مبلـغ مـائـــة ألف من الفلورينات، على أســـاس أن كل فلورين يســاوي ســولـديين من نقــود البندقيــة، أي مـا يعــادل ستمائـة ألف من الفلورينـات الذهب، وذلك لتغطية نفقـات الرجالة والفـرسان والطعـام المناسب مع المبالغ التـي قد تتوفر الحاجـة إليها للمحافظة على صداقة التتـار، حسبما تقدم بنا الذكر، وعلى أســاس أن النفقـة ستكون هي ذاتها في كل سنة، وكـذلك سـوف تبلغ النفقات اللازمـة للسفن، والحبال، والعدّة، وكل مـا سوى ذلك مما هو ضروري لبناء المســاكن وسواها، مما قـد يستوجبه القتال وتعـويض الخيــول التي تعقــر أ و تنفق أثناء الخدمـــة، ستبلغ ثلاثمائــة ألف من الفلورينات الذهب للمدة المذكـورة، وبناء عليه سيبلغ مجمـوع النفقات إحــدى وعشرين مـــرة ضعف مـائـــة ألف من الفلـورينات، وفي تلك السنوات الثـلاث، أي سيكون لكل سنة سبعمائـــة ألف فلورين، وذلك شروعاً من السنة الأولى وما بعد.

وبعـد أن يكون المسيحيون قـد استـولوا في مصر البحرية على مـوقع يعسكرون فيـه ويتخـذونه مقـراً لهم، يمكــن لقــداستكم الاستفـادة من مداخيل يمكن تحصيلها من أرض مصر ومن مياهها.

أما بشأن باقي المؤن، ولوازم الملاحة اللازمة للحشد الذي سيأتي من الغـرب حسبما بينا، لابد من العمل وفق مـا تكون قداستكم قـد اتخذته من إجـراءات، وإذا رغبت قـداستكم أن تعـرف فيما إذا كـان بالإمكان إنجــاز هذه المهمـة بمثل هـذا العـدد الصغير من الناس، وبهذا القـــدر الضئيل من النفقات، أجيب بتـواضع واحترام، أنه ممكن، لكن إذا قدرنا أن شـــؤون الحرب تتطلب الضمانة الكليـــة الممكن تـوفيرها لها، وأنه لا يجوز التـوفير في هذا المضمار حتى تتـوفـر الضمانات، وإذا مـا قـدرنا أن قـداستكم ستكون قـادرة على تـأمين هذا القـدر من النفقـات، وإذا مـا

تأكـدنا من ضرورة كون الرجـال المكلفون بتثبيت مـوقع السكن — أو مـواقع — وتحصينه، أشـداء وذوي خبرة في العمل في الميـاه المالحة، وفي المياه العـذبة، فإنني أعلن بكل تأكيد أن الذي تكـون له السيطرة في المياه العذبة، ويستطيع أن يذهب إلى هنا ويعود من هناك حسب هواه مع قلة من الرجال، الذين يمكنه بشارة منـه أن ينزلهم إلى اليابسة، هذا بلا شك قادر بدون رادع أن يكون مسيطراً على الأرض أيضاً في وقت قصير.

وسبب إعلاننا هذا هو أن معظم أرض مصر موزعة حول نهر النيل، وهي أرض طويلة جداً وضيقة، بحيـث لا يمكن حمايتها مهما بلغ تعداد الناس الموجودين فيها، وكـذلك لا يمكن منع الدولة المهاجمة عن طريق الماء والحيلولة بينها وبين الاستيلاء عليها، والاحتفاظ بها، أو تدميرها.

القسم الثاني

تحديد الطرق التي يرى بعضهم أنها أكثر مواءمة ليركبها الجيش تحت راية الكنيسة، وتسميـة أفضل طريق بحرية للـوصول إلى مصر. وهو في عشرة فصول:

الفصل الأول: في أنه لا يجوز أن تسلك راية الكنيسة طريق البر.

إنه لمن الواضح والجلي مما تقـدم، ومما سيأتي تبيانه بشكل خـاص، أنه ليس مـن الضروري لجيش الحملـة أن يسلك طـريق البر، كما صنـع فيما مضى بعض القـادة الأبطال، ولا مجال للذهاب براً بسبب عقبات عـدة وعــوائق قــد يتعـرض لها الجيش، وبسبـب طول الطريق ووعــورته، وبسبب تعــداد البلدان والحواجـز والعقبـات التي يمكن أن تنشأ على الطريق في وجـه العـابرين، وأيضـاً بسبب الشـح بالأغـذية، وغيرها مما نعـرفه ضرورياً للجيش، ورب قـائل قـد يقول: لقـد تم بنجاح عبـور الراهب بطرس الناسك، ومثله الأمير غـودفري دي بولليـون عن طريق البر، فأنا أجيب أن نجاحهما لم يكن بفضل التدابير أو القوة البشرية، بل

بفضل توجيه من عون الرب، ونجز ذلك بفضل نعمة من عليين .

الفصل الثاني: ردّ رأي القائلين بوجوب رفع هذه الراية على أرض أرمينيا، أو سورية، أو القدس في الأرض المقدسة، أولاً.

قد يرى بعض الناس نزول جيش الحملة المسافر بحراً، في أرمينيا، لأنه يوجد هناك مرفأ صالح، ومناخ معتدل، وإمكانية للاستراحة والاستجمام، ومن هناك يتم استئناف الزحف لخوض الحرب في منطقة أنطاكية وسورية، والدخول من هناك إلى الأرض المقدسة، وحول هذا أقول: إنه لا يجوز النزول في أرمينيا لأسباب كثيرة:

أولها: أرض أرمينيا أرض موبوءة، وسينجم خطر انتشار الوباء في الجيش وموت عدد كبير من المقاتلين، وهنا من الضروري التذكير بأن التتار قد تدفقوا مراراً عن طريق البر، واستولوا على معظم مناطق سورية، إنما لاستحالة عبورهم إلى مصر إلاّ عن طريق الصحراء التي تؤدي إلى هناك، ولتعذر اقترابهم من المناطق المصرية، اضطروا إلى التخلي عن الأراضي التي استولوا عليها، وهكذا كان السلطان يستعيدها في كل مرة، وهو ما يزال مستولياً عليها ويتولى حكمها كما كان الوضع في الماضي، وإذا ما قيل بأن التتار أرغموا على التخلي عما استولوا عليه، بسبب أنهم لم يستطيعوا في أيام الصيف البقاء لشدة الحر، ولهيب المناخ،ويسبب نقصان المراعي وانعدامها حيث حرمت خيولهم وقطعانهم ومواشيهم الكلأ، في حين يستطيع المسيحيون إرسال إمدادات الطعام وغير ذلك من الحاجيات يومياً عن طريق البحر، كما أنهم قادرون على بناء القلاع والحصون.

أجيب متسائلاً أولاً: كيف يستطيع المسيحيون فعل ذلك، ومقابل أية مخاطر، وأية نفقات، لابل حتى لو أنهم توصلوا إلى ذلك، ما عساهم يفعلون؟

فبداية من الضرورة بمكان عدم الاستهانة بقدرات السلطان، فالكل يعلم أنها عظيمة، وخاصة في تعداد العساكر، وإذا رغبت قداستكم في معرفة كم عدد العساكر التي يُقدّر أنها اليوم تحت إمرة السلطان، إنها حسبما يجمع العارفون تبلغ ستين ألفاً من الفرسان، وهؤلاء وإن كانت مهاراتهم متفاوتة فإن ما لا يقل عن عشرين ألفاً هم من النخبة، وعشرين ألفاً من مرتبة الوسط، والمتبقي من النوع الأدنى، كذلك لدى السلطان في مناطق سورية حشوداً عديدة من المسلمين المدربين والماهرين في فنون الرماية: منهم فرسان نبالة، ومنهم رجالة، وسيتقاطر هؤلاء على الحدود الرئيسية للتصدي لجيش المسيحيين.

لذلك من المنطقي أن يكون لدى المسيحيين الموجودين هناك قوة كبيرة من الفرسان ومن الرجالة، وعدداً كبيراً من المراكب تحمل المؤن والقمح اللازم إليهم، بحراً، بوفرة، بغية تمكينهم من مجابهة قوى السلطان، بدون أي عوز، حتى يحتلوا أرض سورية بكل شجاعة، وأن يبنوا فوقها الحصون والقلاع، وهذا كله لا يمكن إنجازه من دون نفقات كبيرة، وخسائر جسيمة بالأرواح، حتى وإن افترضنا أن التوفيق قد حالف المسيحيين في هذا كله، واستطاعوا إخضاع تلك المناطق كلها لسيطرتهم، وقتها ترتاح خواطرهم، وسيقلعون عن مطاردة أعدائهم، ومن المنتظر أن الشطر الأكبر منهم سيعود إلى بلاده، وستبقى أرض مصر تحت سلطة السلطان، فما عساه سيحل وقتها بالمسيحيين الذين تخلفوا في تلك المناطق؟ من المؤكد أنهم سيعيشون والمخاطر تحيق بهم، وستستبد بهم مشاعر الخشية من أن يطردهم السلطان والمسلمون مثلما طردوا غيرهم، وألقوا بهم خارج تلك المناطق ونفوهم، ولهذا لا يصح أبداً أن يحدث الانزال في منطقة أرمينيا أو في سورية، بل يتوجب أن يكون ذلك في أراضي مصر البحرية، حسبما أوضحنا من قبل.

وهناك عامل آخر أيضاً: وهو أن احتلال مصر سيجعل المسيحيين

الموجودين في الشرق أكثر استعداداً للحـرب، والشعوب الأوربية أعظم حماساً لتقديم المسـاعـدة، عندمـا توضع أمامهم المرحلـة الأساسيـة من المشروع، ألا وهي استرداد الأرض المقدسة، ويعرفون أن المهمة المقدسة سوف تنجز بوساطة رجـال الحرب، ورجّالة الجيش، مع عدد لابأس به من الفـرسـان، وبقـدرة الـذي يتم هذا العمل لمجـده، وسينجـز ذلك بنفقـات أقل، وبضمانة أعظم، لأنه من غير الممكن تعـرض المسيحيين لخوض معــركــة في ظل المخــاطـر، إلاّ على الماء في وقت خــارج عن إرادتهم، فضلاً عن هذا إنه مثلما الرجال في سـورية أشداء ومهرة في فن الرماية، ومدربون على القتال، في المقـابل رجال مصر ضعفاء وخاملون، ومع هذا إذا حسن لقـداستكم حراسـة مملكة أرمينيـا وحمايتها، بإرسـال فرق من الفرسـان والرجالة من أجل ذلك فليكن، ويبقى الخير الأعظم والمنفعة الأكبر التي يمكن جنيها تتمثل في إيقاف دفع الجزية إلى سلطان مصر وإلى قـواده وموظفيـه، ولسـوف نحكي في الكتاب الثـالث المقبل أخبـار مـا حدث في الماضي لمدينة عكـا ولسورية بكـاملها، عندمـا كـان المسيحيــون يقطنون تلك البقــاع، فتــاريخ الماضي أفضـل معلم لصنع المستقبل، فعــوضــاً عن الناس المزمع إرســالهم لحراســة تلك المملكة وحمايتهـا، والذين سيتعـرضـون للوبـاء المنتشر في ذلك الإقليم، والذين سيتغير عليهم نمط الحياة، من الممكن اللجوء إلى الطريقة التي يأخذ بها الأمـراء المقيمون محليـاً، وهي قضـاء فصل الشتـاء في الساحل، ومـا أن يطل الصيف حتـى ينتقلون إلى الجبــال حيث الينابيع العــذبة، والميــاه الصافيـة والباردة على الرغم مـن شدة الحر، وحيث الأعشاب الـوافرة والمراعي الخضراء والهواء المنعـش، وإذا مــا اضطـر أولئك القـــوم إلى النزول إلى السـاحل في أيام الصيـف فليتجنبـوا ضربة الشمس، وعليهم الالتزام بالاعتـدال في المآكل وفي شرب الخمرة، وفي المضـاجعة في أوائل الخريف وقت تسميد الأرض وهذه النصـائح مفيدة جداً سـواء في آخيا Achaia أو في الجزء الأكبر من مناطق بلاد اليونان.

ولنعد الآن إلى مشروعنا، لنقول: إن مملكة أرمينيا،جديرة — على كل حـال — أن تنال من سمـوكم الـرسـولي، عناية أكبر، ذلك أنها الأرض الوحيـدة في آسيا كلهـا، أي في الجهـة الشرقية من البحـر، التي بقيت في هذه الأيام تابعة للإيمان الكاثوليكي.

الفصل الثـالث: رفض رأي القـائلين بوجـوب الانزال البحـري في قبرص، أولاً.

هناك من يرى وجوب أن يأخـذ العبور الكبير طريق البحـر، ويتجه أولاً إلى قبرص، للاستراحـة هناك والاستجمام بعـد كثير من المتـاعب والمشاق التي يكون الجيش قد تكبدها أثناء الابحار والعبور، ويباشرون بعد ذلك محاربة أعداء الايمان، ويستندون في هذا إلى رأي الملك القديس لويس وتجربتـه في الأرض المصرية، لابل ربما في أراضي سـورية التي لا تبعـد كثيراً عن جـزيرة قبرص، وعلى هذا أجيـب بكل احترام: إنه لا يجوز سلوك ذلك الطريق، لأسباب هي:

أولاً: أرض مصر أسلم صحياً من أرض قبرص، وميـاهها أفضل، وفيها كميات وافرة من الأسماك لتغذية الشعب.

ثانياً: إذا انعطف الجيش نحو قبرص أولاً، ليستأنـف من هناك سفره إلى الأراضي المصرية، وذلك قبل أن يتـولى مهاجمة الأعداء، فـالأفضل له الذهاب مباشرة إلى الأرض المنوي الاستيلاء عليها.

أما بشأن فكرة العبـور من خلال إسبانيا، والانتقـال منها عبر مضيق جبل طارق إلى مـدينة سبتة، ومنها إلى تونس، أو عبر أي جـزء من بلاد المغرب، فإني أوثر عـدم الوقوف عندها، فإنه انطلاقـاً مما قلناه، ونقوله، ومـا يمكن أن يقـال، إن هذه الطرق غير مناسبـة، وغير صالحة للسفـر نحو الأرض المقدسـة، وبالتالي إلى احتلالها، خصوصـاً بسبب الصحارى الواقعة في وسطها، ومن جانب آخر، حدث أنه عندما أبحر الملك النبيل

القديس لويس، ملك فرنسا، إلى تونس هو وابنه جين تريستان، مع نائب الكرسي الرسولي، ومعهم عدد كبير من الأمراء من مرتبة كونت وبارون، حدث أنهم وقعوا ضحية الوباء الذي أودى بهم، وبعدد كبير من الشعب المسيحي، حسبما سنذكر ذلك بالتفصيل، في الفصل العاشر من القسم الثاني عشر من الكتاب الثالث.

وكثيرة هي الطرق التي جرى الكلام حولها من أجل استخدامها لمهاجمة أعداء الإيمان الكاثوليكي، ولاسترداد الأرض المقدسة، والذي نراه هو: إن الطرق التي وصفناها من قبل هي الأفضل والأجدى، ولذلك قيدتها وقارنت فيما بينها وبينت أن الطريق البحرية إلى مصر هي الأفضل، لكنني أدع دوماً لفطنة قداستكم تقرير اختيار الطريق.

الفصل الرابع: التحصينات وملحقاتها، وحديث حول التفكير الدأوب لدى البابا ولدى أخوانه بشأن حشد هذا الجيش من رعيته ومن المؤمنين بغية ضمان التحصينات، والذي تمّ في الماضي للاستيلاء على تلك التحصينات، وما ينبغي الآن القيام به للغاية نفسها، مع مثل رمزي يلزم تطبيقه حول موضوع قلعة من المتوجب احتلالها.

هناك قلعة كبيرة جداً، وجميلة محصنة بأسوار وأبراج، وحولها حفائر وخنادق كبيرة وسواتر رملية، والقلعةمشحونة بالرجال، ويدافع عنها وعن الخنادق والسواتر عناصر ممتازة من الرجّالة، وأبراج القلعة محصنة وتشرف على جميع الخنادق والسواتر، وهذه القلعة مجهزة بممرات تربط ما بين الأبراج والخنادق، ومن الممكن سلوكها ذهاباً وإياباً، ولهذه الممرات أبواب حديدية قوية، وإلى جانب ذلك لتلك القلعة باشورة كبيرة، يبقى الباب خلفها لوحده مفتوحاً بشكل دائم، ينقل عبره حراس القلعة كل ما يحتاجون إليه، ولا سيما الضرائب والجزية، والأتاوات التي

يدفعها الملوك والبـارونات والفرسان، والأعيان الأثرياء يوميـاً، وكذلك البضائع التي يجلبونها.

وهناك أيضـاً سيـد قـديس، يمتلك عـدداً من الأخـوان والأبناء والأتبـاع والمؤمنين، وهو كـان ومـابرح يفكر مع إخـوانـه المذكـورين، ويسهـر ليله ويقضي نهاره وهو يفكر ويتأمـل كيف سيتمكن من حشـد جيشه، ومن ثم كيـف يمكنه الذهاب إلى تلك القلعة للاستيـلاء عليها، طالبـاً من المؤمنين ومـن أتبـاعـه المعـونة والمشـورة، ليعـرف أي طريق يركب، وأيـة خطة يطبق، حتى يتمكن هو وشعبـه من الاستيـلاء على تلك القلعة.

فماذا نجيب، ومـا الذي نقـوله، ومن أي منطقـة يمكن أن نذهب للاستيلاء على تلك القلعة؟ وإذا قيل لنا علينا الذهاب من الجهات التي فيها الخنادق والسـواتر الرملية والممـرات، لن يكون من الصعب مطلقاً القـول علناً بـأن ذلك سـوف يكلف مشقـة كبيرة، لأن عبـور الخنادق والسـواتر بغيـة الوصـول إلى الأسـوار والأبراج خطير جـداً، ويكلف المهـاجين كثيراً، وسيجـد أولئك السـادة القـديسين أنفسهم متعبين ومـرهقين في النهاية، بسبـب المشاق التي تكبـدوها أثناء عبـور الخنادق والسواتر، للحملـة على تلك الجماعات ببسالة، ولو أنهم كـانوا في داخل القلعة لهانت عليهم العملية والمحاولة، ولكان أقل خطراً عليهم، وأدنى ضرراً مما لو أنهم خسروا كل ما كـانوا قد ربحوه، فهـذا ما تمت البرهنة عليه، وصار واضحاً من خلال هذا المثل.

وأوضح من هذا كله هو أن نزاهـة الذين تقدمـوا وبسـالتهم مكنتهم من دخـول تلك القلعـة المنيعـة، إنما أرغمـوا على الانسحـاب، بسبب النصح الفاسد، وبسبب انعـدام النظام لاحقاً، وهكذا خسر ورثتهم كل مـا كانوا قـد ربحوه تقـريبـاً، وأرسل السيد الأقـدس مجدداً أفواجاً من النبلاء والسادة ليقـدموا النجدة إلى الذين تقدمـوهم، ولكي يساعدونهم

على اقتحام تلك القلعة، وقد توقف بعضهم عند الشروع بالمحاولة، ومضى آخرون لاسترداد القسم الأكبر مما كان متقدموهم قد فقدوه، ثم رجعوا إلى أهليهم وإلى ممتلكاتهم، ودخل بعضهم الآخر إلى القلعة من الباب، لكنهم لم يأبهوا بالنصيحة الحكيمة التي قدمت إليهم، ولم يسيروا حسب النظام المقرر، فألقوا بأنفسهم بين أيدي أعدائهم، وعجزوا عن الاستيلاء على القلعة، وأرسل بعد ذلك الأب الأقدس، إمدادات بشرية عديدة، على دفعات متوالية، لكن الجميع عجزوا في النهاية عن الدفاع، وهكذا خسروا كل ما كانوا قد اكتسبوه.

ولهذا توجب القول، أنه كان عليهم الدخول من باب الباشورة الذي كان وما برح مفتوحاً، لأنه الطريق المتوجب سلوكه طالما لا يوجد أي عائق يعترض السبيل، ووجب بعد ذلك حراسة ذلك الباب، بشكل يحول بين الضرائب والأتاوات والبضائع وجميع الحاجيات، وبين الوصول إلى تلك القلعة، وبذلك لن يستطيع حماتها وسكانها تجديد أسلحتهم.

وإذا ما أعطى الرب السيد الأقدس نعمة عظمى تمكنه من حشد ما يريده من العساكر والجنود القادرين على المرور بانتظام وثقة من ذلك الباب، ومجابهة الأعداء، ومحاربتهم برجولة وببسالة شبراً شبراً، فإن ما كان يبدو مستحيلاً سيغدو ممكناً إذا ما تقرر تنفيذه، ولهذا سيكون السيد الأقدس محموداً إذا ما استمع إلى نصيحة العقلاء وأخذ برأيهم، بإرسال من يقتحم القلعة من الباب المذكور، فذلك أفضل بكثير، وأضمن وأيسر بما لا يقاس من أن نذهب إلى تلك القلعة من الجوانب، التي فيها الخنادق والسواتر حيث ستكون المقاومة شديدة.

الفصل الخامس: مثل رمزي آخر يتعلق بشجرة يتوجب اقتلاعها، وما هو متعلق بها، وبالينابيع التي يرويها، وبالثمار التي تعطيها وتنتجها، وحول الذين يذهبون لشراء ثمارها، وكذلك حول الأمراء

الأتقياء الذين أرادوا وما زالوا يريدون اقتلاعها، وحول ما تم، ويمكن أن يتم بهذا الشأن.

كانت هناك شجرة عظيمة جداً، وارفة الأغصان، وكثيرة الأوراق، وكانت الأغصان وارفة ممتدة كثيراً، تغطي بأوراقها الأرض، وتروي تلك الشجرة ينابيع لا تنضب، ويغذيها بشكل خاص نهر، يعطيها باستمرار الغذاء الغزير، ولولا ذلك النهر لما كان بإمكان تلك الشجرة البقاء بسهولة على حالها، ولا تعطي تلك الشجرة أية ثمار، لكن تنبت تحتها وتنمو ثمار كثيرة طيبة، ومع ذلك من رغب بالذهاب إلى هناك لقطف بعض تلك الثمار، فإنه يسير أشبه بمغمض العينين، لأن تحت تلك الشجرة ظلمات كبيرة، غير أن جودة الثمار اجتذبت العديد من الناس للذهاب إليها، وبالفعل توجه كثيرون إلى هناك، وكثيرون هم الذين يرغبون بالذهاب إلى هناك، ومع أنهم لا تدفعهم أية ظروف شخصية أو مصلحة، مع ذلك يذهبون.

ولقد فكر السيد الأقدس مع أخوانه وأبنائه وأتباعه المؤمنين الخاضعين له باقتلاع تلك الشجرة واجتثاثها، حتى يكون ممكناً الذهاب على ضوء وبحرية لجمع الثمار الموجودة تحتها، وكان أبناؤه أيضاً وأتباعه، والمؤمنون الخاضعون له يرغبون بالذهاب هم أيضاً، وامتلاك ثمار تلك الشجرة من دون معارضة، ولذلك التمس العون والمشورة لاجتثاثها من جذورها، وتبديدها، فأشير عليه بإرسال رجال ذوي خبرة كبرى إلى هناك مع فؤوس مشحوذة ومناشير، وأدوات أخرى تمكنهم من التعامل ببأس مع تلك الشجرة، وهذا ما حصل.

وشرع الرجال يقطعون ما أمكنهم من أغصانها، وتجريدها من أوراقها، وأتوا على شطر كبير منها، واقتربوا كثيراً من جذعها، غير أن هؤلاء الرجال الذين تولوا العمل وباشروه تعبوا والتمسوا الاستراحة، وتوقفوا عن العمل، فكانت النتيجة أن عادت تلك الشجرة التي

تسقيها الينابيع المذكور، وخاصة ذلك النهر باستمرار وحيث هناك خيرات كثيرة، وحيث أن ساقها قائم في أرض طيبة وخصبة، عادت تلك الشجرة للنمو والامتداد، واستعادت وضعها كما كانت من قبل.

وعاود السيد الأقدس الكرة وأرسل مجدداً المساعدة والنجدة إلى الذين تقدم وأرسلهم لقطع تلك الشجرة، وعاودوا هم عملهم من جديد يقطعونها ويقطعون أغصانها ويبترون أوراقها، ويحفرون الأرض التي تغطيها تلك الشجرة، وحدث في النهاية أن هؤلاء أيضاً، الذين أرسلوا مؤخراً، وجدوا أنفسهم متعبين، وقد عادوا إلى البلاد التي ولدوا فيها، قبل إنجاز العمل، ناشدين للراحة من العمل.

وتكرر المسلك نفسه على مر الأيام مع غيرهم كثيرين، غير أن الشجرة التي قلنا بأنها مروية بدون انقطاع، وخاصة من ذلك النهر الكبير ، وأن جذوعها غارقة في أرض خصبة وجيدة، عادت إلى حالتها الأولى، مثلما تقدم وعملت مراراً، والآن ماذا نقول؟ وأية نصيحة يمكن أن نسديها إلى السيد الأقدس، الذي يطلب تقديم العون له والنصيحة لاجتثاث تلك الشجرة من أصولها؟ والرأي الأفضل هو تغيير الطريقة المتبعة حتى الآن، بنسيان الأسلوب الذي جرى تطبيقه، وهذا واضح مما جرى ، طالما أن رجالاً أشداء تقدم وذهبوا إلى تلك المنطقة بهدف اجتثاث تلك الشجرة وإزالتها كلياً، وأخفقوا في الوصول إلى مآربهم، علماً بأنه يصعب اليوم وجود رجال لهم مزاياهم، فأية نصيحة نعطي بعدما عجزت تلك القوة الباسلة عن القيام بإنجاز ما أسند إليها؟ ومن الضروري إرسال مساعدة إلى تلك القوة، وهذا يتطلب علماً وبراعة، وإذا توفر هذان العنصران، فالأمل بالرب ستجتث تلك الشجرة بكاملها.

وبالطريقة الجديدة، ووفق الشكل الجديد الذي نقترحه، ينبغي أولاً قطع ذلك النهر الكبير الذي روى تلك الشجرة، ولا يزال يرويها

باستمرا ر.

ويجب بعد هذا توفـر رجل واسع الخبرة، يتدفق بالأصـالة، غير ميال إلى الطمع بمكاسب مادية، يسـانده رفاق صالحون، يقـوم — بنعمة من الرب وبمهارته — فيحمل معه كميات كبيرة من الديدان، فيضعها على جذوع تلك الشجـرة وفروعها، وأن تكون نـوعية تلك الديدان، بحيث أنها وقت وصولها إلى هناك، تبـدأ بقضم جذع تلك الشجرة وفـروعها، والأمل بالرب كبير، بأن تفقـد تلك الشجـرة في وقت قصير جـذعهـا وفروعها، وتسقط بسرعة مع أغصانها وأوراقها.

وبعد يمكن لقداسة البابا أن يأمـر بأن يتولى كل واحد انتزاع مايريده من جـذع تلك الشجـرة، ثم إفسـاح المجال للشعب الخاضع لقـداستـه لقطف الثمار التي كانـت تنبت تحتها، دون أن يعترض سبيلهم معترض، وأن ينعمـوا بها بسـلام، ويحتفظوا بها على الدوام، وليقـدنا إلى ذلك من يحيى ويملك إلى أبد الآبدين، آمين.

إن ما قيل، وسرد ، وعبر عنه برموز وأمثال دامغة وصادقة ومتشابهة تماماً، من شـأنه حملنا على إظهار الحقيقـة التالية: إن الطريـق البحرية إلى مصر هي بكل تأكيـد أفضل الطـرق جميعـاً، وهو البـاب الصـالح الذي ينبغي الدخـول منه لإبادة ملة محمـد(ﷺ)، بادئين ذي بدء بقطع الدرب والمنبع الذي تصل منه الموارد المالية بـاستمـرار حسبما ذكـرنا من قبل، وذلك عن طريق مـلاحقـة المخـالفين، وتسليح الغـلايين، وذلك حسبما سنوضح في الفصول التالية:

الفصل السادس: حديث حول التحصينات وما لف لفها.

ولتجنب إثارة أي شـك، فإنني أوضح باحترام وخشــوع واعتــذار قصدي من كل مـا أخبرت به قداستكم في الأمثلة المتقدمـة، فقد عنيت بالقلعــة المشـار إليهـا أرض مصر، التي ظلت منذ زمن بعيــد الحصن

الحصين في المشرق للذين يتبعون ملة محمد(ﷺ)، وقصدت بالدهاليز والستائر الرملية الصحراء الشرقية التي تحيط بأرض مصر من جهات مملكة القدس وسورية، ومثلها الصحراء الغربية من جانب أفريقيا، والتي لها تخوم مع مملكة تونس ومن ثم الصحراء الكبرى، أما الأسوار العالية والأبراج الكبيرة والستائر التي حولها،ففيها إشارة إلى تلك الصحراء الواسعة وإلى أن عبورها يوازي بمشقته تلك الأسوار والأبراج، وهو عبور مرهق، وصعب وشاق جداً، وهكذا الحال بالنسبة لعبور الصحراء الممتدة على مسافات طويلة، وكما ذكرنا من قبل أن سلوك تلك المعابر، مرهق وخطير جداً بالنسبة لأي جيش كان وعالي التكاليف، أما الخنادق ونقاط الدفاع في تلك الأرض، فمن الممكن تسميتها قلاع سورية وتركية المشحونة بعناصر جيدة من الرجّالة هم أمهر من الذين في مصر، أما أسوار القلعة المذكورة، والمشرفة على الخنادق ونقاط الدفاع، فالمقصود بها صحراء مصر التي ضمنت دوماً في الماضي أمن القلعة وسلامة حاميتها، وقد سيطرت هذه الحامية في الماضي وما تزال تسيطر اليوم على خنادق ونقاط دفاع هي حصون مملكة القدس وسورية، فهذا ما اتضح من خلال حملات الفرنجة الذين قدموا في الماضي إلى مملكة القدس وسورية، ويتجلى هذا بشكل أبين مما جرى للتتار.

والمقصود بالعبّارات والجسور التى تربط بين الخنادق والأبراج، الطرق والمسالك التي تربط ما بين الصحراء وبين مملكة القدس وسورية، وعلى هذه الطرق اختزن المصريون ببراعة كميات كافية من الماء، اعتادوا على الاحتفاظ بها لحاجتهم، فقط عندما يضطرون إلى عبور تلك الصحراء.

أما الأبواب الموصدة بمغاليق حديدية فهاكم تفسيرها:

عندما يريد أولئك السكان إخفاء تلك المياه أو إتلافها حتى لا

يكتشفهـا الأجـانب، يفعلون ذلك كلما أرادوا، ومن الواضح أنه يتعـذر على أي إنسان عبور تلك الفيافي مع جيشه من دون ماء، وهذا هو الذي دفعني إلى تسمية تلك المعابر بالأبواب الحديدية.

وأمـا باب القلعة الكبير الذي يبقى دومـاً مفتـوحاً، فإنني أؤكـد أنه مصر البحـرية، الذي تصل عبره إلى المصريين جميـع الحاجيـات المناسبـة وخـاصة الضرائب والرسـوم والبضائع التي يرسلهـا الأمراء والأعيـان والعسـاكر من جميع بلدان العـالم وشعـوبه، ولا سيما أصحاب الثـروات الذيـن يأتون بالشكـل والأسلوب الذي سـوف أتحدث بكل تـواضع ومنطق عنه، ذلـك أنه من المعـروف، ومما لا شك فيـه أن جميع السلع والمنتجات التي اعتاد التجار على إنزالها يومياً إلى الأسواق لعرضها على مستهلكيها، يدفع عنها التجـار القادمون إلى الأراضي الخاضعة للسلطان رسـومـاً كبيرة في مصر، وينفقـون أيضـاً مبـالغ كبيرة لحماية سفنهم ومـراكبهم، ويتحمل هذا كله مستهلكي تلـك الأصناف، حيث يضطر التجـار إلى بيعهـا بأثمان مرتفعـة جـداً، وهكذا يمكن القـول بأن الذين يقدمون من عند ملوك الأرض والأمراء والأعيان يحملون إلى السلطان ضرائب مـالية كبيرة جمعت من الرسـوم والمكوس التي يستوفيهـا منهم عن البضائـع التي تخرج باستمرار من تلك القلعـة، وتستهلك في أجزاء عـديدة من العـالم، لابل بالحري أن نقـول: تستهلك من قبل المؤمنين الخاضعين للكنيسـة الرومانيـة المقـدسـة ذلك أن مناطقهم هي بلا شك أكثر عدداً، وأعظم ثروة من المناطق الغربية، وهي تستهلك كميات أكبر من الأقمشـة ومـن الأصناف النادرة والبضـائـع الواردة من الأراضي التـابعـة للسلطان، وهي أكبر مما يستهلكه أي شعب من شعـوب العـالم الأخرى.

وإذا مـا طلب مني أحـد أن أوضح عن أي بضـائع ومنتجـات تدفع تلك الضرائب من قبل أتبـاع الكنيسة الـرومانيـة المقدسـة إلى السلطان،

أستطيع أن أبين بـأنها تدفـع في الوقـت الحالي عن: الفضـــــة، وألواح القصديـر، والرصاص، والفضة الصـافية، والزيت، والأعـلاف، وشقق الصـوف، والحرير، وأقمشـة الكتان، والمرجـان، وأثواب المنسـوجـات، والزعفـران، وغير ذلك من البضـائع التـي لم نذكـر هنا، لكن أسهبنا في ذكرها في الكتاب المتقدم.

ويستخدم المصريون هذه السلع، وهي عندهم بوفرة، أما الفائض من الفضة، والقصـدير، والزعفران، والمرجان، وأثواب المنسوجـات، فكلها تنقل إلى الهند، حيث يتاجر بها المصريـون، ويشترون التوابل وأنواعاً من الأصناف النادرة، ويعـودون بها إلى أرض مصر للمتـاجـرة بها، وهكذا يتضح بشكل جلي أن الفضـة والمواد المتقدم ذكرها تستبـدل بغيرها، أي أن تلك المعـادن وسـواها تسمح للمصريين بالحصـول على التـوابل والأصناف الهندية الأخـرى مقـايضـة، ومن ثم تشحن كلهـا إلى قلعـة المصريين المذكـورة، وللحصول عليهـا يسافـر التجار إلى هناك حـاملين معهم مـن بلدان الشمال — عبر البحـــر الكبير — الغلمان والجواري، الذين يسميهم المصريون المماليك، فضلاً عن هذا يحمل التجار معهم من البلدان المذكـورة ولاسيما من جزر اليونـان وبلاد الصقالبـة[السلاف]: الخشب والحديد والقار، ويعبرون بهذه البضائع البحر، ويقايضون بها في القلعة المذكرة، أي أنهم يحصلون عوضاً عنها على السكر والكتان، وعلى التـوابل بشكل خـاص، وكـذلك على أصناف نادرة من الهند، وهذا مـا يصنعـه التجار من كـلايا وأضـاليا، ذلك أنهم يحملون بشكل كبير أكثـر من سواهم الغلمان والجواري إلى أرض مصر، وغـالباً مـا يأخذونهم من أرض اليونان، وبات الآن واضحاً أكثـر من ذي قبل، أن الفضة والقسم الكبير من البضـائع التي يصدرهـا المؤمنون الساكنون في الغـرب تطلب يوميـاً في مصر، لأنها تتحـــول لصـالح تجارة المماليك المرعبــة، ذلك أن المماليك عبـارة عن جواري وغلمان من أصل مسيحي أو وثني، ومثلهـا

تجارة الخشب والحديد والقار، وهي البضائع التي تصدر بشكل دائم إلى ذلك الحصن الذي هو أرض مصر، ولأجل ذلك تتضح صوابية رأي الذين أشاروا بحظر وصول الذهب والفضة والنحاس والقصدير والمرجان إلى أرض مصر، ذلك أنه من المؤكد أن هذه السلع سوف تنتقل إلى المقاطعات المصرية، دون الاكتراث بالحظر الصادر عن الكنيسة الرومانية المقدسة، وبرأيي أنه بسبب حاجة مصر للسلع التي تأتي من مصر، فإنها تنتظرها دوماً، ويقوم السلطان والخاضعون له باستمرار بأخذ قسم كبير منها، مما هو لازم لقوتهم ولحياتهم، وبدون الاتجار بها لا يمكنهم الحصول على التوابل، ولا على غير التوابل من الأصناف النادرة، وغير ذلك من بضائع الهند، وكذلك لن يمكنهم الحصول على المماليك والحديد والأخشاب والقار، وإذا ما حصلوا على ذلك، يكون ذلك دون الكميات المرغوبة، وبناء عليه إن الذي يتأمل بالطريقة الموائمة حتى يمنع ويحول دون نقل المماليك والحديد والأخشاب والقار إلى هناك، عليه أولاً أن يحظر شحن الذهب والفضة وصفائح القصدير والنحاس، والزعفران، والمرجان، وما شابه ذلك، إلى مصر، لأن أهل مصر يبادلون هذه البضائع، بالسلع، والأصناف، والمنتجات الهندية، وإذا قيل: ألم يتقدم وأصدرت الكنيسة الرومانية المقدسة أوامر حظر وعقوبات بحق من يخالفون إجراءاتها؟ أجيب بأنني موافق على هذا، فلقد صدرت قوانين وقرارات وأوامر ومراسيم وغير ذلك، وهي بالفعل كلها مقدسة وصالحة، وبدأت تعطي بعض النتائج المفيدة، والذين أصدروها آباء روحانيون صالحون وقديسون، وحكام وسادة علمانيون شرفاء، إنما هذه التشاريع لا تجدي نفعاً إذا لم يوجد من يكلف بتطبيقها وفرضها، ولذلك يمكن أن أقرر حولها الحكم التالي: إنه على الرغم من أوامر الآباء القديسين والمبجلين، وعلى الرغم من العقوبات الصادرة بحق من يخالفونها، فيسافرون بحراً مع سلعهم وبضائعهم، إلى الأراضي الخاضعة إلى السلطان، فإنه لم يوجد أبداً بين أولئك الزعماء

الروحيين أو العلمانيين ، من سعى إلى تطبيق تلك العقوبات أو أوامر الحرمان، وتنفيذها، ولذلك إنني أستطيع أن أقول بكل صراحة وتواضع إنه كان في ذلك ليس فقط احتقاراً للكنيسة المقدسة، بل أيضاً إهانة بحق الخالق، وضرراً عظيماً لشعبكم، وأذى للمؤمنين الذين يفترض على الأب الأقدس تدبر ما يراه أنسب لهم وأسلم، وإذا اعترض أحدهم متسائلاً:

هل جرى تعيين أحد وتكليفه بتطبيق تلك الاجراءات الرادعة وتنفيذها؟ أجيب بكل احترام وتواضع وتقوى: إنه لم يوجد أحد قط تولى مطاردة مخالفي تلك التدابير مطلقاً، لا في البحر ولا في البر، وخاصة على الأرض، ولهذا بما أن العدل لم يأخذ مجراه أبداً في هذا السبيل، كثيرون — لا بل بالحري — ما أكثر الذين ذهبوا إلى هناك، لذلك من الموائم أن تعمد قداستكم، أيها الأب الأقدس، إلى معاملة جمهورهم بشدة وبالطريقة الموائمة لخلاص أنفسهم، ولصالح استرداد الأرض المقدسة.

وفي الحقيقة، إذا أمرت قداستكم بتنفيذ ما جاء في كتابنا الأول، وأعلنت رسمياً أوامر الحظر والحرمان، وسلحت الغلايين، حسبما بينا أيضاً، وقتذاك الذي يكون قد سقط في تلك الخطيئة، بذهابه إلى الأراضي التابعة للسلطان، وبعودته منها أيضاً، أو تكون قد وجدت بحوزته بعض البضائع المستوردة من هناك، تتخذ بحقه الاجراءات المقررة دونما شفقة، وحسبما ترى قداستكم أنه محق ومنطقي، وبما أن«الطامع بخيرات هذه الدنيا يخشى من العقاب الآني أكثر من العقاب المقبل»، لذلك إن من لا يردعهم خوف الرب ويمنعهم من مقاربة الشر، من الواجب والضروري ردعهم وصدهم عن الخطيئة بوساطة العقوبة الدنيوية.

وإنه بالنسبة للأب الأقدس، السيد المبجل الذي له إخوة كثر وأبناء

عـديدون، أعني قـداسة أبينا ومـولانا البـابا، الذي مع إخـوته الكرادلة المكرمين، ومع أسـاقفة كنيسـة يسـوع المسيح، يسهر ليـلاً ويعمل نهاراً، ويصلي طالباً باستمـرار العـون والنجـدة من المؤمنين ومن أتبـاعـه من الملوك والأمـراء والبـارونات، وبشكل عـام من الشعب المسيحي كله، حتى يتمكن من اقتحام تلك القلعـة، لاسترداد أرض آبائه، أي الأرض المقدسـة، التي وطئها السيد المسيح بقدمـه، ورواها بدمه الثمين، ليغسل خطايانا ويمحوهـا، إنه بالنسبة إليه أية نصيحـة أفضل نقدم إليـه؟ لقد ضربنا في الماضي مثـلاً حـول نتيجـة المرور من جهـة الخنـادق وأمـاكن الدفاع، أي عبر سـورية وتركيا، لما عبر خـلالها الراهب بطرس الناسك والدوق غودفـري دي بولليون، مع غيرهما من الكونتـات والبارونات، واحتلوهما، وأخضعـوهما — بنعمة من الرب — أيضـاً المدن والحصون حتى صحـراء مصر، وبلغت بعـد هذا قـوة عمـوري الألماني الذي تولى عـرش القدس بعـد بلدوين، وبراعته وبسـالته، أنه اقتحم تلك القلعـة، ودخل القـاهرة، وضرب الحصـار الشـديد على الجيـزة، ولولا مشـورة خـاطئة لكـان استـولى عليهـا مع أرض مصر كلهــا، وذلك كما ورد في كتاب الاسترداد، وفي الحقيقـة لقد أخذ بنصيحة خـاطئة، فكان أن دحر وطرد خارج تلك القلعة، وفي النهـاية خسر الذين خلفوه المدن والقلاع وكل ما كان بأيديهم في مملكة القدس وسورية.

فضـــلاً عن هذا،انطلق الامبراطور الســامي والمعظم فــردريك عبر طريق البر بقـوة جبـارة، وعلى رأس جيش عمـلاق من المقـاتلين، فعبر تخوم ألمانيـا إلى بلاد المجر ثم إلى بلغـاريا واليـونان، ونفذ خـلال أراضي المسلمين بذراع قـوية ممدودة، واستـولى على قـونيـة، وعلى فيلومليـون، وعدد كبير آخر من المدن حتى وصـل إلى أرمينيا، وهناك في حر الصيف ذهب ليستحم في نهر يسميـه السكان«النهر الأسود»، فغـرق واختنق في الماء، وكانت تلك خسارة هائلة للمسيحية جمعاء، وعقاباً للخطايا.

وبعـد مرور بعض الـوقت عبر عن طريق البحـر سادة عظام شرفـاء مثل فيليب ملك فرنسـا، وكذلك السيد رتشارد دملك الانكليـز، وكان معهما عدداً كبيراً من الدوقـات والكونتات والبارونات، وقـد نفذا كثيراً من البطولات حسبما قــرأنا في كتــاب الاسترداد، غير أنهما عــادا إلى بلديهما تاركين المسألة معلقة غير منتهية.

ومثلهما فعل عـدد كبير آخـر من كـونتـات وأمـراء وبارونات، فقـد قـدمـوا إلى هناك — كما تحدثنا كتب التـاريخ وأخبـار الأيام — وظلوا يتدفقـون إلى أيام القديس لويـس ملك فرنسا، الـذي ألقى الحصار على مـدينة دمياط، وشـدد الخناق عليها ومعـه عدد لا يحصى من المقـاتلين، ومع هذا أنحني باحترام وأقول: هلكت غـالبية ذلك الجيش، لأنه افتقر إلى المهـارة والنظام، وكـان آنذاك في أشــد الحاجـة إلى ذلك، وبالتـالي لم يتمكن من الاستيلاء على تلك القلعة.

ووجــه الأب الأقـــدس بعــد ذلك، مــراراً وتكـراراً، النجــدات والاعانات، والعديد من المحـاربين الأبطال والشرفاء، وجه هؤلاء نحو الأرض المقدسة للاستيلاء عليهـا، ولانتزاعها من أيدي الكفرة، لكن في النهاية ضاع كل شيء، وخسروا كل ما سلف واحتلوه.

وبناء عليه أعاود القـول: إنه لمن الضروري مهاجمة تلك القلعة، لابل اقتحامهـا بجرأة وإقـدام من الباب الكبير — أي من مصر البحـرية — فهـذا الباب هو الـذي بقي دوماً مفتـوحـاً، وإنه لموائم كثيراً، أن يقتحم بشكل يحقق إيقـاف وصول البضـائع إلى سكان تلك الأرض، وتحصيل المكوس عليها، ومن ثم منع المصريين من مقـايضة تلك البضائع بغيرها من الحاجيات اللازمة لهم، ومنعهم أيضاً من إعادة تسليح شعبهم.

ومن الممكن أن يتم هذا في وقت قصير، إذا مـا جرى الأخـذ بما جاء في الكتاب الأول حول ملاحقة المخالفين، وحول تسليح الغلايين، وإذا

طاب لخالق الجميع منح هذه النعمة إلى نائب يسوع المسيح، فيأمر بحشد ذلك العدد من العناصر، حسبما هو وارد في مطلع الكتاب الثاني هذا، ذلك أن الفرسان والرجّالة سوف يتمكنون من عبور الباب الثاني — أي شاطىء مصر — بنظام جيد، وهم مزودين بإرشادات أفضل وبكل ما يلزم أو يناسب أولئك الفرسان والرجّالة، وأيضاً متنبهين إلى ضرورة الالتـــــــزام بذلك الترتيب، وبذلك الأسلوب الذي وضعناه،ووصفناه في هذا الكتاب الثاني، ونحن على ثقة بالرب، ومتوكلون عليه حقاً، وواثقون بأنه سيمن بنجاح هذا المشروع السعيد والحميد.

الفصل السابع: حديث حول الشجرة وتوابعها:

ملة محمد(ﷺ) هي الشجرة المشار إليها أعلاه، وهي العقيدة التي نشرها في أيامه، ويُراد بها أيضاً شعبه والبلدان التابعة لهم، وهذه العقيدة هي الجذور والأساس الذي تغلغل في أرض مصر وترسخ فيها، وأما أغصان تلك الشجرة، فهي البلدان والقادة التي يحكمونها خاصة في تركيا وسورية، وأرض الميعاد، لابل في المغرب في مملكة تونس، وعلى طول شاطىء أفريقيا كلها، وفي سائر بلدان العالم التي تدين بعقيدة محمد(ﷺ) وتخضع لشريعته، أما أوراق تلك الشجرة، فهي شعوب تلك البلدان الساكنة فيها، وضخامة الشجرة وقدمها هي تجذر المصريين وقوتهم، فمصر ظلت دوماً هي الأقوى بين جميع أتباع تلك العقيدة، وخاصة في الشرق، أما الينابيع التي تروي الشجرة وتغذي جذورها وفروعها، فهي بدون شك المنتجات والثمار التي تستخرج من أرض مصر، أما النهر الذي يروي تلك الشجرة، ويجعلها موئلاً للجميع، فهو المعبر الذي تنقل الخيرات بكثرة خلاله إلى السكان وسواهم، مما يجعلهم اليوم يمتلكون جميع الأصناف النادرة، وبضائع الهند، التي لولاها لما كان بإمكان السكان المقيمون في مصر تأمين سبل عيشهم، أو تنظيم

شؤون حياتهم، واستهدفنا من قولنا بأن الشجرة لا تعطي أية ثمار، تبيان أنه لا يمكن أن يقطف من عقيدة محمد(ﷺ) أية ثمار صالحة، أو ينتج أي عمل صالح، أما الثمار الجيدة التي تنبت تحت الشجرة فهي الثمار التي تنتجها البلدان التابعة للسلطان والخاضعة لسيطرته، والبضائع التي تنزل في هذه البلاد يومياً،ذلك أن هذه البضائع بحد ذاتها صالحة، أما الذين ينتقلون وعيونهم مغمضة، ويقبعون في الظلمات الدامسة، فهم بدون شك الذين يعطلون بصائرهم وأبصارهم عن رؤية أوامر الحرمان والعقوبات التي فرضتها كنيسة يسوع المسيح، ويختلف عنهم الذين لا يريدون الذهاب إلى هناك لكونهم صالحين، وقد وضعوا نصب أعينهم حب الرب ومخافته، وطاعة يسوع المسيح.

أما ذلك السيد القديس، فهو أبونا ومولانا قداسة البابا، وأخوانه هم السادة الكرادلة المبجلون والأساقفة، والأبناء هم المؤمنون، والخاضعون لقداسته هم الملوك، والكونتات والبارونات، لابل جميع الشعب المسيحي من رجال دين وعلمانيين، ممن يلتزمون بسبل كنيسة الرب المقدسة بأمانة وتواضع، ويفكرون ليلاً ونهاراً حول كيفية إزالة تلك الشجرة، أي عقيدة محمد(ﷺ)، واسترداد مملكة القدس، وانتزاعها بشدة من أيدي أولئك الأشرار، وهم يلتمسون باستمرار ويتوسلون لإرسال النجدة والعون وفق الطريقة المبينة أعلاه، لزعزعة تلك الشجرة ومن ثم لاجتثاثها من جذورها مع أغصانها وفروعها كلياً، حتى يزول من على وجه الأرض ذكرها، وأما ساق تلك الشجرة فهي أرض مصر، وأما أغصانها فباقي البلدان التابعة لمن يعتنقون تلك العقيدة ويتبعونها، أي البلدان وشعوبها، وقد قدمت فيما مضى منذ زمن بعيد النصيحة إلى الأب الأقدس، لكي يرسل رجالاً مدربين، ومقاتلين أشداء، لاجتثاث تلك الشجرة، تمهيداً لاستنقاذ الأرض المقدسة من أيدي المنافقين، وإعادتها إلى ملكية المسيحيين بشكل سليم وآمن، وهكذا كان إرسال

الراهب بطرس الناسك، وغودفري دي بولليون وغيرهما ممن تبعوهما فيما بعد، ولقد ذهبوا مزودين بالفؤوس والمناشير — أي بالأسلحة — واقتطعوا بعضاً من الشجرة، واستولوا ببسالة على جذعها، وجاء من بعدهم عموري ملك القدس، الذي كان مستقيماً وشجاعاً وبطاشاً، ومحطماً للأعداء، وقد قيل بأنه زحف حتى يحتل القاهرة، أي القلعة — لكن بسبب سوء النصيحة التي أسديت له، أخفق هو أيضاً في إخضاع القاهرة — أي القلعة — وسائر مصر، وأن يجعلهم تحت سلطانه — حسبما سنرى في الكتاب الثالث — ولما عجز ذلك الملك العظيم الباسل، ومعه خاصته والقادة في جيشه وباقي المقاتلين الشرفاء، عن اجتثاث جذور تلك الشجرة، وانتزاعها من أيدي الكفرة، عادوا إلى القدس، وكانت النتيجة أن استرد السلطان ذلك الينبوع الكبير — أي البحر — حراً سالكاً، واستعاد قدراته إلى حد أنه تمكن بعد أمد وجيز من استرداد جميع الأرض التي خسرها، ولم يكتف بذلك بل ذهب إلى حرب السيد العظيم غي لوزغنان، ملك القدس، واقتاده معه أسيراً، وهذا مما نقرأ عنه أيضاً في كتاب الاسترداد المذكور.

ومجدداً عمد الأب الأقدس إلى إرسال النجدات والمساعدات إلى هناك، أي أرسل صاحب الجلالة والسمو، فردريك امبراطور الرومان، وكذلك ملوكاً آخرين عظماء وشرفاء مثل جلالة فيليب، ملك فرنسا، ورتشارد ملك إنكلترا، وكان معهما شخصيات كبيرة، كما سلف بنا الذكر، وقد قطع هؤلاء أغصاناً عديدة من أغصان تلك الشجرة ومن فروعها، أي أنهم احتلوا ببسالة مدينة عكا وغيرها من مدن وقلاع في تركيا وسورية، وفي أرض الميعاد، حسبما بينا في الكتاب المذكور.

وإنما مات بعضهم في النهاية، وعاد بعضهم الآخر إلى وطنه واحداً تلو الآخر، وذهب بعد ذلك إلى هناك عدد كبير من الأمراء والبارونات والسادة، واستمر ذلك إلى أيام القديس لويس ملك فرنسا، الذي عبر

البحر للاستيلاء على دمياط وإخضاعها لسلطة المسيحيين، ومآثره مدونة أيضاً في المصدر نفسه، وتوجه بعده أيضا كثيرون لكن دونما محصلة، فقد ظلت الشجرة التي ذكرناها ذاهب ساقها وجذورها في الأرض الطيبة، وظلت مروية بدون انقطاع بذلك الينبوع الكبير، أي البحر الذي ظل ينميها، لأنه بقي مفتوحاً بشكل دائم، وسالكاً تماماً، تعبر عليه ذهاباً وإياباً الخيرات الكثيرة، من ذهب وفضة وصفائح قصدير ونحاس، وغير ذلك من المعادن ومن المرجان والزعفران، والصموغ، وأثواب الأقمشة ، وشقق الحرير وغيرهما مما يشبهها أو يختلف عنها ، وإليها يحمل المماليك والحديد والقار، وكذلك الأخشاب، وسمح هذا كله للسلطان بتنمية قدراته التي ازدادت فأعطت إلى أغصانه وفروعه قدرة وعزة، حتى أنها عادت إلى متقدم أوضاعها، أي أن السلطان قد استرد مدن: طرابلس، وعكا، وصور، ودحر حكامها الأشراف، وأعاد كل ما تبقى من الأرض المقدسة، فوضعه تحت سلطانه.

وهكذا بعدما جرى إرسال ذلك العدد الكبير من الرجال الأشراف والمقاتلين الشجعان إلى هناك، ولم يتمكنوا من تحقيق الهدف الذي كان مطلوباً وضرورياً، كما ذكرنا من قبل، وبما أنه يصعب جداً إيجاد من يضاهي أولئك بأساً وجلداً، يتضح لنا اليوم أمر وهو وجوب اللجوء إلى أسلوب آخر، ومنهج جديد، لتحقيق مشروع لإسترداد الأرض المقدسة والحفاظ عليها، يكون من شأنه أن يقدم إلى قوة المسيحيين وبسالتهم عوناً ودعماً، باعتماده على كل من البراعة والفن، فإذا ما جمعا معاً — والأمل بالرب كبير، والاتكال على عونه — إن تلك الشجرة سوف تجتث وتقتلع دون الخوف من أن تنبت مجدداً في المستقبل، شريطة أن يتم العمل على هذا النحو ووفق الطريقة التالية: ينبغي أولاً وعلى الفور قطع ذلك الينبوع الكبير المتقدم ذكره أعلاه، وهو الذي روى ومازال يروي تلك الشجرة بغزارة، ومن الممكن أن يتم هذا بسهولة،

بمنع الدخول والخروج البحري نحو الشجرة المذكورة، ويتحقق هذا كلياً عندما يتم تنفيذ ما جاء في الكتاب الأول حول الحظر والملاحقة، وكذلك حول الغلايين، ويلزم بعد هذا العثور على ذلك الرجل النزيه المتميز بالأخلاق الحسنة، وبالدماثة والحكمة والنزاهة، وذلك حسبما أوضحنا في مطلع كتابنا الثاني هذا، لأن الشعب كله يدار بشكل جيد حين يوجد حاكم نزيه وعاقل، وإلاّ فإنه يصير إلى الدمار، ويتوجب على هذا القبطان المعين بنعمة من الخالق أن يحمل معه الديدان الكثيرة، أي المراكب والرجال البارعين في فن الملاحة في المياه المالحة، وفي المياه العذبة، والقادرين على أن يمدوا بعضهم بعضاً بجرأة وإقدام، في البحر وفي الأنهار، وأن يحمل معه غير ذلك من العتاد المناسب، حسبما جاء في الكتاب الثاني.

وعلى هؤلاء الرجال — فرساناً ورجّالة سواء — التصرف بفطنة ومقدرة أثناء طوارىء الحرب، وغير ذلك من الظروف، بحيث يكون بإمكانهم — بعون الخالق وبمهارة القبطان — الابحار نحو الشاطىء المصري، ومن ثم النزول هناك، كما يفعل المقاتلون البارعون وذوو الاقدام، وبعد هذا يذهبون لاجتثاث جذور وأصول تلك الشجرة — أي القاهرة والقلعة — فيلقون الحصار عليها، ويقتحمونها ويخضعون لسلطانهم بلاد مصر بكاملها.

وهكذا — مع الأمل بالرب والتوكل عليه — سوف تتساقط جميع أغصان الشجرة وأوراقها ستيبس، وبعدما ينفذ هذا كله ليتلطف قداسة أبينا ومولانا البابا، نائب يسوع المسيح، وليصدر أوامره، وليوضح إرادته، وليبين ماذا يريد أن يعمل بجذع تلك الشجرة، أعني بعد إخضاع مصر، إلى الشعب الخاضع للحبر الأعظم، ذلك أنه مما لا شك فيه — بتوجيه من الرب القدير — سوف تنهار سورية ومملكة القدس وأفريقية، والأجزاء المحتلة من إسبانيا،وباقي مناطق العالم التي يحتلها

أتباع محمد(ﷺ) وستضمحل — بعون الرب وقدرة نائبه — وسيواجه الروم المنشقون المصير نفسه.

وللوصـــول إلى الأهداف — التي ذكـرنـاها — في مصر، ولقطف ثمارها بوفرة، وللتمتع بها بحرية، ولاحتلالها دوماً بسلام، يجب التفكير ملياً، والتقدير بوجوب إخضاع الأرض للمسيحيين، وبشكل خاص إلى أهلهـا الأصليين والموجـودين فيهـا، وكـذلك للغـربيين، الذين يمكنهم التجـول فيها لقطف ثمارها بكل حـرية، وليـوصلنا إلى ذلك، نحن وكل الذين يتمنون كرامة الكنيسة الرومانية، الرب الذي يملك ويحيى إلى أبد الآبدين.

الفصل الثامن: ضرب مثل فيه برهان على ضرورة محاربة المسلمين في مصر، إذا مـــا أردنا استرداد الأرض المقـدســة، وهو برهـان مقتبس مما جـرى بين أهل البندقيـة، والسيـد بطريرك أكـويلا، أثناء الخلاف حـول النمسا.

ارتأى المبجل بطريرك أكويلا ومعه كونت غريسيا أن ينتزعا من أهل البندقية مدينة يوستنبولي، في بلاد النمســا، وقد جرى تنفيذ ذلك، حيث هاجم بعـــد أربع سنوات — أي سنة ١٢٨٢ — البطريـرك والكونت تلك المدينة بجيش كبير، مع أنها كـانت تابعـة في الماضي للبندقيـة، وهنا ازداد الاضطراب في بلاد النمســا، فعمــد الزعيمان إلى حشــد قــوات عسكرية براً وبحـراً، وجـرت صـدامات كثيرة ومتـواليـة، ومن منطقـة فاروجـولي Faro Julii — حيث المقر البطريركـي — كان البطريرك، ومثله كونت غـريسيا يستقدمـان التعزيزات والامدادات مـرتين أو أكثر كل عام، وكانا يلحقان الشرور والأضرار الجسيمة بالمدن وبالقلاع التي كـانت من قبل بحـــوزة البندقيـة، وهما تحمـلا أيضـاً مع شعبيهما الكثير الكثير، كما هي الحال في جميع الحروب، وقد حـدث لهما أن منيا بالهزيمة أحيــاناً، وهكذا تتــابعـت الحمــلات لمدة عشر سنوات و أكثـــر، ومع

الحملات أعمال النهب والحرائق والتدمير، وما شاكل ذلك، ليس على الأرض فقط بل وفي البحر أيضاً، ولم يتمكن البنادقة طيلة تلك المدة من وضع حد للشرور، وفي الوقت الذي كانت الأمور تتأزم فيه هكذا في النمسا، حدث أن بعض أشراف كامينو Camino اضطروا إلى الدفاع عن موقع لهم، كان قائماً على نهر لكيونسيا Liquentia، واسمه لاموتا Lamota ضد خصومهم سادة ترويزيو Teruisio فاستنجدوا بالبندقية، وكان هذا الموقع في أول مقاطعة فاروجولي، وتدخل البنادقة وأجروا مصالحة بين أولئك الأشراف وخصومهم، وشرع أهل البندقية يمارسون نشاطهم، فبعثوا إلى لاموتا عساكر من الرجالة والفرسان، يعملون خلال فاروجولي لمهاجمة خصومهم، ولما رأى البطريرك المذكور، ومعه كونت غريسيا وسادة فاروجولي، أن بلادهم تتعرض للحرائق، ومدنهم للنهب، وأرزاقهم ومواشيهم للسلب،لم يتحملوا السكوت على هذه التجاوزات في الداخل، المشابهة للأضرار التي كانت تقع في الخارج في النمسا، فاضطروا في ذلك العام إلى التفاوض مع أهل البندقية.

ومثل هذا إن أرض الميعاد مجاورة لمصر، مثلما أرض فارو جولي مجاورة للنمسا، ومثلما لدى بطريرك النمسا رجّالة صالحين، ويفتقر إلى الفرسان، هكذا لدى السلطان في سورية رجّالة صالحين، وهو يفتقر إلى الفرسان،ولدى السلطان في مصر نخبة من الرجّالة لكن فرسانه من النوع الرديء، لذلك إن مهاجمة السلطان في مصر مثل مهاجمة البطريرك في فاروجولي ، لأن مصر هي الدولة الأساسية للسلطان، إذا قهر فيها تحطم كلياً، وإذا لم يغلب كلياً، فإنه بسبب الضائقة القريبة منه بهذا الشكل، والواقعة في داخل مملكته، سوف يطلب الصلح مرغماً، حسبما رأينا في المثل المعروض أعلاه، وكما سنرى في الفصل المقبل.

الفصل التاسع : سوق برهان آخر باهر، صدوراً مما حدث في مصر أيام القديس لويس ملك فرنسا، وفي أيام اثنين من ملوك القدس

اللاتين.

كان الشعب المسيحي قد هاجم مصر مراراً من جهة دمياط، وكاد أن ينجح ثلاث مرات لو أنه لقي النصائح السديدة، ولم يفتقر إلى المؤن وإلى غيرها من الحاجات الضرورية.

وكانت المرة الأولى أيام جين ملك القدس، الذي كان كونت بريين، وأيام بيلاغيو نائب البلاط الروماني، فبعد حصار دام سنة وسبعة أشهر جرى الاستيلاء على دمياط سنة ١٢١٩، وتقدم الصليبيون بحرية من هناك إلى فرع النيل الذي اسمه تنيس، والمنحدر من هناك إلى دمياط، لكن الشح في المؤن — وأكثر من ذلك خطاياهم وما استحقوه من عقاب، كما ورد في الفصل التاسع، من القسم الحادي عشر من الكتاب الثالث — جعلهم ينسحبون، وبعد ذلك في أيام القديس لويس، ملك فرنسا، جرى الاستيلاء على دمياط مجدداً عام[١٢٤٨]، وأراد السلطان كسب رضى الملك، فقدم له الهدايا الكثيرة، وعرض عليه معاهدة يتخلى له بموجبها عن دمياط وعن الأرض المجاورة لها ليعطيها للمسيحيين العديدين الساكنين في أرض مصر، والذين يعرفون باسم مسيحيي الطوق، وتخلى له أيضاً عن أماكن كثيرة في القدس وفي سورية، لكن الملك لويس رفض الاصغاء إلى مثل هذه الاقتراحات، ذلك أن هدفه كان الاستيلاء على مصر بكاملها، فتابع مسيرته المظفرة حتى المنصورة، كما هو مذكور في الفصلين الثاني والثالث من القسم الثاني عشر من الكتاب ذاته، وقد أعمى المحاربين المسيحيين من جانب الطمع بالمال، ومن جهة ثانية ضايقهم الشح في المؤن، وتوالت عليهم هجمات الأعداء، ولخوفهم من نفاد الطعام اضطروا إلى التراجع.

وبعد أن سقط الملك بالأسر، فكر المصريون بفداحة المخاطر المحيطة بهم إذا بقيت دمياط في أيدي المسيحيين، فعرضوا عليهم بأن يطلقوا سراح الملك والبارونات والقادة المسيحيين كافة، وأضافوا بعد هذا إلى

عـروضهم شروطاً أخـرى كثيرة لمنفعـة المسيحيين — كما هو واضح في المصـدر نفسـه، وهذا أيضاً مشروح في كتـاب«مـرآة التـاريخ» للمصنف فنستني Vincenty ، في المكان الذي وصف فيـه أسر القــديس لويس السعيد الذكر مع إخوانه، ثم إطلاق سراحهم.

وحـدث قبل هذا أن زحف عمـوري ملك القدس ضـد مصر، لكن السلطان استغـواه بالمال، فـاستمع إلى النصيحــة السيئة التي قـدمهـا له ميلون دي بلانتي، فرفع الحصار وانسحب(الفصل الثاني والعشرون — القسم السـادس — الكتـاب الثـالث)، ومثله فعل هنري ملك إنكلترا، فبعدمـا درس الأوضاع على الأرض قـرر أن يهاجم مصر أولاً(الفصل الأول — القسم الحادي عشر — الكتاب الثـالث)، وكذلك كـان البابا إنوسنت قد قرر توجيه جيش مسيحي إلى مصر.

الفصل العاشر: الذي ينتظره الذين يطبقـون — بعون يسـوع المسيح — تدابير هذه التوصية.

إنها لحقيقة مقررة أن كل شيء هو في قدرة الخالق، لذلك ينبغي دوماً التماس العـون والنصح من عنده لحمــده ولشكره ومجده، وإننا نستطيع على ضــوء الماضي أن نحكم على المستقبل، وأن نقـرر مــا هو ضروري للغد، وكل عمل نبـدأ به ينبغي أن يقود إلى النتيجة الصـالحة والحميدة، لذلك أقول — وأنا أستميح العذر من قداستكم — إذا تلطفتم فقررتم الأخـذ بما جــاء في الكتـاب الأول، ليعمل بمـوجبـه بحـزم فيما يتعلق بملاحقة المخالفين، وبتسليح الغـلايين، فإن الكثيرين ممن خالفوا أوامر الكنيســة المقـدسـة ويخالفـونها، سـوف يتـوبون — بعـون الرب — أو يعودون إلى الطريق القـويم، ويقرعون باب قداستكم طالبين منهـا تنفيذ قـرار احتــلال الأرض المقـدسـة، هذا وإنه لـواجب وضروري إرشـاد أولئك النـاس في الوقت الحالي، حتى يعــودوا هـم أنفسهم فيما بعــد ملتمسين من حلمكم، لابل متــوسلين بتـواضع كلي، الاسراع في تنفيـذ

ذلك المشروع دونما إبطاء، وبذلك تكون النهاية مناسبة لإجراء مصالحة بين المؤمنين المختلفين مع بعضهم بعضاً، وهذا هو تقديرنا، بعون من يد العلي الأعلى.

وفي الحقيقة يمكن أن نقول بصدق بهذا الخصوص الكلمة التي قالها الرب في سفر رؤيا يوحنا:«من غضب إثمها — أي مصر —شربت جميع الأمم»، فلمعالجة هذا المرض العضال، والوباء الذي تفشى دون تمييز بين الجميع، حيث شارك الجميع بالمحرمات بدون ورع، وليس هناك من دواء يمكن مزجه في الطعام ليشفي من هذا الداء، لأنه إذا ما أعطي المريض دواء مضراً، سيكون الوضع أسوأ، ومن النادر أن يتمكن المرضى من استعادة صحتهم، وعلى العكس من ذلك، إنهم إذا ما التزموا بحمية عن المأكولات، فغالباً ما يتعافون، ولهذا إذا امتنع المؤمنون عن تناول ذلك الطعام المضر، كما سلف وبينا، فإنني متيقن تماماً ومؤمن أن الرب سوف يهب المسيحيين بهذه النعمة، وسوف يزيل بشكل خاص الخلافات من بينهم، وبما أن السلطان وشعبه ينالون من جراء ذلك الطعام، العون والاستفادة، كما هو واضح في الكتاب الأول، وفي الكتاب الثاني هذا، ليكن معلوماً أن كل من يشتري البضائع المجلوبة من أرض السلطان، أو يستهلكها، يقدم للمخالفين سبباً للذهاب. وابتياع الحاجيات الضرورية، والأصناف النادرة، وشتى أنواع البضائع من أراضي الكفرة، والخاضعين للسلطان، لنقلها من هناك إلى البلدان الغربية.

وبناء عليه إذا ما امتنعنا عن شراء البضائع واستهلاكها، لن يعاود المخالفون الذهاب إلى هناك للتبضع، وإذا ما سقط المخالفون في الخطيئة، فإن كل واحد يقدم لهم فرصة للسقوط في الخطيئة، ينصب نفسه شريكاً في الخطيئة، لذلك أقول — بكل تواضع وتقوى — إنه لمن الضروري، إما منع هذا الاتصال كلياً — كما تقدم وبينا — وأن لا

يكون هناك أي تأخير في ذلك مطلقاً، وإما أن نتغاضى عن الموضوع كلياً، أي أن يسمح لمن أراد بالذهاب والإياب بحرية، وأن يبتاع ما طاب له من بضائع من الأراضي التابعة للسلطان، وأن نتوقف كلياً عن ذكر استرداد الأرض المقدسة،والذي أراه أن هذا سوف يكون شراً أخف من أن يبقى المؤمنون على الوضع الحالي، لأن هذا الوضع خطير جداً، على جميع المسيحيين المؤمنين، فلتقرر قداستكم — بنعمة من الرب — الذي تراه مناسباً بهذا الشأن.

وعلى كل حال، إذا وافقت قداستكم على الشروع بتنفيذ ما جاء في الكتاب الثاني، فليتم تعيين — من قبل قداستكم — رجل صاحب بأس واستقامة يكون قائداً لحشدكم، ليذهب إلى مصر البحرية بغية الاستيلاء على قطعة من الأرض هناك، وليكن معه خمسة عشر ألفاً من الرجالة، وثلاثمائة من الفرسان، حسبما ورد في القسم الأول من الكتاب الثاني، وليشرع هناك ببناء الحصون، وتشييد البيوت، وبذلك يُحرم المصريون آنذاك مما هو ضروري، ومن تصدير بضائعهم ويتعرضون لمضايقات ومناوشات من أعدائهم بحراً ونهراً وبراً، ووقتها سوف يشعرون بالضيق العظيم الذي حاق بهم، وكما علمتنا تجارب الماضي، أي لما أخضع المسيحيون دمياط لحكمهم، خاصة لما استولى القديس لويس ملك فرنسا عليها، وحسبما ورد في هذا القسم، من المؤكد أن سلطان مصر سوف يطلب خلال مدة لن تزيد عن السنة، عن طواعية عقد معاهدة ثابتة تتعلق بإعادة أرض الميعاد إلى قداستكم بكاملها نهائياً، وأن يلتمس من قداستكم عدم متابعة العمل على تحطيمه، وهذا التحطيم قد يجعل السلطان وشعبه معه يرتدون إلى الايمان.

وفي الختام، وكما يؤكد القدامى، عندما يداهم خطر الموت فجأة واحداً من الناس، فإن الطبيعة بحذاقتها تهب على الفور إلى مساعدة مصدر الحياة، أي القلب، فتسحب الدم من الأطراف، وتقدم له الدعم

والحماية، وهـذا يوضـح لنا لماذاعندمــــا يعتري النـاس الخوف تشحب وجوههم، وترتعـد أطرافهم، لأنها فرغت من الـدم، وهذا ما سيحصل للمسلمين، لأن مصر هي قلب المسلمين ومــركــز حيــاتهم، وإذا مــا هوجمت ستلاقي الدعم على الفور، والمســاندة من أطرافها، من غرناطة، مثلاً ومن مناطق أخرى، لكن تلـك الأطراف لن تتلقى بعد الآن العون والمساعـدة من القلب — أي عندما ينقطع عنهـا المال الذي تحصل عليه حالياً— وبالتالي سـوف تبقى وكأنها خائرة ترتجف بلا قوى، وإذا تزامن ووجد واحد من ملوك إسبانيـا المؤمنين، فاستغل هذه الظروف المواتمة، وهاجم إحدى تلك الأطراف، فإنه سوف يصل إلى الغاية المنشودة بكل سهـولة، ويحقق المرغوب به، ولهذا السبـب لن يستطيع المسلمون نجـدة قلبهم، الذي هو مصر، كما سنبين في القسمين الثالث والـرابع من كتابنا الثاني هذا.

وأملنا دائماً بالرب، واتكالنا على عـونه، بأننا سنصل قريبـاً إلى النهاية الصالحة والحميدة والسعيدة، فهـذا هو رأيي، ما لم يخالفه رأي أصحاب الخبرة، شرط أن لانتأخر بالمباشرة به، فإن من لا يبدأ، لن ينتهي مطلقاً، وستخفق النهاية حيث لا توجد بداية.

القسم الثالث

بناء سور أمني في مصر البحرية، واختبار تطبيقي للقدرة على محاربة المسلمين، وهو في أربعة فصول:

الفصل الأول: حول الوسيلة الأمنية التي يستطيع المسيحيون بوساطتها حماية أنفسهم في مصر، ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة.

كنا قد تعرضنا فيما تقدم — الفصل الثاني من القسم الأول — إلى الشبه الكبير القائم ما بين مصر البحرية، وشواطىء البندقية البحرية، لذلك من المؤكد أننا نستطيع النظر — كما في مرآة صافية — إلى وضع الناس الذين يبنون ويقطنون الجزر في مياه البندقية، وفي مستنقعاتها، لنتعرف إلى كيفية يمكن للذين يبنون البيوت ويشيدون القلاع في أرض مصر البحرية أن يصدوا هجمات المسلمين(انظر أيضاً الفصل الثالث من القسم الأول من الكتاب نفسه).

وحسب عهدة رواة التاريخ، كان الاغريق أول من سكن جزر البندقية وكانوا من أهل طروادة، ففي سنة ١٧٨٤ لخلق العالم، قدم جمهورهم تحت قيادة بريام الثاني ابن لامدونتيس Lamedontis أخت الملك بريام الأول، وقد قدموا بالسفن، وعند وصولهم إلى تخوم البحر الأدرياتيكي، شاهدوا الجزر، ومن حولها اليابسة الثابتة، فقرروا حفاظاً على حرية تعودوا عليها، بناء مساكنهم فوق الجزر، مقدرين أنه لا يجوز أن تكون جماعتهم معرضة لأن يحكمها الآخرون، ولم يخفقوا في مسعاهم لذلك حق لهم القول:

«إننا ... لم نستعبد لأحد قط»[يوحنا : ٨ / ٣٣]، فاختاروا لأنفسهم قائداً هو الرب وحده، ولم نقرأ قط أن أحداً سواه بسط سلطانه عليهم

يوماً، وقد مرت جماعات الغاليين بذلك الجزء من البندقية البحرية، يتقدمهم قائدهم برينو Breno ، وكان ذلك سنة ٣٥٧٥ لخلق الدنيا، فتركوا القسم المسكون سالماً واحتلوا كل ما بقي من حولها، وبنو فينيسيا، وفيرونا، وتريدنت، وبريكسيا، وبرغاما، وكوماس، ومديولانا Mediolana ، وسيناس Senas وسنغاليا، وذلك بعدما قتلوا شعب روما، وأحرقوا المدينة، وذبحوا أعضاء مجلس الشيوخ وهم على مقاعدهم، ومن بعدهم جاء كذلك الأفارقة الذين قدموا من الجنوب والسيبرورو Cybroru ، الذين زحفوا من الشمال، ومن شواطىء ألمانيا، وقد انقضوا مثل العاصفة على المدن الإيطالية، لكنهم لم يتعرضوا للبندقية، وهكذا جرى مع أتيلا الأوسدروبالي Osdrubalis ، ابن ملك المجر، وولي العهد فيها، فقد كانت شراسته صورة للزلزال وللصاعقة، وبعد أن دمر بلاد الغاليين التفت نحو إيطاليا، فوقع الرعب على المدينة وعلى العالم، ذلك أنه وصل على رأس خمس وتسعين ألف مقاتل، وعندما وصل إلى تخوم المستنقعات والجزر التابعة للبندقية، لم يترك هذا الوحش الضاري شيئاً إلا وافترسه، قبل العودة إلى حيث اعتزل، ومع هذا لم يستطع إلحاق الضرر بالأجزاء المبنية على المياه، لابل لم يتمكن أيضاً من إلحاق أي أذى لا بالسكان ولا بأرزاقهم ولا بقدرتهم، حتى أن أهل أكويلا مع البطريرك والأمهات مع أطفالهن، بادروا مسرعين واحتموا في قلعة غرادو Grado ، ثم إنهم خرجوا من كونكورديا Concordia ، وبنوا كبرالاً Caprala على شاطىء البحر، ومن ألتينو Altino — التي كانت تدعى أنتيريورايدز Anterioraides ، لأن الذي بناها هو أنتيريورايدز — وبنى الذين هربوا إلى الجزر مدناً جديدة هي إسول تورسللو Esul torsello ، وبورانو Burano ، ومازوربو Mazorbo ، ومورانو Murano ، وتوزعت جماعتهم بين ثلاث أسقفيات ما تزال قائمة حتى اليوم، وبطريركية، وقد لجأ أيضاً إليها عدد كبير من بادوا،

ومن ريفوالتي، ومن ماتاموكو Mathamauco، وغدت هذه المدن الأربع المجاورة لمدينة البندقية وشواطئها، مدناً مشهورة، لكنها دمرت من أساساتها، أما الذين كان يسكنون في الجزر، فقد ازدادوا قدرة وعدداً، وشرعوا يتخذون لأنفسهم قادة، وذاع صيتهم، وقدرتهم، حسبما نرى ذلك اليوم، وبالحري ليس اليوم فقط بل على أيام ايزلينو Ezelino، عندما دمرمنطقة ماركا Marcha ، وترويزو -Terui so وقسماً من لومبارديا، فالذين تعرضوا للاضطهاد، نجوا إلى البندقية، ومكثوا فيها بأمان تام، ولم يتمكن الطاغية من أن يلحق بهم أدنى أذى حتى ضرب المثل بهم، وصار يقال: «أمن خصومه لأنفسهم حمى في الشاطىء»، ودمرت في أيامنا هذه منطقة بادوا على يد «الكلب الكبير الذي قدم من سكالا Scala »، وقد هرب شعبها إلى تلك المناطق سنة ١٣١٨، وبقي سالماً، وقد حل الأمر نفسه بشعب ترويزينا Teruisina في السنة ذاتها، وهرب هذا الشعب، ولجأ إلى المنطقة البحرية نفسها.

وكان اللومبارد — الذين عرفوا من قبل باسم غينولي Guinuli — قد قدموا من جزيرة اسكندنافيا إلى أقاصي شواطىء ألمانيا، ووصلوا إلى بانونيا Pannonia ، ثم استولوا بعد ذلك على الجزء المتاخم لجزر البندقية، على أيام ملكها ألبينو Albuino وكان ذلك في سنة ٥٧٢ لتجسيد الرب، وعاثوا بإيطاليا كلها، ومع ذلك لم يتمكنوا من إلحاق الأذى مطلقاً بالبندقية، ولولا تدخل القوات الفرنسية في أيام ببينونانو Pipino nano ، لما كان بإمكان البابا ستيفن إطفاء مطامع ملكهم أستيلفو Asttulfo الذي أراد فرض جزية على كل شخص فرداً فرداً.

واضطر البابا هدريان، أثناء تضييق الخناق على إيطاليا من قبل دزيدرو Desiderio ابن أستيلفو، إلى طلب العون من شارلمان،

لحماية ممتلكات الكنيسة ولدحر الطاغية، وأسفرت الأمور عن نفي دزيدرو مع زوجته وأولاده إلى داخل فرنسا، وبذلك سقطت مملكته في سنة ٧٧٤ لتجسيد الرب، ولما غضب شارلمان نفسه على البندقية، قاد قواته حتى شاطىء ماتاموكو ، ولم يستطع قطع الامدادات عن البندقية.

الفصل الثاني: حول الاستعدادات التي يمكن للمسيحيين بوساطتها حماية أنفسهم في مصر، ضد جيرانهم المسلمين، مثلما فعل البنادقة.

ولم يبق سكان الجزر المذكورة آمنين فقط ضد الشعوب الهمجية التي اجتاحت إيطاليا، بل أيضاً ضد الشعوب التي كانت تتعامل دوماً معها، حاسدة لها منذ القدم، ما كسبته من مجد ورفعة، وكانت تبحث دوماً عن طرق ووسائل لإيذائها، ومع هذا تمكنت هذه من درء أذيتها، ورد هجماتها، ونكتفي بضرب مثل بأهل بادوا، فقد حشدوا جيشاً كبيراً وحاصروا برجاً قائماً في مكان اسمه بابيا Byba ، فقد كان يخيل إليهم أنهم سيتمكنون من القتال، لكنهم وجدوا أنفسهم في وسط مياه البحر، وكان مثل ذلك في سنة ١٢١٥، تماماً ما حدث للصليبيين في مياه النيل(انظر الفصل التاسع من القسم الحادي عشر، من الكتاب الثالث)، هذا وقد أرغم أهل بادوا على الاستسلام إلى أهل البندقية، ومثلهم فعل الصليبيون مع المسلمين في ظل شروط معينة، ومؤخراً أراد أهل بادوا أن يعملوا لأنفسهم ملاحات قرب كلوغيا Clugia على بعد قرابة أربعة أميال، وبناء حصن بالقرب من السباخ لحمايتها، لكن أهل البندقية أقاموا تلة في وسط المياه عند مصب أحد الأنهار، ولم يكتفوا بذلك بمنع وصول المياه المالحة إلى الملاحات، بل حولوا إليها المياه العذبة، وفي النهاية تفجر خلاف، واحتشد أهل بادوا لإزالة تلك التلة، فدحرهم قلة من أهل البندقية، واستنجد أهل بادوا بأهل فينيسيا، وفيرونا، ومانتوا، وبعيداً استنجدوا كذلك بأهل باليستاري لكن ألفاً وخمسمائة من أهل البندقية تمكنوا من مقاومة ثلاثين ألفاً من الجنود المهاجين، وعندما

أشرفوا على احتلال الحصن فرضوا عليهم في قلب أراضيهم الشروط التي أرادوها، وكان ذلك سنة ١٣٠٥.

وقبل ذلك ببعض الوقت، أي في سنة ١٢٧٠، تجمع أهل بولونيا واحتشدوا ومعهم أعداد كبيرة من جميع مدن رومانديولا Ro-mandiola تقريباً، وهاجموا قلعة للبنادقة قريبة من نهر البو(بادوم Padum)، وكانت تبعد عن البحر ثمانية أميال، فلم يفلحوا، وقرر أخيراً أهل بولونيا ومن معهم — أخذاً بنصيحة أحد الناس — بناء حصن مقابل مصب ذلك النهر، لمنع أهل البندقية من الذهاب والإياب إلى قلعتهم عبر النهر، لكنهم أخفقوا في منعهم، مع أنهم دفعوا بكل قواتهم، وقاموا بمحاولات عديدة خلال ثلاث سنوات وخمسة أشهر، وتركوا بعد ذلك الحصن الذي شيدوه شاغراً، وعادوا مرغمين إلى بلادهم، وكالعادة استولى أهل البندقية على الحصن الذي بناه سواهم.

وهناك أيضاً قلعة للبنادقة اسمها«رأس شقعة Caput Aggeris » كانت قائمة على نهر أتيسنسيتو Aticensito التي ينحدر من فيرونا إلى البحر، وقد تجمع لاحتلالها جماعات ورجالات لومبارديا، وماركيا Marchia ، وترويزيو Teruisio، فلم يفلحوا في انتزاعها من أهل البندقية، وعلى الرغم من بعد تنتو Tento عن البحر حوالي أحد عشر ميلاً، فقد صمد أهلها في وجه خصومهم بعدد قليل من المقاتلين وبنفقات زهيدة، مقارنة بما أنفقه خصومهم، وهم ما برحوا صامدين حتى اليوم في وجه كل تحد، لابل إنهم لم يكونوا قادرين على حماية أنفسهم وممتلكاتهم فحسب، بل تمكنوا من إجبار القراصنة على الخضوع لسلطانهم، حسبما نرى في معظم أرجاء البحر الجنوبي، وخاصة في البحر الأدرياتيكي، حيث كان القراصنة يعيثون فساداً كما تذكر كتب التاريخ، وأكثر من هذا كان البنادقة قد مدوا سلطانهم بعيداً نحو أجزاء نائية وشرقية، وهم وحدهم اليوم لا يحمون أنفسهم فقط

مع أرزاقهم، بل ويحمون أيضاً ما هو لغيرهم.

مما تقدم نستطيع أن نرى على ضوء أوضح، أي أمان يمكن أن يحصل عليه الشعب المسيحي، إذا ما بنى قلاعاً في مصر البحرية، ومدى القوة التي سيضمنها لنفسه لدحر المسلمين، وأية نجاحات سيلقى في احتلال الأراضي.

الفصل الثالث: كيف يمكن للصليبيين أن يزعزعوا أركان مصر، ضرب مثل بما تمكن من صنعه البنادقة وأصحاب المدن، والأماكن القائمة على مستنقعات وعلى أنهار.

لقد ضربنا أمثلة مقنعة، تظهر مدى الأمان — بعون الرب — الذي سيكون به جنود الكنيسة، إذا ما بنوا قلاعهم في مصر البحرية، ويمكننا بالتالي أن نرى من خلال المرآة، أو من خلال المثل ذاته، كم سيكونوا مؤهلين لإلحاق الأذى بأعداء الصليب والإيمان المسيحي، فالبنادقة، إذا ما نشبت خصومة بينهم وبين مدينة من مدن لومبارديا، أو ترويزيو، أو ماركيا، فإنهم يلحقون الأذى بأعدائهم بطريقتين:

الأولى وهي الطريقة الأخف: لا يستولون على أسلحتهم، ولايتعرضون للأشخاص، ولا ينهبون ممتلكاتهم، بل يمنعون كلياً وصول المؤن والبضائع إلى أية مدينة من مدن تلك المناطق، أو إلى أي مكان واقع تحت سيادتها، أو أن تنقل إليها من أي مدينة أو منطقة تابعة للبنادقة، ولا يتخيلن أحد أن هذا لن يجدي نفعاً، فكثيراً ما يحدث أن تصاب تلك المدن في لومبارديا وترويزيو وماركيا بالانهاك، ومن ثم تقوم بإرسال مفاوضين إلى البندقية، وتضطر مرغمة على التعايش معها وفق شروط محددة.

وسيكون هذا الأسلوب للاضرار بالمسلمين في مصر فعالاً، وسيضعف قوة السلطان، وقد شرحنا ذلك بإسهاب في الكتاب الأول

المتقدم أعلاه.

أما الطريقة الثانية: فهي أعظم خطورة، وستكون لدى مناصبتهم الحرب بالرجال وبالعتاد، وبما أنهم معتادون على القتال، ولديهم قدرة على صنع السفن المناسبة والآلات الحربية حسبما تقتضيه أوضاع الأماكن وأنواع المعارك، فإنهم سيقتحمون بالطرق الموائمة، المواقع التي بنيت على الأنهار أو في السباخ، وهكذا وجدناهم في سنة ١٢٣٩، قد انتزعوا — بطلب من الكنيسة — مدينة فراريا من أيدي سالينغويرا Salinguerra ، وأعادوها إلى السيد غريغور، مندوب الكرسي الرسولي، مع أنه كان قد تقاطر على ذلك المكان مقاتلون من أماكن عديدة، ومع ذلك لم يتمكنوا من دون أسطول البنادقة ومهارتهم من إنجاز شيء، وكانت المحصلة أن المعاهدات والامتيازات التي كانت للبنادقة في فراريا قد ترسخت وازدادت قوة.

ومثل هذا حدث في الماضي البعيد، عندما تمكنت الكونتسة ماتيلدا من استرداد فراريا بمساعدة أسطول البندقية، واتضحت مؤخراً فعالية البنادقة في سنة ١٣٠٨، في حادثة فراريا، بالسيطرة على الأنهر، وكان من المذهل رؤية ذلك العدد الصغير من المقاتلين يسرح ويمرح في بادوم Padum ، وليس هناك من هو قادر على صدهم ومنعهم من تهديم المواقع المجاورة، وتحويل مجرى مياه النهر إلى أراضيهم وتخريب الممتلكات بالماء والنار.

ومثل هذا يمكن لجيش الرب أن يروح ويجيء فوق نهر مصر حتى القاهرة والقلعة، وأن يستولي على كل شيء حسبما يريد، وسوف يكون وضعه أفضل، كلما كان مجرى النهر أوسع، والذي يسيطر على النهر ويتصرف عليه بحرية، يمكنه أن يسيطر بسهولة على الأرض — كما بينا في الفصل الرابع من القسم الأول — فما هو دور أهل البندقية في هذا المشروع؟ ونجيب على ذلك: إنه لما وقع إثم ضد جمال العدالة، وتجاسر

واحد على أن يحصد ثمار غيره، أي لما احتل الكافر إزلينو Ezelino ، منطقة ماركيا وترويزيو وغير ذلك من مناطق لومبارديا، لبى البنادقة طلب موفد الحبر الأعظم، سماحة رئيس أساقفة رافينا، المطران فيليب، فانقضوا من سباخهم ومن موقع بابيا، الذي تقدمت الإشارة إليه، وقادوا عن طريق النهر الذي حشده ذلك الموفد، وأمدوه بالرماة والميرة بكثرة، وكان ذلك سنة ١٢٥٦، واستولوا على كل ما حول النهر، ولم يكتفوا بذلك بل تقدموا حتى مدينة بادوا، وبعد معارك طاحنة استردوها من يدي إزلينو.

ولقد سقنا هذا كله على سبيل المثال، لنبين المدى الذي سيكون فيه جيش الرب بأمان في مصر البحرية، ومقدار ما يمكن أن يحققه من إنجازات ضد أعداء الإيمان.

الفصل الرابع: جواب مقنع لما قد يثار من شكوك.

هناك من يشكك بإمكانية قيادة جيش الصليبيين عبر النيل، حتى القاهرة، بسبب طول المسافة، وأجيب هنا على هذا التشكيك، بأن أهل البندقية قد قطعوا طريقاً أطول، عندما دخلوا مجرى نهر أدوا Adua ، بسفن محصنة وبرماة، وقد حطموا بعنف ست سلاسل ضخمة جداً، ونسفوا الجسر الذي عبر عليه إزلينو لاحتلال ميديولانو Medio-lano، واحتلوا كل شيء بشدة، مما جاء مقدمة لأسر ذلك الطاغية، وموته، فإنه حيل بينه وبين الوصول إلى مآربه، ولدى عودته، شرع بحصار الجسر المحصن بكل عناية، وقتذاك أصيب بسهم في رجله ففقد قدرته المعتادة على قيادة الجيش، وهزم بالحرب، ومات بالأسر سنة ١٢٦٠ لتجسيد المسيح.

أما القول بأننا ببناء قلاع وتحصينات نكتفي بمنع المواد الغذائية وغيرها من الوصول إلى المسلمين في مصر، فإنني أجيب : إن من

الممكن وصـــولها عبر طريـق البر، وأضيف، إن القـــائلين لهذا الكلام يجهلون مـوقع الأرض المصرية، حيث يوجد من البحـر المتوسط امتـداد على طول الشاطىء نحو الجنوب، من الجهة الشرقيـة ومن الجهة الغربية على السواء صحارى واسعـة شبه خالية، بنى فيهـا الآباء القديسون — خـاصـة في الجهـة الغـربيـة — أديـرة، وعـاش بعضهم في حيـاة نسك وانعـزال، هذا ومـن جهـة الغـرب، أي من مملكـة تونس، لايمكن حمل البضائع من هناك، بسبب سعة الصحـراء ووحشتها ولا يمكن الحصول على شيء من جهـة الشرق، باستثناء التـوابل، وتفتقـر المنطقـة من جهـة الجنوب إلى كل شيء تقـريباً، ويقطن هنـاك مسيحيو النوبة، وهـم أعـداء لهم، وقـد تقدمت الإشـارة إلى ذلك في الكتـاب الأول، وأما من جهـة الشمال، أي من جهة مملكـة القدس وسورية، فيمكـن الحصول — لكن بمشقـة — على بعض الكميـات من: الشرانق، والصـابـون، والتفـاح، والإجاص، وعلى كميـة من الزيت، وبناء عليه صحيح مـا قلناه، إننا إذا أغلقنا أمـامهم طـريق المتـوسط، نكون قـد أقفلنا بوجـوههم الأغـذية ومختلف أنواع البضائع ما عدا التوابل، وقد يتساءل بعض الناس: كيف يمكن للمسيحيين الحصــول على مـا يكفيهـم من المواد الغـذائيــة، إذا احتشــدوا في أطراف مصر البحـرية، وذلـك إذا تفشى الجوع بين الذين يسكنون أرض مصر؟ وأجيب على هذا بسهـولـة: سـوف تتقـاطر المواد الغـذائيـة وباقي الحاجيـات على المنطقـة البحـرية، إذا توفـرت المداخيل والأمـوال اللازمة للشراء، مثلما نرى في مـدينة البندقيـة نفسها، فعندمـا ينتشر القحط في الأراضي اليـــابســة المجـاورة، يحملـون المؤن وجميع الحاجيـات عن طريق البحـر، ويوزعـونها على كل من يحتـاج إليهـا من جيرانهم.

القسم الرابع

ويدور حول الخطة والأسلوب والترتيب والاحتمالات الممكن حدوثها في حال نشوب المعارك وما يتعلق بها، وذلك من أجل تحقيق مشروع الأرض المقدسة بنجاح، وفيه إيضاح على أن المسلمين والمنشقين لن يتمكنوا بشكل منطقي من الدفاع عن الأرض، وفيه تسع وعشرين فصلاً.

الفصل الأول: ما يثار من اعتراضات حول قدرة الجيش المسيحي، وحول العوائق المفترضة، التي قد تحول بينه وبين الوصول إلى النتيجة المتوخاة، وجواب منطقي لتلك الاعتراضات.

ويمكن لأحدهم أن يعترض على ما عرض أعلاه فيقول: لقد شاهدنا من خلال الأمثلة التي ضربت عن البندقية، بأية أعداد يمكن احتلال أرض مصر البحرية والإقامة فيها، وأنه بإمكان هذه الأعداد البقاء هناك آمنة من شرّ القاطنين في أرض الكفرة، ومع ذلك لن يتمكن المسيحيون من إلحاق الأذى بالمسلمين، إلى درجة يمكنهم فيها إذلالهم وإخضاعهم بعد إلحاق الهزيمة بهم، للأسباب التالية:

أولاً: إذا أردت صعود نهر النيل مع أسطولك المسلح، فإن في ذلك النهر نقطة يضيق فيها كثيراً، بحيث يمكن رشق السفن بسهام حارقة من كلا الضفتين، مما يعرض سفنك وعساكرك لخطر عظيم.

ثانياً: قد يمدّ المسلمون السلاسل، أو قد يرمون بحسك الحديد أو بقطع حديد مدببة طويلة، أو قد يبنون الجسور فوق الممرات المائية، مثلما حدث في فرانكولينو Francolino في منطقة فراريا، وقد يتدبرون هذا الأمر بيسر بأن يتحصنوا على إحدى ضفتي النهر، ويرفعون من الجهة المقابلة رأس جسر ينزلونه متى شاءوا، ويؤمنون

بالوقت نفسه حراسة شديدة على الضفتين معاً، وهكذا إذا ما اقتربت مجموعة مسيحية بسفنها من سلسلة أو من جسر عائد إلى المسلمين، فإنهم ينزلون رأس الجسر المعلق، وبذلك يصير جسر المسلمين على مستوى مجرى ماء النهر، وبذلك تتوقف سفن المسيحيين عنوة، وتجنح نحو الأرض، وهكذا يصبح بمقدور المتحكمين هناك بالأرض قتل رجال تلك السفن كما يشاؤون، وعلى هذا نردّ أيضاً:

ونقول بالنسبة للنقطة الأولى أولاً:

على شعبك التبصر والتنبه، وأخذ الحيطة، وأن يحمل معه كل ما يلزمه لإطفاء النيران، بحيث إذا ما أطلقت عليه سهام محرقة يتمكن من إطفائها، وينبغي إطفاءها، حيث لايجوز لجيش المسيحيين التوقف لهذا السبب عن الذهاب والمجيء، وإنجاز مهامه.

ونجيب على النقطة الثانية فنقول:

إذا وضع المسلمون تلك السلاسل، أو قطع الحديد المدببة أو الجسور، فلا بد لهم من تجهيز حراسة مشددة حولها، ومركزة عدد غير قليل من العساكر لحراسة تلك الجسور والسلاسل وقطع الحديد المدببة من على الضفتين، وفي مناطق عديدة، وخاصة على ضفاف النهر العائدة لفرعي دمياط ورشيد، لكونها عريضة، وعلى كل حال، عندما يريد المسيحيون المضي نحو تلك العوائق الحديدية، أو السلاسل أو الجسور مع أسطولهم ومعداتهم، عليهم عدم الذهاب عندما يكون النهر فائضاً، وسريع الجري، بل على القبطان مثله مثل أي إنسان مدبر، أن ينتظر حتى تكون مياه النهر منخفضة وغير سريعة الجريان، وعندما تهب رياح قوية من جهة البحر، بحيث تعمل لصالحه، وتدفع بمياه البحر إلى الدخول إلى مصبات الأنهار، لأن جريان النهر يكون في تلك الآونة بطيئاً، تخف سرعته أو تنعدم كلياً إلى أبعد الحدود، ووقتذاك عليه أن

يستغل الريح المناسبة، فيرسل، بعض سفنه المجهزة والمشحونة، حتى تتمكن من الاقلاع بسرعة كبرى وهي منصوبة الأشرعة، وأن يكون مع هذه السفن جميع تجهيزاتها، فتنقض وقتها على الجسور المذكورة وعلى السلاسل والعوائق الحديدية بكل عنف فتحطمها وتدمرها كلياً، وعندها من المكمن متابعة تحركهم إلى حيث أرادوا، فسيسيطرون على ذلك النهر، ويخضعوه لارادتهم — بحراسة من الرب وعونه — وقد تقدم لغيرهم من الصليبيين أن فعلوا ذلك في دمياط، ولا بد لنا من أن نتذكر أن فرقة الكرسي الرسولي سوف تكون مشكلة من خمسة عشر ألفاً من الرجالة، وثلاثمائة من الفرسان المأجورين، وبعدما يكون هؤلاء قد اتخذوا لأنفسهم موطىء قدم على الأرض، وقبل انتهاء السنة يكون قد لحق بهم خمسة آلاف غير مأجورين، ولسوف يبادر هؤلاء إلى هناك مسرعين مع المواد الغذائية، ومع كل ما يلزم ويفيد، وسيكون هؤلاء جميعاً متأهبين للعمل متى وحيثما يناسب، ومن الممكن القول بأن عددهم سوف يفوق العشرين ألفاً، ومما لاريب فيه أن جماعتكم ستحقق الكثير بعون الرب.

الفصل الثاني : بعض الحجج حول إمكانية أن يهاجم السلطان من جهة النيل، والإجابة لهذه الحجج.

إضافة لما تقدم، إذا اعترض أحدهم وقال. لدى ذلك السلطان أعداد غفيرة من البشر، وعنده إمكانات كبيرة ليصنع الكثير، من ذلك مثلاً:

أولاً : قد يستطيع تحويل مجرى النيل، ومنعه من الصب في البحر المتوسط، وأن يجعله يصب في المحيط، وهكذا لن يعود هناك أي مجال للذهاب على رأس أسطول يسلك طريق المياه العذبة.

ثانياً: إنه إذا لم يشأ، أولم يستطع تتميم ذلك، فإن بإمكانه أن يصنع شيئاً آخر، وهو: بعدما يكون الجيش الصليبي قد بنى لنفسه أماكن

سكنى، وبعض الحصون قريباً من أطراف نهر النيل، يمكنه تحويل مجرى النهر، فيجعله يصب بعيداً عن معسكر الجيش الصليبي لأن الشواطىء البحرية المصرية منبسطة ومتسعة، وبناء عليه إن في تنفيذ هذه الخطة إنزال أضرار ليست بالقليلة.

ثالثاً : يستطيع السلطان أن يصنع ما هو أسوأ من ذلك بكثير، حسبما يلي: بعدما يتحرك قائد المعسكر المسيحي النازل في مصر البحرية، ويجهز أسطول غلايينه، ويصعد رجاله بالمجاذيف إلى سفنهم فوق مياه النهر، وقتها سيكون بإمكان السلطان ورجاله العمل على تحويل مجرى النهر، من حيث يكون الأسطول قد انطلق، وجعله يصب في نقطة أخرى، ويكون الحال أن أسطول الصليبيين، سيجد نفسه — بعد انعدام الماء — محجوزاً فوق الأرض اليابسة ولن يكون بإمكانه الصمود أمام الحشود والقوات التي سيدفع بها السلطان ولن يكون أمامه من منجاة من بين أيادي الكفرة إلا بالموت أوبالأسر.

وعلى الاعتراض الأول يمكن أن نجيب:

من المستحيل أن يستطيع السلطان تحويل مجرى نهر النيل، ويمنعه من أن يصب في البحر المتوسط، وجعله يصب في البحر المحيط، ولوافترضنا أن ذلك ممكناً، فقد تقدم لنا أن بينا بوضوح — في الكتاب الأول — أن أرض مصر سوف تتدمر كلياً، وتصير قفراً، ومن غير الممكن تصور أن الكفار سوف يرضون بتدمير أنفسهم، طالما بإمكانهم تجنب ذلك بسبيل آخر من السبل.

ويمكن على الاعتراض الثاني الوارد أعلاه أن نجيب:

ينبغي أن تكون الحصون والمساكن التي ستقام فوق أرض مصر البحرية بادىء ذي بدء من الحبال والخيم فقط، بحيث تكون المستنقعات والمياه مصدر منعة تلك المساكن والحصون، وهكذا عندما

يشرع المصريون بتحـويل فـرع من فـروع ذلـك النهـر، حيث نصب الصليبيـون حصنهـم، يمكنهم فـوراً الانسحـاب مـن هناك بسفنهم مع جميع أمتعتهم، والتوجـه نحو نقطة يرونها تفيـدهم، وتناسبهم أكثر، علماً أنه من باب المستحيل أن يتمكن الكفـار من تحويل فرع النهـر الذي هو في دميـاط أو في رشيـد كليـاً، وبذلـك لن يستطيع المسلمـون — بعـون الخالق — إلحاق ضرر يذكـر بالصليبيين، لابل حتى وإن استطـاعـوا تحقيق شيء من هذا القبيل، سـوف يتكبـدون مضـار وأذى أعظم بكثير من الصليبيين.

ومن الممكن الإجابة على الاعتراض الثالث بمايلي:

يتوجب على القبطان ويليق به أن يكون متنبهاً لكل شيء، وأن يكون حكيماً، وإلاّ تكبد المسيحيـون ضرراً جسيماً لغفلته وقلـة حكمته، والمراد بهذا أن لا يبـاشر بالابحـار، ولا أن يدفع نحـو الأمـام جماعتـه بأعـداد كبيرة، قبل التأكـد من أوضاع أعـدائـه وأحوالهم، وقبل أن يتعـرف على المستجـدات، حتى يتصرف بحذر فيما سيتخـذه من تدابير، فحيثما يكون الخطر أعظم، تلزم الحيطة أكثـر، ومع هذا لو افترضنا أن القبطان اكتفى فقط بالبقـاء متحصناً مع قـواته في مصر البحـرية، فإنه يكون قـد حقق الجزء الكبير من مهمتـه، ولا حـاجـة إلى التسرع، فعلى مـن يطبق هذه الخطة، وهـذا الأسلوب أن يبحث دومـاً عن المعلومـات الجديدة، والأكيدة والصادقة عن أعـدائه، ولا بد له — بعون الرب القدير على كل شيء — من الوصول إلى النتيجة الصالحة والمفيدة.

الفصل الثالث: المثل الذي ضربه قورش ملك الفرس، ووثائق لجيش الصليبين.

ينبغي أن نعيد إلى الذاكرة ما جـاء في الكتاب المقدس، من أن قورش ملك الفرس والميـديين ، قرر بعدمـا مدّ سلطانه على الشرق بأكمله، أن

يحاصر بابل عاصمة تلك المملكة، ليستولي عليها، وبينما كان مرة مع واحد من جنوده يعبر نهر الغانج — الذي يقال بأنه واحد من أنهار الجنة الأربعة — جرفته قوة التيار، فغرق الجندي، وقد حزن قورش لهذا المصاب، وأراد أن ينتقم من النهر، فجفف أربعمائة وأربعين فرعاً من فروع ذلك النهر وروافده، حتى جعل المواشي نفسها تعبر قاع النهر مشياً.

وحول بالطريقة ذاتها مجرى نهر الفرات، الذي كان يمر في وسط مدينة بابل، وهكذا استولى على تلك المدينة، وكانت أقوى المدن جميعاً، وجاء استيلاء قورش عليها بعد مرور ألف وأربعمائة سنة على بنائها، وهنا لست أدري هل يمكن لسلطان مصر تقسيم نهر النيل إلى أنهار كما فعل قورش؟ وعلى افتراض أنه قرر وأراد صنع الشيء نفسه بنهر النيل، فإن ذلك لايمنع من متابعةمشروع الذهاب إلى أرض مصر البحرية، والاستيلاء عليها كما قلنا، للسبب الذي سنعرضه، لأنه على افتراض أن السلطان كان بمقدوره تحويل مجاري فروع ذلك النهر، فإنه سيعجز عن إزالة البحيرات والسباخ التي في المنطقة، أو تجفيفها لأنها تمتلىء باستمرار من مياه البحر، فضلاً عن هذا سيكون بإمكان المسيحيين تكوين سباخ أو بحيرات اصطناعية حيثما شاءوا، وذلك بأن يقيموا سدوداً طويلة، مثلما فعل أهل البندقية في أثناء الحرب التي وقعت بينهم وبين أهل بادوا بخصوص الملاحات — حسبما ذكرنا في القسم الثالث من كتابنا الثاني هذا — وستكون هذه السدود مجهزة بأبواب صالحة، حتى عندما ترتفع مياه البحر وتجري بغزارة أكبر، يسهل عليها الدخول دون أن ترجع من جديد، وبذلك تتجمع هذه المياه البحرية مع المياه النهرية المتدفقة باستمرار من أرض مصر، وبذلك تبقى في المستنقعات وفي غيرها من الأماكن المذكورة، وبهذه الطريقة تزداد هذه المياه وتفيض في تلك الأماكن فتزيد تلك الأبواب منعة، وتحول دون أن يحطمها

أحد، وإلى داخل هذه السباخ، وإلى داخل البحيرات أيضاً يمكن للسفن الدخـول والتجـول حسبما يرى قائـد الجيش، وذلك بغيـة إلحاق الأذى والضرر بالكفار، وإذا لم يتمكن من تحقيـق هذا الهدف بالشكل المذكور، ووفق الطريقـة المقترحة، فإنه سـوف يحتاج إلى عـدد أكبر من الفرسـان والرجّالة، مما لو كـان النهر سالكاً ومفتـوحاً كما هو في الوقت الحاضر، ويمكن للقـائد توزيع هذه الأعـداد من الفرسـان والرجّالة على أمـاكن محدودة قـرب المرسـى مع السفن، ويبقـون هكـذا إلى أن يحين الوقت ويصير ممكناً لهؤلاء الفرسان والرجّالة الصعود نحو القاهرة والقلعة من أي جهة مـن جهات النهر، يتبين لهم أنهم لن يـلاقوا فيها أية عـوائق أو مقاومة، ولدى توجه هؤلاء القوم بالاستعدادات اللازمة لتحقيق الهدف المرجو لدى وصولهم إلى القاهرة والقلعة لحصارهما، من المنطقي يلزمهم — بعون من يسـوع المسيح— السيطرة على ذلك النهـر، حتى يتصرفوا به كليـاً حسبما يريدون، وإذا مـا تم ذلك، وتحقـق المشروع بنجـاح — فأملي بالرب الذي أضع فيـه كامل ثقتي — بأن الكفـرة لن يتمكنوا من الدفاع عن أرض مصر، ولن يحولوا دون سقوطها — بفضل قوتكم — بين أيدي الصليبيين.

الفصل الرابع : التساؤل عما إذا كان عدد المراكب التي عند المسلمين على النيل يمكنها مقاومة جيش الصليبيين، وإيجاد حل لهذه المشكلة.

إضافة إلى ما تقـدم إذا أراد أحدهم أن يقول معترضاً: لدى المسلمين أعـــداد كبيرة من النـاس والمراكب، ويمكنهـم مجابهة جيش الصليبيين عسكرياً في النهر؟.

نجيب كما قلنـا من قبـل: لايصلح الشعـب المصري إلاّ قليـــلاً، أو بالحري لايصلـح بتـاتاً، لحمـل الســلاح وممارســة الحرب، ولا مجال للتخوف منه إطلاقاً، وإذا ما جلبوا فـرساناً لهم وحشوداً من سورية عبر الجهـة الثـانيـة من الصحـراء، أجيب بأنهم غير صـالحين لهذا، وأن هذا

الشعب غير معتـاد لا على الميـاه ولا على المراكب، وإذا أراد أحـد أن يقول: إنهم سوف يستـدعون بعض المسلمين من أفريقيا أو مـن إسبانيا، أو من مناطق أخرى يكون فيها بحـارة ومقاتلون مناسبون، أجيب: بأن هذا بعيـد المنـال، وإذا استقـدمـوا بعضهم، فإن شعبكـم — نظراً لاستعداداته وخبرته ونزاهتـه، وقد عبر عن ذلك في مناسبـات عدة — سـوف يقـاتلهـم بشـدة ويوقفهم عند حـدهـم بعـون الرب، وذلك إذا تعرض لمجابهتهم ، علماً بأننا لا نعتقد أنهم سوف يفعلون.

وأضرب لكم مثلاً حول هذا في واقعة فراريا عندما احتشد الكثيرون ضـد أهل البندقية، ولم يكـونوا وقتها أكثـر من ستـة آلاف، وحققوا مـا عـرفتـه قـداستكم وكـان ذلك عقـاباً من عند الرب ضـد أولئك لأنهم تمردوا ضـد الأوامر الرسـولية، ومعـروف أنه لا يمكن لأحد أن يسـوغ أمـام الرب، ولا قـدرة لأحد ضـد إرادة الرب، ذلك أن الذين يقفـون ضـد الكنيسـة هم بلا شك يقفـون في وجـه الرب، وهكذا للتقـديرات ذاتها، يتوفـر الأمل، بأن شعبكم سوف يصل إلى غايته المقـدسة ويتغلب عليهم في تلك المناطق.

الفصل الخامس: حول المؤن والدفاع وتجهيز سفن الجيش الصليبي.

من المفضل لأجل قـوة الجيش الصليبي وسـلامته، أن يتـدبر القبطان أمره، فيشحن في الغلايين عـدداً كافياً من الرجال، بقـدر ما تستطيع أن تستـوعب، وكلما انحصر مكان عسكرة ذلـك الجيش زادت قـوته، ومن الضروروي التطلع إلى نوعيـة الغلايين، أكثـر من النظر إلى عـددها، فأنا أفضل أن يكون لدي غـلايين قليلة وجيدة التسليح، مع عناصر مـدربة، على أن يكون عـددها أكبر، لكن بدون هذه الصفـات، سيكون الرجـال الموزعـون في غـلايين قليلة أقـوى وأفضل سـواء إن كـان للدفـاع أو للهجوم مما لو كانوا كثرة ومتفـرقين، كذلك من المفيد أن يكون القبطان قـادراً على استبـاق الأمور، فيكون اسطولـه قادراً ومـدرباً على الملاحـة

ومنظما بكل دقـة، وأن يكون سريع الحركـة والتنقل، ذلك أن سرعـة الغلايين ورشـاقتها عندما تدفع بالمجـاذيف تؤدي إلى نتيجة أضمن وإلى سلامة أكبر، كذلك ينبغـي أن نبين أن الملاحة في النهر، عليها الانطلاق صعـوداً على عكس التيار وبمـواجهته بقـوة، وبقدرة المجـاذيف، لذلك يتـوجب أن تكـون الغـلايين المسيرة بالمجـاذيف مـدربة على النمـوذج الثـلاثي، أي أن يكون على كل مقعـد ثلاثة مجذفين ينسقـون حـركـاتهم بالتوازن.

ولاحـاجـة لأن نكرر هنا ماتقـدم وذكـرناه من أن يكون كل غليـون مجهـزاً ببحارة على المجـاذيف، يكون كل ثلاثة منهـم على مقعد واحـد، ومع هذا من المناسب أن نذكـر على سبيل الاعـلام، أنه في سنة ١٣١٦، أجـرى أهل البندقية اختبـاراً جعلوا بمـوجبه عـدد المجذفين أربعـة على نسق واحد، فـوق كل مقعد، ونجح الاختبار وعد مفيـداً سواء للسفينة أو لطاقمهـا، وثبت أن الملاحة مع أربعـة مجذفين على نسق واحد، فـوق كل مقعـد، أسرع وأرشق من الملاحـة التقليـدية التي تعتمـد الاسلوب الثـلاثي للمجذفين، وقـد عقـدت شخصيـاً مشاورات بهذا الصـدد مع الذين اختبروا هذه الطريقة، ومع بعض المهندسين والمعلمين والملاحين، وتأملت شخصيـاً أنا بذلك، فـوجـدناها صـالحة تماماً ومفيـدة شرط أن يرضى بها مستشـاروا القبطـان المذكـور، أي أن تكون جميع الغـلايين والسفن الكبرى المعـدة للميـاه العـذبة— التـي تستيطيع حمل الشعب المذكـور— مجهـزة وفق هذه الطريقـة، بأن يكون على كل مقعـد أربعـة بحارة يجذفون على نسق واحد، خاصة وأن المراكب الكبيرة سوف تسير على الماء صعـوداً، ضد مجرى التيـار، وبذلك يلزمهـا ثلاثة صفـوف من المجذفين، لابل أربعة.

وسبب ما تقدم وقلناه:

هو أن المطلوب من الغـلايين المدفوعـة بالمجاذيف أن تكون سريعـة،

وأن يتحكم بها الذين عليها، وأن يكون بإمكانهم الشروع بمحاربة أعدائهم متى أرادوا، ويمكنهم تجنبهم فجأة متى أرادوا، وبذلك يتقون مخاطر كثيرة يمكن أن تحدق بهم في وقت قصير من الزمن بسبب هياج البحر وعواصفه، ولاسيما من أجل عبور البوارج الممرات التي فيها تيارات، والتي نادراً ما تخلو من الخطر، ولكي يصل من يسافر على متنها إلى المرسى بسلام، ولهذا كله لما رأيت المحاسن الكثيرة، وتأملت الضمانات التي يمكن أن يحصل عليها طاقم السفن، أكدت على جودتها، متمنياً أن يصادق عليها قبطان قداستكم، وبناء عليه محمود كثيراً، وإنه لأمر ينصح به بإلحاح، أن يكون المجذفون على كل مقعد ليس فقط أربعة بل خمسة، إذا كان ذلك سهل التطبيق، وممكنا، من أجل الإبحار على ظهر المراكب الكبيرة، ويفترض بالقبطان أن يطلب المشورة وأن يتبع ما يراه هو الأفضل، بخصوص الغلايين، وكذلك بخصوص الملاحة في المياه العذبة، ومن المعروف أنه في سنة ١٢٩٠ كانت تقريباً جميع الغلايين التي تعبر البحر، تستخدم مجذفين اثنين على كل مقعد، وأدرك بعد ذلك رجال أكثر حذاقة بأنه يمكن استخدام ثلاثة مجذفين، وهذا هو الاسلوب المتبع اليوم بشكل عام، وليس لأحد أن يرى أنه ضرر إذا وضعنا أربعة أو خمسة على نسق واحد فوق كل مقعد في السفن الكبرى، وذلك بعد ماجرى اختبار فعالية هذا الاسلوب وجودته، وبالفعل توجد في كتب الأقدمين أنه كان في أيام الرومان يجلس ثلاثة رجال للتجذيف على كل مقعد، وقد ورد في كتاب ريجتيو Regetio حول الشؤون العسكرية، والذي تناول المعارك الكبرى في البحر، أن ملاحاً اسمه ليبورناس Liburnas ، كان يصف المجذفين واحداً واحداً، وعلى المراكب الأكبر بقليل أجلسهم اثنين اثنين، أما على المراكب الاكبر— وكل حسب قياسها— فقد رتب المجذفين فيها ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة، أو حتى خمسة خمسة، والذي أراه أنه لايجوز القول إن في هذا مبالغة كبيرة، عندما نقرأ أنه اشتركت في معارك الأيام الماضية

سفن أكبر بكثير من سفن هذه الأيام، وذلك وفق الطريقة التي رتبها فيها الشيوخ القدماء.

الفصل السادس: ما يفترض أن تكون عليه السفن حتى تكون صالحة لعبور البحر، وتحقيق مشروع مصر بنجاح.

وفيما يلي شكل السفن اللازمة واسلوبها لتسهيل نجاح المهمة المذكورة.

أولاً: إن أفضل السفن لعبور البحر هي الغلايين، التي تعتمد على التجذيف، وهي مراكب خشبية مستديرة، تماثل تقريباً ما يستعمله البنادقة في هذه الأيام، أي هي غلايين ضخمة، تنقل أكبر حمولة ممكنة، وذلك بقدر ما تستطيع المجاذيف أن تلبيها، ويضاف إليها أيضاً سفن أصغر حجماً، تسير أيضاً بالتجذيف، وعلى كل حال إن أية سفينة من حجم آخر تفيد أيضاً، إذا كانت من صنع جيد، وتسير أيضاً بالتجذيف، لكن ينبغي أن تكون رشيقة وسريعة، هذا ومن الممكن ادخال بعض التعديلات على تلك السفن من أجل تحسين وضعها، وأخص بالذكر السفن التي تسير بقوة دفع المجاذيف، ومن هذه التعديلات، نصب برج في وسط كل منها يبلغ طوله عشرون قدماً، ويكون عرضه بمقدار عرض السفينة التي تحمله، ويكون علوه بقدر يسمح بمرور الرجال من تحته مع المسلحين، وهم منتصبوا القامة، ومفيد أن يوضع في مؤخرة كل سفينة بعض المعدات الحربية، وليكن ذلك حسب نصيحة أناس حكماء وخبراء في هذا الحقل، مثل أنواع من الحسك المدببة الرؤوس، وتصف هذه من المؤخرة حتى الأمام وحول جوانب السفينة، هذا وجرت العادة بوضع بعض آلات الرماية على مقدمة المقاعد، بأي عدد يعد ضروريا ومفيداً، ويتوجب ترتيب جميع آلات الرمي والبرج والحسك ومختلف المعدات الحربية بطريقة فنية، وبشكل يسهل معه ازاحتها وإعادة نصبها حسب المقتضى، ونرى أن يجري اختيار بعض هذه السفن من النوع

الكبير الحجم، لها مستودع في باطنها، ولها باب يفتح في مؤخرتها، لنقل المؤن، ولتسهيل إصعاد الخيول إليها، هذا ويحتاج اسطول الغلايين إلى بعض السفن الكبيرة جداً لنقل الميرة، والعتاد، والذخائر، والخيول اللازمة للجيش، وأفضل أنواع السفن لحمل المواد الغذائية والأخشاب هي السفن المربعة التي يستعملها الآن أهل جنوى في بيرا Pera لأن حمولتها كبيرة، وعدد بحارتها قليل، ويمكنها أن تنشر أشرعتها بكل سرعة ومن ثم تمخر عباب البحر، لكن من الواضح أن المراكب الطويلة التي اسمها أورسا orsa لها قدرة على الصمود أفضل وهي عندما تهب عليها الرياح المناسبة موائمة أكثر من السفن القصيرة.

الفصل السابع: حول السفن المؤهلة لنقل الامدادات وباقي الأشياء المناسبةللجيش سواء عن طريق البحار، أو عن طريق الأنهار، وحول كيفية الملاحة في المياه العذبة، وحول ما هو أكثر فائدة لانجاز المشروع المذكور.

أقترح تخصيص سفينتين يحتاجها الجيش للملاحة عبر النهر، بشكل أنها تنصبان أشرعتها، وتندفعان بشدة، حتى تتمكنان من تحطيم الجسور المنصوبة على النهر والموانع الحديدية والسلاسل، أو أي هدف آخر مقام، ولاحظت أنه بين مختلف أنواع السفن المخصصة للمياه العذبة، أن النوع المستخدم على نهر البو Po، قد برهن أنه أفضل وأكثر نجاعة، وأحسن نتائج مما عداه، خاصة بينها النوع المسمى بلاكتارا Plactara وهو نوع يستخدم للشحن على نهر البو، لكن ينبغي أن لايبلغ علو رؤوسها العلو المعهود، بل أن تكون هذه الرؤوس مبسوطة أكثر للملاحة في المياه العذبة، ويجب على كل حال أن تكون أجسامها أطول، وبخصوص عددها ينبغي تأمين ما يكفي لحاجة نقل الخيول، ويتوجب دوماً مراعاة شرط أن تكون هذه السفن بحالة جيدة، وأن تكون صالحة للسير بوساطة المجاذيف، وأن يكون لها في المقدمة دقل

يعمل بمثابة دفة، وأهم من هذا كله لابد أن تكون هذه السفن مغطاة ما عدا من جهة المقدمة والمؤخرة، من أجل أن يكون الرجال المكلفون بالعمل بالمجاذيف محميين كليا من مخاطر نشاب العدو، وتوضع الخيول في أقبية تلك السفن، وتوضع فوق الظهر الأبراج بمهارة واحدها فوق الآخر، كما يتوجب تزويد بعض السفن بآلات، وأيضاً مركزة بعض المهرة من الرماة بالقرب منها.

وألح دوما على أن تكون السفينة والأبراج والآلات بحالة جيدة، ومع هذا كله هناك حاجة مؤكدة تقضي بتأمين مراكب أصغر، وأيضاً مراكب أصغر بكثير، يمكنها دخول فروع النهر، على أساس أن الكمائن إذا نصبت في مكان ما، تنصب حيث تكون مياه النهر قليلة العمق، ومن المعتقد أن المراكب الصغيرة سوف تكون مفيدة وعملية في مناسبات عديدة، خاصة لحراسة السفن العملاقة وحمايتها، حتى إذا ما صدف وحاول بعض رجال العدو الوصول إليها سباحة تحت الماء، يستحيل عليهم النزول إلى النهر، وقد حدث في الماضي أن تسللوا ليحدثوا خروقاً في سفن الصليبيين، هذا وهناك احتمال كبير أنهم لن يتجرأوا على النزول إلى النهر لسرعة جريانه وعنفه، وبسبب وجود التماسيح في النهر المذكور، وفضلاً عما تقدم يحتاج ذلك الجيش أيضاً إلى أن يكون مع اسطوله بعض المراكب المصفحة، أي أن تكون محاطة بنوع من السواترالدفاعية، حتى يأمن رجالها من رمايات الحجارة من مجانيق العدو وعراداته، ويحسب عدد هذه السفن حسب حاجة الجيش، وفوق هذا يحتاج الجيش أيضاً إلى سفن موائمة تكون قوية جداً وكبيرة، تقتصر مهامها على نقل المعدات والآليات المناسبة واللازمة لتنفيذ بعض المهمات، وذلك حسبما يراه المشرفون على الجيش، وأيضاً ينبغي أن تكون هذه السفن مجهزة بكل ما يلزم لاتقاء النيران، أي أن تكون ملفومة بالجلود، وفي سبيل إلقاء الرعب في قلوب الأعداء ينبغي أن تكون سفن

البحـر أو الأنهار ذات ألوان ساطعـة، مـزينة بالرسـوم، ترفـرف فوقهـا الأعـلام والرايات في المقـدمـة وفي المؤخرة، وأن يـوجد عليهـا رسـوم مرعبة، توضع على الجوانب بشكل خاص.

ولكي لاينقص المشروع أي شيء، ويكون كـامـلاً حتى يحقق الهدف المرجو، والغـاية الحميدة، يلزم أن يكون مع كل جيش— وخـاصة على الأنهار— أبواق، ونفـر، وطبـول وكـوسـات، وكل أنواع الآلات الموسيقية القوية الأصـوات، وأن يكون عددها كبيراً بقدر الامكان، من أجل بعث الحماس، وشـد عـزائم الأصـدقـاء، حتى تـوزع الفـرح في قلوبهم، ولكي يدب الرعب في قلوب الأعداء الماكرين.

الفصل الثـامن: أصناف الأسلحـة، وتعـدد أشكـالها من دفـاعيـة وهجومية، وذلك مما يحتاجه الجيش الصليبي.

من الطبيعي هناك حـاجة للتـزود بالأسلحة الكافيـة لحاجات رجـال الجيش حتى يدفعوا عن أنفسهم، ولمهاجمة أعدائهم، وفق مايلي:

أولاً: يحتـاج كل رجـل من ذلك الجيش إلى سيف صـالـح، وجـاهز لسحبه سريعاً من غمده.

ثانيـاً: يجب أن يكون في كل سفينة عـدد كبير من الدروع الواقيـة للصدر، وأغطية للرأس، وسواتر للرقبة، يزود بها جميع العناصر، أو على الأقل الثلثـان منهم، وذلك على الرغم من أن المراكب المعـدة للملاحـة على النهـر ستكون كما تقدم وأشرنا مـدرعة، وذلك بغيـة إتقاء رمـايات الأعداء.

ثالثـاً: من الضروري أيضـاً أن يكون كـل عنصر من عناصر الجيش مزوداً بخوذة من الحديد أو غيره من المعادن الخفيفة، والمهم أن تكون له خوذة خاصة به تبقى معه.

رابعاً: من المتوجب أن يكون مع الجيش عدد كبير من الترسة، بحيث يكون لكل عنصر ترسه الخاص به في المكان والزمان المقرر، وأفضل أنواع الترسة تلك التي يستعملها أهل كاتالونيا، بسبب جودتها وخفة وزن كل منها، والحاجة إلى الترس دائمة، فقد يحدث أن يترجل المقاتلون، ولايكون وقتها بمقدورهم حمل الدروع، متذكرين أن المسلمين مؤهلون للاقلاع بحملات متوالية، فإذا ما اضطر الجندي إلى ارتداء الدرع ثم بعد ذلك إلى خلعه، قد يتعرض لخطر داهم، وهو يلبس أو وهويخلع، وهكذا عندما يكون مع كل رجل سابغته وخوذته وترسه وما يحمي به رقبته وصدره وجسمه، حسبما تتطلب الظروف، في ذلك كفاية لقمع جرأة الماكرين، وينبغي أن يكون معه علامة مميزة جميلة المنظر، وحذاء متين ومفيد، وكل ما هو لازم لإطفاء النار.

وإذا ما التفتنا نحو الأسلحة الهجومية نقول: يلزم لكل واحد سيف وغمده، وبالاضافة إلى ذلك هناك حاجة إلى:

أولاً: أن يحمل كل عنصر قنا حديدية.

ثانياً: أن يزود كل واحد من الرماة بكمية من النشاب، وأن يحمل معه قوسين، قوس أشد من الآخر، يستخدم الشديدة عندما يتمركز في نقطة ثابتة على الارض، ويستخدم الثانية أثناء التقدم والتراجع حسبما يقتضي الحال.

ثالثاً: ينبغي تزويد كل غليون بقناة طويلة من المعدن معقوفة الأطراف، وأيضاً برماح طويلة، وبحراب، وبسلاسل ضخمة تحمل في نهاياتها كلاليب، وأن توضع بشكل خاص في مؤخرة كل سفينة.

رابعاً: وينبغي أيضاً أن يكون في كل مركب رماح طويلة ورماح قصيرة، وكميات من الحجارة كبيرة بدون عدد.

خامساً: ويتوجب أن يكون في السفن كلاليب حديدية مربوطة إلى

سلاسل حديدية من أجل عندما يرى الملاحون أنفسهم أنهم تفوقوا على الأعداء يلتقطون مراكبهم بهذه الكلاليب ولايدعونها تفلت.

سادساً: من المفيد جداً أن تحمل كل سفينة معدة للملاحة فوق المياه العذبة منجنيقاً كبيراً بإمكانه الرماية بالتتابع نحو كل الجهات، وأن يكون هذا المنجنيق مجهزاً بكل ما يحتاجه، وأن تحمل عدة عرادات، يكون عددها وفقاً لما يستحسنه قائد الجماعة، حتى وإن تطلب ذلك عدداً إضافياً من المحاربين، وسيكون ذلك مفيداً للغلايين أيضاً، ومن الموائم أيضاً توفر كميات كبيرة من النشاب، لاسيما من النوع الذي يدعوه العامة باسم العقار.

سابعاً: تحتاج تلك السفن إلى منصات للمجانيق الخشبية، ومنصات أيضاً إلى آلات للرماية أبعد مدى، أي مجانيق مدعمة، مع كل ما يقتضيه الأمر من رجال مدربين لتشغيلها.

ثامناً: من المفيد، والمستحسن أن يثبت من الطرفين في مؤخرة كل غليون دعامة خشبية طويلة، يستعملها الغليون والبحارة سواء كرأس كبش مثل الذي يستخدم لتحطيم أبواب المدن المحاصرة.

تاسعاً: تحتاج كل سفينة إلى جرار كبيرة تكون مملوءة بالكلس، ومثل ذلك إلى أواني كثيرة تكون مملوءة بالصابون الطري، وينبغي أن يوضع بين الجرار والأواني أدوات حديدية يدعوها العامة «الحراقات» ذلك مع غيرها من التجهيزات اللازمة لاشعال النيران، وأيضاً لرمي النشاب، وأشياء أخرى كثيرة حسب النصائح التي يقدمها خبراء الجيش، ويتوجب على القبطان الذي هو القائد العام لذلك الجيش أن يختزن أكبر كمية ممكنة من هذه الأسلحة، نظراً لأن كثيراً منها ينكسر، أو يتلف، أو يفقد أثناء استخدامه من قبل الرجال.

الفصل التاسع: كيف يقوم القبطان بتنظيم عناصر ذلك الجيش،

وكيفية توزيع المؤن عليها، حتى يسير كل شيء بنظام وبوئام.

وأتوسل أيضاً إلى قداستكم أن يعمد القبطان الذي— بنعمة من قداستكم —توليتم تعيينه قائداً على ذلك الجيش، إلى إيلاء تنظيم جميع الذين معه والعاملين في الجيش كامل العناية والاهتمام واليقظة، وأن يوزع عناصر الجيش المأجورة، وجميع الموجودين فيه لسبب أو لآخر، ويقسمهم إلى مجموعات بعضها مكون من ألف عنصر، وثانية من مائة عنصر، وثالثة من خمسين عنصر، ورابعة من عشرة عناصر، وأن يولي على كل مجموعة قائداً أو رئيساً مسؤولاً، وأن يعطي القبطان أولئك المسؤولين التعليمات الواجبة حسبما يراه مناسباً، كل حسب مقامه وخبرته، وعلى قائد الجيش المسيحي أن لايولي هذه المسائل لوحدها العناية والاهتمام، بل عليه أكثر من ذلك أن يسهر ويحرص على وصول الطعام إلى جميع أفراد جيشه بانتظام، سواء منهم الذين يعملون لقاء راتب، أو الذين بدون راتب، وليكن ذلك حسب كرمه، وحسبما يحكم بفطنته أن ذلك لازم وضروري لهم، وذلك للحيلولة دون الاستيلاء على الأطعمة خلسة وخفية من قبل أتباعه، ويخيل لي أنه من المستحسن والمفيد للحفاظ على الجيش ولرفع معنوياته أن ينظر القائد ومستشاروه الذين على كل سفينة من السفن بمفردها هل يناسب بالاضافة إلى التوزيع العام لكل ما هو ضروري على الذين في الجيش، خاصة المأكل والملبس، أن تكون هناك أشياء يمكن بيعها، لكن بسعر عادل، شرط أن لايتولى البيع إلاّ الذين كلفهم بذلك القبطان أو مستشاروه، ومن الممكن بيع بعض السلع بالدين، وذلك حسب أوضاع الأشخاص، على أن يجري التسديد بعد يوم دفع الرواتب، فيومذاك ينبغي تسديد جميع الديون تماماً، بشكل يصل فيه كل انسان إلى حقه دون غش أو خديعة، ودون أن تكون هناك أية شكوى من فرض علاوات أو ضرائب وترصد جميع أرباح المبيعات لما فيه المصلحة العامة للجيش، هذا ومن

الضروي تطبيق النظام العـام جملة وتفصيـلاً في جميع المجالات المتبقيـة، والتقديم في النظام القويم هو دوماً للسلاح، وعلى السلاح لايعلو شيء.

الفصل العـاشر: كميـات الميرة، والطرق المتبعـة لـدى أهل البندقيـة لتـوزيع الميرة على العـاملين في غـلايينهم، وعـدد الأفـراد المستخـدمين، والزمن والوزن، والعيارات، والمقاييس، وكل ما يناسب منطقياً إكماله.

من الضروروي إعطاء كل رجل يوميـاً ليبرة واحدة (الليبرة تسـاوي ٤٥٣,٦٠ غ) ونصف الليبرة من البقسماط، وعلى اعتبـار أن عـدد أيام الشهـر هي ثلاثين يوماً وأشهـر السنة هي اثني عشر شهـراً، وبما أن كل شهر مكون من ثلاثين يوماً، ينقص مـن كل سنة خمسة أيام وربع اليوم، وذلك بعـد ضم السنة الكبيسـة إلى تعـداد باقي السنوات؛ وينبغي أخـذ العلم أن كل جوالق من البقسماط يزن تسعين ليبرة، وأن كل جوالق من الدقيق الجيـد يعطي مـائـة وخمس ليبرات من البقسماط، وفي هذا زيادة سـدس على مايفـرضه أهل البندقيـة، وبناء عليـه يحتاج كل فـرد تسعين ليبرة كل شهرين أي بمعـدل جوالق واحد، وبالنسبة لسنة كـاملة مؤلفة من اثني عشر شهراً وخمسة أيام وربع اليوم ستكون هناك حاجة إلى ستة جوالق من الدقيق، وسبع ليبرات، وإحدى عشرة أو نصة (الأونصة هي ٢٨,٣٥ غـرام) ونصف الأونصـة، وتسـاوي هذه الجوالق ٥٤٧ ليبرة بقيـاس أهل البندقيـة للجـوالق الـواحـد، هذا ويسـاوي كل ألف ستـة قناطير بعيار أهل أبوليا ونابولي.

ويعطى أيضـاً يوميـاً لكل واحـد ممن يتقـاضـون رواتـب كأسـاً من الخمـــرة، بحجـم ربع ليبرة، وإذا ضربنا كـل ليبرة بسبعين نحصل على المقياس المسمى عند العامة «برميل صغير»، وكل برميل صغير مضروب بأربعة يسـاوي تماماً «برميل كبير» حسب قياس أهل البندقيـة، ويساوي كل برميل كبير برميلاً واحداً Veges وثلثاً من عيار نابولي، وبناء عليه تكون حصـة كل رجل في السنة الكـاملة— كما قلنا— برميـلاً واحـداً،

واحدى وعشرين ليبرة، وربع وستة عشر جزئاً من الليبرة حسب قياس أهل البندقية.

ويعطى كل واحد ممن ورد ذكـرهم أونصة واحـدة من الجبن يومياً، أي يعطى على مدار السنة ما مجموعه ثلاثين ليبرة وخمس أونصات وربع أونصة تماماً، وكـذلك يعطى لكل واحد ثلاث ليبرات وثلاث أونصات من لحم الخنزير المملح كـل ثلاثين يومـا، أي مـامجمـوعـه تسع وثلاثين ليبرة وست أونصـات وأربع Sagys كل سنة، ويوزع أيضـاً يوميـــاً على كل واحد من المقاتلين المأجوريـن لقاء راتب: فول أو أية حبوب أو بقـول بمقـدار جزء من أربعين من ربعيـة (كـوارتا رولاQuartarola) حسب عيار أهل البندقية، ولكي يكون كل شيء واضحاً، تجدر الاشارة إلى أن كل أربع ربعيـات تسـاوي ربعاً واحـداً (Quarsta) وكل ربع مضروب بأربعة يساوي جوالق واحد من عيار أهل البندقية، وكل ثلاثة جوالق من عيـار أهل البندقية، تسـاوي سالما Salma واحدة من عيار أبوليا، سواء أكان ذلك من الحبوب أو من الدقيق.

وبناء عليه تكون حصـة كل رجل لكل سنة كاملة نصـف جوالق من الحبوب، وربعية واحدة وخمسة وأربعين جزءاً من الربعية.

مايجب تقديمه من طعام لعشرة رجال

١٥ — ليبرة من البقسماط	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
٥ — جوالق	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٦٠ جوالق	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
٧٨ ليبرة وتسع أونصات	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
٢ ١/٢ ليبرة خمر	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
برميل صغير واحد وخمس ليبرات	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
١٢ — برميل صغير و ٦٠ ليبرة	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
١/٨ ١٣ — ليبرة	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع
١٣ — أونصة لحم	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
٣٢ ١/٢ ليبرة	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٤٩٠ — ليبرة	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
٥ — ليبرات و٩ — أونصات	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
١٠ — أونصات جبنة	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
٢٥ — ليبرة	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٣٠٠ — ليبرة	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
٤ ١/٢ أونصات	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم
١/٤ ربعية حبوب	حصة عشرة رجال لليوم الواحد
١ — ربع ١/٢ ٣ ربعية	حصة عشرة رجال لثلاثين يوماً
٥ جوالق و ١٠ ربعيات	حصة عشرة رجال لاثني عشر شهراً
١١/٤ ربعية ١٦ جزء من الربعية	حصة عشرة رجال لخمسة أيام وربع اليوم

ما يجب تقديمه من طعام لمائة رجل

١٢/٣ — جوالق بقسماط	في اليوم الواحد لسفينة تحمل مائة رجل على أن يحسب الجوالق تسعين ليبرة
٥٠ — جوالق	لثلاثين يوماً
٦٠٠ — جوالق	لاثني عشر شهراً
٨ — جوالق و ١/٢ ٧٧ ليبرة	لخمسة أيام وربع اليوم
٢٥ ليبرة خمرة	حصة المائة رجل يومياً
١٠ — برميل صغير و٥٠ ليبرة	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً
٣٢ — برميل كبير و٤٠ ليبرة	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً
١ — برميل صغير و٦٠ ليبرة	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم
Fieta واحدة من النبيذ	تعطى لهم كذلك بمثابة حصة يومية.
٨ ليبرة و ١/٤ أونصة جبنة	حصة المائة رجل يومياً
٢٥٠ ليبرة	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً
٣٠٠٠ ليبرة	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً .
٤٣ ليبرة و٩ أونصات	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم.
١٠ — ليبرة و١٠ أونصات لحم	حصة المائة رجل يومياً.
٣٢٥ ليبرة	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً.
٣٩٠٠ ليبرة	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً.
٥٦ ليبرة و ١/٢ ١٠ أونصة	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم.
١/٢ ٣ ربعية فول أو حبوب	حصة المائة رجل يومياً.
٤ — جوالق و ١١ ربعية	حصة المائة رجل لثلاثين يوماً.
١/٢ ٥٦ جوالق	حصة المائة رجل لاثني عشر شهراً.
٤ — ربع و ١/٨ ١١ ربعية	حصة المائة رجل لخمسة أيام وربع اليوم

مايجب تقديمه من طعام لألف رجل

١٦ جوالق و ٦٠ ليبرة بقسماط	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٥٠٠ جوالق	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٦٠٠ جوالق	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
٨٧ جوالق و ٤٥ ليبرة	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٣ براميل صغار و٤٠ ليبرة خمرة	حصة ألف رجل ليوم الواحد
٣١ برميل كبير و٣ براميل صغار و٤٠ ليبرة	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٣٢١ برميل كبير وبرميل واحد صغير و٤٠ ليبرة	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
١٨ برميل صغير	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٣ ليبرة وأربع أونصات جبنة	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٢٥٠٠ ليبرة	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٣٠ ألف ليبرة	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
١/٢ ٤٣٧ ليبرة	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٠٨ ليبرة وأربع أونصات لحم	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٣٢٥٠ ليبرة	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
٣٩ — ألف ليبرة	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
٥٦٨ ليبرة وتسع أونصات	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
جوالق واحد فول و٢ — ربع وربعية واحدة	حصة ألف رجل لليوم الواحد
٤٦ جوالق و ٣ — ربع و٢ ربعية	حصة ألف رجل لثلاثين يوماً
١/٢ ٥٦٢ جوالق	حصة ألف رجل لاثني عشر شهراً
٧ جوالق و ١/٤ ٣ ربعية	حصة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم

ما يجب تقديمه من طعام لعشرة آلاف رجل

١٦٦ جوالق و٦٠ ليبرة بقسماط	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٥٠٠ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٦٠٠٠ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٨٧٥ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨ برميل كبير،و ٣ — براميل صغار، و٥٠ ليبرة خمرة	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٢٦٧ برميل كبير، و٣ — براميل صغار، و٣٠ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٣٢١٤ برميل كبير، وبرميل واحد صغير، و١٠ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٤٧ برميل كبير، و٣ براميل صغار، و٣٥ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٣٣ ليبرة جبنة و٤ — أونصات	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٢٥ ألف ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٣٠٠ ألف ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٤٣٦٥ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٠٨٣ ليبرة لحم وأربع أونصات	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٣٢ — ألف ليبرة وخمسمائة ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٣٩٠ ألف ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٥٨٠٧ ١/٢ ليبرة	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٥ — جوالق فول(أو حبوب)	حصة عشرة آلاف رجل في اليوم الواحد
٤٦٨ جوالق و٣ — أرباع	حصة عشرة آلاف رجل في ثلاثين يوماً
٥٦٢٥ جوالق	حصة عشرة آلاف رجل في اثني عشر شهراً
٨١ جوالق و٣ — أرباع و ١ ١/٢ ربعية	حصة عشرة آلاف رجل لخمسة أيام وربع اليوم

ما يجب تقديمه من طعام لمائة ألف رجل

١٦٦٦ جوالق بقسماط و٦٠ — ليبرة	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٥٠ — ألف جوالق	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٦٠٠ — ألف جوالق	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٨٧٥٠ جوالق	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٩ برميل كبير، وبرميل واحد صغير، و١٠ ليبرات من الخمرة	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٢٦٨٧ برميل كبير، و٢ برميل صغير وليبرة	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٣٢١٤٢ برميل كبير، و٣ براميل صغيرة و٣٠ ليبرة	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٤٧٤ برميل كبير	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
٨٣٣٣ ليبرة وأربع أونصات من الجبنة	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٢٥٠ليبرة	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٣٠٠٠ — ألف ليبرة(ثلاثة ملايين)	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٤٣ ألف و٧٥٠ ليبرة	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٠٨٣٣ — ليبرة وأربع أونصات من اللحم	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٣٢٥ ألف ليبرة	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٣٠٠٠ — ألف ليبرة(ثلاثة ملايين)	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٥٦٨٧٥ ليبرة	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم
١٥٦ جوالق وربع واحد من الفول(الحبوب)	حصة مائة ألف رجل في اليوم الواحد
٢ / ١ ٤٦٨٧ جوالق	حصة مائة ألف رجل في ثلاثين يوماً
٥٦٢٥٠ جوالق	حصة مائة ألف رجل في اثني عشر شهراً
٨٢٠ جوالق وربع واحد، وربعية واحدة	حصة مائة ألف رجل لخمسة أيام وربع اليوم

طريقة توزيع الأغذية

يتولى كتاب الغلايين توزيع الأغذية على الرجال وفق الشكل التالي:

أولاً : يوزن راتب البقسماط وفق ما ذكرناه أعلاه لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أو أربعة أيام، ويوزع على الرجال بقدر ما يتبين أن العناصر قادرة على الحفاظ عليه بشكل جيد، علماً بأنه من الممكن توزيع أيضاً راتب يومين يومين.

ثانياً: يوزع الجبن على جميع الرجال راتب ثمانية أيام أو خمسة عشر يوماً.

ثالثاً :يوزع راتب اللحم المملح كل أسبوع، ويعطى لكل عنصر تسع أونصات كمايلي: يوزعها المكلفون بهذه المهمة على خمسة أيام بحيث يعطون ليوم الأحد لكل رجل ثلاث أونصات، و يعطونه في الأيام الأربعة المتبقية، أي : الاثنين والثلاثاء والأربعاء و الخميس، نصف ما كان أخذه يوم الأحد المتقدم، وتطبخ هذه اللحوم مع الحبوب، لكن لا يشارك في تقديم اللحوم للطبخ إلاّ نصف الموجودين على ظهر الغليون وإن كانوا جميعاً يحصلون على حصتهم من الطعام المطهي، ويقدمون النصف الثاني للطبخ لاحقاً، ومن جديد يتشارك الجميع في الطعام المطهي، ويحصلون بهذه الطريقة على اللحم ثلاث مرات في الأسبوع، ويستفيدون خمس مرات من طبخ اللحم، أما في باقي أيام الأسبوع أي في يومي الجمعة والسبت، فيكون الطبخ حبوباً، وتقدم مسلوقة لكل عنصر من الموجودين في الغليون، وإذا صدف ووافق يوم من أيام توزيع اللحم، وكان يوم صيام قبل يوم العيد لواحد من الأعياد الكبيرة، فتوزع الحبوب، وتحفظ اللحوم لتوزع على الرجال في أول يوم عيد يأتي، ويظل الأكل في يومي الجمعة والسبت من الحبوب حسبما جرت

العـادة، ونذكـر هنـا أنه من الضروري أن يكون على ظهـر كل سفينة مسـؤول يتولى أعمال الطبخ مـرة في اليوم لصـالح رجال الغليـون، وهو بالعادة يتسلم من الكتّاب الحبوب اللازمة للطبخ، وكذلك اللحوم التي تؤكل فيها اللحوم، وذلك قبل يوم حتـى يتاح له الوقت لإعدادها ومن ثم إطعام من في الغليون، ويجري تكليف ثلاثة رجـال لاستلام الأطعمة وتوزيعها، يقف أحدهم في مقدمة الغليون والثاني في وسطه، والثالث في مؤخرته، ويرافق هؤلاء الرجال الثلاثة رجل يتولى الإشراف والتأكد من حصـول كل رجل على حصتـه، ويستحسن تبـديل الموزعين بين آونة وأخـرى، ويبقـى هذا حسبما يراه المرافق الـذي هو مـدبر الغليـون، وبالحري يعـود ذلك إلى رأي القبطان، أي القـائد العـام للجيش، فإليـه أوكلت مسؤولية العدالة وتطبيقها، والمهم بالأمر عدم الإخلال بوصول حصة كل إنسان من الطعام إليه.

ورب سائل يقـول:هل يكفي هذا الراتب من ا لطعـام لهذه الجماعة؟ وأجيب نعم، بما أن القوم يتسلمـون من الموزعين البقسماط بكفاية، علماً بأنه عند الاقتضاء يمكن لأحدهم الاحتفاظ بمقدار خمس عشرة أونصة أو اثنتي عشرة أونصة بقسماط يومياً، وأضيف أنني وجدت شخصياً في أحد الجيـوش أنه لم يكن يوزع سوى تسع أونصـات للشخص الواحد، لكن هذا هو الحد الأدنـى في أوقـات الضيق وفي العـادة عندمـا تزول الضـائقـة — حسب ظروف الزمـان والمكان — يجري التعـويض على الناس مـا نقصهم إما بدفع مبلـغ من المال، أو بإعطائهم مواد أخـرى، علماً بأن أولئك الناس يستطيعـون أن يبتاعـوا بمالهم الخاص متى وحيث يريدون الخمـرة والطعـام، حسبما يروق لهم ويطيب، وذلـك عندمـا يصلون إلى مكان تتـوفـر فيـه تلـك المواد، هذا ويقـدم للرجـال في أيام الصوم الكبير بدلاً عن اللحم وعن الجبن طعـام آخر يوازي بقيمته ثمن ذلك اللحم والجبن.

تخمين منطقي لأسعار المواد الغذائية المتوجب تأمينها:

في البداية من المفيد التعرف ولو قليلاً على النظام النقدي المتبع في البندقية:

تساوي كل قطعة فضية كبيرة Grossus من نقود البندقية اثنان وثلاثين ديناري صغير، وبناء عليه إن كل ٧١/٢، قطعة فضية كبيرة تساوي عشرين سولدي صغار، وتساوي كل عشرين سولدي كبار من نقود البندقية اثنتان وثلاثين ليبرة صغيرة، وهكذا دواليك.

ولنفترض أن البقسماط الذي يزن الجوالق الواحد منه تسعين ليبرة يساوي ثمنه ٣٢١/٢ سولدي صغار، يكون ثمن ليبرة ٤١/٢ ديناري، وطبعاً يلزم لكل رجل يومياً من ذلك البقسماط ١١/٢ ليبرة، وبذلك يكون ثمنها١/٢ ٦ ديناري، ويكون الثمن في ثلاثين يوماً ١٦ سولدي وثلاثة ديناري صغار، مقابل ٤٥ ليبرة من البقسماط، أما في اثني عشر شهراً فيكون ثمن ستة جوالق من البقسماط ٦ سولدي كبار، وقطعة فضية كبيرة، وأربع قطع صغار.

وثمن البرميل الكبير من الخمرة ١٥ — ليبرة و١٥ سولدي، ويساوي ذلك بعملة البندقية ٩ سولدي كبار، و١٠ قطع فضية كبيرة، و٤ ديناري، وبناء عليه يكون ثمن البرميل الصغير ٣ ليبرة، و١٨ سولدي، و٩ ديناري صغيرة، ويكون ثمن ليبرة الخمرة ١/٢ ١٣ ديناري، ويعطى يومياً للفرد ربع ليبرة ثمنها ٣٣/٨ ديناري، مما يعادل في الشهر ثلاث قطع فضية كبيرة و ١/٤ ٥ ديناري، ويساوي هذا في اثني عشر شهراً ٣٧ قطعة فضية كبيرة و ٣١ ديناري.

أما ثمن اللحم المملح فهو للألف ليبرة، ٥٠ ليبرة صغار أي ٣١ سولدي و ٣ قطعة فضية كبيرة، وحصة الرجل يومياً هي ١,٣٩ —

أونصة، ثمنها ١/٥ ١ دينار، ويعادل هذا بالشهر الواحد ٣٩ — أونصة ثمنها قطعة فضية كبيرة واحدة و٧ ديناري صغيرة، وبموجب ذلك تكون حصة الفرد في اثني عشر شهراً ٣٩ ليبرة من اللحم ثمنها ١٤ قطعة فضية كبيرة و٢٠ ديناراً.

وتحسب الألف ليبرة من الجبن بخمسين ليبرة، ويلزم للفرد الواحد يومياً أونصة جبن واحدة، ثمنها ديناري واحد، ويساوي هذا في ثلاثين يوماً ١/٢ ٢ ليبرة و٣٠ ديناري، وفي ١٢ شهراً ٣٠ ليبرة و٣٠ سولدي، تعادل ١١ قطعة فضية كبيرة وربع القطعة.

أما جوالق الفول فنفترض ثمنه ١/٢ ١٢ قطعة فضية كبيرة، وهكذا تكون قيمة ١/١٦ منه واسمها ربعية ٢٥ ديناري، ويحتاج الفرد في اليوم الواحد إلى ١/٤ ربعية ثمنها ١/٨ ديناري، ويعادل هذا في الشهر ٣/٤ ٣ ديناري، وفي اثني عشر شهراً ١٨ سولدي و ٩ ديناري صغار،أي ٧ قطع فضية وديناري واحد.

وعلى هذا يكون ثمن الراتب اليومي للرجل الواحد عن البقسماط واللحم المملح والفول والخمرة ٤/٥ ١٢ ديناري، وعن الشهر المكون من ثلاثين يوماً ١٢ قطعة فضية كبيرة، وعن السنة المكونة من اثني عشر شهراً ١٢ سولدي كبار.

وهكذا إذا أخذنا بعين التقدير سدس البقسماط الفائض، وإذا قدرنا — بعون الرب — أن بالإمكان أن نحصل محلياً على أصناف رخيصة بسهولة، أو بالأسعار المذكورة أعلاه، بعد التذكير أننا حسبنا الأسعار بمقياسها الأعلى، لهذا كله لم نحتسب الخمسة أيام وربع اليوم الزائدة على اثني عشر شهراً.

الفصل الحادي عشر: عدد الغلايين التي يحتاجها الجيش الصليبي وأشكالها، في أعماله البحرية، لكي يستولي على بلاد مصر، وكيف على

القبطان التصرف لإنجاح ذلك.

أيها الأب الأقدس: يحتاج القائد العام عند الانطلاق لتنفيذ هذا المشروع إلى خمسين غليون وفق الأحجام المشار إليها من قبل، أي: عشرين من الحجم الكبير، مما يسير بالمجاذيف، وعشرين من الحجم الوسط، وعشرة من حجم قادر على الخدمة، وطبعاً هي أيضاً مما يسير بالمجاذيف، وأتمنى الأخذ بالرأي الداعي إلى استخدام أربع مجذفين على نسق واحد فوق كل مقعد، حسبما بينت في الفصل الخامس، ووقتها لن نكون بحاجة إلا إلى أربعين غليوناً من النموذج المذكور في الفصل الحادي والعشرين من القسم الرابع، أما شكل الغلايين فهو كمايلي:

١ — *الغلايين الكبيرة*: الطول ٢٣ خطوة ٢ — قدم، والفتحة من الأمام(العرض) ١/٢ ١٥ قدم، والارتفاع من وسط أرضيتها ٧ أقدام و٣ أصابع، وعمقها(الغاطس) ١/٢ ٩ قدم، وأخيراً علوها من المؤخرة ١/٢ ٩ قدم، ومن المقدمة ١/٢ ١٠ قدم.

٢ — *الغلايين من الحجم الثاني*: الطول المطلوب ٢٣ خطوة و٢ — قدم، وفتحتها من الأمام ١/٣ ٢٠ قدم، وعلوها ٧ — أقدام وإصبعين حتى ثلاثة أصابع، وعمقها١/٢ ٩ قدم، وعلو مؤخرتها ١/٢ ٩ قدم، ومقدمتها ١/٢ ١٠ قدم.

٣ — *الغلايين الصغيرة*: وأخيراً إن قياسات هذا النوع هي: الطول ٢٣ خطوة وقدم،وفتحتها من الأمام ١/٢ ١٤ قدماً، وعلوها من الوسط ١/٢ ٦ قدماً وعمقها ١/٣ ٩ من الأقدام، وعلوهاعند المؤخرة ٩ من الأقدام، وعند المقدمة ١٠ — أقدام. وحتى يتمكن المجذفون الجالسون أربعة أربعة على نسق واحد فوق مقعد واحد من العمل بشكل أفضل، ولاسيما إذا جرى اعتماد أسلوب خمسة خمسة في الغلايين الأكبر حجماً، من المتوجب أن تكون المجاذيف من أفضل أنواع الخشب، ويستحسن

أن تكون من خشب بيرونادا Pironada ، وأن تكون مربوطة ببعضها، ومصنوعة بشكل خاص لتتحمل عناء التجذيف وشدته وعنفه، ومن المحبذ وجود سفينتين لهما عشرة زوراق، مثل ما يستعمله أهل جنوى في القسطنطينية وبيرا — المسماة قديماً غلاطية — .

وبرأينا إنه من المفيد وجود — فضلاً عما تقدم — خمسة غلايين كبيرة لحمل المعدات ذهاباً وإياباً، وأن تكون غير مسلحة، وتسير بقوة دفع المجاذيف لحمل العناصر والخيول والمؤن، ولحمل الأخشاب وجميع الأسلحة اللازمة لأولئك القوم، ويمكن لهؤلاء أن يسيروا بسلام وفرح كبير نحو الشواطىء المصرية، ويستولون هناك — كما بينا من قبل — بكل بساطة وبطش على الأرض، وعليهم أن يكونوا حاملين معهم لتلك الحملة مراكب معدة للملاحة في المياه العذبة، الموجودة في تلك المناطق، ولغيرها من المياه العذبة التي قد تكون موجودة في بلدان الشرق، ولتكن تلك المراكب من النوع الثلاثي، وأن تكون هناك الخمسة غلايين الضخمة جاهزة باستمرار للذهاب والاياب لحمل جميع لوازم الجيش، وتبقى الغلايين الخمسون أو الأربعون مع الغلايين المذكورة مع الجيش المعدّ للابحار في المياه المالحة والمياه العذبة المذكورة حتى تنقض على أعداء الإيمان الكاثوليكي، وتنزل بهم الرعب وتلحق بهم الويلات، وبناء عليه يقومون في السنة التالية لاحتلالهم قطعة من أرض مصر البحرية فيتقدمون في المياه العذبة، ويكون هناك عشرون غليوناً جاهزين لنقل جميع الأشياء اللازمة ولتمكين الغلايين غير المسلحة من شحن كل ما يلزم.

الفصل الثاني عشر: الأسلوب الفني المتبع لصناعة الأدوات للملاحة، والزمن المحتاج، والترتيب المأخوذ به لحفظها، ولتكون أسرع، وخاصة المجاذيف.

ولكي لا يطرأ أي عطل، أو يقع نقصان في صناعة السفن، مما يسبب

للجيش بعض الضرر ويعيقه في حملتــه، تقصيت بإلحاح، وسألت رأي الذين يفترض أن يكونوا خبراء في هذا المضمار، لأنهم اعتـادوا على قطع الأشجار من الغـابات، وعلى صنع السفن، فإنهم أجمعـوا على القول: إنه لا يصلح أبداً قطع الأشجـار من الغـابات في شهر آذار أو نيسـان، وأن شهري تشرين الثـاني وكانون الأول هما أفضل زمن خـلال السنة لقطع الأشجـار، شريطة أن لا يقع ذلك بين الخامس عشر والثـاني والعشرين من القمر.

فإذا مــا قطعت الأشجـار في الوقـت المذكـور،يقــولون إنه لا يجوز الشروع على الفـور بصنع السفن، بل يتـوجب أو لاً لتقطيع الجذوع إلى ألـواح، وأن تترك بعـض الوقـت لتجـف، إنـه إذا صنعت السفـن مـن أخشـاب أو ألواح خضراء، لم تجف بعد فإن الألواح لا تنطبق تمامـاً على بعضهـا، ولن تصلح لمنع تسرب الماء كلياً، وإذا هبت عـاصفة في البحـر فإنها تلتوي — كما يقول العـامة — وبذلك تنسحب الدسر بسهولة من وسـط الألواح، وإن في ذلـك لخطر جسيـم على من في السفينـة، وتسير أيضاً ببطء كبير، ومع التسليم بصحـة هذه المعلومات، يبقى المفيـد أكثر أن تصنع السفن من ألواح وأخشـاب لاتزال خضراء، أو نصف جافـة، حيث تجمع قبل أن تجف تمامـاً، سـويـة وتعطي للسفينة الشكل الموائم، وبهذه الطريقـة — كما يقــول الخبراء — تكون الألواح أنسب وأصلح سـواء للسفينة أم للمـلاحة، لأن الأخشـاب الخضراء تطاوع أكثـر عند العمل وتضبط أكثـر، وعندما توضع على طبقتين تكون أقـوى وأمتن مما لو كانت طبقـة واحدة،لأن الطبقة الأولى هي أساس للثـانية، وللحفاظ على السفن المسيرة بـالمجـــاذيف والعنـاية بها، ولكي تكـون أسرع هي بحـاجـة إلى«معجونـة»، ولاسيما النوع المعدّ منهـا لخوض ميـاه البحـر، ويلزمها من حيث المبـدأ كل شهرين على الأكثـر في أيام الصيف، عندما يكون الحر على أشده، وكل ثلاثة أشهر في أيام الشتاء، أن تحف بفرشاة،

وبمحرقة ومن ثم ترمم، لأن السفن تحتاج إلى الاصلاح في ذلك الموسم من السنة، وبعد هذا تنزل وتغطس في أعماق الماء حسبما يكون مناسباً لكل واحدة منها، وتحتاج كل سفينة، كل مرة لتتميم الصيانة إلى خمس وتسعسن ليبرة من المعجونة».

وبعد مرور شهر — على كل حال — وفي أي أسبوع، وبعدما تكون السفينة قد طليت وتمعجنت تماماً، بحوالي مائة ليبرة من المعجونة، يجب تمييلها لبعض الوقت على الجهة اليمنى وبعض الوقت الآخر على الجهة اليسرى، حتى تدلك بالأيدي من الخارج وتنظف تحت الماء بفرشاة مصنوعة من شعر الخنازير، لكن بشكل لايزيل المعجونة عن الألواح.

وتجفف السفن غير المسلحة المعدة لركوب البحر، ولنقل الحمولات الثقيلة مرتان في السنة، وترمم قطعة قطعة، وتطبق الأعمال نفسها على السفن المعدة للمياه العذبة، ولكي تكون سريعة ومصانة، يجب — كما ذكرنا أعلاه — أن تطلى وتنظف وترمم، ويجب أيضاً معجنتها بطبقة من المعجونة بقدر ما يحكم أنه ضروري ومفيد، ومفيد أن نعلم أن السفن يمكن حفظها بشكل أسهل في المياه العذبة مما في المياه المالحة، ولا يتمكن السوس من نخرها، علماً بأنها إذا ما أنزلت وهي مسوسة في المياه المالحة، فإن السوس يؤذيها أكثر، ويمكن أن يتغلغل فيها بسرعة أكبر، لاسيما إذا بقيت من دون حراك، في المكان نفسه، في المياه المالحة.

وإذا حدث وتقشرت المعجونة عن إحدى السفن، لا يجوز معجنتها كما ذكرنا من قبل، بل ينبغي أن تجفف أولاً ثم تحف بالفرشاة بشدة حتى يُزال من عليها جميع الأوساخ والأعشاب العالقة بها، ومن المناسب أن يتم ذلك شهرياً، وكلما تبين أنه ضروري، ويجب التنبه إلى أن على كل سفينة أن تكون متأهبة وجاهزة في أيام الصيف أكثر منها في أيام الشتاء، لأن الأضرار التي تلحق بها في الصيف أعظم، هذا ولا يجوز التوقف عند الطريقة التي يرفع فيها الأذى عن السفينة، بل ينبغي

الاعتماد على الطريقة التي تضمن صيانتها حتى تقوم بالمهمة المكلفة بها، ولتكون سريعة الابحار، وإذا اتضح أنه غير مناسب لسفينة ما ألا تعمل لبعض الوقت، لأنها تحتاج إلى الصيانة، ينبغي جرها إلى مكان مغطى حتى تنظف ويزال عنها الأذى، وذلك بعد التشاور مع الأعيان والجماعات، هذا وإن المكان الذي تحفظ فيه السفن يعرف عند العامة باسم«دار الصناعة»، وقد تتوفر أسباب أخرى تدعو للمحافظة على بعض السفن، لكن إذا لم يكن بالامكان حفظها في دار الصناعة لوقت طويل، من الأفضل عدم تعريضها للشمس والمطر، والندى في مكان آخر.

الفصل الثالث عشر: حول أنواع باقي السفن التي يحتاجها الجيش الصليبي لنقل الميرة، وبقية أشكال المواد اللازمة للصليبيين الذي سيعبرون البحر فيما بعد، وحول الأماكن وأسمائها وعددها، والترتيب الواجب اتباعه لايصال الميرة، وحول الأماكن التي يتوفر وجودها، أو يمكن الحصول عليها، وفي هذا الفصل إيضاح أن السفن العائدة للكنيسة الرومانية المقدسة، لاتناسب ولاتفيد.

وإذا ما حظي الذي ذكرته أعلاه بما يستحق للمباشرة به ومن ثم إتمامه، فإنه ينبغي — أيها الأب الأقدس — من أجل إنجازه وإتمامه تجهيز أسطول آخر عدا عن الذي سلف وذكرناه في الفصل المتقدم، فالفضل كل الفضل ليس بالشروع والمتابعة إلى منتصف الطريق، بل إنه بإتمام تلك البداية ومتابعة المسيرة حتى يتم الوصول إلى الغاية، وعندئذ يكون المدح والثناء، ويكون هذا الأسطول لحمل المؤن والأخشاب، وباقي العتاد اللازم لذلك الجيش المذكور، وكذلك بكميات كبيرة للصليبيين الذين سوف يلحقون بهم، حسبما ذكرنا أعلاه، وأيضاً لمحاربة أهل الأندلس الذين يحاربون في المناطق الواقعة من هذا الجانب من البحر، أي في إسبانيا، فهؤلاء سيداسون بالأقدام بسرعة، وستجتث

شرور أتباع محمد(ﷺ)، ونحن حين نتحدث عن أسطول آخر، غير الذي نحن بصدده، فهذا لا يعني أن ذلك الأسطول الثاني سوف يكون ذا عدد كبير، أو أنه سوف يجهز على نفقة الكرسي الرسولي، ومن الممكن إيضاح ذلك على الوجه التالي:

إذا ما استمرت جزيرة كريت — بنعمة من لدى العلي القدير — تحكم نفسها، كما هو حالها اليوم، من الممكن التفاوض مع أهل البندقية حتى يتولوا نقل القمح والحبوب والحاجيات الأخرى لصالح جيش قداستكم، عن طواعية، إلى الجزيرة المذكورة، ومن هناك يجري نقلها إلى شواطىء مصر، وإذا لم يتوفر عند أهل البندقية الكميات الكافية من القمح والحبوب، فإنه من الممكن الحصول عليها من أبوليا، لتنقل منها إلى تلك الجزيرة، بالكمية التي تقررها قداستكم، ويناسب هذا أهل البندقية كثيراً، لأنهم سينقلون تلك المواد من مكان مناسب وقريب، ولاشك أنهم سيلبون هذا المطلب إذا ما عرض عليهم الأمر، علماً بأن قمح أبوليا أفضل نوعية من النوع الذي في كريت، ومنه يستخرج دقيق يعطي خبزاً أفضل، وبكمية أكبر من ذلك الذي في كريت، ومن الممكن الحصول أيضاً على كمية كافية من الخمر من تلك الجزيرة، وعلى الكثير من الجبن، وعلى عدد كبير من المواشي الصغيرة، وعلى الأخشاب وخاصة أخشاب الوقود، أيضاً على المجاذيف، وعلى عدد كبير من قرون الغزلان لاستخدامها في صناعة القسي، ويمكن عدّ هذه المواد وكأنها موجودة في مصر نفسها، لقرب موقع كريت منها، ومن جزر بحر ايجة، شرط أن لايكون الأتراك قد تقدموا من مواقعهم الحالية إليها وخربوها، فمن هذه الجزر يمكن الحصول على كمية كبيرة من الأخشاب والمجاذيف وعلى أعداد وافية من المواشي الكبيرة والصغيرة، لتحمل إلى ذلك الجيش على غرار الأخشاب والحاجيات الأخرى المجلوبة من جزيرة كريت.

وفضلاً عما تقدم يمكن الحصول من جزيرة ميلو Melo ، الواقعة أيضاً في بحر إيجة، على عدد كبير من أحجار الطواحين، فالطواحين لازمة ومفيدة جداً لخدمة ذلك الجيش، وإذا طاب لقداستكم، يمكن أن يعمد قائد الجيش المعين إلى التعامل مع الأتراك القاطنين على الشاطىء التركي، وأن يسايرهم ويتصرف معهم بصداقة، وخاصة مع ذلك القسم منهم المسيطر على الأرض الممتدة من كاندلورو Candeloro حتى ماكروم Macrum ، فيعطيهم بعض المال حتى — كما أرجو من الخالق العلي — يتركوا رجال ذلك القائد يقطعون الأشجار، ويشترون القار، وكافة أنواع المواشي لحملها إلى مصر، وعليه أيضاً التعامل مع جزيرة قبرص الخضراء، حسبما جرت العادة، حيث تتدفق منها كميات الحبوب والخمرة، والمواشي والحيوانات كبيرة وصغيرة، وأيضاً الملح، وهذا كله يمكن شحنه بالشكل المناسب إلى الجيش في مصر.

وهذه الجزر وهذه الأراضي قريبة جداً من بلاد مصر، وفضلاً عن ذلك يمكن لجزيرة نغروبونتي، ومثلها دوقية أثينا، ومقاطعة المورة أيضاً، أن تؤمن الأخشاب مع أصناف وحاجيات عديدة مناسبة للجيش المذكور، هذا ومن الممكن شراء الدقيق من بلاخيا Blachia ، ومن غيرها بوفرة، ومن ميناء أميرو Amiroومن ميناء ميثريد -Mith riade، ومن ميناء لادي Lade ، كذلك بكميات كبيرة، إذا عاد إلى سالف عهده، لأن كونت دي بريان قد دمره كلياً، أثناء تسلمه الحكم على الكتلان Catelani وكذلك يمكن الحصول على الأخشاب والحديد والحبوب وغير ذلك من المواد بكميات وافية، من الأراضي التي يحكمها الروم الذين في القسطنطينية حالياً، وليس من هناك فقط بل من مناطق البحر الكبير من جهة الشمال، فمن هذه المناطق يمكن أيضاً الحصول على القمح بكميات كبيرة، وعلى«المعجونة Sepo »، وعلى جلود البقر، وحاجيات أخرى عديدة من هذا القبيل، وكذلك من

أرض ديسبـوتي Despoti ، ومن منطقـة فـالوني Valonae ، ودوراتي Durati ، وكـذلك من بلاد صربيا، فمنهـا يمكن استخراج الأخشـاب بكميـات كبيرة جداً، ولاسيما خشب السنديـان، مع مواد أخـرى كثيرة، وأعداد كبيرة من المواشي، ويمكـن أيضاً الحصول على القمح بكثـرة مع النبيـذ والزيت، واللحـوم المملحــة، والجبنة وثمار الأشجـار، من مملكة صقليـة، ومن دوقيـة أبوليا، ومـن مقاطعـة كـابوا Capua ، وكل هذه الأراضي — مـا عـدا الواقع منهـا إلى شمال البحـر المتـوسط — ليست بعيدة كثيراً عن أراضي مصر البحرية، ومن المعقول كذلك القول إنه إذا ما اتبع الترتيب المذكور لن يحتـاج الأسطول إلى عدد كبير من الغلايين، لأن الذين يسـافرون على تلك السفن، ويزورون تلك الأقـاليم يمكنهم الذهاب والإياب مــراراً كثيرة، وأمـا الأراضي المسماة سيغنا Signa ، وغيرها من أراضي بلاد الصقــالبـة فيمكن أن تجلب منهـــا الأخشـاب الكثيرة واللحـوم المملحـة، ويؤخـذ من البندقيـة — بالطبع — الحديد والخشب، خصوصاً خشب الشربين، وخشب الصنوبر، وهما من أفضل أنواع الأخشاب بالعالم، وهذا كله مفيـد جداً ومناسب للجيش المذكور، ويمكن أيضـاً الحصول مـن ماركيـا Marchia ، وأنكونا Anchona ، ودومــانديولا Domandiolaعلى الكثير من الخمـــــرة، التي هي من الصنف الجيد.

وإذا راق لقداستكم أن يعين في المراكـز الأهم لهذه المناطق، التي هي محكومة من قبل واحد من أبنائكم المؤمنين، وكيـلاً أو وكلاء يشترون ما هو لازم ومناسب لذلك الجيش، ولتأمين حاجيـاته، فسيكون هذا مفيداً وعمليـاً، ولا يقتصر على تلـك المناطق، بل إذا ارتأى قـداستكـم حبـذا تعيين وكـلاء آخـرين في مناطـق أخـرى، إنما إذا لم تعمـد قـداستكم إلى تعيين وكلاء في تلك البلدان والمناطق، يمكن إصـدار الأوامر إلى التجار بالإبحار بأسرع ما يمكن إلى أرض مصر البحـرية، من اليوم الذي تقلع

الحملة به إلى هناك، هذا وإذا قررت قداستكم تطبيق الإجراءان معاً، أي تعيين وكلاء، وتوجيه التجار نحو مصر، فإن المشروع سوف يلاقي خدمة كبيرة، ولا شك أنه سوف ينجز بوقت أسرع، أما طريقة إيجاد وكلاء مناسبين وصالحين لهذا النوع من العمل، فهي واضحة بما فيه الكفاية ولا لبس حولها، أي : أن يعمد الذين تكلفهم قداستكم بإنجاز هذه المهمة، إلى التفتيش في الأراضي التي يسكنها مؤمنون مسيحيون، والسؤال والتحقق، والاستعانة بغيرهم للتفتيش عن رجال أمناء معروفين، وأغنياء وحكماء في آن واحد، ولديهم خبرة في هذه الشؤون، وذلك من أجل تأمين كل ما يتطلبه المشروع المذكور، أما بالنسبة للبلدان والمناطق التي يتم التعرف فيها إلى وجود رجال بالصفات المطلوبة، لابأس وقتها بإرسال عدد من الأشخاص إلى هناك، بقدر ما يراه الذين كلفتهم قداستكم، بغية القيام بما هو لازم، آخذين بعين التقدير أنه إذا كان الوكلاء صالحين — وهؤلاء يمكن العثور عليهم بعون الرب — فإن المشروع سيصل إلى الغاية المرجوة، ويجري تأمين كل ما هو مناسب وموائم.

وبالإضافة إلى جميع ما تقدم ينبغي إبلاغ تلك المناطق ما مضمونه: إن كل من يريد حمل المواد الغذائية وسوى ذلك إلى جيش قداستكم، هو آمن لدى المؤمنين جميعاً للذهاب والإياب والإقامة.

وينبغي دراسة هذا الأمر، وإصدار قرار من قداستكم يقضي بالسماح لأي كان أن يحمل من أية بلد أو مكان الأخشاب والمواد الغذائية، وغير ذلك مما يحتاجه الجيش، وينقله إلى شواطىء مصر، دون أن تفرض عليه أية أتاوة أو ضريبة في تلك الأماكن والبلدان والتجمعات البشرية، وفوق ما تقدم يحتاج الجيش على سبيل الأمان والحيطة في البقعة المعسكر فيها من أرض مصر، أن يجمع كمية كبيرة من الذرة، وأن يختزنها، وأن تصل الكمية إلى مقدار مائتي ألف جوالق من مقياس أهل

البندقية، أي ما يساوي سبع وستين ألف«سالما» من مقياس أبوليا، لأن الذرة تبقى محفوظة لمدة طويلة، ويمكن إطعام الجيش منها إذا طرأت ظروف استثنائية، ومن الممكن الحصول عليها من بلدان البحر المتوسط، وهي في مناطق الشمال أفضل منها في مناطق أخرى، والذي أراه مفيداً ومنطقياً أنه إذا ما احتاج الجيش إلى عدد من السفن فوق العدد الذي ذكرته لقداستكم، وذلك من أجل نقل المؤن، يفضل استئجار مثل هذه السفن بدلاً من استخدام السفن العائدة لبلاطكم، وسبب هذا واضح تماماً، وهو أن أصحاب السفن التجارية هم دوماً ساهرون ومتأهبون للعمل في سبيل منافعهم الشخصية، وهم يهتمون بذلك كثيراً، أكثر من اهتمامهم بالأمانة وبما يعود للمصلحة العامة للكنيسة، لذلك لا خشية — بعون يسوع المسيح — من أن يحتاج ذلك الجيش إلى السفن الضرورية، لأنه حالما ينتشر خبر الحاجة ويصل إلى مسامع التجار، حتى تراهم ينظمون سفن النقل بكفاية وسرعة من أجل تحقيق الكسب والمنفعة.

الفصل الرابع عشر: إيضاح كيف أنه للابحار إلى مصر ينبغي توفر رؤية جيدة، ومناخ مناسب، وإيضاح لفوائد مناخ مصر، وكثرة المياه فيها.

ومن المفيد أن نعرف هنا أخيراً ما سوف أقوله وأشرحه عن جودة مناخ مصر: من حيث المبدأ، على الذي يريد الذهاب إلى الشواطىء المصرية سواء من الغرب أو من الجزر اليونانية، عليه أن يرسو في جزيرة كريت، طبعاً عند رأسها الشرقي، وهناك يُعطى شارة الصليب المميزة، لكي يقلع نحو مصر عندما تكون الرياح شمالية وشرقية.

وبسبب التيارات التي تتدافع نحو الغرب في تلك المناطق، يلزم هناك التوجه إلى وسط مجرى الريح، والسير بوضع مقدمة السفينة باتجاه الشرق مقدار الربع من الريح الشرقية، وبعد ذلك من وسط مجرى

الريح حتى الاسكندرية مع الريح بخط مستقيم، ويقدر هذا العبور مع مجرى الريح بأربعمائة وخمسين ميلاً، وهناك مـن يؤكد أن هذا العبور مع مجرى الريح يبلغ خمسمائة ميل، وبما أن جزيـرة كريت تتمتع بمناخ جيد، لكن كثيراً مـا يتفاجأ الذين يعبرون من هناك بحـراً أنهم كلما اقتربوا من مصر أن المناخ يتحسن ويتبدل ويغدو صافياً ونقياً، وتبدو زرقة السماء، علماً بأن مصر البحريـة تسقط فيها الأمطار باعتدال كبير، لكـن بكفاية، إنما كلما مضيت في داخل مصر نحـو القـاهرة والقلعة ومـاوراءها نحـو الصعيـد، هناك لا تسقط الأمطار إلاّ بالنادر، وإذا سقطت لا تكاد تبلل الأرض ، وهذا ما يدفع إلى الاعتقـاد بكل تأكيد، أن مناخ مصر، بسبب هذه المواصفات هو مناخ جيد، لا بل ممتاز، ويمكن البرهنة على هذا من خلال الأعلاف، فإنها إذا مـا حملت إلى مصر، وقد أصيبت بالعفونة، أو بدأت تتلف، تصح وتستعيـد جودتها، نتيجة لجودة ذلـك الهواء، وجدير بالتنويه أن المياه غزيرة بمصر، وهي من أفضل ميـاه العالم، وخير ما فيها أنها خفيفة تساعد على الهضم.

ولذلك لا يجوز مطلقاً التراجع عن هـذا المشروع، بل يلزم إنجاز كل ما يمكن عمله، حتى تتحقق آمـال جميع من يسعون في سبيل مجد الرب وكنيسته، ولكي يتمتعوا بتلك الأرض بسلام وأمن.

الفصل الخامس عشر: المواصفـات المطلوبة مـن الأشخـاص الذين يمكن للكنيسـة الرومـانيـة المقدسـة أن تتعـاقـد معهم حتى يتحقق هذا المشروع.

فيمايلي الشروط المطلوب توفـرها بالرجـال الذين ستتعـاقـد الكنيسـة معهم لقاء عطاء ثابت:

أن يكون كل قبطـان وكل مسـؤول مـن الذين يتقنون قيـادة السفن والابحار بها في المياه المالحة وفي المياه العذبة، وأن يكون قادراً على تأمين

العـدد الكافي من المجذفين، لأنه كثيراً مـا ينقص هذا النوع من العناصر في سفن الجيش، وتتعرض السفن للمخاطـر بسبب ما يطرأ من حوادث تهدد أولئك الرجال، وتقـود إلى النقص في تعداد المجـذفين، ويلزم أيضاً وجود كتّاب يتولون شـؤون السجلات، وتوزيع المواد الغذائية، وتسليم الأسلحـة، وباقي اللوازم يوميـاً، وهناك حـاجـة أيضـاً إلى نجـارين للأخشاب بعدد كبير، وأن يكون معهم عدد كبير من المعلمين الحرفيين، يحسنون الحرف المتعـددة، وأن يكون هناك أيضـاً أكبر عـدد ممكن من المرممين والمنظفين والعاملين بـالمعجونة والطلاء، لإعـداد كل ما تحتـاجه السفن في كل وقت.

وبعـد هذا أعرض على قـداستكم ثبتاً سريعـاً بأنواع الباقين المحتـاج إليهم:

يحتـاج ذلك الجيش إلى نجـارين وإلى حـدادين يكونون قـادرين على إنجـاز جميع أعمال الحدادة والنجارة التي يتطلبهـا الجيش، وهناك أيضـاً حـاجة إلى معلمين لمختلف الحرف ممـا بإمكانه تقديـم المساعـدة للسفن ولطواقمهـا، أما البـاقون من القـوم الذين هم رجالة، فيجب أن يؤخـذ منهم رماة وحملة رماح قادرون على قتـال الأعداء ببسالةسواء على وجه الماء أو على وجـه الأرض، وأن يدحـروا أعـداء الايمان المسيحي بكل رجـولـة، ولدعم هذا المشروع، وتـوفير سبل النجـاح كما ينبغـي، من المناسب أن يرافق الأسطول أسـاقفة، ورهبان وعـاظ من رهبنة النساك، ومن رهبنـة الكرمـل، وغيرهـم من الأكليروس العلماني حتـى يتـــولوا تعليم رجال ذلك الجيش الديانة والأخلاق القويمة، ولكي يقدموا لكل محتـاج أسرار الكنيسـة المقـدسـة، وذلك في سبيل مجد الرب، وفي سبيل العبادة الحقة في كنيسته.

الفصل السـادس عشر: حـول شكل تبـديل عناصر الجيش وطريقـة ذلك، وحـول المشـافي للمـرضى، وكيـف ينبغي تأمين كل شيء سلفـاً،

وحول النساء المتزوجات المرافقات لرجالهن، وحول شؤون الأرامل والورثة، وغير ذلك من الأمور الواجب أخذها بعين التقدير.

فضلاً عما تقدم، يتوجب تأمين العطاء الشهري لجيش الكنيسة الذي سوف يغادر من مناطق الغرب وجهاته، دون أي نقصان، وذلك إلى جميع الرجال والمقاتلين، مهما كانت ظروفهم أو أوضاعهم، حسبما جاء في الفصل المتقدم، وكلما طلبوا أن يدفع لهم، وكذلك إلى الذين سوف يرسلون إلى ذلك الجيش مع الغلايين غير المسلحة، وذلك بأقصى ما يمكن من سرعة، ودونما إبطاء.

والسبب هو أنه في الجيوش البحرية، يهلك بالعادة قوم كثيرون، إما بسبب الحوادث المألوفة في الحرب، وإما بسبب حوادث الغرق التي كثيراً ما تحدث في المياه، وإما أيضاً بسبب تكبد مشاق لا تطاق، يتحملونها ليلاً ونهاراً، ولذلك تنهار قواهم ويقهرهم المرض، ولهذا إن التأخير في دفع المستحقات لا يرضي بعض هؤلاء القوم، كذلك إن ذلك قد يساعد على تعويض النقص في أعداد الجند المسيحي، وعلى تجديد الجيش، وهذه طريقة ناجعة، لا تحتاج إلى نفقات عالية.

ثم إن ما يعطى للمأجورين من أعطيات وأطعمة، هو وسيلة لهم لمتابعة حياتهم بأمان وكرامة، وليتمكنوا بنفسية غير قلقة من الخضوع لأوامر الكنيسة الرومانية المقدسة، ولتعليمات قائد الجيش، ونخص هنا بالذكر قباطنة السفن والملاحين، والمكلفين بتوزيع الأغذية، حتى لا يتوفر أمامهم مجال — بسبب منفعة ما — لإلحاق الأذى، أو لإنزال أي ضرر بجمهور الجيش المذكور، لكن إذا ما تجرأ واحد من أولئك القباطنة، أو الملاحين، أو المسؤولين عن توزيع الأطعمة، وأقدم على اختلاس أو احتكار شيء من الأطعمة أو الأعطيات، فليعاقب بشدة، حتى يكون عبرة لغيره، لأن هؤلاء يتقاضون أجوراً عالية.

ويتلاشى بهذه الـوسيلة شر الذين يختلسون أو يغشـون، أو يطمعون بما هو لغيرهم، ويتم ضمان حق الضعفاء، وبذلك يبقى الجيش بدون أية مشــاكل طيلة المدة التي تقــررها قـداستكـم، هذا وينبغي أن لا تكون أعطيـات رجال ذلك الجيش، والمبـالغ التي تسلم إلى الموزعين، أدنى مما يتقاضاه الذين يتعاقـدون لقاء أجر مع سفن أهل البندقية، حسبما أوردنا في الفصل العاشر من هذا القسم، وفضـلاً عما تقدم إنه ضروري ومفيد تخصيص أول بيـت يقيمــه الجيش على الأرض، ليكـون مشفى، أي أن يعد لاستقبـال المرضى، حيث يقدم لهم كل مـا يلزم لخلاص أرواحهم، ولشفاء أجسادهم.

وبالنسبة للنساء اللائي سوف يكن مع الجيش بحكم ارتباطهن بعقود زواج مع رجالهن. فإنهن يـأخذن رواتب أطعمة مثل الرجـال، وكل من يحدث ويموت زوجها، يغدو وضعهـا القانوني وضع المترملات، وعليها أن تحافظ على العفة، وتستمر في أخذ راتبها من الطعام، ولا يجوز مطلقاً أن يقطع عنها الطعام والزاد.

وإذا حدث وانهارت قوى واحد من عناصر الجيش، بسبب مرض أو غير ذلك، فيتوجب إبقاء أجره كما هو حسب العطاء الذي كان يتقاضاه وهو معـافى، مع الانتباه دومـاً لعـدم ارتكاب أي غش أو خديعـة، لأن رجالاً كثيرين يتهـربون من المخاطـر، ويتجنبون الأعمال الشاقـة، لذلك ينبغي التنبه لهذا حتى يسير كل شيء بشكل منطقي حسب ما يرام .

وبالنسبة إلى الذين فقـدوا حياة الجسد، وعند أحـدهم زوجة وأولاد، فإن كل متطلبـات الحيـاة، وكل مـا كـان يقـدم له أثناء خـدمتـه، فيبقى ساري المفعول ويقدمـه المكلفون بالتوزيع لتلك الزوجة وللأولاد حتى يتمكنوا من العيش، وذلك إلى أن يصل الأولاد إلى سن الرشد.

لكن في حــال وفـاة الأم، على المســؤولين عن تنظيم الجيش قبــول

الأولاد ووضعهم في مكان يمكنهم فيه تلقي التربية الصالحة والتعليم والتدريب على الأخلاق القويمة، وذلك حسبما يقتضي النظام الطبيعي، أي إلى أن يصل الصغار إلى سن الفتوة، ويجتازوا سن المراهقة، وإلى أن يستحقوا بعلمهم وفضيلتهم وأعمالهم تدبر شؤون حياتهم بالشكل المرضي، وطبعاً يستمرون خلال ذلك كله بتسلم النفقات والمصاريف حسبما ورد أعلاه.

وهذا كله يجعلني أتكل على الرب، الذي بيده الخلاص الحقيقي للذين يؤمنون به ويتكلون عليه، وهو بحلمه، سيتكرم — بالنظر إلى فضائلكم — فينير قداستكم بنور الحقيقة يوماً فيوماً، من الآن وإلى اليوم الذي سوف تتحقق فيه أمور الأرض المقدسة بنجاح وغبطة.

الفصل السابع عشر: حول المناطق والأماكن التي يمكن أن يتوفر بها ملاحون مهرة للملاحة في المياه العذبة، مثلما في البحار.

لا شك أيها الأب الأقدس أن يسأل بعضهم، أو يتمنون السؤال: من أين يمكن العثور على مثل هذا العدد الكبير من البحارة للملاحة في المياه العذبة وكذلك في المياه المالحة، وأن يكونوا بالوقت نفسه صالحين لحمل السلاح، وجاهزين للقتال ببسالة على الأرض وعلى وجه الماء؟ وعلى هذا السؤال يمكن أن نجيب بإيجاز:

ليس مهماً من أي مكان أو من أية جهة قدم الذين يريدون الالتحاق بالجيش الذي تولت قداستكم حشده، المهم أن يكونوا صالحين، لديهم أهلية الملاحة فوق مياه البحار، وأن يكونوا قد جاءوا من مناطق مسيحية، وتمّ التعاقد معهم على أجر، ولقيادة السفن والاتجاه بها إلى حيث يناسب سوف نجد أعداداً وافرة من الرجال القادرين على الملاحة في البحار، أي في المياه المالحة.

وفيما يتعلق بالملاحين الذين برعوا بالملاحة في المياه العذبة، فيطيب لي

أن أعرض على قداستكم وأن أبين بتواضع: إنه من الممكن التجول فوق سطح المياه العذبةوالمالحة بواسطة المراكب من البحر الأدرياتيكي، وخلال مناطق كثيرة من فاروجولي ومن ماركيا تروزينيا - Marchia Teruisina ومن مناطق كثيرة من لومبارديا، بل منها جميعاً تقريباً، ومن روماندويولا Romandiola ،ومن جهة أخرى لتتلطف قداستكم وتعيد إلى ذاكرتها أنه يوجد في المناطق والأماكن المذكورة، وفي أحوازها بحيرات كبيرة وصغيرة عديدة، نخص بالذكر منها: بحيرة بيناكوس -Bi nacus ، التي ينحدر منها نهر مانزوم Manzum ، ومن هذا النهر تتكون بحيرة مانتوا Mantuae ، والبحيرة المدعوة بحيرة ليزوس Liseus ، وهي في مقاطعة أسقف بركسيا Brixia ، ثم بحيرة مرغوتي Mergoty ، أو بحيرة ماريودكتوس Mariodictus ، بسبب اتساع حجمها، وبحيرة كومي Comi وبحيرة لوغام Logam ، وهناك أيضاً فيما وراء الألب بحيرة لوسيرا Lucera ، وبحيرة كوستانتيا Costantiae ، التي بسبب اتساعها سماها المحيطون بها البحر الألماني، وتوجد أيضاً في برغنديا بحيرة لوزان، وهناك أيضاً بحيرات أخرى كبيرة وصغيرة يعيش على ضفافها أناس هم بحارة صالحون، ورجال حرب شجعان، بواسل في القتال، والبحارة الذين يسكنون في هذه المناطق، أعدادهم كبيرة جداً، ومن المؤكد أنه يتوفر بينهم العدد المرغوب لا بل أكثر من المرغوب، ممن معدّ للملاحة في المياه العذبة وفي المياه المالحة، وهم أيضاً مدربون على السلاح، ووجدانهم المسلكي جيد، ومع توفر الأعدادا المطلوبة في المناطق التي ذكرنا أنها تكثر فيها البحيرات، هناك مناطق مسيحية أخرى توجد بها أنهار ومستنقعات، وبحيرات كبيرة وصغيرة، ولا سيما في جهات الشمال حيث هناك أمم متعددة متنوعة، رجالها يتقنون الملاحة في المياه العذبة، من الممكن لقداستكم توجيههم إلى مصر، ليحققوا بعون يسوع المسيح ذلك المشروع الذي تتطلع إليه المسيحية جمعاء.

الفصل الثامن عشر: حول الملاحين القاطنين في الشطر الآخر من ألمانيا، وهم من حيث المبدأ صالحون لإعطاء إرشاداتهم، ومفيدون في الاسهام في إنجاح الحملة.

مع أنني سمحت لنفسي من قبل أن أذكر لقداستكم أشياء كثيرة عن الرجال الذين يصلحون لحمل السلاح، والذين هم شجعان ولديهم خبرة في الملاحة في المياه العذبة والمياه المالحة، تراني الآن أقدم على سبيل التذكرة بعض الاضافات لعلها تكون ذات فائدة ومنفعة للمشروع، أو أنها فاتتني ولم أذكرها فيما تقدم أعلاه، والذي أريد استدراكه وقوله هو: إنه يوجد في أقاليم ألمانيا أمم متعددة تسكن هناك، قد تكون نافعة جداً، لا بل ضرورية لتدعيم مشروع العبور إلى مصر، وأخص بالذكر سكان ترمارتي Tremarty، الذين يسكنون في الأطراف البحرية من أسقفية برمان Bremen ، ومثل هؤلاء الفريزيون الذين يسكنون الناحية السفلى من وستفاليا قرب البحر، وهناك أيضاً شعوب في مناطق دولاندا Dulanda وسيلاندا Sylanda ، يسكنون في الناحية السفلى من جهة البحر في إمارة غيلارا Gellera وغلوا Gleuae حيث من المفترض أن يكون هؤلاء القوم صالحين للمشروع ومفيدين كونهم لديهم مساكن في الجزر وعلى شواطىء البحر، وكذلك منهم من يقطن على ضفاف أنهار كبيرة، تمر عبر أقاليمهم وأراضيهم، ولذلك يفترض بهم إتقان الملاحة في المياه المالحة والعذبة على السواء، وهكذا نجد عندهم النصائح السديدة والعون الأفضل، وأيضاً هناك غيرهم في هولساتيا Holsatia ، وسكلويا Sclaiua ، إلى حيث ذهبت شخصياً، ومازال هناك مناطق كثيرة شهيرة، إليها يتوافد الكثير من الناس،حيث يبنون مساكن ممتازة على ضفاف الأنهر، وشواطىء البحيرات مثل: أمبورغ Amburg ولوبيك Lubek ، وفيزمار Visimar ، وروستوك Rostoc ، واكسوندس Xundis وغوسنبال Guspinal ،

وسكتن Sectin، ومن الممكن أخذ أعـداد كبيرة من الناس الجديرين من هناك، وفي الحقيقـة ليس من هناك فقط، لابل من داشيـا، وسـويتيـا Suetia، ونورويا Norueia، حيث هناك الكثير من المسـاكن المقـامـة على شاطىء البحر، أو في الجزر، وفيها أعداد كبيرة من البحارة الأشداء البـواسل، ولايسـاورني شك أنهم جميعـاً يصلحـون لمشروعنا العظيم، وفضـلاً عن هذا كله هناك أيضـاً في تلك المناطق أقـاليم وبقـاع أخـرى كثيرة لم يتسع المجال هنا لذكرها بالتفصيل.

لذلك أغبط قـداستكم وأنصحكم، بكل مـا أمتلك من الاحترام، أن يجري التعـاقـد مع بعض هؤلاء القـوم، لكـن ليس معهم فقط وإنما مع غيرهـم من أمثـالهم من مختلف المنـاطق المسيحيـة، أي من حيث يتـوفـر وجـودهم بعـدد وافر، ويـرسلون بعد التعـاقـد للعمل في سبيل إنجـاز مشروع مصر مع ذلك الجيـش، ويسهمـون بتقـديم النصـائح الطيبـة والصائبة، ولدي معلومات أكيـدة تفيد بوجود أعداد كبيرة من الملاحين الكاثوليك يسكنون على الشـواطىء من جهـة البحـر المحيط ومن جهـة البحـر المتـوسط، ذلك أنني عندمـا كنت أكتب هذا الفصل، وصل عبر البحر من البندقيـة إلى ميناء كلوزا Clusa في فلاندرز غـلايين، وقد عرفت منها عبر مصادر موثقة، كما أنني شاهدت بأم نفسي أن شواطىء ألمانيـا حيث يقع الميناء المذكـور شبيهـة جـداً بشـواطئنا في البندقيـة، ووجدت أن سكان تلك الأرض يمكن عدهم أشـداء جداً وشجعاناً في استخدام السـلاح، وأكثرهم من البحـارة، والباقون فـلاحون ملتـزمون بفلاحة الأرض وزراعتها، والبحـارة مهرة ومؤهلون للعمل، ومن جهة أخـرى أحـوالهم المادية جيـدة، وهذا مستسحن، ويمكنهم أن يتجـاوبوا بدافع من التقـوى كبير لدعم مشروع الأرض المقدسـة، وأعتقد أنهم إذا اتفقوا مع أهالي البندقية على احتـلال بلاد مصر، فإن ذلك سوف يكون رائعاً، مثلما حـدث في حملة صليبية تقدمت، عندما جـرى الاستيلاء على

القسطنطينية على يد كونت فلاندرز، وغيره من بارونات فرنسا وبيرغندي، مع عدد من النبلاء، والمركيز دي مونتفرات، وكان ذلك بمعونة البنادقة، وقد عقدت وقتذاك أواصر صداقة متينة بين كونت فلاندرز والبارونات والنبلاء من جهة وأهل البندقية من جهة أخرى، ولم يكن ذلك بلا فائدة، لأنه بعد الاستيلاء على القسطنطينية، وبعد وفاة ذلك الكونت، وعلى الرغم من توالي الحكام من بعده فإنه لما انتقل حكم القسطنطينية أخيراً إلى السيد بلدوين، الذي كان مايزال يافعاً، عقدت معاهدة جرى توثيقها بالأيمان، بموجبها انتقلت السلطة إليه من ابنة الامبراطور إكزاغورازوس Exagoravus، وكان هذا الامبراطور في ذلك الحين رجلاً غنياً جداً وقوياً، فقد خطبت ابنته الى ذلك الشاب، وبهذه الخطبة عظم شأن بلدوين وترسخت سلطته وتمتنت، وكان هذا الامبراطور قد قطع عهداً لبلدوين أنه سيستعيد له كل أراضي بيزنطة على حسابه وبوساطة رجاله، وهي الأراضي التي كان أسلافه قد خسروها في المناطق الغربية، ووقتها خشي البارونات من أن يقوم بلدوين،بعد أن يرسخ سلطانه فينقلب عليهم بسبب الإهانة الكبرى التي اقترفوها بحق سلفه، فتآمروا ضده، ونصحوه بأن يرفض الزواج من ابنة الامبراطور، وأن يتزوج من ابنة جين ملك القدس وقتذاك، ولم يتنبه بلدوين إلى هذه الخديعة الماكرة، فتعرف إلى تلك الابنة، وأخذ بتلك النصيحة دون أن يستشير أحداً، وبعد ذلك توجه البارونات وأجلسوه على عرش القسطنطينية، فانزعج الامبراطور إكزا غورازوس كثيرا مما حدث وغضب، فزوج ابنته إلى ملك الروم الذين هم في جهة الشرق، وبناء عليه تم التحالف بين الاثنين ضد بلدوين وضد البنادقة براً وبحراً، وتقدمت جيوشهما ضد بلدوين وضد أهل البندقية، واستولت هذه الجيوش على مدنهم وعلى جميع حصونهم تقريباً، ولم يبق لهم سوى حصون القسطنطينية، ونكلوا به بمختلف الطرق لمدة طويلة بشتى السبل، حتى قام أعيان القسطنطينية ضده وأرغموه على تسليم

ابنه فيليب ورهنه مقـابل مبلـغ محدد من المال، ولكي يحفظ بضمانة أكبر أرسلوه فيما بعـد إلى البندقيـة، واضطر بلدوين إلى تجريد بعض قصـوره التي كـانت مغطاة بالرصـاص منذ زمن بعيـد، كما أنه أرغم على القيـام بأعمال غيرها لاتتناسـب مع كـرامتـه كـامبراطور، وذلك في سبيل أن يعيش.

أمـا أهل البندقيـة، فإنهم طيلة الـوقت الذي رزح فيـه الامبراطور بلدوين تحت نير الفقر، وتعـرض فيه أيضاً لهجمات الاعداء فقـد دافعوا عن القسطنطينيـة على نفقتهم، وكان ذلك خـدمـة لمصالحهم من جهـة، ومن جهـة ثانيـة لصـداقتـه، واستمـر ذلـك حتى خسروا تلك المدينة، وعمل أهل البندقية بعد سقـوط القسطنطينية. بإخلاص لمدة ثلاثين سنة وأكثـر، في سبيل استرجـاعهـا، واستنجـدوا لتحقيق ذلك بجميع ملوك بلدان الغرب وحكامها تقريباً، وخاصة بألفونسو ملك قشتالة، لكنهم لم يحصلوا منه على أي تنفيـذ، وتحالفـوا أخيراً من أجل هـذا الغـرض وتعاقدوا مع شارل الأول ملك صقلية، الذي لم يتمكن من تلبية طلبهم بسبب خسـارته لصقليـة، ثم كـان أن تحالفوا مـع شارل دي فـاليـوس، حيث كان مرشحاً لتولي الامبراطوريـة بعد موت زوجته، إنما هنا كانت المحصلة أيضـاً ضئيلة أو شبـه منعدمـة، ومع هذا استمـر أهل البندقيـة لوحـدهـم أحيـانا وأحيـانا أخـرى مع حلفـائهم يحاولون استرداد الامبراطورية من البيزنطيين ويشنون ضدهم الحملات المتوالية.

ويتضح من جميع ما تقدم مـدى أواصر الحب الوثيق ما بين التيوتون (الالمان) والفرنجـة من جانب وبين أهل البنـدقية من جانـب آخر، فهم شاركوا من قبل في تلك الحملة الصليبيـة، ولذلك من الموائم قدوم أهل المناطق الالمانية المشار إليهـا إلى البندقية، ومن هناك يعبروا مع البنادقة، وإذا أرادت شعـوب أخرى أن تصنع صنيعـاً طيبـاً، فما عليهـا سـوى التفاهم مع الألمان وأهل البندقية، ومن ثم الانتقال بوساطة غلايين أهل

البندقية، وسيكـون هذا مفيداً لرجال هذه الشعـوب، علماً بأنهم يمكنهم أن يتركـوا نساءهم وأولادهم في البنـدقية، لكن أجـد من الضروري أن أبين إحــدى سمات ذلـك الشعب الالماني حتى يمكن التعـامـل معـه بسـلامة، فـالالمان شـديدوا التضـامن فيما بينهم، لأنهم ولدوا في مناطق باردة، لهذا يتـوجب أخـذ الحيطة واعتماد اليقظة، أنهم إذا مـا انتقلوا إلى منطقـة حارة، أن يقـومـوا بسبب عظيم تقـواهم، وبسبب إرادتهم في أن يرتحلوا ويبحـروا على شكل جماعــات كبيرة، فيثـور فيهم حب السيطرة والطمع، وقــد ينجم عن هـذا نتـائـج غير محمـودة وتكـون هناك بلبلة كبيرة، لاسيما أن أهل البندقية يريدون أن يكونوا معهم شركاء لا أسياد، ويستطيع القائـد العام— بنعمـة من الرب— لكونه مستقيماً وحكيماً أن يتخذ ما يلزم من تدابير، وأن يوجد العلاج المناسب لهذه المسألة.

وكنت لا أريـد في الوقـت الحاضر ايضـــــاح حكايـة الإهانـة التي حصلت، ولاسببها، إذ لا دخل لها بهذا الموضـوع، لكن عددت ضرب هذا المثل يمكن أن يفيــد في المستقبل، لذلك حكيتـه على حــاشيـة هذا الكتاب وهامشه:

كان في امبراطورية القسطنطينية بارون كبير وشريف من سلالة أمراء بيرغندي، وكـان قد خطب سيـدة شريفة من أسرة كبيرة، وكـانت على قسط كبير من الجمال، وقـــد وعــدها بالاقتران بها، وكـــان امبراطور القسطنطينيــة، المدعـــو هنري، وهو أخ كبير لبلـدوين، لما رأى جمالها، ولأنها كانت جـذابة في نظر الجميع، قد اتفق مع أمهـا على تزويجه إياها، وفضلت الأم — بدافع مـن عـاطفـة الأمــومـة — أن يكون صهــرها امبراطوراً على أن يكون باروناً، وهكذا نفـذت رغبـة الامبراطور، وقـد أثار هذا حفيظة البارون، فأقـدم ليلاً مع أقربائـه وأصدقائـه على اقتحام القصر عنوة، وقبض على الامبراطور الصهـر وأغـرقـه في البحـر، وترك بذلك عـرش الامبراطور ية شــاغـراً، وهكذا أصبحت نار صغيرة ناراً

عظيمـة، ولهذا عندما مـات هنري لم يجر أي انتقـام لهذا العمل الرهيب، وورث بلدوين عرش الامبراطـورية، ولم ينل البارونات الذين شـاركوا في العمليـة العقـاب، مع أنهم استحقـوا ذلك، وجـرت فيما بعـد مفاوضات، سوف نأتي على ذكرها في سياق هذا الكتاب.

الفصل التـاسع عشر: حـول التبشير من أجل حملـة صليبيـة عـامـة، وأنواع العساكر اللازمين لاحتلال مصر.

بعد أن يكون الجيش الممول من قبل الكنيسة المقدسة، قد احتل أرضاً على شواطىء مصر، وبعـد أن يكون شيد بعض المسـاكن، واتبع المنهاج والأسلوب الذي ذكـرناه من قبل، يحتـاج هذا الجيش إلى الدفـاع عن وجوده، وأن يؤمن لنفسه المواد الغذائيـة والسفن وكل ما سوى ذلك مما يحتاجـه المسلحون لأنفسهم، ولبـاقي الحشود التي ستلحق بهم لتمـدهم بالدعم، وفي هذه الحقبـة من الزمن يمكن لقـداستكم الاعـلان في أثناء احتفـال رسمي كبير عن الـدعـوة إلى حملة صليبيـة، وأن ينادى بهذه الدعـوة في جميع أنحـاء العـالم بين أتبـاع المسيح كـافـة وفي هذه الأثناء سيكون — إذا وافقت قـداستكم — مفيـداً أن تترافق الدعـوة لحمل الصليب بأساليب صالحة وبطرائق عمليـة للاسراع بجباية الأموال دونما إبطاء، سـواء من الأمراء أو مـن البارونات، أو من جماعـات المدن، وأن يفرض الدفع أيضاً على الجميع بلا استثناء، وخاصة على الذين استثمروا أو ما زالوا يستثمرون أوقاف الكنيسـة، سواء أكانوا من رجال الدين أو من العلمانيين، وذلك بهدف إنجاز هذا المشروع المقدس.

وسبب هذا واضح، فإذا كـان على الصليبيين العبـور — كما قلنا — إلى شـاطىء مصر، فإن الذي قـد صرف على العبـور المتقـدم لن يكون كـافيـاً، ويلـزم لهذا العبـور عـدداً كبيراً من أرباب السفن ومـلاحيهـا، يكونون قادرين على قيـادة السفن والابحار بها،بعضهم في الميـاه العذبة، وبعضهـم الآخـر في الميـاه المالحة، ويحتـاج هذا الأسطول أيضـاً إلى عمال

تجذيف بعــدد كبير، ذلك أن عمل التجـذيف مهمـة شـاقـة، يتحمل المجذفون من جرائها متاعب لا تطاق، ولذلك لا يؤخذ لمثل هذا العمل الذي لا يطاق، إلاّ من كان منتخباً ومختاراً، شريطة أن يؤمن له بالتمام ما يرضيه من أجرة.

ويفترض توفر رماة قسي عقارة صـالحون وبعدد كبير جداً، علماً بأن الفوارق بين القسي العقـارة والرماة العاديين كبير جـداً، فإن رماة القسي العقـارة يشـدون القوس بقـوة، ويرمـون نشـابهم إلى مسافـات بعيـدة، ويسـددون ضربات شـديدة، تنقض كـالعـاصفـة ويصيبـون أهدافهم بجـراحة أو يقتلونها، ونادراً مـا تذهب رمـاياتهم عبثاً، وتلقي رشقـاتهم الرعب والهلع في قلوب أعـدائهم، وعلى عكسهم الرمـاة الخاملون وغير المدربين، تراهم غير قـادرين على شـد أوتار قسيهم القـوية، ويضيعـون السهـام سـدى، وإذا قـدر لهم الرمـاية تأتي رمـاياتهم ضعيفـة، مما يجعل خصومهم يزدادون جرأة، ويتشجعـون وينقضون على مثل هؤلاء بإقدام كبير، ومن الممكن أن نقـول القول نفسـه عن حاملي الرمـاح والحراب، وكما تقـدم وقلنا يحتاج ذلك الجيـش إلى عدد كبير ممن يصنعـون القسي، ومن المعلمين المهنيين، ومثل هذه العناصر لايمكن الحصـول عليهـا من دون بذل للمال، كـونهم أناس فقراء، وينبغي التنبـه إلى عدم التعاقـد مع مثل هؤلاء، حتى وإن طلبـوا ذلك، إذا ما انخـرطوا في جيش الصليبيين بسبب الفقر والفاقة، وإذا جـرى التعاقد مع هؤلاء فليكونوا الأقلية بين من يحتاجهم الجيش، هذا وهنـاك حاجة مـاسة للتعاقـد مع جماعات من الذين يعرفون جيداً أساليب حفر الأرض، أما بشأن الفرسان فأنا أعتقد — بعد التمعن — أن العدد الأكبر منهم سيكون من النبلاء والأشراف الجديرين بحمل رايـة الصليب، وبالالتحـاق بالجيش المذكـور، وبدعم مهمتـه، ومنطقيـاً لا يمكن بالطبع إصـدار الأوامـر إلى هؤلاء من قبل المسؤولين عن الجيش بـالطريقة نفسها فيما لو كـانوا يتقاضـون أجورهم

من أموال الكنيسـة، ولا ينطبق هذا على هؤلاء النبلاء فقط، بل على من هم من الطبقـة الشعبية أيضـاً، بما أنهم تطوعوا بمطلق إرادتهم للحـاق براية الصليب، فهـؤلاء يتمتعون بالحرية في ذهابهم وإيابهم، وأقـول هنا بكل احترام، مـذكراً قـداستكم وتقـواكم أن من أراد أن يحمل الصليب ويبحر على نفقتـه الخاصة، ثم أبحـر مع جيش الكنيسة، عليـه برأيي أن يعطي إلى الكنيسة المبلغ الذي كان عليه أن ينفقه، أو أن يعطيه لمن جرى تكليفـه من قبل الكنيسة لجمع مـا يلزم من مـال للأجور وللأعطيـات، وأن يمنح مقابل ذلك صك غفران حسبما ترتئي قداستكم منحه في مثل هذه الظروف.

وفي العـادة يصغي العسـاكـر إلى الأوامر الصـادرة إليهم من القـائـد ويطيعونها، أكثر مما لوكانوا متطوعين صليبيين، وإذا كان القائد صاحب فطنة — وهـذا هو المطلوب — وإذا كـــان حسن الارادة، وكـــانت العناصر المعهـود إليـه بقيـادتها مطيعـة، فسيكون ضرباً من المستحيل أن تخفق نيتـه وتحبط مقـاصـده، وإذا حـدث أن من معـه أو بعضـاً منهم لم يؤدوا الطاعـة له بسهولة، وقتهـا تتحول عـدم الطاعة إلى كـارثة كبيرة، ينجم عنهـــا خطر جسيـم، فلتتـــدبر عنايتكم هـذا الأمــر حسبما ترونه مناسباً.

الفصل العشرون: حـول عدد الرجـال اللازمين لكل غليـون، لتأمين الحماية الموائمـــة لـه، ووظائف هؤلاء الـرجـــال وأعمالهم، والمرتبـــات، والوقت، ونفقات الأطعمة اللازمة لثلاثمائة فارس، وأجورهم.

يلزم لتجهيز مناسب لغليون واحـد مائتين وخمسين عنصراً، يتقاضون الأعطيات، ويكونوا موزعين من أجل تنفيذ هذه المهمة كما سأذكر:

أولاً : يحتـاج كل غليـون إلى قبطان واحـد، راتبـه الشهـري المعقـول خمسة عشر سولدي كبار.

ثانيـاً: يحتـاج إلى ثمانيـة مـلاحين الراتـب الشهـري لكل منهم سبعـة سولديات كبار أي ما يساوي ستين كروسي Grossi كبار(قطع فضية كبار).

ثالثاً : من المناسب تماماً أن يكون في كل غليون نجـار واحد، وعامل طلاء ومعجنة، لكن لحسن سير الأوضـاع في الغـلايين يفضل أن يكون في كل منها نجارين وعـاملي طلاء ومعجنة، ويكون راتب هؤلاء شهرياً ثلاثين كروسي كبار من عملة البندقية.

رابعـاً: من المستحسن أن يكون في كـل غليـون اثنان من الكتــاب، يتوليان توزيع الطعـام على جميع من في الغليون وذلك في الزمان والمكان المحـددان، واثنان غيرهما أيضاً من الكتـاب يتـوليان حـراسة الأسلحـة وتوزيعهــا على كل عنصر من العناصر، ويكون الراتب الشهــري لكل واحد من هؤلاء سبعـة سولدي ونصف السولدي كبار، أي مـا مجموعه ثلاثون ســولدي كبــار شهـريـاً، ولا يجوز لجميع هؤلاء، أي القبطان، والبحـارة، والكتـاب والنجـارون وعمال الطلاء والمعجنـة، المطالبـة بأية علاوة غير أجـورهم، لا شخصياً ولا عن طريق غيرهـم، أو بفرض أية أتاوة مهما كانت الطرائق أو المسـوغات، والمفترض تطبيق شرط الاكتفاء بالراتب، وذلك تحت طائلة الاقتصاص من أموالهم ومنهم شخصياً.

خـامسـاً : من الموائم أن يكون في كل غليـون طبـاخ واحـد، براتب شهـري مقـداره أربعـة سـولديات كبـار، ليعـد الطعـام إلى كل من على الغليون الذي يكون فيه.

سـادسـاً: ينبغي أن يكون على كل غليــون خمسـون من رمـاة القسي العقـارة، براتب شهـري للواحـد منهم خمسـة سـولديات كبـار، أي مـا مجمـوعه شهـرياً مائتين وخمسين سـولدي كبار، وأن يكون هناك أربعـة ينفخون بالأبواق والنفر والمزامير، ويحسنون الضرب على النقارة والطبل

والكوسات، وأن يكـون هناك أيضاً رجل آخر يتكفل بضبـط المجاذيف وإصلاحها.

سـابعـاً: من المستحسن أن يكون هناك أيضـاً عشرة مجذفين سريعين عند مقدمة كل غليون، براتب شهـري مقداره ستة سولديات كبار لكل واحد منهم، أي ما مجوعه ستين سولدي كبار.

ثامناً: من المناسب أن يكون هنـاك عشرين مجذفـاً سريعـاً للتجـذيف وهم جـالسون على المقـاعـد التي في مقدمـة الغليـون، إذا توفر المجـال هناك، ولكل واحـد منهم راتب شهري مقـداره خمسة سولديـات كبار، أي ما مجموعه مائة سولدي كبار.

تاسعـاً: أن يكون هناك ثلاثين مجذفـاً من الأشـداء أيضـاً، لكل منهم راتب شهري مقداره خمسة سولديات كبار، أي ما مجموعه مائة وخمسين سولدي كبار من عملة البندقية.

عاشراً: أن يكون هناك أيضاً مائة وعشرين مجذفاً، براتب شهري لكل واحد منهم قـدره أربعة سولديات كبـار أي ما مجموعـه أربعمائة وثمانين سـولدي كبـار، وهكذا يغـدو الجميع على العمـوم، ملزمـون جميعـاً بالتجذيف عندما تصدر الأوامر إليهم بذلك، ومن المناسب تجهيز واحد من بين الغلايين بنظام التجذيف الثلاثي.

حادي عشر: من المفيـد اكتراء رجلين مقـابل راتب شهـري مقـداره عشرة سولديات كبار ونصف السولـدي، تكون مهمتها القيام بتنفيذ أية مهمة يرتئيهـا القائـد أو القبطان في الغليون، ومـا يراه مفيداً أو ضرورياً لصـالح الجيش، وهكذا يكون مجمـوع الرجـال اللازمين على متن كل غليـون مائتين وخمسين رجـلاً، وكما قلنا من قبل تبلغ رواتبهم الشهـرية سبعين ليبرة كبـار من عملة البندقيـة، ويكون بذلك مجمـوع الرواتب لاثني عشر شهراً لكل غليون حسبمايلي:

يتقاضى القبطان تسع ليبرات كبار، ويلزم للملاحين الثمانية ست وثلاثين ليبرة، وللكتاب الأربعة ثمان عشرة ليبرة، وللنجارين الاثنين تسع ليبرات، ولعاملي الطلاء والمعجونة تسع ليبرات، وللطباخ ثمانية وأربعين سولدي كبار، وللرماة الخمسين مائة وخمسين ليبرة، وللعشرة المجذفين السريعين ست وثلاثين ليبرة، وللعشرين من المجذفين السريعين ستين ليبرة كبار، وللثلاثين من المجذفين العاملين في المؤخرة تسعين ليبرة، وللمجذفين المائة والعشرين مائتين وثمان وثمانين ليبرة، وأيضاً للرجلين الموضوعين تحت تصرف القائد أو القبطان اثنتي عشرة ليبرة، وأحد عشر سولدي كبار.

وعلى هذا يكون المجموع العام للرواتب لمن على متن الغليون المذكور سبعمائة وعشرين ليبرة كبار لمدة اثني عشر شهراً، ما عدا نفقات الأكل، ويعادل هذا سبعة آلاف ومائتين من الفلورينات، إذا حسبنا أن كل فلورين يساوي سولديين كبار.

راتب طواقم عشرة غلايين في الشهر

١٠ — قبطان أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليبرات كبار ونصف الليبرة
٨٠ — ملاح أجرهم في الشهر الواحد	٣٠ ليبرة كبار
٤٠ — كاتب أجرهم في الشهر الواحد	١٥ ليبرة كبار
٢٠ — نجار أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليبرات كبار ونصف الليبرة
٢٠ — عامل طلاء ومعجونة أجرهم في الشهر الواحد	سبع ليبرات كبار ونصف الليبرة
١٠ — طباخين أجرهم في الشهر الواحد	٤٠ سولدي كبار
٥٠٠ — رماة أجرهم في الشهر الواحد	١٢٥ ليبرة كبار
١٠٠ — مجذف سريع أجرهم في الشهر الواحد	٣٠ ليبرة كبار

٢٠٠ — مجذف سريع أجرهم في الشهر الواحد	٥٠ ليبرة كبار
٣٠٠ — مجذف في المؤخرة أجرهم في الشهر الواحد	٧٥ ليبرة كبار
١٢٠٠ — مجذفون أجرهم في الشهر الواحد	٢٤٠ ليبرة كبار
٢٠ — رجل تحت تصرف القائد أجرهم في الشهر الواحد	عشر ليبرات كبار ونصف الليبرة

مجموع النفقات التي ذكرت أعلاه يساوي ستمائة ليبرة، ما عدا الأكل، ويساوي هذا ستة آلاف من الفلورينات الذهب.

راتب طواقم عشرة غلايين في السنة الواحدة

يتبين مما ورد أعلاه أن جميع رجال الغلايين العشرة يلزمهم رواتب لمدة اثني عشر شهراً مبلغ قدره الإجمالي سبعة آلاف ومائتي ليبرة كبيرة، أي ما يعادل اثنان وسبعين ألف فلورين ذهب.

راتب طواقم ستين غليوناً في الشهر الواحد

سيكون الراتب المعطى إلى ستين قبطاناً	٦٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى أربعمائة وثمانين ملاحاً	١٨٠— ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى مائتين وأربعين كاتباً	٩٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى مائتين وعشرين نجاراً	٩٠ — ليبرة
وإلى مائتين وعشرين عامل طلاء ومعجونة	
سيكون الراتب المعطى إلى ستين طباخاً	١٢ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى ثلاثة آلاف من الرماة	٧٥٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى المجذفين السريعين الأوائل	١٨٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى المجذفين السريعين الباقين	٣٠٠ — ليبرة

سيكون الراتب المعطى إلى ألف وثمانمائة مجذف في المؤخرة	٤٥٠ — ليبرة
سيكون الراتب المعطى إلى سبعة آلاف ومائتي مجذف	١٤٥ — ليبرة كبار

وتعطى هذه المبالغ في شهر واحد إلى جميع المذكورين حسبما تقدم أعلاه، ويلزم إلى المائة والعشرين الذين تحت تصرف القائد ثلاث وستون ليبرة، أي عشرة سولدي كبار ونصف سولدي، كل شهر للواحد، وعلى كل واحد منهم مساعدة الآخر، فيكون العدد الاجمالي للغلايين الستين خمسة عشر ألف مقاتل، يلزمهم شهرياً ثلاثة آلاف وستمائة ليبرة كبار أي ما يعادل ستة وثلاثين ألف فلورين ذهب، بمعادلة سولديان كبار لكل فلورين.

راتب طواقم الغلايين الستين سنوياً

ويتضح لنا كذلك أن راتب اثني عشر شهراً لطواقم ستين غليوناً سيكون مجموعه ثلاث وأربعون ألفاً ومائتي ليبرة كبار، أي ما يعادل أربعمائة ألف واثنان وثلاثين ألف فلورين، كما بينا أعلاه، أي أن التكلفة اليومية مائة وعشرين ليبرة كبار أي ألف ومائتي فلورين ذهب.

راتب ثلاثمائة فارس وخدمهم

هناك حاجة إلى ثلاثمائة فارس لكل واحد منهم خادمان مدربان على السلاح براتب مقداره أربعمائة سولدي كبار لكل واحد، وتعادل الأربعمائة سولدي كبار مائتي فلورين ذهب، وذلك دون أن نحسب نفقات العلف للخيول — إلا إذا نفقت أثناء الجري أو في البحر — ويلزم للخيول عن اثني عشر شهراً ستة آلاف ليبرة كبار، أي ما يعادل ستين ألف فلورين، وعليه يكون مجموع ما يدفع للفرسان مع خدمهم خمسمائة ليبرة كبار، وهي تساوي خمسة آلاف فلورين ذهب.

ويتضح مما تقدم أن نفقات الفرسان في اليوم الواحد سوف تبلغ ١٦

ليبرة و٢١٣ سولدي و٤ ديناري كبار، وهي توازي ١٦٦ فلورين، و١٦ كروسي(قطعة فضية كبيرة)، وعليه يمكن القول إن كل فارس من الفرسان المتقدم ذكرهم سيتقاضى يومياً مع خادميه ٣١٣ كروسي من عملة البندقية، وبذلك تكون كلفة الخمسة عشر ألفاً من المقاتلين مع الفرسان الثلاثمائة وخدمهم ٤٨,٢٠٠ ليبرة كبار، أي ما يعادل ٤٨٢٠٠٠ فلورين، وكل فلورين يساوي ٢ — سولدي.

ويفيد كذلك كثيراً ذلك الجيش، أن يصطحب على سبيل الاحتياط عدداً من الأساقفة والكهنة العلمانيين، والرهبان الواعظين، والرهبان الدومنيكان، والرهبان الفرنسيسكان والرهبان الكرمليين، ورهبان غيرهم من بقية الطوائف، وكما ترتئي قداستكم، على أن يصل مجموع عدد هؤلاء إلى المائة، ويحصلون على طعامهم من الغلايين، ومما يقدمه لهم الشعب من هبات أو تبرعات، يحسب بمثابة راتب لهم، ويكون ما يقدم لهم من الطعام ستة عشر ألف وجبة تكلف ثمانمائة ليبرة كبار، أي ما يعادل ثمانية وخمسين ألف فلورين ذهب، ويكون هذا المبلغ هو إجمالي النفقة للسنة كلها، حيث يكلفون كلهم تسعة آلاف وستمائة ليبرة كبار، أي ستة وتسعين ألف فلورين ذهب، فيكون هذا مجموع راتب أولئك الناس لمدة اثني عشر شهراً فقط، لأن ذلك المجموع يكلف ٥٨,٨٠٠ ليبرة كبار، أي ما بين ٩٥ ألف و ٩٤ ألف فلورين ذهب.

وينبغي التنبه أيضاً إلى أن من الضروري أن يكون بين هذه المجموعة من يعرف ويلتزم بحفر الأرض، وليصير ممكناً اكتشاف الماهرين منهم، يعطى إلى هؤلاء علاوة على رواتبهم لكل واحد منهم ١٢ — كروسي شهرياً على الأقل، ويجب أن لا يقل عدد هؤلاء عن ألف حفار، يتقنون أعمال الحفر كما قلنا، ويكلف هؤلاء سنوياً ٦٠٠ ليبرة كبار، أي ٦٠٠٠ فلورين ذهب، وكذلك للأعلاف اللازمة للخيول، والبالغة أربعة جوالق من الشعير كل شهر، أي ما يعادل سالما واحدة وثلث من

عيارات أبوليا، أي ما مجموعه ١٨٠٠ سالما، تكلف حسب السعر المعقول ١٨٠٠ فلورين ذهب، أي أن الثمن لكل سالما فلورين واحد ذهب، وهي واصلة إلى مصر مسلمة على شاطئها، وهنالك القش الذي يحتاجه أولئك الرجال لنومهم ولخيولهم، وكذلك الحطب اللازم للجيش وللوقود، وذلك حسبما يقرر إرساله قائد الجيش، فإن قيمة ذلك تبلغ ٣٢٠٠ فلورين ذهب.

وهناك مسألة المؤن التي على القائد القيام بتخزينها احتياطياً، فهذه ستكلف ٢٠٠٠ فلورين ذهب سنوياً، وبعدما تولينا تبيان كل نفقة على حدة، سوف يكون الانفاق الإجمالي العام ٦٠٠,٠٠٠ فلورين ذهب، أي ما يعادل ٦٠,٠٠٠ ليبرة كبار، وذلك باستثناء عطاء القائد العام، فهذا يترك تقديره لقداستكم.

الفصل الحادي والعشرون: إيضاحات وتنبيهات، وأوامر، وإجراءات احتياطية متعلقة بذلك الجيش.

ونحن إن كنا قد ذكرنا في الفصل المتقدم أسطولاً مكوناً من ستين غليوناً، فهذا لايعني أن كل الرجال يجب أن يوضعوا داخل تلك الغلايين الستين، بل في داخل خمسين، إذا ما جرى اعتماد النمط الثلاثي للتجذيف، ومن بقي سواء من الرجالة أو من الفرسان، فينبغي عليه الانضمام إلى السفن العادية، التي أشرنا إليها في الفصل الثاني عشر، وإذا ما عمل بالرأي القائل، بأن يكون المجذفون أربعة أربعة على نسق واحد، على مقعد واحد، وهذا أسلوب قد امتحن — كما ذكرنا —ووجد ناجحاً، وينتج عن اعتماد هذا الأسلوب، لابل يلزم أن يوضع جميع الرجال المذكورين في أربعين غليون، ويجري تنظيم الأسطول العادي حسبما يناسب، أي أن تحمّل عشرين من السفن الكبار، ذوات الحجم الكبير، وتدبر شؤون ثلاثمائة رجلاً، وتحمل وتتدبر شؤون مائتين وخمسين رجلاً إلى مائتين وسبعين رجلاً في السفن الخمس الأصغر

بشكل معقـــول، ويكون لهذه السفـن، أي للصغيرة مــائتين وعشرين مجذف، يجلسـون أربعـة أربعـة على نسق واحـد، فـوق مقعـد واحـد، وينصرف الباقون إلى أعمال أخرى.

وقد يلاحظ أنه في الجزء المتقـدم لم نأت إلاّ على ذكر اثني عشر شهراً في السنة، وأغفلنا ذكـر الخمسـة أيـام وربع اليـوم الإضـافيـة فيما يتعلق بالأجر المالي والمعيشة، وسبب ذلك هو مايلي:

أولاً : حسبت أسعار نفقات المعيشة ليـس على أساس السعر المتداول فقط بل على أســاس السعـــر الأعلى، بحيث أن الأشهــر الاثني عشر المذكورة، حسبما رتبناها على مدار السنة تكفي للسنة كلها، وتزيد بوفرة.

والسبب الثـاني هو أن القطاع الرسمي في البندقية يحسب الشهـر على أسـاس ثلاثين يوماً، أمـا في القطاعات غير الرسميـة، فإن الناس الذين يتـولون شحن السفن بالرجـال يذكـرون في العقـود بشكل صريح أنهم يحسبون جميع الأشهر على أساس أن الشهر ثلاثة وثلاثين يوماً، وإذا زاد في نهاية العــام يومــان أو ثلاثة، فإنهم لا يدفعــون أجـور تلك الأيام الزائدة،وهذا ما تصنعه كومـونة البندقية أيضاً، فضلاً عن هذا ينبغي ألا يغـرب عـن البـال، أن الذينن يتقـاضـون أجـورهم مـن الكنيسـة الأم المقـدسة، يبرمـون عقودهم ليس حسب الأشهـر، بل حسب السنوات، وهنا إذا رأت قـداستكم أن بالإمكان حسـاب رواتب اثني عشر شهـراً حساب سنة، فليكن.

هذا ويبقى دومـاً من صـلاحيـات القـائـد صرف بعض الرجـال من الخدمـة، أو الاحتفـاظ بهم، حسبما يرى ذلك منـاسبـاً، وسبب ذلك هو — على سبيل المثـال — أن عنصراً مشـاغباً في الجيـش يعد مـذنبـاً مثل العنصر الخائن، فمشاغب واحد، قـد يثير البلبلة فجأة في أوساط الجيش كله، بدون حســاب، فعلى القـائـد المتحلي بـالحكمـة أن يأخـذ بأسبـاب

الحيطة الكبرى في هذا المجال.

وتجدر الاشارة إلى أنه بعدما يبحر الجيش من الغرب، ويأخذ طريقه، لا بد من تأمين المعـاشـات للأفـراد لمدة أشهـر عـديدة، حتى يمكن اجتـذابهم بسهـولة من بيـوتهم، وليتمكنوا من الإفـادة مما هو ضروري، وتأمين مـا هـو لازم لهم في الحاضر وفي المستقبل، وينبغـي أن تتمتع الأمـوال التي يتقـاضـونها بالحماية والحيطة المطلوبة لكـل من يتقـاضى الرواتب، ومفيـد إعطاء الرواتب في البـداية شهراً شهـراً إلى أن يتمكنوا من ترتيب أمورهم على شواطىء مصر، وبعد هذا لابأس بدفع الرواتب كل ثلاثة أشهر.

ويتوجب اعتماد التفتيش اليومي العام، على مدى أيام الشهر، ولاسيما في الليل حسبما جرت العادة، وفي أثناء هذا التفتيش ينبغي إنزال العقوبة بحق من تثبت بحقهم المخالفة.

وينبغي توزيع المائة والعشريـن رجلاً الموضوعين تحت تصرف القـائد العام، حسبمايلي، إذا ما وافق هو على ذلك.

١ — أدميرال(أمير ماء) بحري: إثنان.

٢ — مستشارون يستعين برأيهم: ستة.

٣ — مفتشون يراقبون الطعام والكتاب: أربعة.

٤ — مشرفان رئيسان مسؤولان مباشرة عن الأسلحة.

٥ — ثلاثة أطباء صحة، وثلاثة جرائحيون.

٦ — حرفيون من الدرجة الأولى، ومعلمون في النجارة.

٧ — حرفيون اختصاصهم قطع الأخشاب: أربعة.

٨ — حرفيون في الأقمشة وصنع الأشرعة: ثمانية.

٩ — حرفيون بالجلود، ينبغي معرفتهم بصناعة أغطية للرأس.

١٠ — حرفيون يتقنون صناعة المجاذيف، وأن يعرفوا أيضاً صناعة أقنية الرماح والحراب وغير ذلك من الأدوات اللازمة للجيش: خمسة عشر.

١١ — حجارون يحسنون نقب الحجارة، وحفر الأنفاق تحت الأرض، ووضع قواعد حجرية للآلات وغير ذلك مما يحتاجه ذلك الجيش: عشرة.

١٢ — صانعوا نشاب: ويتوجب اختيار هؤلاء من أمهر المعلمين أينما وجدوا بحدود : عشرة.

١٣ — موسيقيون ينفخون بالأبواق والنفر، ويقرعون على الطبول، ويضربون على النقارات ويحسنون استخدام سائر الآلات الموسيقية الناعمة مثل الرباب والقيثارة، والكمنجة الكبيرة، بقدر ما يرى أن في ذلك فائدة للجيش: عشرون.

ويجري توزيع العشرين المتبقين من المائة والعشرين إما على أعمال أخرى أو يجري تحويلهم إلى مساعدة هؤلاء المائة المذكورين أعلاه.

وبما أنه جرت الإشارة في الفصل المتقدم إلى توزيع حوالي ستة عشر ألف حصة، ينبغي التنبه إلى أنه مع اقتراب نهاية السنة، أو لدى مرورها، وبعدما يكون القوم قد نزلوا على شواطىء مصر، واستولوا على الأرض، وتمركزوا فيها، سيتدافع الناس إلى هناك من مختلف المناطق، وستكون أعدادهم كبيرة، يريدون السكنى قريباً من تلك النقاط، خاصة وأنهم لن يشكوا أنه ستقدم إليهم حصة من الطعام تؤمن معيشتهم، مع تدبر ما يلزمهم من خدمات، ولا شك أن هؤلاء سوف يفيدون، وستكون الحاجة كبيرة إليهم سواء للقيام بحراسة الأماكن الدفاعية، أو بتقديم الخدمات لرجال ذلك الجيش، أو القيام بما يلزم من أعمال

محتاجة ومفيدة، وبموجب ذلك سوف يتقاضى هؤلاء الناس جميعاً، أو أكثريتهم الأجور، وسيكون بإمكانهم البقاء مع الأسطول، لإلحاق المزيد من الأضرار والأذى بالأعداء، ولحراسة البحر والأنهار والبحيرات، وأخيراً سوف تنظر قداستكم بفطنة إلى كل ما هو مناسب عمله، وإلى إعطاء القائد العام ما تراه قداستكم موائماً من تعليمات وتوجيهات.

الفصل الثاني والعشرون: حول صناعة الأعتدة، والأسلحة، وخاصة آلات الرمي، والمقذوفات، وكل ما من شأنه تطوير تلك الأسلحة.

كنا قد شرحنا أعلاه وقدمنا وصفاً مجملاً ومفصلاً لأي نوع من الناس هناك حاجة لإنجاز هذا المشروع المقدس، وكذلك بينا الذي يحتاجه الأسطول المرتقب، وبعدما تكلمنا عن الأسلحة اللازمة لهذا الأسطول، رأيت أن الذي قدم أقل من المحتاج وأنه كان ينبغي التوسع بهذا المجال، ولهذا سوف أقوم بمايلي بالتطرق — ولوبإيجاز — إلى أمور جديدة أخذت بشأنها، رأي بعض الخبراء، ومع هذا إن ما سأقوله سوف يكون موجزاً، ومن الممكن إجراء بعض التعديلات عليه، حسب رأي ذوي الاختصاص بهذا الموضوع.

أولاً — بخصوص الأسلحة الدفاعية:

يجب أن تكون خفيفة، حتى يتمكن الرجال من التنقل والتحرك بسهولة، وأن يكون عددها كافياً، كما تقدم وقلنا.

ثانياً — الأسلحة المعدة لإلحاق الأضرار بالعدو:

المطلوب أيضاً أن يستطيع المقاتلون استعمالها بطريقة جيدة وسريعة، وفي هذا المجال هناك نوعان من الأسلحة الهجومية هما : الضرب بوساطة سلاح قاطع، أو الرشق بسلاح ثاقب، كما ذكرنا من قبل.

ويلحق بالعادة بالعدو أضرار كبيرة، ويكون عرضة لمخاطر هائلة عن

طريق استخدام الآلات الثاقبة، ويكون ذلك أعظم مما يلحقه عن طريق استخـــدام آلات التجـريح فقط، ويبقـى على ذوي الدراية في الجيش أن يأمروا باستخدام أنواع الآلات التي يقدرون أنها الأفضل لجماعتهم.

وجديـر بالتذكير أن الهجوم على الأعـداء عن بعد أضمـن للمهاجمين من استخدام الأسلحـة ضدهم عن قـرب، والبرهان على ذلك أن جميع الأدوات أو الآلات أو القسي العقـارة فعـالـة بحسب مقـدرتها على الإصـابة عن بعد، ولتحقيق ذلك يتـوجب على المهندسين وذوي الدرية في الجيش أن يشغلوا تفكيرهم، لأن المقذوفـة سواء أكـانت من الحجارة أو من السهام أو من أي نوع من الآلات، تفيد أكثر إذا كان مجال الرمي عندها أطول من مجال الرمي لدى مقـذوفات الأعـداء، وهي تحتفظ لمن يملكهـا بـأولوية زمـام المبـادرة،ة فإذا كـان بإمكـان نشـاب المسيحيين الوصول إلى جيش الكفار، ولا يستطيع نشـاب أولئك الأعداء الوصول إلى جيش المسيحيين، فمن المؤكـد أن النصر سيكون حليف المسيحيين، ولسوف يهزمون أعداءهم على الأرض وكذلك في البحر.

وإذا ما اعترض معترض وقال: إذا تراجع الكفرة إلى الوراء، وتدبروا أمـرهم كـي يطال نشـابهم جيش المسيحيين، يمكنني الإجـابة على هذه الحجج والرد قائـلاً: إنه مع ذلك يبقى زمام المبـادرة بيد المسيحيين، لأن الضربات التي تسـددها آلات المؤمنين بيسوع المسيح سـوف تبقى أقوى من التي تسدد إليهـم من قبل الكفرة، حتى وإن لم يكونوا بعيـدين جداً عنهم، ولهذا ينبغي — كما أوضحنا من قبل — السعي بكل جهد ممكن لاكتشاف مهندسين متفوقين، واستخدام أجود أنواع الأخشاب لصناعة القنطاريات، وصناديق لـلآلات، ولقسي النشـاب للمحـافظة دومـاً على تفوق المبادرة.

ولكي يتـوصـل المهندسـون إلى النتيجـة الأفضـل في أعمالهم، سـوف أوطد بهذه المقدمة لأتكلم عن آلة المنجنيق العـادي، حتى يتم التمييز ما

بين المنجنيق العادي وبين المنجنيق البعيد المدى.

كيف يمكن صنع المنجنيق العادي

يجب أن يكون القسم الأسفل من هذه الآلة، أي قاعدتها من حيث الاتساع بقدر ما سيكون عليه ارتفاعها داخل حصن من الحصون، وينبغي أن تكون الآلة مفتوحة من الأسفل في قاعدتها بين الذراعين الاثنين، وأن يكون الجزء الثالث أصغر، بمعنى آخر: إنه إذا رفعت الآلة داخل حصن بارتفاع أربعة وعشرين قدماً،ينبغي أن يكون ارتفاع هذه الآلة عند القاعدة ستة عشر قدماً، ويقسّم العارفون آلة الرمي هذه من قاعدتها إلى رأسها إلى خمسة أو ستة أقسام، ويوضع جسم الهيكل بين الجزء الخامس والسادس، أي إذا كانت الكفة يبلغ طولها ثلاثين قدماً من الأسفل إلى القمة، يكون الخمس ستة أقدام، والسدس خمسة أقدام، لذلك يوضع الهيكل على بعد خمسة أقدام ونصف القدم من هيكل الرأس المشار إليه أعلاه.

كيف يمكن صنع المنجنيق البعيد المدى

يجب أن يوضع مرتكز جسم الهيكل على بعد خمسة أقدام من الكفة، إذا كان طول الكفة ثلاثين قدماً، أي عند سدس الكفة، علماً بأن القياس يؤخذ من مرتكز جسم الهيكل صعوداً إلى رأس الكفة، وعليه ينبغي أن توضع هكذا: يؤخذ خط من عند وسط ذراع الكفة، ويمد ذلك الخط إلى زاوية قبضة مرتكز جسم الكفة، حتى يتلامس ذلك الخط نصفياً من الجهة الثانية مع الخط ذاته الذي هو في وسط مرتكز جسم الهيكل.

وينبغي شد جوانب جذع المنجنيق نحو مرتكز جسم هذه الآلة، ويمدّ فوقها غطاء يبلغ قياسه نحو قدمين أو أكثر، لا بل حتى أقل، وذلك حسب تلك الآلة، بحيث يأتي مرتكز الهيكل من الأسفل أوسع، لكي تأخذ الكفة توازناً وثباتاً أعظم، ويجب أن يكون الصندوق أكبر

وأطول بالقـــدر الذي يمكن للمعلمين صنعـــه، فبقـدر مـا يعظم وزن المنجنيق بقـدر مـا يكون ثبـاته أعظم، ويقـدر مـا يكون أكبر، بقـدر مـا يقذف أكثر، وأبعد، وأثقل.

ولأجل ذلك ينبغـي أن يكون المنجنيق قـوياً من كـافـة أجـزائـه، في:الصندوق، وفي الكفـة، وفي مـرتكـز جسم الهيكل، ويجب أن تكون الكفـة ممتلئة غير نحيفـة الذراع لا سيما في وسطهـا وشبـه منفـرجـة من جهتهـا الأماميـة، ويتـوجب أن يكون للصندوق نابض قـوي يمكنه أن يدفع الصندوق إلى الجهة الخارجية.

ومن جديد: بقدر ما يكون المنجنيق أكبر، بقدر ما يمكنه قذف أوزان أثقل، وإيصـال الرمـايات إلى مسافـات أعلى وأبعـد، فبقـدر ما يقـذف الحجر إلى علو أكبر، وإلى مسافة أبعد، بقدر ما يكون وقع سقوطه أشد، وأكثر تدميراً.

وإذا أراد أحد أن يصنع المنجنيق البعيد المدى، يمكنه أن يضع الفوهة فـوق الجانب وأن يصنع كفـة طويلة الذراع إلى حـد الوصـول إلى قعـر السفينة، وعليه أن يجعل هذا الذراع يرتكز فوق قعر السفينة، وأن يجعل الصندوق يصل إلى قـريب حدود الذراع، وينبغي تصنيع جميع المجـانيق التي تجهز بها السفن بقـوة ومتانة بحيث يصل ما ترميـه من حجارة من وزن ومـدى إلى الشيء نفسـه الذي كـانت ستصـل به لو كـانت الكفـة مـركزة على سطح الأرض، فضـلاً عن هذا، ينبغي الأخذ بعين التقـدير أنه حتى تقـذف المجـانيق بخـط مستقيم وإلى مـدى بعيـد، ولتستـوعب القذيفة كما يجب، فإن ذلك مرتبط بحجم المنجنيق، وبقدر وزن صندوق الهيكل، وكـذلك بقدرة التمكن من صنع حجـارة مستديرة، وهو أيضـاً مرتبط بنوعيـة كفة ذراع الرمي، التي تمسكهـا مجموعـة التهديف، ولابد من أن تكون معقـوفـة حتى تتماشى مع مـا يريده الرجـال من الرمي صعـوداً أو إلى مـدى بعيـد، ويتـوجب على المهندسين ومعلمي الحرف

تشغيل عقــولهم حــول هذه الأسلحــة حتى يمكن تشغيلهــا بالشكل الأفضل.

كيفية تصنيع القسي العقارة

لصنع القسي العقـارة(الجروخ— الزنبـورك) ســواء أكـان ذلك من الخشب، أو من القرون، يفضل توفر معلمين ماهرين مع الخشب الجيد، ويظل أفضل نوعيــة من الأنواع الخشبيـة تلك التي تصنــع من القـرون العظميـة، بحيث تلصق القـرون إلى بعضهـا بالغـراء، وتلف بالجلود أو بمادة الأوتار، وفعالية هذه القسي أعظم في المناطق الجافة منها في المناطق الرطبة، وتطلق في أيام البرد إلى مسافـة أبعد منها في أيام الحر، وكثيراً ما تم اختبار ذلك.

أما بالنسبة لقسي النشاب العادي فتصنع بالعادة من الخشب، ولاسيما الخشب الذي يسميه الناس ناسوس Nassus وأفضل مكان يتوفر فيه هو في جزيرة كـورسيكا، علماً بأنه توجد منه أنواع هنـا وهناك في أماكن وبلدان أخــرى، وينبغـي قطع ذلك الخشب من الاحـــراش في الوقت المناسب الذي ذكـرناه، وهو الوقت الموائم لقطع سائـر الأخشاب، وإذا شدت أقواس النشاب الخشبيـة بالطول وطويت قليلاً، فإنها تغدو قادرة على الرمي إلى ارتفاعات أكبر، وتقذف بسهامها إلى مسافات أبعد، ومن المقـرر اعطاءها دومـاً القيـاسات المفترضـة، ومن المفيـد أيضـاً— بما ان المطلوب هو رمي السهام إلى مسافة أبعد— أن تكون أوتارها لدنة بقدر مـا يمكن حتى تستطيع تحمل شـد الضغط والتفـويق، ولذلك ينبغي أن تكون مصنوعة من القنب الجيد، والمتقن الصنع، ويظل المطلوب ايصال السهام التي يرميها القوس المذكور الى أبعـد مسافة ممكنة، ويفضل وقتها أن تكون نصــال السهـام وقضبــانها متناسبــة مع القــوس، لابل من الضرروي أن تكون النبال مريشة، أو أن تأخذ نهاياتها مثل هذا الشكل.

أما عن مقبض القـوس، وكبدها، وسيتها، ونعلهـا، وظفرها، فأكتفي بهذه الاشارة السريعة إليها، وكل مـا قيل عن صنعها كامل وجيد بدون شك، وذلك سـواء قـوس النشـاب أو مـا يتعلق به شرط أن يصنع من خشب جيـد، وبطيء الاحتراق، ومن المستحسن أيضـاً إعطـاء الذين يشدون الأقواس أوتاراً جيدة، وعريضة، وأن تكون الأجزاء الخلفية من تلك الأوتار واسعة، وقد اعتاد الـرماة على استخدام الأوتار سواء وهم يفـوقـون أو وهم يرمـون، فـالعـادة تعطي الرجـال قـوة كبيرة للشـد، وتتحول العادة إلى طبيعة حسب المثل المأثور.

ويجب— على كل حال— على الرمـاة حفظ أقواسهم، سـواء أكانت من خشب أو مـن قـرون وحمايتهـا من الشمس والمطر والـريح، ومن الندى أيضاً، وأن تبقى دومـاً مغطاة إلاّ وقت تشغيلها، وعلى الرامي في كل سفينة أن يغطيها بجوالـق مفتوح، وأن يبقيها في مكان منخفض، أو أن يعين لها مكان يضعهـا فيـه، وتحفظ معلقة كما جـرت العـادة، ويجب التـذكر أن القسي الأصلح هي التي تشـد بالأرجل، وبالتحـديد برجلين وليس برجل واحدة، فهذا أضمن لفعـالية القوس العقار(الزيار)، ولهذا ينبغي استخـدام القوس العقـار في المكان الذي يكمن فيه الرمـاة ثابتين لإنزال الأذى بالعـدو، سـواء على الأرض أو في السفن، وأن يأتي هذا الاستخـدام من قبل رجلين، أمـا باقي الأنواع فتكـون كما أوردنا في الفصل الثـامن، وفضـلاً عن هـذا قـد يحدث أن تكون بعض الأقـواس قادرة على اطلاق ما يسميه العـامة موسكيت Muschette، والأقواس المستقيمة التي تخصص لها هذه المقـذوفات هي أقـواس الزنبورك، وهذا النوع يتوجب على خبراء الجيش التـوصية بصنعـه، وأن يعلموا المكلفين بالرمـاية على طريقـة استعمالها، خصـوصـاً العناصر التي يرون أنها ذات فـائـدة أكبر للجيش المسيحي، وليفعلوا ذلك بخصـوص الأقـواس العقارة، حسبما ذكرنا في الفصل الثامن.

لذلك يجب — أيها الأب الأقـدس — على القـائـد المكلف من قبل الكنيسة الأم المقدسة أن يدرس طريقة صناعة تلك الآلات، سواء أكان المنجنيق أو الأقواس، مع كـل مايلزم للقيام بوظيفتـه، وخاصـة لصناعة المجـانيق البعيـدة المدى، وكما بينا إنه عند الـوصـول إلى تلـك المناطق والشروع ببناء المراكز المناسبة لتنفيذ المشروع، فإن الأعداء سوف يخافون منهـا كثيراً، وبسبب رعبهم وخـوفهم سـوف يضطرون إلى الانسحـاب وإخلاء الساحة.

الفصل الثالث والعشرون: كيف يمكن للمأجوريـن من قبل الكنيسة الأم المقـدسة، القيـام، بعد نـزولهم على شواطىء مصر البحـرية، بإرباك المنشقين والمسلمين بوسـاطة غـلايينهم، وتكبيـدهم الأضرار الكبيرة والخسائر الفادحة، وذلك قبل وصول جحافل الصليبيين.

إنه — على كـل حـال — قبـل وصـول الصليبيين المتطوعين، أو الجماعات المأجورة والممولة مـن الصليبيين، كما بينا في الفصول المتقدمة، أتشـوق بكل احترام وتواضـع وتقـوى أن أبين لقـداستكم أن هؤلاء القوم، الذين يتقـاضون أجـورهم من الكنيسة، أعني الخمسـة عشر ألفاً من الرجالة والثلاثمائـة من الفرسان، بعدمـا يكونوا قد وطئوا شواطىء مصر، يمكنهم أن يتابعوا محلياً صنـاعة تلك الاسلحة، كما أنهم يقدرون على الانضمام إلى الغـلايين وغيرهـا من السفن، التي يمكن تـوجيههـا لمراقبة الشواطىء الخاضعـة للسلطان كي لاتقترب قواته من المنطقة التي يكون قـد استولى عليهـا الاسطول، وبذلك يلحقـون الأضرار والخراب بسكان تلك الشـواطىء وبغيرهم من جيرانهم الكفرة، وبعـد مرور سنة على اليوم الذي تمت فيه تعبئة القوات المذكورة، وبعد أن يكونوا قد بنوا لأنفسهم مساكن وحصـون على تلك الشواطىء لضمانة إقـامة اسطولهم بأمـان، يمكنهم أيضـاً أن يرسلوا في كـل سنة عشرين غليـونـاً خـارج المعسكر في الـوقت المناسـب، أي منذ منتصف نيسـان حتـى منتصف

تشرين الأول.

ويجب ان يكون على ظهر هذه الغلايين ما لايقل عن خمسة آلاف من الرجالة المسلحين مع مائة وخمسين من الفرسان، يجوبون في نواحي الأراضي الخاضعة للسلطان للقيام بأعمال المراقبة والتفتيش، ويقومون بالشيء نفسه في نواحي ملك التونسيين والتركمان والروم البيزنطيين المنشقين، وفق الطريقة التي يرونها الأمثل، ويمكن القول بصدق إنه مثلما الحديد يسيطر على المعادن كلها— على الرغم من أنه يلوى وينكسر— هكذا سوف تكون وظيفة تلك الغلايين، وأولئك الرجال فيها، أي قهر، وتدمير، وقمع المنشقين في تلك المناطق، ومثلهم باقي الكفرة الممكن وجودهم خارج المدينة أو القلعة، وإليكم برهان على امكانية تنفيذ ماذكرناه: على تلك الغلايين أن تكون مثل الريح، أو أن تشبه البرق والعاصفة التي تهب فجأة، وأفضل بأن تكون مثل الزلزال، حيث تكون جاهزة ومتأهبة للسير بالمجاذيف، وعليها طاقم سهران متيقظ، وأن لايكون بإمكان أحد أن يسبقها ويباغتها، بسبب الطريق الطويل القادرة على سلوكه، ففي الوقت الذي يخيل فيه للكفار أنها ماتزال في سورية، إذا بها قد صارت في تركيا، ويمكن في الحقيقة القول إن البحر هو أكبر متاهة موجودة في العالم، وبينما يكون أولئك الرجال على ظهر غلايينهم، إذا بهم ينتقلون فجأة إلى الأرض التي يريدون غزوها أو عبورها، وبطرفة عين— إذا صح التعبير— يمكن العودة إلى عباب البحر، بشكل لايتركون مجالاً فيه لأعداء الايمان المسيحي، ليكتشفوهم، طالما تكون الشمس غائبة، فعلى هؤلاء الرجال القيام بأعمال الاستطلاع في النهار، وانتظار الليل، ومن ثم السير بشكل يوصلهم إلى هدفهم قبل انقشاع ظلمات الليل بشكل كلي، فهناك ينزلون قسماً من الرجالة ومن الفرسان إلى اليابسة ليروا ما الذي يمكن صنعه على الفور، ووقتها يكون الكفار المذكورين أو الروم المنشقون — إذا لم

تكن قد وصلتهم أية معلومات مؤكدة— في غفلة عما هو مبيت، وعندها يمكن للجيش الصليبي أن ينفذ بالسلاح مايريد تنفيذه، وما يكون الرب قد قدر له أن يصنع.

وقد يحدث أن تصل تلك الغلايين ليلاً إلى جانب رأس أو جزيرة، إما لتؤمن حاجتها من مياه الشرب، أو لتبقي متخفية هناك، دون أن يصل الخبر أو العلم إلى المسلمين، أو إلى المنشقين الروم، وبالتالي يبحرون من هناك في الوقت المناسب كما يطيب لهم نحو أرض الكفار، أو يتصرفون وفق طريقة أخرى، حسبما أشرنا أعلاه، وبهذه الطرق وبغيرها من الأساليب الخفية— حسبما تتطلب شؤون الحرب— تكون الغلبة لصالح أصحاب تلك الغلايين والسفن، ويسيطرون على أعدائهم الكفرة، وعلى المنشقين على السواء، وينكلون بهم في أيام الشتاء والصيف، ومن ثم يرغمونهم على اخلاء القسم الكبير من الاراضي الواقعة على الشواطىء البحرية والتخلي عنها، وتحقق بذلك قداستكم ما يطيب لها، وذلك عدا ما قلناه أو يمكن أن يقال، أو يصير، مما هو بمتناول المجموعة التي سترسلها إلى أنهار مصر، أو إلى غيرها من المناطق البحرية، وهكذا سيحدث بنعمة من الرب، أن الذين عطشوا، ومازالوا يتعطشون إلى الدم المسيحي، سوف يقتلون بسيف المسيحي، وسيهوون من شاهق كبريائهم إلى حضيض الذل، أما الذين انشقوا عن الكنيسة الرومانية المقدسة، سيتخلون— بقوة وبطش ذلك السيف الذي يطاردهم— كلياً عن انشقاقهم، ويعودون بتواضع نحو سلوك الطريق القويم الذي سار عليه أجدادهم.

الفصل الرابع والعشرون: إعدادات متقدمة، وتنظيمات واحتياطات موائمة تماما تتعلق بالأسطول البحري.

إن من بين الذي ينبغي معرفته هو أن الجيوش المحاربة التي تسير بحراً تواجه مخاطر مثل التي اعتادت عليها الجيوش البرية، فقد يحدث

أن تتعـرض لهجوم مفـاجىء، أو أن تقـوم بذلك فتهجم فجأة، وترعب الأعداء، وتتغلب عليهم بسهولة، وهكـذا يكون الوضع في البحر، فبعد عبـور الغـلايين لعـدد من الجزر، أو المحطات الصخـرية البحـرية، قـد يحدث أن ينقض المقـاتلون البحـريون فجأة على عـدوهم ويهزمـونه بسهولة، ولذلك يتوجب على القائـد أن يرسل دوماً أمام الجيش سفينتي استطلاع، تكونا من أفضل الغلايين التي عنده وأسرعها، وتكون مسيّرة بقـوة التجـذيف ذهاباً وإياباً، وتتقـدم واحـدة على الأخـرى وتسبقهـا، وكلتاهما تسيران للاستطلاع وكشف أحـوال الجزر والصخور، ومراقبة الخلجان، فإذا تبين لهما مـا يريب ووجود مكيـدة ما، تنضمان إلى بعضهما وتصدران اشـارات محددة لانذار الجيش والاسطول حتى يتدبـر ما يلزم صنعـه، ويأخذ بأسبـاب الحيطة، وإذا حدث والتقت سفينتـا الاستطلاع بسفن من غلايين العـدو، ورأتا أن عددها عـاجز عن الصمـود في وجه حملة الجيش المسيحي، وقتهـا يأمر القـائد العـام بارسال اشـارات متفق عليهـا تتلقاها غـلايين الجيش المسيحي،وذلك حسب مـا تلقـاه هو من سفينتي الاستطلاع، حتى يعرف كل انسان مـا الذي عليه القيام به، وما عليه تجنبـه، إذ أن عليه أن يوجه إلى كل نقطـة من هو مكلف بها، سواء إن كـان من جهـة اليمين أو جهة اليسـار، وهكذا يسير كل واحـد وفق الأوامر الصادرة إليه، وعلى القائد العام أن يجعل شكل الجبهة مستديرة مثل ترس، أو على شكـل هلال، أو أي شكل حسبما يراه مـــوائماً، وأن يأمـر بتجهيـز الدفـاع والسـلاح الحربي المنـاسب استعماله، وليفتش عن طريقة إنشاب المعركـة، وعندما يتهيأ كل شيء ويترتب حسب الأصول، وقتها يأمر القائد العام قواته بالاقتراب من العدو بهدوء وسكينه.

لكن إذا أراد القائـد العام أن يترك تلك الجبهة في ظل مراقبة معينة، فليتـــدبر أمـــره بحيث يجعل ربع الغـــلايين أو خمسهـا، مـن التي بدأت بخوض المعـركة تلتف فجأة، وتدور لتهـاجم سفن العدو من الخلف أو

من الجوانب، أو أن تنتقض لتدعم الجهة التي تكون هي الأنسب، ولتنفيذ ذلك ببراعة وحيطة، ففي هذه الأمور بقدر ما تكون الحيطة بقدر ما يخف الخطر، وهناك اسلوب آخر للهجوم على الأعداء، وهو ان تمدّ الغلايين أشرعتها، وتنتقض بجرأة وبسالة على سفن الأعداء، لكن غالباً ما يكون هذا الاسلوب خطيراً، وأنا لا أنصح به مطلقاً، إلاّ إذا كانت المبادرة واضحة والتفوق ظاهر بشكل مؤكد، حتى وإن حدث وتغلبت بعض الأساطيل، لأنها كما يظن أخذت بهذا الاسلوب واتبعته، مثلما حدث بين أهل جنوى وأهل البندقية، فحسبما نقرأ في مدونة أياشيوم Aiacium كانت معظم سفن البندقية كبيرة وقوية، ومعبأة لشن الهجوم، وكانت الرياح الآتية من البحر لصالحها، وكانت سفن أهل جنوى أصغر وأضعف من سفن خصومهم، وكانت واقفة على مقربة من الشاطىء، ومقدمتها مهيأة وكانت ناصبة لأشرعتها بعكس الريح، وكانت كلها تشكل جبهة واحدة متماسكة مع بعضها ومربوطة ببعضها، بشكل أنه كان بوسع الرجال التنقل على سطح السفن ذهاباً وإياباً من سفينة إلى أخرى، وكان لدى أهل البندقية طريقة أخرى لانهاك قدرة أهل جنوى، وبالنهاية اقتحامها، وهي أنه كان بإمكانهم— ما لم يلجأ وا إلى الاستعجال، الذي قد يفيد أحيانا، لكنه قد يعيق مرات أكثر بكثير— إرسال بعض سفنهم، أو سفن غيرهم، واضرام النيران فيها، ومن ثم ارسالها وهي محترقة من خلف سفن العدو، فبهذه الطريقة كان من الممكن إغراق اسطول أهل جنوى وتبديده كلياً، وكان من المنتظر— ما لم تكن إرادة الرب مغايرة— الحاق الهزيمة بأهل جنوى، لو أخذ البنادقة بهذه الحيلة، وكانوا سيتحكمون بساحة القتال، لكنهم لم يفعلوا ذلك، فقد كانوا قد حشدوا ثمانية وعشرين غليوناً، وعندما باتوا على مقربة من أعدائهم، أنزلوا الأشرعة ولفوها، ولم ينتظروا حتى تنتظم صفوفهم، بل حملوا نحو الجنوية بكل سرعة بواسطة قوة دفع المجاذيف، وقاموا أخيراً بالهجوم على أهل جنوى، ونتج عن ذلك أن بعض سفن

البنادقة هاجمت سفن الأعداء بخط مستقيم، وكان ذلك إما بسبب شدة الريح، أو بسبب هيجان البحر، أو للسببين معا، وحين فعلوا هذا تركوا جوانب سفنهم ومؤخراتها مكشوفة، وتلاحم البنادقة مع اثنتين وعشرين سفينة معدة ومهيأة وكانوا في أثناء حملتهم قد تركوا سفن الوسط مكشوفة وعاجزة عن تقديم أي دعم، أو الحاق أي أذى بالعدو، وهذا ما جعل القسم الأكبر من سفن أهل البندقية يقع بين أيدي أهل جنوى، الذين أحرزوا النصر، وكان ذلك في آذار عام ١٢٩٣، وبهذا الاسلوب، أو بما يشبهه لحقت الهزيمة بأهل البندقية قرب كورسولا Cursola في سلافونيا، والسبب هو أنهم استداروا بشكل صارت فيه أشعة الشمس أمام أعينهم، وكان تعداد اسطول جنوى هو ستين سفينة، وكان بالمقابل مع أهل البندقية نحو تسعين سفينة، لكن أحجام سفن الجنوية كانت أكبر من التي عند البنادقة، وعليها عدد أكبر من الرجال.

وفي عودة إلى موضوعنا ينبغي القول:إنه على قائد الاسطول المذكور، أن يتنبه— قبل الشروع بالقتال— فيدير ظهره هو وجماعته كلهم للشمس، فذلك يمنحه فرصة أفضل لحسن القتال.

فهذا ما وقع في مكان اسمه ميلورا Melora ، فلسرعة البنادقة بالهجوم، ولعزمهم الشديد، لم يتجنبوا مواجهة أشعة الشمس، التي كانت تجرح عيونهم وتؤذيهم باستمرار في أثناء القتال، ولهذا هزمهم أعداؤهم، وفي النهاية قهروا، وأحرز أهل جنوى الذين كانوا يديرون ظهورهم للشمس نصراً مؤزراً، وقد حدث ذلك في حوالي شهر آب سنة ١٢٨٢ للميلاد، ويؤكدون أن عدد سفن البنادقة كان حوالي التسعين، في حين بلغ عدد سفن الجنويين حوالي المائة.

فضلاً عن كل ما تقدم يلزم الاسطول ويفيده أن يوجه وفق الشكل التالي عندما يتقدم لمجابهة الأعداء: أن تبقى السفن منضمة إلى بعضها بعضاً، وأن تظل مجتمعة على نسق واحد، بحيث تكون لوحات

المجاذيف مقابلة لبعضها بعضاً، كيلا يترك أدنى مجال لأي من سفن العدو، للتمكن من التغلغل بأي شكل من الأشكال بين صف مراكب المسيحيين، وينبغي على ربان كل سفينة إطاعة أوامر القائد العام تحت طائلة فقدانه لحياته، وأن لايقدم على الانسحاب طالما المعركة لم تنته بعد، ويتوجب أيضاً على جميع المتدربين على الرماية من الموجودين في السفن، والمتدربين على القوس والنشاب، وكل المتبقين من أصحاب الوظائف كل بحسب مؤهلاته، أن يعملوا جميعاً بانتظام، حسبما يكون ذلك أفضل، وأعظم فائدة برأي المسؤولين.

ولايجوز لهم الاقدام على الانسحاب من مراكزهم قبل انتهاء المعركة، وذلك تحت طائلة العقوبة نفسها، وليكن أيضاً مع الجيش المذكور، أي في الأسطول نحو أربعة مراكب إشراف ومراقبة صغيرة تكون مهمتها بتكليف من الكنيسة الرومانية المقدسة، بحيث تسهر على بقاء الأسطول مجموعاً حسبما يرتئي القائد، ولتكن لدى الجيش خططاً متعددة للمعارك، فذلك أضمن للجيش المسيحي، مما لو ذهب إلى الحرب، وهو مزود بخطة واحدة.

وإذا حدث وكان عدد جيش المسلمين أو المنشقين أكبر عدداً، بحيث لا يمكن للجيش المسيحي مجابهته، فإنه لن ينسب إليه العيب إذا ما تراجع ولاذ بالفرار من أمامهم، فإن مهارة الخبراء تقضي حسب الظروف إما بالحرب، أو بالفرار، أو بالمطاردة، وهذا ما يمارسه التتار بالفعل، وهم الذين استولوا بهذه الطريقة على جزء كبير من العالم، لذلك يلزم أن يعمد القائد العام للجيش المسيحي، إلى إعطاء شارة معينة، يجري تعميمها على جبهة تقضي بالرد فقط على من يهاجمهم، وأن لا يتفرقوا إطلاقاً، وتصدر الأوامر بشكل خاص إلى الرماة بالنشاب في كل الجيش المسيحي ليتدبروا ما يناسب عمله في مثل هذه الظروف، عندما يباغتهم العدو ويقترب منهم، ومن المعروف أن نبال المنسحبين

ونشابهم، وهم هاربين تجرح الأعداء، بينما نبال العدو هي بدون جدوى في أثناء المطاردة.

لهذا، لن يتعـــرض الجيش المسيحي — بإذن الرب — للخطر إلاّ نادراً، ما دامت السفن موائمة كما ذكرنا، وإذا حدث وقامت سفننا بمطاردة سفن الأعداء، فيلزم وقتها التنبه وأخذ الحيطة، بأن تتقدم السفن التي هي أخف من على الجوانب، وأن تضغط على العدو وأن ترميه من أقرب مسافة ممكنة، وأن تتصرف بالشكل الذي تراه هو الأنسب، وإنه لمن الضروري والمفيد والحسن، أن يكون في كل سفينة من السفن — طوال مدة بقاء الأسطول في البحر ليلاً — وفي كل مركب من المراكب علامة متفوقة خاصة، يوزعها القائد عليهم، حتى إذا تغلغل بينهم أي غليون أو أية سفينة للعدو، يتعرف عليها الباقون، وإذا ما بقي الأسطول ليلاً في أحد المرافىء، ينبغي تخصيص بعض السفن — ما عدا أثناء المناخ العاصف — للحراسة باستمرار، ولا يجوز إهمال تلك الخفارة بدقة على الإطلاق، كذلك على القائد العام في النهار، أثناء توقف الأسطول في أحد المرافىء أو قرب أرض صخرية، أن يفرز من السفن المعدة للمراقبة خفراء ينزلهم إلى اليابسة، حتى يستطلعوا جميع الجهات، من البحر، وعلى اليابسة، ويؤمنوا السلامة الكاملة لأسطولهم، فإذا ما شاهدوا أحداً يحاول التقدم نحو الأسطول ليلحق به الأذى ، ترسل فرقة المراقبة تلك إشارات معينة إلى الأسطول، ثم تهرع نحوه، وتعطي الإشارات مجدداً، كي لا يلحق أي أذى بسفن الأسطول، أو بالذين يجوبون تلك المنطقة، ولكي يتأهب الجميع لإلحاق الهزيمة بالعدو.

ولا يجوز مطلقاً إهمال أمر مهم جداً، وهو تأمين مياه الشرب لرجال الجيش، وينبغي إيلاء هذه المهمة كامل العناية، وتخصيص جماعة تتولى تأمين هذه المياه، وقد تقدم وهلكت جيوش كثيرة وكبيرة بسبب فقدانها

للماء، ويتوجب أيضاً تأمين الحطب لطبخ الأطعمة لكل من في الأسطول، فبدون ذلك لن يتمكن الجيش من نيل أطعمته، وفي الحقيقة كثيرة هي الاحتياطات التي يتوجب على القائد التنبه إليها، من تنظيم وترتيبات واحترازات، يطول بنا المجال هنا لوصفها وشرحها، علماً بأن الكثير المهم بهذا الشأن قد تمّ تبيانه وشرحه هنا أو هناك، وسيكون مفيداً أيضاً ونافعاً أن يكون مع القائد العام رجال حكماء، ذوي نزاهة، ولديهم دربة ومراس على هذه المواضيع المتقدمة الذكر.

الفصل الخامس والعشرون: وصف المناطق البحرية الخاضعة للسلطان، وأسماء الشواطىء والمراسي البحرية، والجزر، والفوارق بين مكان وآخر، مع وصف للشواطىء التونسية التي هي امتداد بحري لها.

من مرعش إلى الاسكندرونة خمسة عشر ميلاً، إذا ما أبحرنا بريح شرقية، وتقع مرعش حالياً عند الحدود بين أراضي ملك أرمينية وأراضي السلطان، ومن الاسكندرونة إلى أرسوز، بريح غربية وباتجاه الجنوب، والمسافة عشرة أميال، ومن رأس الخنزير إلى مصب نهر العاصي، باتجاه جنوب شرق، عشرين ميلاً، ويصب العاصي في السويدية على ساحل جبل اللكام، ومن ميادون على بعد نصف ميل من مصب العاصي حتى الوادي المسمى تاندرا عشرة أميال باتجاه الغرب، وفي ذلك الوادي مرسى اسمه قرابجاك، ومن مصب العاصي حتى برج الإسلام عشرين ميلاً باتجاه الغرب، ومن برج الإسلام حتى رأس البسيط عشرين ميلاً باتجاه الجنوب الغربي، ومن رأس البسيط إلى اللاذقية عشرة أميال باتجاه الشرق، وللاذقية ميناء جيد تغلقه سلسلة، ولهذا الميناء مدخل من جهة الجنوب، وعند مدخله باتجاه الجنوب يوجد أيضاً برج يدعى برج أوغاريت، وهو محصن من جهة الغرب، ومن مرفأ اللاذقية إلى مصب نهر السن باتجاه الجنوب عشرة أميال، ومن مصب هذ النهر إلى بانياس خمسة أميال باتجاه الجنوب، ومرسى بانياس

مرسى صالح، ويفتح من جهة الجنوب، ومن بانياس إلى حصن المرقب خمسة أميال، والمرقب قلعة حصينة، باتجاه الجنوب،وهذا هو ساحل سورية، أي شواطئها البحرية: من المرقب إلى طرطوس باتجاه الجنوب الغربي عشرين ميلاً، ومن أوغاريت المتقدمة الذكر إلى طرطوس باتجاه الجنوب أربعين ميلاً، ولمدينة طرطوس ميناء جيد، ينفتح من جهة الشاطىء على جزيرة أرواد، ويمكن التوقف هناك نحو الرأس من جهة الجنوب، كما يمكن الدخول إلى ذلك المرفأ من كل الجهات، ويبعد هذا المرفأ عن اليابسة مقدار ميلين تقريباً.

ومن طرطوس، وكانت قديماً مدينة مشهورة إلى طرابلس، باتجاه الجنوب الغربي عشرين ميلاً، ولطرابلس ميناء جيد، ومقابل ذلك المرفأ، وعلى مسافة أربعة أميال توجد عدة جزر، اسمها جزيرة الأرانب، وإذا حدث ووصل إنسان إلى ذلك المرفأ، فليترك تلك الجزر باتجاه الجنوب، ويبتعد عنها باستدارة واحدة ونصف، ثم ليتجه شرقاً على مسافة ميل واحد،ثم باتجاه الجنوب مسافة ميلين، فسيجد بقعة صخرية القعر، فليتخذها مرسى، وهذا المرسى بعمق ثلاثة قامات، ولينتقل من هناك نحو الجزيرة، بمقياس مقداره طول الحبل الذي يربط السفينة باليابسة، وفي داخل الأرض الواقعة خلف طرابلس، هناك جبال عالية جداً، توجد عليها الثلوج باستمرار.

ومن طرابلس حتى أنفة(نفين) خمسة أميال باتجاه الجنوب، ومن أنفة إلى بئر خليج الهري خمسة أميال باتجاه الجنوب، وهذا الخليج ملجأ صالح، وهو رأس متوضع في البحر، واسم هذا الرأس، رأس شقعة، ومن رأس شقعة إلى البترون ستة أميال باتجاه الجنوب، وفي جبيل مرفأ للمراكب الصغيرة، وهو مقفل بسلسلة، ومن جبيل إلى بيروت خمسة عشر ميلاً، باتجاه ربع دائرة جنوباً، وعند ذلك الرأس باتجاه الشرق توجد مدينة اسمها بيروت، وفيها قلعة...، وقريباً من هناك يوجد نحو

الشرق ميناء صالح، وعلى ميل باتجاه شمالي غربي هناك جزيرتان مع مرفأ، ويجب الابحار مروراً بميل واحد بعيداً عن رأس تلك الجزيرتين، وعند مدخلهما نحو الشمال الغربي، يقابل مرفأ بيروت جزيرة الزيري، وهو يبعد عنها عشرين ميلاً باتجاه الجنوب، ومدخل مرفأ هذه الجزيرة نحو الغرب، ومن الممكن إلقاء المرساة هناك والتوقف.

أما المرفأ المقابل لليابسة، فمدخله من جهة الجنوب، وهو قليل العمق، وفوق الزيري توجد منطقة صيدا، وهناك جبل يسميه العامة مذراة صيدا.

ومن صيدا إلى الصرفند جنوباً مع ربع استدارة عشرة أميال، ومن الصرفند إلى صور خمسة أميال، ولصور مرفأ صالح، لكن هناك عدة صخور باتجاه الجنوب، ينبغي تجنبها من جهة الجنوب، حيث ينبغي على الجميع الدخول من جهة الشمال، أي من عند الصخرة المعروفة من جهة الغرب، مع الابتعاد عن تلك الصخور باستدارتين ونصف الاستدارة، ويجب أخذ الحيطة لأنه عند جميع هذه الممرات العمق قليل، ويمكن باستدارة واحدة البقاء هناك قرب أسوار تلك المدينة، التي تعرف باسم مدينة صور، ويرى القادم من البحر تلال صيدا من جهة الغرب، ثم جبالاً عالية، يسميها العامة لبنان، وهي تمتد نحو الجنوب.

ومن صور إلى البياضة(الرأس الأبيض) عشرة أميال باتجاه الجنوب، وهذا الرأس مرتفع، ويليه أيضاً جبال عالية جداً، يسميها سكان تلك المنطقة بلينا Bellina ، ومن رأس البياضة إلى عكا عشرة أميال باتجاه الجنوب حتى الوصول إلى صخور خلف قلعة لمبرتو(حمصين — قرب الناقورة)، ثم تنحرف إلى الجنوب الغربي من تلك الصخور، حتى مدينة عكا، حيث هناك خليج جاف طوله حوالي الثلاثة أميال، ولعكا مرفأ هو عند رأس، يمكن الوصول إليه باستدارة واحدة، وإلى الشرق منها برج الذبان، ومن أراد القدوم إلى هذا المرفأ، عليه القدوم بحراً من

بعيـد، من عند بيعة القـديس اندراوس، ويبقى بخط مستقيم حتى يرى البيت الذي كـان يسكنـه فـرسـان الاسبتـارية في بـرج الذبان، وآنذاك يمكنه أن يأخـذ طريقـه إلى داخل ذلك الميناء،وإذا أراد اجتيـازه حتى يصل إلى قلعـة حيفا، فعليـه أن يوجه نصف مقـدمة السفينة نحـو تلك القلعة، ونصف مؤخرتها نحـو برج الذبان، وبهذه الطريقة يمكنه دخول الميناء بأمان، ومن أسـوار تلك القلعة حتى مـوقع الكرمل عشرة أميال، والكرمل جبل مـرتفع، وهو مستطيل الشكل في مقـابل البحـر، ويظهـر وكأنه جزيرة طويلة، ورأسه فوق البحر، وهو يتجه نحو الجنوب، وعلى قمته كنيسة اسمها كنيسة القديسة مرغريت، ومن جهة الشمال بقعة تمتد على طول ميل واحد.

ومن جبل الكرمل حتـى عثليت(قلعـة الحجـاج) خمسـة أميـال باتجاه الجنوب، ومن عثليـت إلى قيسـارية عشريـن ميـلاً بـاتجاه الجنوب، ومن قيسارية إلى أرسـوف خمسة عشر ميـلاً باتجاه الجنوب، ومن أرسوف إلى يافا، باتجاه الغرب، عشرة أميال.

ومن جبل الكرمل حتى دميـاط، لا يوجـد عند الشـاطىء أي جبل، وكلها أرض منبسطة، فيها صخور رملية بيضاء.

وأما في داخل البلاد صعوداً من الشاطىء، فهناك جبال اسمها جبال القـــدس، ومن الممكـن رؤية هذه الجبـــال حتـى جبل الكـرمل على سلسلتين.

الشواطىء البحرية الممتدة من يافا إلى دمياط

أولاً: من يافا إلى قلعة أشدود، باتجاه الجنوب عشرة أميال.

ومن أشدود حتى عسقلان عشرة أميال، باتجاه الجنوب الغربي.

ومن غـــزة إلى الدارون(دير البلح) خمسـة عشر ميــلاً باتجاه الجنوب

الغربي.

ومن دير البلح حتى رأس أشـدود ثلاثين ميلاً، وذلك من عند خـان يونس باتجاه الغرب.

رأس أشـدود إلى آخر خليج خـان يونس ثلاثين ميـلاً باتجاه الشمال، ومن ذلك الرأس باتجاه شمال غـربي ثلاثين ميـلاً، ومن ذلك الرأس إلى رأس رفح باتجاه الغـرب ثلاثين ميلاً، وعند هذا الرأس خليج يستـدير على مسـافـة عشرين ميـلاً، ومن رأس رفـح إلى العـريش باتجاه الغـرب خمسين ميـلاً، ومن العريش إلى الفـرمـا باتجاه الغرب ثلاثين ميـلاً، ومن العـريش إلى نهر تنيس خمسـة وعشرين ميـلاً، ومن نهر تنيس إلى دميـاط خمسة وعشرين ميلاً وربع درجـة شمالاً، ودمياط هي مدينة لها نهر كبير، لون قاعه أحمر، وعمق مصبه عندما تكون المياه شحيحة لا يقل عن ستة أذرع، لكن عندما تكون الميـاه قوية، وقتها يقدر العمق بنحـو أحد عشر ذراعاً، ويقتضي الابحـار من مدينة عكا إلى دميـاط، باتجاه الغرب، قطع مسافة قدرها مائتين وخمسة وسبعين ميلاً.

الشواطىء البحرية من دمياط إلى الاسكندرية

أولاً: من دميـاط حتى بحيرة نستراوة(البرلس) باتجاه الغـرب سبعين ميـلاً، ومن البرلس إلى مصب نهر نستراوة شـاطىء يمتـد على طول ثلاثين ميلاً غرباً، وهذا الشـاطىء مستدير، ويلتف على ثلاثين ميلاً، وله مصب عـريـض، وعلى بعـد خمسـة أميـال باتجاه الشمال من مصب نهر نستراوة إلى مصب نهر رشيـد أربعين ميـلاً بـاتجاه الغـرب، ونهر رشيـد كبير، وعمق المياه فيه عشرة أذرعة، وحـوله أراضي جافة كثيرة، وعندما ترتفع مياه ذلك النهـر فإن عمقه يبلغ خمسة عشرذراعـاً، ومن رشيد إلى جـزيرة أبي قير خمسة وعشريـن ميلاً غـرباً، وعلى تلك الجزيرة برجـان، بالقرب منهما مجال صالح للنزول.

ومن أبي قير إلى مدينة الاسكندرية ثمانية عشر ميلاً باتجاه الغرب، والاسكندرية مدينة كبيرة وجميلة، لها من الجهة الخارجية صخرة متقدمة، تضربها مياه البحر يومياً، وعلى ظهر تلك الصخرة برج يسميه الناس المنارة، وهي التي تسمح بمعرفة موقع المدينة.

فإذا قدم أحد بحراً من الشرق أو من الشمال، يمكنه أن يرى تلك المنارة، كذلك إذا قدم إنسان من الشمال الغربي، يمكنه أيضاً رؤية برج تلك المنارة، وأما المدينة فلها مرسيان، الأول شرقي، ويشرف عليه ذلك البرج، ومن يصل إلى المرسى يمر بجوار صخرة يسميها الناس ميمون Memon ، وهي مجاورة لبرج المنارة، ومن ثم يذهب باستدراة واحدة، ويلازم تلك الصخرة على طولها، وهناك في الجنوب أرض جافة، ومن الممكن البقاء باستدارة واحدة نحو صخرة ميمون، والمرسى الثاني للاسكندرية هو من الجهة الغربية ومدخله من الشاطىء الغربي، ومن أراد دخول ذلك المرسى من ذلك الشاطىء، عليه مسايرة الشاطىء، لأن دخول ذلك المرسى يتم عبر أقنية.

والمسافة من عكا إلى الاسكندرية هي أربعمائة وأربعين ميلاً، باتجاه الشمال الشرقي من الريح الثالثة، وبالنسبة لنهر نستراوة، فإن لون قاعه أحمر، وعلى النهر بساتين نخيل تنتج البلح، ومن الاسكندرية حتى برج العرب، باتجاه الغرب، ثلاثين ميلاً، ومن برج العرب، إلى خليج العرب باتجاه الغرب خمسين ميلاً، ومن وسط خليج العرب إلى الخروبات بالاتجاه الشمالي الغربي أربعين ميلاً.

ومن الخروبات إلى التلال البيضاء عشرين ميلاً باتجاه الغرب، والعلامة المميزة للتلال البيضاء هي: ظهور أرض بيضاء مقسمة إلى تلال عدة، وهي تطل على الخروبات تلك من الشرق، حيث تشاهد قناطر كثيرة واسعة بين الأبنية المهدمة والصخور البيضاء، ويوجد على بعد ميلين من خليج رشيد جزيرة مسطحة، وهي إلى الشمال من

الصخــور البيضــاء ولها مــرسى جيــد، وله عمق مسطـح يبلغ ست خطوات، ومن الممكن الدخــول إلى الجزيرة وإلقـاء المرسـاة على أرض ثابتـة، ومن تلك الجزيرة إلى خليـج رشيـد عشرين ميـلاً، لمن يبحـر مع الريح الرابعة غرباً باتجاه الموقع المسمى Beleze .

ومن خليج رشيـد إلى مـرفأ السلطـان مـائـة ميل وعشرة أميـال من الشرق أيضاً، ولهذا المرفأ مـدخل ضيق، يتولى حراستـه جنود مسلمون، وهو في داخله عريض جداً، يمكن أن تصطف فيه سفن وغلايين كثيرة، ومـا بين ذلك الخليج وذلك المرفأ، لا يوجـد أي مكان يصلح للرسـو. والعمق سيء ومملوء بـالنتـوءات، وتمتــد هناك شــواطـيء مسطحــة ومساحات جافة كثيرة.

ومن مرفأ السلطان إلى جـزيرة الحمام عشرة أميال، باتجاه شمالي غربي، وهي في داخل البحـر على مسافـة ميل من الشـاطيء، ومدخلهـا شرقي شمالي والفتحـة التي يمكن الدخـول عبرها من الغـرب، ولها شـواطيء كثيرة جافة، وتمتد هذه الشواطيء الجافة من الساحل حتى تلك الجزيرة، والفتحة التي يمكن الدخول عبرها من الشرق نظيفة، ويلزم السير منها إلى الجزيرة قطع مسـافـة ميل ونصف الميل، ومن الزاوية الشرقيـة يصل العمق إلى عشر خطوات، وينبغي الانتظار بعيـداً عن الجزيرة، مع إعطاء استـدارتين للغـلايين، وهذه الصخـور محميـة ضـد كل الرياح، باستثناء الريح الشرقية التي تهب من الشاطيء، وتلك الجزيرة مسطحة ولاتظهر إلاّ عن بعـد عشرة أميال في البحر، ولا يمكـن معرفتها إلاّ مـن خلال قصر موجـود على الشاطيء من جهـة الشرق، وإذا قدم أحـد من البحر إلى الشاطيء، فإنه يجد المياه العذبة في تلك الجزيرة.

ولايوجـد من جـزيرة الحمام حتى رأس رمـدا Rameda أي مكان يصلح للرسو فيـه،لأنه تنتصب هناك مرتفعـات جبلية من جهـة البحر، ومن جـانب الجزيرة على طول شـاطـيء البربر، ومن رمـدة حتى مـرفأ

السلوم عشرين ميلاً، باتجاه جنوبي غربي، وهو مرفأ جيد، وله مدخل صالح، ومن مرفأ السلوم إلى مرسى مات Mat عشرين ميلاً، باتجاه غربي جنوبي، ومن مرسى مات إلى رأس لوقيا Luchia خمسة عشر ميلاً، باتجاه جنوبي غربي، ورأس لوقيا جاف ممتد نحو الخارج مسافة نصف ميل، ومن رأس لوقيا إلى مرفأ طبرق ستين ميلاً، مع ربع استدارة نحو الغرب، ولهذا المرفأ أرض جافة عند رأس سن، والذي يصل إلى المرفأ عليه أن يسلك جهة الشاطىء الشرقي، ومن ميناء طبرق إلى جزيرة البطريرك أربعين ميلاً، مع ربع استدارة نحو الشمال، ومن جزيرة البطريرك حتى رأس تيني ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال الشرقي، ولهذا الرأس امتداد من الأرض اليابسة مقداره نصف ميل.

ومن رأس تيني إلى الفوارة Faura عشرة أميال، مع ربع استدارة نحو الغرب، ومن الفوارة إلى فورسيللو Forcello عشرة أميال، مع ربع استدارة نحو الغرب، ومن فورسيللو إلى كارسي Carse عشرين ميلاً، باتجاه شمالي شرقي، ومن كارسي إلى بونندريا Bonandrea خمسين ميلاً باتجاه الشمال الشرقي ولبوننريا مرسى محمي من جميع الرياح باستثناء الريح الشرقية، ومن بوننريا إلى جزيرة سوسة عشرين ميلاً، من جهة الشمال الشرقي، وهذه الجزيرة مكان صالح للرسو.

ومن جزيرة سوسة إلى رأس هاينة عشرين ميلاً من جهة الشمال الشرقي، وتنصب من رأس تلك الجزيرة في البحر أربعة أنهار مياه عذبة، ومن رأس هاينة إلى طلميثة مائة ميل من جهة الشمال الشرقي، وعند رأس طلميثة صخرتان صغيرتان، ومن طلميثة إلى برنيق(بنغازي) سبعين ميلاً مع ربع استدارة نحو الجنوب، وفي برنيق ميناء جيد، ويوجد على مسافة نصف يوم من الميناء بقعة يابسة، ومن يريد دخول ميناء برنيق هذا عليه أن يساير الشاطىء الشرقي.

الفصل السادس والعشرون: وصف للمناطق البحرية الواقعة تحت

سيطرة ملك أرمينيا وصولاً إلى المناطق الخاضعة للسلطان، وكذلك المناطق التابعة لتركيا من جهة الشمال.

من مرعش إلى جبل كايبو Caybo عشرين ميلاً باتجاه الشمال، ومن جبل كايبو إلى لايكيوم Laiacium خمسة عشر ميلاً غرباً، ومن لايكيوم إلى مرفأ المجاذيف عشرة أميال غرباً، وأمام لا يكيوم قطعة أرض يابسة يمكن تسميتها رأس، ومن الممكن الاستدارة حوله ورمي المرساة والتوقف، ومن مرفأ المجاذيف إلى مصب نهر جيحان عشرة أميال غرباً، وجدير بالذكر ينبغي أن يكون الاقتراب من رأس مرفأ المجاذيف على مسافة نصف ميل، ومن أراد الدخول إلى ذلك المرفأ سيجد هناك انفراجاً يبقى دوماً مفتوحاً، وليحذر من التقدم كثيراً من رصيف ذلك المرفأ.

ومن مصب نهر جيحان إلى مالو عشرة أميال باتجاه الشمال — الغربي، ولمالو ميناء أمامه جزيرتان صغيرتان تبعدان ربع ميل عن اليابسة، ويجب الاستدارة عندها، وإلقاء المرساة حتى قعر الأرض الصلبة، حيث عمق المياه هناك خطوتين أو ثلاث خطوات.

ومن مالو، وهي نوع من أنواع القلاع إلى مصب نهر أذنة عشرين ميلاً باتجاه شمالي غربي، ومن مصب نهر أذنة إلى مصب نهر طرسوس عشرين ميلاً باتجاه الشمال الغربي، ومن مصب نهر طرسوس(البردان) إلى كركوم Curcum إلى الصخرة عند مصب نهر سيحان عشرة أميال باتجاه الغرب، ومن نهر سيحان إلى لينا دي لاباغاكسا Lena de Labagaxaعشرة أميال بالاتجاه الشمالي الغربي، وتلك البقعة منبسطة جداً، وفي قعرها رمال، ومياهها في البحر قليلة على مسافة ميل.

ومن لينا دي لا باغا كسا إلى مرسى بينو Pino خمسة عشر ميلاً باتجاه جنوبي شرقي، والمرسى واسع، وله قعر جيد، ومن مرسى بينو إلى

ميناء الفـرسان عشرة أميـال مع ربع استدارة نحـو الغرب، وفيـه مكان للرسو، وله قعر جيـد، ومن مرفأ الفرسان إلى مـرفأ رأس برودنساليوم، Prodensalium خمســـة عشر ميــلاً، وهذا الـرأس بالاتجاه الشمالي الشرقي، ولهذا الرأس مكان داخلي للرسو، قعره عميق جداً، وعند ذلك الرأس أسوار مما يجعله مناسباً للرسو.

ومن رأس برودنســاليوم حتى سقـوين Sequin عشرين ميلاً، مع ربع استـدارة غرباً، ويلزم تثبيت المراسي، وأن تكون محميـة من الرياح، وفيهـا نهر يصب هناك في البحر، ومن سقـوين إلى ستالليمـوري -Stal limuri عشرين ميلاً باتجاه الشمال الشرقـي، وهناك يمكن إلقاء المراسي، حيث تكون محمية من الرياح.

ومن ستـالليموري إلى كـالاندرو Calandro ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال الغربي، وفيها ميناء جيد، ومن كالاندور إلى سلمودا Salmoda خمسـة وعشرين ميـلاً باتجاه الشمال، ومـن سلمـودا إلى أنطاكيـة عشرين ميلاً باتجاه الشمال، ومن أنطاكيـة إلى قلعة اللومبارديين خمسـة عشر ميلاً باتجاه الشمال، ومن قلعـة اللومبــارديين إلى كـــانديلورو Candeloro عشرة أميـال باتجاه الجنـوب الشرقي، ولمدينة كـانديلورو مـرسى جيـد محمي من الرياح الغـربة، ومن كـانديلورو إلى رأس القـديس فـوكـاس ثلاثين ميلاً باتجاه الشمال الغربي.

ومن رأس القـديس فوكـاس إلى أضاليـا القديمة أربعين ميـلاً باتجاه الغرب، ومن أضاليـا القديمة إلى أضاليـا الجديدة أربعين ميلاً مع الريح الشرقية، وأضـاليا الجديدة مـدينة كبيرة، ولها في مقـابلها بقعة صخـرية على مسافة ثمانية أميـال، واسمها أغوباندي Agopandi ، وفيها موضع للرسو.

ومن أضـاليـا الجديدة إلى ريناثيـا Renathia خمسـة عشر ميــــلاً،

ولأضـاليـا الجديدة مـرسى جيـد في داخل البحـر، وهو محمي، ويصب عنده نهر، ومن ريناثيـا إلى كبيرمـايوت (البند البحـري) عشرة أميـال، وهناك مـرسى جيد في جزيـرة، وهو مأمون من جهـة البحر واليـابسة، وفيه ميـاه نهر غزيرة، ومن كبيرمايوت إلى مـرسى الجنوية عشرة أميال، وهو مرسى أمين يتجنبه الأتراك من جهة البحر واليابسة، وعلى شواطئه مياه نهرية وافرة.

ومن مـــرسى الجنـوية إلى شيبـــاسكو Chipasco ثمانية أميال، وهناك مـرفأ جيد ونهر، لكن ينبغي أخـذ الحذر مما يمكن أن يحدث من جهـة اليابسـة، ومن شيبـاسكو إلى كامبروكسـا Cambruxa ستة أميال، وهناك مكان للرسـو، ومياه بكثرة، وتقابله جـزيرة في البحر على بعد ثلاثة أميال.

ومن كامبروسكا إلى رأس الخيلدونيين Childoniis عشرة أميال، لكن مكان الـرســو صغير، ولا مكان لإلقــاء المراسي، والذي نراه إن التوقف من جهـة البحر خطر، مع أنه آمن من جهة اليـابسة، ومن رأس الخيلدونيين إلى ميناء مـار اسطفـان ثلاثة أميال، وهناك مـرسى صـالح، ومياه غزيرة، لكن تبقى هناك ريبة من جهة الناس الذين على اليابسة.

ومن ميناء مار اسطفان إلى رأس فينيغيا Finighae خمسة عشر ميلاً، وهناك مـرفأ جيد بين صخـور الرأس، وهو قـريب إلى أرض فيها ميـاه عـذبة نهرية، وهناك خشيـة من جهة المنطقـة الداخليـة، وعلى بعد ستـة أميال من المرفأ قلعة كبيرة، ويسكن في الجبال المجاورة يونانيون وأتراك.

ومن فينيغيا إلى القديس نيقولا دي ستاميريس Stamiris خمسة عشر ميلاً، وهناك مرفأ جيد ومأمون من جهة البحر، وأما من جهة البر فيلزم الحذر، ومـدخل ذلك المرفأ جيـد، وتصب هناك في البحـر ميـاه غـزيرة وعذبة.

ومن القديس نيقولا دي ستاميريس إلى ككابوم Caccabum خمسة أميال، ولها مرفأ صالح، وبين الصخور مياه آبار، ومقابل المرفأ شاطىء رملي، ومن الضروري التـزام الحذر، بسبب شراسة السكان مـن جهـة البر، ومن ككابوم إلى جزيرة المهرولين Correntibus عشرين ميلاً، ولها مرفأ جيد للرسو، وأمين من جهة سكان البر، وفيها مياه آبار بوفرة، ومن جزيرة المهرولين حتى غيام Ghyam أربعة أميال، ولهذا الموقع ميناء صالح وأمين مـن جهة البحر، وحـذر من جهة البر، وتوجـد مياه على ضفاف النهر، ومن غيام إلى قلعة روزي Rozi خمسة عشر ميلاً، ولها مـرفأ صـالح، وميـاه وفيرة، ولا خوف من جهـة اليـابسـة، والمرفأ قريب من شاطىء رملي، وحوله أقسام كثيرة جافة، ومن قلعة روزي إلى جـزيرة بولسللي خمسـة عشر ميـلاً، وفيهـا ميناء جيـد وآمن من جهـة اليابسة، وإنما ليس هناك مياه عـذبة، وبين تلك الجزيرة والأرض اليابسة هناك أقسام صلبة بعمق ثلاث قامات تحت الماء.

ومن جـزيرة بولسللي إلى ميغـراديكو Megradico تحت بترا Patra خمسـة عشر ميلاً، ولها مـرفأ صـالح من جهة الشرق، لكن الماء معـدوم فيهـا، وينبغي أخـذ الحذر من جهـة اليـابسـة، ومن ميغـراديكو إلى برديكيـــاس Perdichias ثلاثين ميلاً، وفيها ميناء، صالح ومياه غزيرة، ولا خوف من جهة الأرض، ومن برديكياس إلى القديس نيقولا دي ليوكسو أربعة أميال، وهناك ميناء صالح، ومياه وفيرة، ولاحذر من أية جهـة من الجهات، ومن سـان نيقولا دي ليوكسـو إلى رأس تراكيلو Trachilo خمسة أميال، ولا خوف من جهة اليابسة.

ومن تراكيلو إلى ميناء منطقة ماكري Macre خمسة عشر ميلاً، وهذا الميناء ميناء جيد، والأرض صلبة عند مـدخل المرفأ على عمق قامتين أو ثلاث، وميـاه الشرب هناك غـزيرة، ولا خـوف على الاطلاق من جهـة البر، ومن ماكري إلى جزيرة كوبي Copi عشرة أميال، ولها ميناء صالح

وآمن سـواء مـن جهـة البحـر أو من جهـة البر، وفي الجزيـرة ميـاه آبار وفيرة، ومن كوبي إلى جزيرة غويا Guia عشرين ميلاً، ومن غويا إلى بريبيا Prepia عشرين ميلاً، ولها في الصيف مـرفأ صالح، وآمن من جهـة اليـابسـة، وبعـد ذلك يصير الـدخـول إلى نهر عمق ميـاهه سبعـة قـامـات، وبهذه الطريقـة يصير الضغط شـديـداً على السفن التي تحمل الأخشاب إلى مصر.

الفصل السـابع والعشرون: حـول دور الصليبيين المأجـورين من قبل الكنيسـة الرومانيـة المقدسـة، لدى نزول الجيش المسيحي على الشـاطىء المصري، وحـول ضرورة الاستيـلاء على نهر النيـل، وتبيـان لكيفيـة الاستيـلاء على جـزيرة رشيـد، وكم ينبغي أن يبلغ تعـداد أولئك الصليبيين، وفيه إيضاح على أن من المتـوقع منطقياً اضطرار المسلمين إلى التخلي عن أرض مصر للمسيحيين.

وينبغي الآن الشروع بالتفكير بعمق، والتأكد مما سـوف ينجزه جيش المتطوعـون الصليبيـون وكـذلك الذيـن جندتهم الكنيسـة المقـدسـة من الأموال التي تبرع بها المؤمنون لأجل الحملة الصليبيـة، حسبما ذكرنا من قبل، فبعـد أن تكون الدعـوة إليهـا قـد بدأت في جميع أقطار العـالم المسيحي، وعندما سيجد الجيش نفسه مستعداً ومجهزاً بالسفن، وبكل ما يلزم أو يفيـد المقاتلين، وبعـد أن يكون قـد تزود بالمياه العـذبة سينطلق وقـوامـه بدون تمييـز خمسـون ألفـاً من الرجـالة، وألفـان من الفـرسـان الملتـزمين مقـابل أجـر، وخمسـة عشر ألفـاً من الرجـالة مع ثلاثمائـة من الفرسان الذين أتينا على ذكرهم في القسم الأول من الكتاب الثاني هذا، والأمل بالرب، والاتكـال دون أي شك عليـه، أنهم بعـونه، وهوالذي يقوم باسمـه المشروع، لابد من أن يسيطروا على مصب نهر النيل، وبعد سقوط مصب نهر النيل والاستيلاء عليه، سيتمكنون على الفور، وبدون جهد، من الاستيلاء على جزيرة رشيد، وهي ذات أهمية عظمى، وبدون

تأخير سيكون بإمكانهم بناء قلعة حصينة، ومن ثم يقيمون فيها كما يطيب لهم، وينفذون ما يرونه مناسباً، خصوصاً بالنسبة للمنطقة العليا القريبة من القاهرة ومن قلعتها، وبناء عليه يتوجب النظر أنه بسبب التنظيم الجيد، والتخطيط الموفق، والقوة الضاربة عند جيش الصليبيين وأسطولهم، سوف يتم في وقت قصير الاستيلاء على ما تبقى من الأقاليم المصرية، وتصير مصر خاضعة لقداستكم، وإذا لم تتمكن قداستكم من حشد العدد المذكور أعلاه، فإنه بالإمكان اتمام مشروع مصر بوساطة أربعين ألفاً من الرجالة، وألف من الفرسان، تكون أجورهم، كما بينا من قبل، هذا إذا بقي الوضع على النيل مثلما هو اليوم، وقد يعترض معترض فيجادل قائلاً: بعملك هذا أنت تفكر أنك تؤمن مصالح التتر وبالتالي ستستميلهم إليك، لكنهم قد يأخذون منك موقفاً معادياً لأن قسماً كبيراً منهم قد انقلب إلى عقيدة محمد(ﷺ)، وقد يقدم هؤلاء التتار إلى مصر لنجدة أهل هذه العقيدة، ومساعدة تلك الملة، وهم أيضاً منتشرون في مناطق عدة من المشرق، وهؤلاء سوف يهبون أيضاً للمساعدة وتقديم العون، ومثلهم سيفعل العرب، وبعض المسلمين في أفريقيا، فهؤلاء جميعاً سوف يقدمون بالذات، أو سوف يرسلون الامدادات إلى المصريين.

وعلى مثل هذا الاعتراض يمكن أن نجيب:

إنه بعون من الرب، ينبغي منطقياً احتلال نهر النيل بهذا العدد من المقاتلين، بفضل تنظيمهم ومعداتهم، حسبما تمت الإشارة إلى ذلك من قبل.

وإذا ما امتلكوا السيطرة على ذلك النهر، فإنهم سوف يحتلون جلّ أرض مصر، ولسوف يدمرونها برمتها تقريباً، وعلى الرغم من وجود هذا العدد الكبير من المسلمين في مصر، فإن العملية الحميدة سوف يتم إنجازها بسرعة خاطفة، وبعد هذا لن يتمكن المصريون من حراسة

مصر ولا الدفـاع عنهـا. لأن المسيحيين سـوف يحطمـونهم ويبـددون شملهم، خاصة وأنه لن يعود لدى المسلمين إمكانية التموين، والحصول على ما يلزمهم للعيش، ولن يكون بالإمكان نقل المواد الغذائية إلى مصر عن أي طريق من الطرق بسبب مـا حـولها من صحـارى، كما لا يمكن لمصر أن تستنجـد عن طريق البحـر، لأن مفـاتيح البحـر بيـد جماعتكم، فهي التي تؤمن الحراسة والحماية، ولن تصل الإمدادات إلى المصريين من أعـالي النيل، ولا من النوبـة، ولا من أي مكان آخـر بالكميـات التي يحتـاجهـا سكان مصر، ووقتهـا لن يبقى أمـام المصريين من مجال سـوى الانسحاب وإخـلاء تلك البلاد بسبب الجوع، ويتضح من كل مـا تقدم أن الكفـرة عـاجـزون عن المدافعـة عن الأرض المصرية، أو مجابهة قـوة حشـودكم القـادمة بالأعـداد المذكـورة، وإذا تفضل الرب القـدير على شعبكم أن يتم بإخـلاص الأعمال التـي رجـاله بصـددها، أي أن يحتلوا مصر باسمكم ولحسـابكم، فإنهم سـوف يتمكنون مـن استغـلال كنوز تلك البـلاد، بشكل لا يمكـن تصـوره أو التعبير عنه، ذلك أن أرض مصر بالذات فيها منتوجـات جمة، وتمر عبرها من مختلف المناطق بضائع ضخمة قادمة من الهند، حيث تصل إلى مصر، ومن هناك تصدر بسهولة إلى البلدان الغـربية، وبفضل رضـاكم سوف يبقى في مصر العـدد الذي تريدونـه لتـولي الحفـاظ على الأرض المكتسبـة، بحيث يصير الحال أنه ليست أرض الميعاد المقدسـة فقط، التي رزحت طويلاً مستبعدة من قبل الكلاب، ودفعت الجزية للمسلمين، سـوف يحررها جيشكم — بعـون الرب — بالقـدرة والعنف، بل إن بـاقي الكفـرة والمنشقين سـوف يخضعون بدون شك للسلطة المسيحية، وسيعـودون — بعد تركهم كلياً لمفـاسدهم وتخليهم عن انشقـاقهم، شـاءوا أم أبوا إلى عبادة اسم يسـوع المسيح، بينما يطاردهم سيف الصليبيين.

وإذا مـا تفضل أحـدهم وسأل مستوضحـاً بدقـة: كم ستكون كلفـة

هؤلاء الفرسان والرجالة، بما في ذلك الأجور والمؤن وغير ذلك، في كل شهر، وكم ستكون كلفة السنة الأولى؟ أجيب بكل احترام: يكلف كل واحد من ثلاثين ألفاً من المسلحين ثلاثة فلورينات ذهب شهرياً، أي ما مجموعه تسعين ألف فلورين ذهب لهم جميعاً كل شهر، ويضاف إلى هؤلاء عشرة آلاف رجل، كل واحد منهم يساعد الآخر، وكلفة الواحد منهم خمسة فلورينات، أي أن مجموعهم تبلغ نفقاته خمسين ألف فلورين، وسوف تكون نفقات إطعام أربعين ألف مقاتل بالشهر الواحد عشرين ألف فلورين، أما الفرسان فمن الممكن حساب تكاليفهم مع الأجور والإطعام والأعلاف للخيول بثلاثين ألف فلورين ذهب كل شهر، أما بالنسبة للرسل الذين سوف يبعثون إلى التتار، مع ما سيحملونه من هدايا، فيمكن تقدير كلفة ذلك بخمسة آلاف فلورين شهرياً، وهكذا يكون المجموع العام شهرياً مائة وتسعين ألف فلورين أي في السنة اثنتين وعشرين مرة ضعف هذا المبلغ، ويبلغ ذلك كله ١٨٠,٠٠٠ فلورين، شرط — كما قلنا من قبل — أن يكون الناس من الصنف الجيد، أما نفقات السفن والأخشاب لصنع المساكن، والأسلحة، والتجهيزات كلها، للمحافظة على الجيش الموسوم بشارات الصليب، فإن ذلك قد يرتفع إلى مبلغ قدره ٢٠٠,٠٠٠ فلورين ذهب، وإذا ما أضفنا إلى هذا ما يصرف للأساقفة والرهبان، والكهنة العلمانيين، وللمرضى وللنساء وللغرباء، وغير ذلك من النفقات الواجب صرفها بكرم وسخاء، عندما يكون ذلك مناسباً، فلربما تصل النفقات في السنة الأولى إلى ٣٢٠,٠٠٠ فلورين، ولدى حديثي عن إطعام أربعين ألف رجل، فإن من المنطقي والطبيعي أن يكفي ذلك الإطعام خمسين ألف رجل،فيكون المبلغ الإجمالي العام ثمانية وعشرين مرة مائة ألف فلورين في السنة الأولى، إنما في السنة التالية، فالأمل بالرب، أن يكون مشروع مصر قد انتهى، ولن يكلف هؤلاء الرجال وسفنهم أكثر من اثنتين وعشرين مرة مائة ألف فلورين ذهب، وذلك لأسباب عدة، يمكن

الإشارة إليها في الوقت والمكان المناسبين، وبذلك تكون الكلفة الكاملة للسنتين خمسين مرة مائة ألف فلورين ذهب، على أساس أن قيمة كل فلورين — كما أوضحنا في القسم الأول من كتابنا الثاني هذا — تساوي سولديان فضة كبار من نقود البندقية، وهذا يكفي منطقياً، ويزيد عما هو مطلوب لإنجاز المهمات المذكورة.

الفصل الثامن والعشرون: أسئلة وأجوبة حول الاعتراضات المثارة ضد قدرة المسيحيين: أي هل سيستطيعون، بعد إخضاع أرض مصر، مجابهة قوات السلطان، لابل وقوات المسلمين جميعاً، ومن ثم متابعة العمل للاستيلاء على أرض القدس وسورية، وإيجاد حلول للمشاكل الناجمة عن مجاورة القدس وسورية، ووسائل اكتساب صداقة التتار.

ولعل هناك من يرتاب ويرغب في أن يسأل قائلاً: لقد عرضت وجهة نظرك حول طريقة الاستيلاء على مصر، وبينت كيفية ذلك، لكن، كيف يمكن احتلال الأرض المقدسة وسورية، وهذا هو الهدف الذي يجب أن يوجه إليه كل الانتباه، لا سيما وأنك لم تأت حتى الآن، إلاّ بشكل عام وعابر على ذكر هذا الهدف؟

هذا وإنه لأمر معروف لدى الجميع أنه لا في القدس ولا في سورية كلها أنهار وبحيرات وسباخ تجعلنا نعقد الأمل على إمكانية تنفيذ المشروع كما نرغب، وفق الطريقة الموصلة إلى نتيجة صالحة، كما قلت إنه سوف يحدث في مصر؟

وعلى هذا أجيب قائلاً: على كل مسيحي مخلص أن تكون لديه نية صافية ومجردة، وهدف رئيسي يبتغيه من هذا المشروع، وهو استرداد الأرض المقدسة كلياً، وإمكانية الحفاظ عليها بحالة آمنة ومزدهرة، ولهذا كله قلنا إنه ينبغي أن يبدأ المشروع من شواطىء مصر، فبدون ذلك لا مجال على الإطلاق لاحتلال الأرض المقدسة، ولا للحفاظ عليها بسلام

من قبل المؤمنين، أمـا بشأن مـا قيـل بأنه لا يوجـد في القـدس ولا في سـورية أنهار ولا سبـاخ يمكن لجيشنا أن يتغلغل من خـلالها حتى ينزل الضربات المدمرة من أجل احتلالها في النهاية، فنقرّ أن ذلك لا يخلو من الصحـة، لكن يوجد هناك أيضـاً البحر، فتلك المناطق قـريبة جـداً منه، ومدنها إمـا موجـودة أيضاً، على شـاطىء البحر، أو بأمـاكن قريبـة منه، وعبر ذلك البحـر من الممكن القيام بأعمال كثيرة تجر الويلات الجسيمـة على الأعـداء، هذا ولئن تمت الأعمال المذكـورة ونجزت، سـوف يتحتم على قداستكم الاحتفـاظ بعدد لايستهـان به من الفرسان ومـن الرجالة البـواسل من أجل الاستيلاء بقـوة على القدس وعلى سـورية، كما ينبغي الاحتفاظ كـذلك بأسطول بحري من أجل نقل الخيـول بوساطة السفن المسيرة بالمجـاذيف، وكـذلك لحمل بقية العتـاد اللازم إلى تلك القـوات ومجدداً يمكن الاعتراض والقول:

كم هو عدد الرجـالة، والفرسـان الذين ينبغي نقلهم إلى القدس وإلى سـورية، حتى يمكن التغلب برجـولة على الذين قـد يكونون هربوا من مصر، وعلى الذين في القدس وفي سـورية، وعلى جميع الذين يكونون قد احتشدوا من جميع بلدان الكفرة، وانضموا إلى من هم أصلاً سكان تلك البـلاد، مع العلم أن قوة التتـار عظيمة، وكـذلك باقي الأتراك المسلمين القاطنين في الشرق، وفي أفـريقيا، ولا سيما إذا شعـرتم أن قواتكم بدأت تتناقص؟

وعلى هذا يمكنني أن أجيب وأن أقـول بكل صـدق، مثلما قلت وأجبت مفصلاً في القسم الثاني من هذا الكتـاب، أي الكتاب الثاني: إذا قصد التتار أرض الميعاد وأرض سورية في أيام الشتاء، فإنهم في الصيف لن يكون ممكناً لديهم الاستمرار هناك بسبب شـدة الحر، الذي يسود في تلك البقـاع، وبسبب انعـدام المراعي، التـي لن تكون متـوفـرة لإطعـام مـواشيهم، ومن الممكن إعطاء الحكم ذاته بخصوص الأتراك وسـواهم

من الشعـــوب والأمم التي قـــد تأتي من الشمال لنجـــدة تلك الأرض، خـاصـــة أولئك الذين يتكلون في معيشتهم على الثـروة الحيــوانيـة، كما ذكرنا.

فضلاً عما تقـدم، إنه إذا ما قدم إلى أرض الميعـاد التتار أو غيرهم من الشعوب الغريبة عن تلك الأرض، لتقديم النجدة والمساندة للمسلمين، فإن قدومهم بالذات سينقلب إلى هلاك لهم، أكثر من أن يكون ذا فائدة، إذ أنهم لن يستطيعـوا أكـل غـلات تلك الأرض، وإفـراغهـا من المواد الغذائية.

وعلى العموم يتوجب على قائد الجيش الصليبي التصرف بفطنة، وأن يرى مـا ينبغي عمله بالمكان والزمـان المناسبين، فيجـوب المدن في فصل الصيف، ويتـولى إقـامـة الأماكن الدفـاعيـة وبـ.كل خـاص ورئيسي في المواقع القائمة على شاطىء البحر، وأن يضـع لحمايتها عدداً من الفرسان والرجـــالة، بأفضــل حـــال ، بحيـث تكون مهمتهم الذهـاب والإياب والتجـول حسب الـزمــان والمكان، وكما يطيب لـرغبـاتهم، فيتلفـــوا المحـاصيل والمواد الغـذائية، وينـزلوا الدمار في تلـك الأقاليم بقـدر مـا يستطيعون.

وإذا مـا سأل سائل: كيف يمكـن اقتحام الأمـاكن الحصينة والكبيرة التي هي بحـوذة السلطان وجماعتـه في القدس وفي سـورية والاستيـلاء عليها؟

أجيبـه باختصار: إذا مـا أتلفت المواد الغـذائيـة في تلك المناطق، فإن الحاجة القصوى سوف تستبد بهم وتقهـرهـم، وفي النهاية بعد أمد قصير تراهم وقد تحتم عليهـم التخلي عن الأرض وعن الحصون، والجلاء عن البـــلاد بسبب الجوع، ذلك أنه من غير الممكن أن يصـل إليهم أي دعم من أي مكان، بعـدمـا يكون المسيحيـون قـد سيطروا على البحـر، وعلى

أرض مصر، لأن أرض الميعاد المقدسة وسورية واقعتان هذه الأيام تحت سيطرة السلطان، وهـذه البـلاد مجاورة لمصر، كما أنها نتيجـة لموقعهـا موجهـة نحو الغـرب، أي أنها واقعة تحت حكم البحـر، لأنها محاطة من جانبين: من الجنوب ومن الشرق، بصحراء كبرى.

وإذا أضـاف أحـدهم ملحـاً: أو ليس بالإمكـان الإقـامـة في تلك الصحـارى؟ فأجيب قـائلاً: نعم وخـاصـة في البـادية، فإن أرض حلب تنتهي حيث يسكن العـرب الذين يدعـون بالبـدو، فقـد سكن هؤلاء باستمرار منطقة البرية، وجميع مناطق البادية، وقد اتخذوا أماكن إقامتهم تحت الخيم، ويعيشـون في معظم الأوقـات اعتماداً على المواشي التي يربونها ويرعـونها، ولدى هؤلاء خيـولاً جيـدة، وسريعـة الجري،وهم تراهم تارة يؤيدون المسلمين الـذين هم في مصر، ويؤيدون تارة أخـرى التتـار، الذين يتاخمونهم، خـاصـة في منطقة بغـداد، حيث يسيطر أولئك التتار.

أمـا الأرض التي يحكمهـا السلطان من جهـة الشمال، فـإنها متـاخمة للمناطق التي يسيطر عليهـا ملك أرمينيا، وفوقهـا المياه البـاردة، المتاخمة لمنطقـة التتار، حسبما تقـدم بنا الذكر، وتمتـد تلك المناطق من الشمال إلى الجنوب، ومـن الشرق إلى الغـرب، وجميـع الأنهار الموجـودة في تلك المناطق، واقعة في هذه الأيام تحت حكم السلطـان، لذلك فإنه لا التتار، ولا أي شعب من تلك الشعـوب، يمكنه أن يؤمن لهم الدعم، إلا بعـد عناء شديد، وتكبد لنفقات هائلة.

وإذا ما اعترض معترض وقـال: كيف يمكنك أن تدمـر أرض الميعاد وسـورية والسلطان مسيطر عليهما بعـدد كبير من الناس، ولا شك أنك لن تتمكن من مجابهتـه في البسـائط، وكيف سيكون بإمكانك إعـادة بناء تلك المدن وتحصينهـا، وإنشاء الحصـون حتى تتمكن من مجابهة طاقـات السلطان وقواته؟.

وعلى هذا يمكن الإجابة والقول: بعد أن يكون البحر قد صار بأيدي رجالنا، وبعد أن يكونوا قد تمكنوا من التجول فيه بأمان، بأسطول يحمل أعـداد كبيرة من الناس، ناقلين معهم مـا يشـاءون من أعـداد كبيرة من الفرسان والرجـالة، وأن ينزلوا إلى الأرض التي يريدون الوصول إليها، ولاشك أنهم — بعون الرب — سيتمكنون مـن التنقل بأمان، والنزول إلى الأرض، وانتزاعها من الأعداء ببساطة، ومن ثم التمركز هناك بقوة، وبشكل لن يعود بإمكان أحد مقاومتهم فيه، أو إلحاق الأذى بهم.

ويمكنهم بالطريقـة نفسهـا مركـزة فـرسان ورجـالة على الأرض كما يرون ذلك مناسباً، وأن يشنـوا الغـارات على الأعـداء، وبهذه الطريقـة سيكون بإمكانهم تدمير المنطقـة وإتلافها بشكل لن يعـودوا قادرين فيـه على إيجاد طعـام، لأن شواطىء سـورية يقدر طولها بأربعـة آلاف ميل، وهذا يعنـي أن المسلمين لن يستطيعـــوا، بما لديهم من عنـاصر بشرية، حراسة السواحل ضد المؤمنين، الذين يستطيعون تدميرها متى أرادوا.

ولما تقـدم من أسبـاب، ولأسبـاب غيرهـا يمكن إضـافتهـا في المكان والزمان المناسبين، أقول بكل تواضـع واحترام: إنه قد اتضح بجلاء تام أنه بعد الاستيلاء التام على أرض مصر لن يتمكن الكفار من الدفاع عن القـدس وعن الأرض المقـدسـة وسورية ضـد الصليبيين إذا مـا اتبعـوا الأسلوب والمخطط الذي ذكـرناه، وأيضاً كما بينا عن المناطق المذكـورة، وكذلك يندرج القول نفسه على كثير غيرها من الأراضي والمناطق حيث يسيطر الكفـار والمنشقـون، والسبب هو أنه عندمـا تصـــدر قـداستكم الأوامـر بتجهيـز ذلك الأسطول الكبير، وبإعـداد السفن المطلوبة لنقل الخيول، وأسطول آخر لنقل باقي العتاد اللازم للجيش، ولنقل الفرسان والرجالة، كي ينزلوا على الأرض كما يرغبـون، طالما أن السلاح مؤمن، والحماس مـرتفـع، وذلك حسب قـرارات قـــداستكم، وبعـدمـــا تكون سلطتكم الأبوية قـد وفـرت ما يمكـن من عون، ومـا يمكن استغـلاله

أيضـاً مـن أرض مصر،وكـذلك مـا يمكن لقـداستكم أن تأخـذه من المؤمنين، ومـن الخاضعين لسلطانكـم، وإنـه لا شـك أن جميع المنـاطـق الواقعة تحت سلطة بيزنطة، وهي هامة، وكذلك التي يحتلها الأتراك، أو تلك التي يحامي عنها اليـونانيون المنشقـون وغيرهم من الشعوب الذين يحكمـون بعض المناطق ويخضعونها لسلطانهم، هذه كلهـا سيتمكن — بعون الرب — جيشكم المنظم — كما ذكـرنا أعلاه — مع الأسطول، من إخضـاعها، ومن ثم تدميرهـا، وبناء عليه سـوف يسقط سكان تلك البلدان نهائيـاً تحت سلطانكم، وكما قلنا عـن مملكة بيـزنطـة، مثل ذلك يندرج القول عن بلاد المغرب مع سائر الأقطار الأفريقية، وبعدما تكون قداستكم قـد استولت على أرض مصر، من الممكـن إدخال أسطول إلى بحـر الهنـد، ليسيطر على ذلك البحـر، وليخضع لسلطانه الأجـزاء والأراضي الواقعة على شواطئه، وعلى مقربة منها.

وكـذلك الأمر نفسـه في أفـريقيا، في ذلك الإقليـم الذي كان مـوطناً للقديس أوغسطين ذلك الأسقف والأب المبجل، والعلامة النابغة.

وسيصير كذلك بـالإمكان الحج إلى أماكن عـديدة مكرمة ومقـدسة، سكنهـا قديسـون وأقـاموا فيهـا، ولاسيما تلك التي تكرم يسـوع المسيح فـوطئهـا بقدميـه المقـدسيتن من أجل خـلاصنا، هذا ومع مـرور الأيام سوف يمكن لقداستكم تحقيق رغباتكم فيها، وبشأنها.

وكما سلف وبينا لن يستطيع التتار مجابهة المؤمنين إلاّ بمقـاومة هزيلة، ومع هذا إنني أحبذ، وبالتـالي أنصح باكتساب صداقـة هؤلاء القوم، إذا كان ذلك ممكناً، حسبما جاء في القسم الأول من هذا الكتاب، حتى وإن تطلب ذلك عـدم التقتير بالإنفـاق، ولا يكفي أن نلتمس مـودة التتـار وصـداقتهم، بـل يحسن تحريضهم هم وسـائـر غيرهـم من الشعـوب لما يكون ضرورياً أو مفيـداً لهذا المشروع، فإنـه في مجال الحروب وعمل الجيـوش جميع الضمانات مطلوبة وكـذلك كل الاحتيـاطات والمبـادرات

التي يشير بها الحكماء، وأهل الخبرة.

ولإنجاز كل هذه الأمور الصعبة، لكن المثمرة، لايجوز مطلقاً التقتير في الإنفاق في سبيل هذه الغاية السامية، كما أنه لا يجوز إرهاق الكنيسة المقدسة بأعباء هذه النفقات، فالأمل معقود على كل مسيحي مؤمن، مع الثقة المتوجبة، حتى نستحق الوصول بسرور إلى تحقيق تلك الغاية المتوخاة والسعيدة.

الفصل التاسع والعشرون: مذكرة خاصة بالأمراء والأعيان الذين يفكرون بهدوء وعقلانية حول شؤون السلاح والحرب.

تأتي النعم كلها والهبات من عند الرب، وبدونه لا يوجد أي خير، ولهذا إن الانسان لا قيمة له، ولا يعرف إلاّ بقدر ما يوهب،ولا يقدر إلاّ بمدى ما يعطى من قبل الرب، وبالتأكيد إن قائد الجيش ومنظمه بحاجة ماسة إلى نعمة الرب، ويلزمه أيضاً:

أولاً: سرعة البديهة، والاهتمام الحثيث والأخذ بما يحقق النتيجة الحسنة.

ثانياً: كرم وسخاء مع الانضباط اللازم.

ثالثاً: عدم الاستهانة بأعدائه، مما يتحتم عليه التنبه والتجسس والإصغاء بعناية كبرى لأخبار كل ما قد يكون مضاداً له أو مؤذياً.

رابعاً: المحافظة على أتباعه وعدم تعريضهم للخطر مهما كان قليلاً، وعدم خوض معركة إلاّ إذا كانت المبادرة وجميع المعطيات لصالحه.

خامساً: أخذ الحيطة سلفاً لكل ما يكون ضرورياً، وخاصة فيما يتعلق بالقمح، فإن مشاريع كبيرة ممتازة قد أخفقت بسبب انعدام الخبز.

سادساً: تقدير الرجال ومحبتهم والاهتمام بهم أكثر من الاهتمام بالأشياء.

سابعاً: تسيير الأمور وفق الطريقة التي تراها قداستكم نافعة، وأن لا يحيد عن الهدف المرسوم له.

ثامناً : إبداء الشفقة نحو الجميع، وعدم الاقدام على عمل لا يرتضيه لنفسه، وأخذ الحيطة والانتباه إلى شحن السفن في أرضكم بجميع ما يلزمها نوعاً وكماً.

تاسعاً: عدم إهمال الأمور الكبيرة بالانشغال بالأمور الصغيرة.

عاشراً: النظر بعناية إلى أوضاع شعبكم، أي إلى نوعية وأحوال الذين هم من سكان أرضكم، والاهتمام بالمحتاجين أكثر من الاهتمام بالمترفين.

حادي عشر: الالتزام بمبدأ أن البداية الصالحة، والطرق الثابتة، تنتج النهاية الحسنة.

ثاني عشر: إيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة، فهذا ما حقق إزدهار روما، وتنفيذ أكبر قدر ممكن حسب المنطق، وليس حسب واقع الحال فقط.

ثالث عشر: الإصغاء إلى الجميع، والتقرير بعد ذلك مع القليلين.

رابع عشر: مكافأة الصالحين، و معاقبة الأشرار، فهذا ما سبب اتساع الامبراطورية الرومانية، ذلك أن الاسم الطيب خير من الثروات الكبرى.

خامس عشر: إكرام رجال الكنيسة المقدسة، ومعاملتهم باحترام، واستقبال التجار، والتعامل معهم بكياسة ولطف.

وحمداً للرب وشكراً له، وبركته على كل ما يتكرم به ويمن من نعم، آمين.

بسم يسوع المسيح الحي والحق
آمين

بعض أمور تتوجب معرفتها

التكتم رأس الفضائل، والبوح بالأسرار أس الرذائل، نكران الجميل ريح حارقة، تجفف ينبوع التقوى، وندى الرحمة، ونبع الحنان، ومن لا محبة لديه، لا يملك شيئاً.

يقول القديس[يوحنا] فم الذهب:«لا تنبني الحكمة على معرفة أقوال الرب، بل على العيش حسبها»،والطمع مصدر جميع الشرور، وما من فضيلة أعلى من الصبر، وأي شيء أفضل من الذهب: اللازورد، وأي لازورد؟المشاعر، وأية مشاعر؟ العقل وأي عقل؟ إنه الأسلوب.

وعندما يقدم الوثنيون إلى الكنيسة، ليصيروا مسيحيين، ينبغي ختم ما يتلونه من وصايا الرب بالحكم التالية:

الذي لا تريد أن يصنع لك، لاتصنعه لغيرك.

ينبغي النظر قبل كل شيء إلى الأمور حسب العقل، والتأكد بعد ذلك منها بالاختبار، حتى يتأكد العقل بالاختبار، أو بمثل حقيقي.

الإقدام بدون عقل، مثل سيف بيد مجنون.

يحكى عن أرسطو أنه بينما كان يسير اقترب من جبل، فسأله تلاميذه إعطاءهم إحدى الحكم، فقال: دخلت إلى هذا العالم باكياً، وعشت فيه قلقاً، وأغادره مضطرباً جاهلاً بلا معرفة.

يطلب مارينو سانوتو، المعروف بلقب تورسيللو، من أعمال البندقية، لنفسه ولذويه بخشوع وتواضع رضا قداستكم الممنوحة لكم من الرب إلهنا.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة

ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة مطمئنة، وذلك بعد إخضاعها للسلطة المسيحية، في سبيل مجد الرب، وشرف الكنيسةالكاثوليكية.

ويتألف هذا الكتاب من مقدمة، ومقسم إلى أقسام وفصول.

عندما يتم بنعمة من الخالق احتلال أرض مصر،وأرض الميعاد المقدسة،وسورية بكاملها حتى«المياه الباردة» — حسبما ذكرنا في القسم الرابع من الكتاب الثاني،من هذه الرسالة — وبعد إخضاع الجميع للسلطة المسيحية، ذلك أنها الآن بأكملها تحت سيطرة سلطان مصر، ينبغي الانتباه، وتدبير الأمور أيضاً، بحيث تستمر المحافظة على تلك الأرض التي انتزعت من قوة الكفار، وذلك في سبيل مجد الرب، وازدهار الكنيسة الرومانية، ولكي ينعم جميع المؤمنين المسيحيين القاطنين هناك بحياة سليمة مستقرة، ومزدهرة مثمرة لشؤونهم الجسدية، وبالتالي لخلاص نفوسهم، هذا وقد قررت الحديث في هذا الكتاب أحياناً روحانياً، وأحياناً أخرى دنيوياً، وسأمزج أحياناً بين الأمرين حسبما تقتضي المادة ويستلزم الموضوع.

وبما أن ذلك لا يمكن أن يتم، أو أن ينفذ من دون عون القدير، المتوجب طلبه، ليس فقط للأمور الهامة والكبرى، بل أيضاً لأصغر الأمور، ومن يريد الحصول على تلك الحكمة، عليه أن يلتمسها بكل قواه مع عون المولى، أي أن يحب الرب فوق حب كل شيء، وأن يقدم الطاعة له والاجلال، وذلك حسبما نقرأ بحق في إنجيل القديس يوحنا الانجيلي الرسول قوله:«إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي

وعنده نصنع منزلاً. الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي»[يوحنا : ١٤ / ٢٣ — ٢٤]، وكما تكلم في المزامير قـائـلاً:«إن لم يبن الرب البيت فبـاطلاً يتعب البناؤون، إن لم يحفظ الرب المدينة فباطلاً يسهر الحراس»[المزامير: ١٢٧ / ١ — ٢].

ولهذا حتى تتحقق المطلوبات بكاملها، وتستمر بثبات كما قلنا، ينبغي أن نخـاف الرب في كل شيء، وأن نقـدم له الاجـلال، حتى يتمكن كل من هو مخلص للرب، أن يسير بموجب هذه الطريقة وهذا الترتيب.

هذا وينبغي الاعتراف، والتأكـد من أن الضربات التـي نزلت بالناس منذ بداية الخليقة حتى اليوم، إنما نزلت بإذن من الرب، وقـد قُدرت إما لزيادة أجـرنا في الحيـاة الدنيـا، كما يقـول بولص الرسـول المجيـد:«وإنه بضيقات كثيرة ينبغي أن ندخل ملكوت الرب»[أعمال : ١٤ / ٢٢]، أو أنها نزلت بسبب الخطايا الجسيمـة، والآثام القبيحة التي تقترف فعـلاً في هذا العالم.

وعندمـا نقـول:إن المحن والمصـائب قـد أنزلت من قبل الرب، حتى نكسب أجراً أكبر في الحيـاة الدنيا، فإن هـذا ينطبق على أفراد معينين، لا على مجمـوع الناس ، وبناء عليـه إن النوازل والمحـن التي تنزل عـادة بسكان مملكة مـا، أو بـإقليم، أو بمـدينة، فإن نزولها هو عقـاب للآثام والذنوب القبيحة المقترفة هناك، كما نقرأ في الكتابات المقدسة.

فقد حل في أيام نـوح الطوفان بالمسكونة كلها، بأمـر من الذي يحكم من عليائه،وكذلك احترقت في أيام لوط خمس مدن فجأة، وخسفت إلى أسفل الأرض، وكان ذلك بسبب الخطايا، التي كانت وما برحت سبب جميع النوازل والمصائب والضربات.

وبناء عليه ينبغي تجنب الخطايا الجسدية والروحية، طالما أننا لا يمكن أن نحصل منهـا على منفعـة مفيـدة، أو على أية ثمـرة صـالحة، وبما أن

الأرض المقـدسـة تفوق بمكانتهـا كل مـا سـواها من الأراضي، ولأجل خـلاص الجنس البشري الذي أراد فـادينا أن يحققـه فيهـا، ولأنها سرة الأرض، يتوجب إجلالها أكثر من أية أرض غيرها في الدنيا، وهي أيضاً التي اختارها الرب، ولذلك بقدر ما نتجنب الخطايا فيها بعزم شديد — حتى لا نغضب الرب — بقدر ما يحبها بغيرة شديدة.

ولكي أستطيع الوصول إلى هدفي، وتحقيق مشروعي، خصصت جزءاً من هذه الرسـالة لذكر ما دونه بعـض العلماء وسواهم — وهم كثيرون — من معلومـات عن التـواريخ الشرقيـة، وخـاصـة تاريخ الأرض المقـدسـة، ولسـوف أدخلهـا في كتـابي هذا بإيجاز، وسأضيفهـا لإظهـار الحقيقة بجلاء أعظم.

بداية الكتاب الثالث من هذه الرسالة
ومنه يمكن أن نعرف كيف ينبغي العمل للحفاظ على
أرض الميعاد المقدسة في حالة جيدة وسليمة
مطمئنة، بعد إخضاعها للسلطة المسيحية،
في سبيل مجد الرب، وشرف الكنيسة الكاثوليكية.
ويتألف هذا الكتاب من خمسة عشر قسماً.
وسنكتفي بذكر عناوين الأقسام، باستثناء القسمين
الرابع عشر والخامس عشر، حيث سنوردهما كاملين.

الكتاب الثالث

في التعليم الأكيد والصادق لأجل امتلاك أرض الميعاد المقدسة، وتنميتها وحفظها

عناوين الأقسام

القسم الأول: حول الأمم المتعددة، التي توالت على الحكم في الأرض المقدسة، ويتألف من أربعة عشر فصلاً.

القسم الثاني: بداية قيام الكنيسة الشرقية، وهو في أربعة فصول.

القسم الثالث: الاضطهاد الاسلامي للكنيسة الشرقية، وتبيان أوضاعها المقلقة حتى قدوم الحملة الصليبية الأولى بقيادة غودفري دي بولليون، وبطرس الناسك، وهو في ثمانية فصول.

القسم الرابع: حول النهضة الرائعة لشعوب الغرب من أجل تحرير الأرض المقدسة، أيام بطرس الناسك، وهو في أربعة عشر فصلاً.

القسم الخامس: حول انتصارات الحجاج في مملكة القدس، والشقاقات بينهم حتى أيام الملوك، وهو في ثمانية فصول.

القسم السادس: تحرير كامل الأرض المقدسة، وتطور مملكة القدس في أيام ملوكها اللاتين، وهو في أربعة وعشرين فصلاً.

القسم السابع: صورة الأوضاع المزدهرة في الأرض المقدسة، أيام الملوك اللاتين، وهو يقع في ثلاثة فصول.

القسم الثامن: أسباب دمار أرض الميعاد المقدسة، وفقدانها في أيام صلاح الدين، وفيه ستة فصول.

القسم التاسع: ضياع أرض الميعاد المقدسة في أيام صلاح الدين، وفيه

ثمانية فصول.

القسم العاشر: النجدات التي قدمت من البلدان الغربية إلى الأرض المقدسة، أيام صلاح الدين، وفيه تسعة فصول.

القسم الحادي عشر: حملات جديدة إلى الأرض المقدسة، شرح لأوضاعها، وتقلب الأوضاع وتداول الحكم فيها، منذ وفاة صلاح الدين حتى صليبية القديس لويس، وفيه ستة عشر فصلاً.

القسم الثاني عشر: القديس لويس وحملته، مشاكل متواصلة ومتنوعة في الأرض المقدسة حتى طُرد الصليبيون منها، وفيه اثنين وعشرين فصلاً.

القسم الثالث عشر : بعض الأحداث والنتائج التي أعقبت الفقدان الكامل للأرض المقدسة، وهو في أحد عشر فصلاً.

القسم الرابع عشر: وصف أوضاع الأماكن، وبشكل رئيسي في الأرض المقدسة، وهو في اثني عشر فصلاً.

القسم الخامس عشر: الإجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرة التي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً.

(القسم الرابع عشر)

الفصل الأول

وضع الأقاليم التي تحد الأرض المقدسة.

أرض الميعاد المقدسة موجودة في سورية التي تحتوي جميع البلاد من الدجلة حتى مصر، ويحدها من الشرق نهر الدجلة، ومن الجنوب الخليج العربي، ومن الغرب البحر المتوسط ومن الشمال أرمينيا وكبدوكيا، وهذه

البلاد، التـي اسمها العام، هـو سورية، مقسمـة إلى عدة أجـزاء أصغر، أولاها، سورية الأولى، وهي قـائمة ما بين الدجلة والفـرات، وهي تمتد طويلاً نحـو الشمال ونحـو الجنوب، أي أن نقـول: من جبـال طوروس حتى الخليج العربي، وهي تعرف أيضـاً باسم سورية الجزرية، ومن أجل عـرض حولها انظر القسم الخامس — الفصل الأول، وفيهـا تقع الرها، التي دعي فيهـا تويبت باسم راغس Rages ، وتعرف بشكــل عام باسم«الرسا» Resse، وهي واقعة على مسافـة أربع عشرة فرسخاً فيما وراء الفرات، بين جبـال طوروس وجبال القـوقاز Caucasus ، ومن أجل عرض حولها انظر القسم الخامس — الفصل الثاني، وقد اتخذ هذا القسم الشمالي لنفسه اسم المنطقة كلهـا، وصار يعرف بشكل دقيق باسم سـورية الجزرية، وفي هذه المنطقـة أيضـاً نينوى وبابل، وزيادة على هذا، سورية هذه مقسمـة إلى مقاطعـات هي، ميديا، وأكـاد، وفارس، كما هو موضح على المصور.

أما سورية الثـانية، فتعرف باسم سورية المجوفـة(البقاع)، وهي ممتدة من جبــال طوروس حتـى نهر أبانا، الذي يدخـل البحـر عند مـدينة بانياس، أمام قلعة المرقب، وأنطاكية هي المدينة الرئيسية في سورية هذه.

وتدعى سورية الثالثة باسم«فينيقية» وهي تبدأ عند نهر بانياس المتقدم الذكـر، وتمتد جنـوباً حتى خربة دستري، التي تعـرف باسم دستركتـوم Districtum ، تحت جبل الكـرمل، وهي تعـــرف الآن بـاسم قلعـــة الحجاج(عثليت)، وتمتـد نحو الشرق حتى مـدخل حماه، وبناء عليه إنها تحتوي على كفـر نعوم(كفـر لام)، والمرقب، وطرطوس، ومـدن أخرى، والمدينة الرئيسية فيها هي صور.

وتدعى سورية الرابعة باسم سـورية دمشق، لأن المدينة الرئيسية فيها هي دمشق، وتدعى أيضاً باسم سورية لبنان، لأنه يوجد فيها جبل لبنان المشهــور، كما أنها تدعى بالغــالب ببســاطة بـاسم سـورية، كما يقــول

إشعيا:«رأس سورية(آرام) دمشق»[إشعيا :٧ / ٨]، فضلاً عن هذا تدعى ثلاثة أجزاء من فلسطين بالسورية، وبناء عليه إن الجزء الخامس من سورية هو فلسطين، وهو يدعى بشكل صحيح باسم الفلسطيني، والمدينة الرئيسية في هذا القسم قيسارية، وهو يبدأ عند قلعة الحجاج[عثليت]، ويمتد نحو الجنوب، مماشياً لساحل البحر المتوسط حتى غزة.

وسورية السادسة، هي فلسطين الثانية، التي المدينة الرئيسية فيها هي القدس، وهي تحتوي جميع المنطقة الهضبية حتى البحر الميت، وإلى قفار قادش — بارينا Barnea ، وبشكل دقيق تعرف هذه المنطقة باسم اليهودية، وهو اسم جزء أطلق على الجميع.

وسورية السابعة هي الجزء الآخر من فلسطين، والمدينة الرئيسية فيه هي مدينة بيسان، عند سفح جبل جلبوع، قرب الأردن، ويضم هذا الجزء الخليل، وسهل جزريل الكبير، ومثل هذا تدعى الأجزاء الثلاثة من العربية باسم السورية، وبناء عليه هناك سورية الثامنة، التي المدينة الرئيسية فيها هي بصرى، وهي تعرف الآن باسم بصريث، وفي قديم العصور باسم برسا، ويحدها منطقة الطرخونية بوساطة الايطورية في الغرب، وتمتد حدودها في الشمال تقريباً إلى دمشق، ونظراً لقرب هذا الجزء من العربية من دمشق، فقد دعي في بعض الأحيان باسم سورية الدمشقية، ولهذا السبب عرف أرتاس[أرتاس الأول — المكابيون ٢ / ٥ / ٨] باسم ملك العربية، في حين أنه كان في الواقع ملك دمشق.

وسورية التاسعة، هي منطقة العربية، التي المدينة الرئيسية فيها هي البتراء، وهي قد عرفت بالقديم باسم النبطية، وأر، وآريوبولس، وهي قائمة عند بركة أرنون ، وعند حدود المكابية والعمورية، وهي قد احتوت مملكة صهيون ملك هشبون، ومملكة عوج ملك باسان، وجبل جلعاد، وتتصل في الجنوب بالعربية الأولى.

وسورية العاشرة، هي التي في العربية، ومدينتها الرئيسية هي مدينة(مونريال» التي تعرف الآن باسم الكرك، وقد عرفت هذه في الأيام الخوالي باسم البتراء في القفار، وهي قائمة فيما وراء البحر الميت، ولها السلطان فوق أراضي مآب، التي قد تعرف أحياناً باسم سورية سوبال Sobal، وتحتوي في داخلها على جميع منطقة أدوم، التي هي جبل سعير مع جميع الأراضي حول البحر الميت ، حتى قادش — بارينا، وإلى عزيون — جابر، ومياه الصراع، على الطريق الذاهب إلى البحر الأحمر، وعبر القفار الشاسعة، حتى إلى الفرات، وهذه هي العربية الكبيرة، والأولى، وتعرف أيضاً بالعربية الأدومية، أي المقدسة، ففيها توجد مدينة مكة، وهي المدينة التي يُعبد فيها محمد(ﷺ)(كذا).

الفصل الثاني

المنطقة الساحلية لسورية كلها

لدى خروج الانسان من آسيا الصغرى، يجد درباً ضيقاً بين الجبال وبين البحر، وهو الذي يدعى باسم بوابة سورية[عمود يوحنا، أو ممر بيلان]، وبعد سفر نصف يوم من هذا المكان باتجاه الجنوب، يصل الانسان إلى اسكندرونة، وخلف هذا يعبر الجبل الأسود(اللكام أو الأمانوس)، وبعد سفر نصف يوم آخر يصل الانسان إلى قلعتي بغراس ودربساك عند سفح الجبل(اللكام)، ويقوم البحر على مسافة عشرة أميال من أنطاكية، وهناك ميناء اسمه السويدية، أو ميناء القديس سمعان، ومن أجل عرض حوله، انظر القسم الخامس — الفصل الرابع، والقسم السابع — الفصل الأول، ومن ميناء القديس سمعان إلى رأس البسيط عشرين ميلاً، ومن البسيط إلى أوغاريت عشرين ميلاً، ومن أوغاريت إلى اللاذقية عشرة أميال، ومن اللاذقية إلى جبلة عشرة أميال، ومن جبلة إلى بانياس خمسة أميال، وعلى بعد خمسة أميال وراء بانياس، وعلى فرسخ واحد عن البحر، تقوم قلعة المرقب الحصينة جداً.

التي امتلكهـــا فيها مضى الاسبتـاريـة، وعند النهــر الـذي يمــر عبر بانياس(انظر الفصل الأول) تنتهي إمارة أنطاكية، وتبدأ كونتية طرابلس، والمسافة من المرقب إلى طرطوس عشريـن ميلاً، وتعرف طرطوس باسم أنطروس، لأنها قائمـة أمام أشعة الشمس، [كـذا والصحيح لأنها مقابل أرواد]، وأرواد جزيرة قـائمة في عمق البحـر، على مسافـة نصف فرسخ من اليـابسـة، وهناك عليهـا مـدينة بنيت من قبل أراديوس ابن كنعـان، وفيها وجد القديس بطرس أم القـديس كليمنت، وكان القديس بطرس في طريقــه إلى أنطاكيـة، وقـد بنى هناك[في طرطوس] كنيســة صغيرة كـرسها على اسم العـذراء المباركـة، وقد قيل بأن هذه أول كنيســة بنيت على شرفهـا، ولهذا قامـت أم الرب المباركـة بكثير من المعجـزات هناك، ولهذا فإن هذه الكنيســة مبجلة حتى مـن قبل الكفــار، وإلى جـــانب طرطوس، وعلى بعـد نصف فرسخ إلى الشرق هناك جبـال، يسكن فيها بعض المسلمين، وتدعى هذه المنطقـة باسم بلاد الحشيشية، وفيهـا حكم من قبل شيخ الجبـل، وهو الذي ســوف نتحـدث عنه فيها بعــد، وعلى مسافة ثمانية فراسخ من طرطوس تقوم قلعـة عرقة، التي بناها عرقة ابن كنعـــان، (القسـم الامس — الفصل الســـابع)، وهنا تنتهـي سلسلة لبنان[الغربية] وكذلك سلسلة لبنـان [الشرقية]، وعلى بعد نصف فرسخ من قلعـة عرقـة تقع بلدة سين[مـوقع غير معـروف — التكوين :١٠ / ١٧] التي بنيت من قبل سينوس بـن كنعـان، ويدعـو بعض الناس هذه القلعة سينوكيم Sinochim ، ويمتد من هذه البلدة والقلعة سهل جميل وخصب ليصل حتى قلعة الكرك، التي كانت فيها مضى بيد الاسبتارية، ويمتـد هذا السهل لمسـافة عشرة فـراسخ حتى طرطوس، ويحتـوي على عــدد كبير من القــرى، والحدائق الجميلـة التي فيهـــا أشجـار التين، والزيتـون، ومـا شـابه ذلـك، وفيهـا أعـداد كبيرة من الجداول والمراعي الخصبة، ولها السبب يسكن هناك في الخيـام التركمان، والمدينيين والبدو، مع أزواجهم وأولادهم وقطعـانهم، والجانب الشرقي من السهل محدود

بجبال ليست كبيرة الحجم، وتبدأ من هناك من مقابل عرقة، وتمتد بعيداً حتى بعلبك، ويسكن هناك مسلمــون يدعـون البـاطنيــة، وهم جماعـة شجعان بواسل يكرهون الصليبيين، وعلى بعد مسـافة عشرين ميلاً من طرطوس تقـوم مـدينة طرابلس، التي يمكن أن نقـرأ حـولها في الفصل السـادس الفصل الثـامن عشر، وعلى مسافـة خمسـة أميـال من طرابلس تقوم أنفة(رأس شقعة جنوب طرابلس — نفين)، وعلى خمسة أميال من نفين تقوم البترون التي تعرف بشكل عـام باسم البترون، وعلى بعد أحد عشر ميـلاً من البترون تقــوم بيبلوس، التي تعـرف بشكل عــام باسم جبيل، وهي إيفيا Evea القديمة التي أسسهــا إيفيوس بن كنعان، ومن أجلهـا انظر الفصل السـادس — القسم الثامـن عشر، وعلى بعد خمسـة أميــال من جبيل تقــوم مـدينـة بيروت، التي من أجلهــا انظر القسم السـادس — الفصل السـادس، وعلى مسـافـة ثلاثة فـراسخ من هناك، باتجاه البترون، وبواسطة النهــر(الذي يعـرف بـاسم نهر الكلب)، هناك مكان يعرف باسم ممر الكلب، وهنا تقوم الحدود بين بطريركية أنطاكية، وبطريركيـة القـدس، وليس بإمكان إنسان اجتيـاز ذلك الممـر أبداً، إلا برضـا المسلمين، لأن بإمكان عـدد صغير منهـم الدفـاع عن ذلك الممـر والتحصن به ضـد أي عدد كان، لأن الممـر هناك قائـم بين جرف جبلي حاد والبحر، وعرضه ليس أكثـر قامة واحدة، وطوله حوالي ثلاثة أرباع الفرسخ، ومن أجل الحصول على عرض حول هذه الأماكن انظر القسم السادس — الفصل الثـامن عشر، وتقوم صيدا على مسافـة عشرة أميال من بيروت، التي تدعي بشكل عام باسم سـاغيتا Sageta ومن أجلها انظر القسـم السادس — الفصل السادس، وعلى بعد فرسخين من صيدا تقوم الصرفند، التي تقدم وصفها، وعلى فرسخين من الصرفند يقوم نهر الليطاني، الذي ينبع من إيطـورة، عند لحف حـاصـور، وهو يجري أولاً باتجاه الشرق، ثم باتجاه الغرب، ويجري مجتازاً قلعـة كوكـب، قرب جبل الشيخ، الذي إلى حـده طارد يشـوع الأربعـة والعشرين ملكاً يشـوع :

١١]، وإلى هذا المكان نفسـه طارد يوناثان ديمتريوس(المكـابيـون: ١ / ١٢)، وهو الذي يمـركـز البحر بين الصرفند وصـور، وعلى بعـد ثلاثة فراسخ من نهر الليطاني تقـوم صور، التي دفن فيهـا أورجين، وفي صور كثير من آثار القديسين، لأنه في أيام ديوكلتيان، الرب وحده يعرف عدد الذين تسلموا تاج الشهادة هناك، وقد تحدثنا الكثير عن صور في القسم السادس — الفصلين: الحادي عشر والثاني عشر، وفي القسم السابع — الفصل الأول، وعلى بعد فـرسخ واحد وراء صور يقوم«بئر مـاء الحياة» المشهـور، ويقـوم على مسـافـة قـرابة رميـةسهم الطريق الذي يؤدي إلى الأماكن التـاية. والتي تأتي مياهه(Cant, 4 - 15) على شكل جدول من لبنان، ومع أنه يدعى بئر، بـالمفرد، هناك أربعـة آبار بالشكل نفسـه، لكن تختلف بالحجم، وواحـد منها مـربع وطول جـوانبه أربعين ذراعـاً، بينما مقيـاس الثلاثة الأخـريات حـوالي خمسـة وعشرين، وكلها مسيجـة بأربعـة جـدران من حجـارة كبيرة جـداً،وقـد بنيت بشكل من المتعـذر تهديمـه، وهي بارتفـاع رمح، لابل أعلى، وهكذا تتجمع الميـاه فيهم، وتجري من هناك بكل اتجاه خارج الجدران، ومثل هذا هناك مجاري مياه عميقـة وعريضـة بقدر خطوة إنسـان، ومياه هذه المجـاري تروي سهل صور، وتبعد هذه الينابيع مقـدار رمية سهم عن البحر، ومع ذلك تحرك دواليب ستة طواحين، وعلى هذا النبع ينطبق قول الالهي تماماً(الالهيات : ٢٤ / ٣١):« إنني سـوف أروي أفضل حـدائقي، ولسـوف أسقي بكميات وافـرة أرض حديقتي، وانظروا لقد أصبح جـدولي نهراً، وغدا نهري بحراً»، وقد تقدم وصف هذا أعلاه في القسم السادس — الفصل الثـامن عشر، وعلى مسافـة تزيد قليلاً عن فـرسخ واحد عن البئر تقـوم قلعـة اسكندرون، التي تقـدم ذكـرها في القسم السـادس — الفصل الثـامن، وعلى بعد ثـلاثة فراسخ من اسكنـدرون، وبعد عبـورك لرأس الناقـورة، وعند لحف الجبل هناك تقـوم قلعـة حمصين(لمبرتي — امبرتي) وذلك على شاطىء البحـر، والمكان هناك مكان مليء بالحدائق، والكروم

والميـاه الجارية، وعلى بعد أربعـةفـراسخ خلف قلعة حمصين تقـوم عكا، التي تدعى أيضـاً بتولمـيـاس وأبيرون، ولم يتملك بنو إسرئيل هذه المدينة قط، ومن أجل عـرض حـولها انظر القسم السـادس — الفصل الرابع، وعلى بعد ثلاثة أميال من عكا تقوم مدينة حيفا، الواقعة عند سفح جبل الكرمل، وفي جـانب الشمال، وعلى فرسخ من حيفـا هناك الطريق الذي يقود إلى قلعة الحجاج[عثليت]، وبعـد حوالي نصف فرسخ، وعلى جبل الكرمل نفسه يوجد كهف إيليا، ومسكن اليشع، والبئر حيث قطن أبناء هذا النبي، وفيما بعد سكن الرهبان الكرمليون فوق جبل الكرمل، وعلى مسافة ثلاثة فراسخ من حيفا تقوم قلعة عثليت، التي امتلكها فيما مضى فرسان الداوية، وهي قلعة على درجة عظيمة من الحصانة، كما أنها قائمة في أعماق البحـر، وبعـد ثـلاثة أميـال من قلعـة عثليت تقــوم قيسـارية فلسطين، ويقـدر إطار هـذه المنطقـة بعشرين ميـلاً، ومـن أجل عـرض حـولها، انظر القسم السادس — الفصل الرابع، وعلى مسـافة فـرسخين من قيســارية يقــوم حصن أرسـوف أودورا[الـدورة هي الطنطورة إلى الشمال من قيسـاريـة]، ومحيط هذه المنطقـة خمسـة عشر ميـلاً، وكـانت بالعـادة ملكاً للداوية، الذين اعتـادوا — حتى بعد فقـدانهم لها — على دفع ثمانيـة وعشرين ألف دينار سنوياً إلى صـاحب أرسـوف، ومن أجل عـرض حولها، انظر القسـم الثالث — الفصل الرابـع، وعلى بعد ثمانيـة فراسخ من أرسـوف، تقوم يافا، الواقعة على شـاطىء البحر، ومن أجل عرض حولها، انظر القسم السادس — الفصل الثالث، وعلى بعد عشرة أميال مـن يافا(؟) تقوم قلعـة بيروالد Beroald (خرائب إلى الجنوب من يبنى اسمها مينة القلعـة) وعلى مسافة عشرة أميـال من قلعة بيروالد تقوم عسقلان، ومن أجل عرض حولها انظر القسم السادس — الفصل الثامن، وعلى مسافة خمسة عشر ميـلاً من عسقلان تقوم غزة، ومن أجل عرض حـولها. انظر القسم السادس — الفصل الثـامن عشر، ومن غزة إلى الدارون(ديـر البلح) خمســـة عشر ميــلاً، ومـن أجل عـــرض عن

الدارون، انظر الكتاب الثاني — القسم الرابع — الفصل الثامن عشر، وهنا نهاية أرض الميعاد، وقد تقدمت بعض الاشارات إلى الأماكن السالفة الذكر في الكتاب الثاني — القسم الرابع — الفصل الخامس والعشرون.

الفصل الثالث

وضع الأماكن الرئيسية في أرض الميعاد المقدسة

تمتد أرضُ الميعاد طولياً من دان، القائمة عند سفح جبل لبنان، في الشمال، إلى بئر السبع، القائمة قرب قفار مصر، ومقدار ذلك ثلاثة وثمانين فرسخاً، أما عرضياً فتمتد من البحر المتوسط في الغرب، مسافة ثمانية وعشرين فرسخاً نحو الشرق، ودعونا نتصور أن أرض الميعاد مقسمة بوساطة خطوط مستقيمة إلى ثمانية وعشرين قسماً، تمتد من جبل لبنان إلى القفار، التي من خلالها تذهب إلى مصر، وتقسم مثل هذا إلى ثلاثة وثمانين قسماً بوساطة خطوط مستقيمة ممتدة عبر الخطوط المتقدمة من الغرب إلى الشرق، وبذلك يحصل لدينا عدد كبير من المربعات، مساحة كل واحد منها فرسخ واحد أو ميلين، وفي الفراغ الأول، أو الفراغ الأخير، الذي هو باتجاه الشرق، ويبدأ في الشمال ويمضي نزولاً نحو الجنوب توجد«أر» التي هي الآن ايروبولس أو بترا، ويوجد في المربع السادس والسبعين بتراء القفار،أو الكرك، ومن أجل عرض حولها انظر القسم السادس ـ الفصل الثامن والفصل الثامن عشر، وفي الفراغ الثاني، والمربع الثاني عشر، توجد بصرى التي هي الآن آدوم، وفي الفراغ الثالث، والمربع الخمسين توجد حسبان، وفي المربع الحادي والستين توجد القريات، وفي الفراغ الرابع والمربع السادس والثلاثين توجد الماخور، أو محانيم التي هي الآن حيلون(كذا وحيلون واقعة إلى غربي البحر الميت)، وهذا هو المكان الذي اختبأ به داود، وسجن به يوحنا المعمدان، وفي الرابع عشر عير AYR أو أنوث سير Anothseyr

[تيروس — عراق الأمير — في جنوب جلعاد]، وفي السادس سيزين Sethyn ، وفي الفراغ الخامس والمربع الثامن بعلجاد، وفي الحادي والعشرين جدر[أم قيس] وهي مدينة مسورة مشهورة على جبل سنير، ومنها يمر الطريق الذي يمضي من آخون Achon مماشياً الشاطىء لبحيرة طبرية، ويعبر جدر إلى آرام، ولهذا دعاه اشعيا — ٩ — «طريق البحر» لأنه يمضي مسايراً شاطىء بحيرة طبرية، ويعبر الوادي في أرض عاشر، الذي يدعى الآن وادي القديس جرجس، الذي تقع مدينة السلط على جانبه الأيسر[البعنة شرقي عكا — مزار الخضر]، ويدعى هذا القسم باسم «جليل الأمم»، ويدعى أيضاً: ما وراء الأردن، لأنه يقود إلى ما وراء الأردن أي إلى البلاد التي اسمها آرام، ويقال أيضاً بأن هذه المنطقة واقعة في جليل الأمم، لأن الجليل نفسها تنتهي هناك عند الأردن، وفي الفراغ السادس والمربع الثالث عشر، منطقة السواد(الجولان)، التي جاء منها بلداد السوادي، وقرب أسوار هذه المدينة، وفي الناحية المتجهة نحو جدر، اعتاد المسلمون من دمشق، وبلاد الرافدين، وحران وسورية، ومآب، وعمان، ومن جميع أجزاء الشرق على الاجتماع معاً، حول نبع مزيريب Phiale ، ولأن المكان جميل هناك كانوا يقيمون سوقاً يدوم خلال الصيف، وينصبون الخيام من مختلف الألوان، التي تعطي منظراً جميلاً جداً للناظر من مدينة جدر، وعرفت هذه الخيام في مزامير سليمان باسم خيام جدر، وفي المربع التاسع والثلاثين تقوم بيسان، وفي المربع الثالث والخمسين جازر، والفراغ السابع والمربع الحادي عشر يوجد ضريح يعقوب(الشيخ سعد في حوران — سورية) وعلى فرسخ واحد من هناك يبدأ الصعود إلى جبل سنير، وفي المربع الرابع والعشرين تقوم جدر، وفي الثالث والثلاثين عفريم Ephraim (عفرون)، وفي السادس والعشرين فانويل Pha-nuel (بنويل) وفي الثامن والثلاثين يابسlabes (جبش جلعاد)، وفي الخامس والأربعين العال، وفي الخمسين سرتان Sartan (زرتان شرقي

الأردن)، وفي الثـامن والخمسين كنيسـة القـديس يوحنا المعمـدان، عند المكان الذي جرى تعميـد المسيح فيه(قصر اليهـود)، وفي الثاني والستين عين غليم(عين حجلة) عبر البحـر الميت، وفي الفـراغ الثـامن، والمربع الثلاثين تقوم فحل، وفي الحادي والأربعين أرنون، وفي الزابع والأربعين بيت جشمـــوت(الســويمـــة)، وفي الحادي والستين بيت حجلة(قصر حجلة) فهناك بكى بنو إسرائيل على أبيهم يعقـوب، عندمـا جلبـوه من مصر، وهو بعيـد عن الأردن مقدار فرسـخ واحد، وفي الفراغ التـاسع، والمربع الثاني والعشرين كورزيم Chorazim (خرسا) وذلك عند بداية بحيرة طبريا، وفي السـابع والعشرين خرسـا(جـرش) التي منها أخـذت منطقـة جرش اسمهـا، وفي الثـامن والثـلاثين اسكوت(تل درعلة)، وفي الثـامن والخمسين أريحا، التي تقدم وصفهـا في القسم الأول — الفصل الثـالث، وفي الثـالث والثمانين طلعـة الدم [? Afasantomar] ، وفي الفراغ العاشر والمربع الثامن والثـلاثين توجد سليم، وقد بنى في الحادي والأربعين مـذبح بحجـم مـدهش، وفي التـاسـع والأربعين توجـد عين دوك، ويوجـد خلفهـا في الجانب الشمالي بلاد تمبني Tampne [هضبة إلى الشرق من جبـال السمرتان شروعـاً من تمون جنوباً]، وفي عين دوك أسر بطليموس بن أبوبوس سمعـان المكابي[المكابيون : ١ / ١٦ ١٥ — ١٦] بعمل خيـاني، وهناك من عين دوك منظر بهي نحـو الشرق باتجاه بسغا Pisgah وإلى الجنوب حتى إلى أريحا، وفي السادس والخمسين تقـوم جلجل، وهـو المكان الذي خُتن فيـه بنو إسرائيل، وأقـامـوا لمدة طويلـة، وعلى مقـــربة من جلجل يـأتي وادي عكور Achor (في وادي القلط)، وفي الفـراغ الحادي عشر تنفصل لبنـان عن جبل الشيخ، حيث تقوم دمشق بعيداً عن سفحه في الجهة الشمالية، وقد تقدم وصف دمشق في القسم السـادس — الفصل التـاسع عشر، وفي هذا الجزء من الجبل هناك الطريق الذي يقود إلى حماه، وفي المربـع العشرين هناك جبل يعرف باسم«جبـل المائـــدة»، حيث أطعم الرب هنـاك وأشبع خمسمائـــة رجل،

وهناك وعظ بقداس فوق الجبل، وأمضى الليل في الصلاة، ويستطيع الإنسان أن يرى من هذا الجبل جميع المنطقة من حوله لمسافة عشرة فراسخ وأكثر، وهذا الجبل طوله رميتي سهم وعرضه رمية حجر، وعند سفحه هناك نبع، قرب بحيرة طبرية[منية، أو عين تبغه] وعلى بعد ثلاثين خطوة منها، المكان الذي يدعونه باسم عرق النيل، لأنه ينتج سمك Corconus الذي هو غير موجود في أي مكان آخر سوى في النيل، وعلى بعد عشرين خطوة من ذلك النبع، وعلى طول ساحل بحيرة طبرية، ظهر المسيح لسبعة من حوارييه، عندما كانوا يصطادون السمك، وعلى مسافة عشر خطوات بعد ذلك هناك المكان، الذي أشعل فيه الحواريون النار، بعد خروجهم من السفينة، ووضعوا سمكة فوقها، وفي المربع الحادي والعشرين توجد كفرناحوم[تل — حوم]، وهي على مقربة من الشواطىء الشمالية لبحيرة طبرية، على بعد فرسخين، ففيه اعتاد الناس على رؤية البيت والمكان الذي اعتاد معشرو الملك على الجلوس فيه(بيت صيدا)، ومنه استدعي متى من قبل المسيح، وفي الحادي والخمسين تقوم فصيل(عين فصيل)، وذلك على بعد ثلاثة فراسخ من الأردن في منطقة منبسطة، حيث يجري جدول كيرث Che-rith نازلاً من الجبل، فهناك سكن إيليا عندما جلبت الصقور اللحم له(الملوك ١ — اصحاح ٢١)وفي السابع والخمسين جبل القرنطل، حيث صام المسيح، غير أنهم أعلنوا أنه أغوي فوق جبل آخر، على بعد فرسخين، نحو بيت إيل وعاي في الجنوب، ودون جبل القرنطل على بعد رميتي سهم منه هناك نبع اليشع، الذي جعل مياهه حلوة، وهو يتدفق حول جلجل على الجانب الجنوبي من هناك، ويدير هناك ثلاثة طواحين، وينقسم بعد هذا إلى مجريين للماء، يسقيان كثيراً من الحدائق، ويصبان أخيراً في الأردن، وفي الفراغ العشرين، والمربع الثاني والعشرين تقوم بيت صيدا، التي هي مدينة بطرس، وأندرو، وفيليب، وهي قائمة إلى جانب طريق يقود من سورية إلى مصر، إلى حيث يبدأ البحر ينعطف

نحـــو الجنوب، وفي الثـامـن والعشرين طبريا، التي منهـــا نالت البحيرة اسمهـا فصارت تعـرف باسم بحيرة طبريا، التي كـانت تعرف بالقـديم باسم جنسارث، وهي تمتد بعيداً على طـول شاطىء البحر، ويوجد على الجانب الجنوبي حمامات دوائية، وعند طبرية تنتهي المنطقة المعروفة باسم منطقــة المدن العشرة، التـي حــدودها: مـن الشرق بحيرة طبريا، ومن الغرب صيدا، وهذا هو عرضها، أو طولها فيمتد مسايراً شاطىء البحيرة من الشمال، انطلاقـاً من طبرية نفسهـا حتى دمشق، وقـد عـرفت باسم منطقـة«المدن العشرة» بسبب مـدنها العشرة الرئيسيـة، التي هي: طبرية، صفـد، قادش، نفتـالي، حـاصور، قيسـارية ،كفـر ناحوم، جتـابرة، بيت صيدا، جـرزيم وبيسان التي تعـرف أيضاً باسم سكيـزوبولس، ويطلق على هذه المنطقة عـدة أسماء مختلفة، ذلك أنها تعرف أيضـاً باسم «منطقة المدن العشرة» وايطورية، والراحـــوب، وكـــابول، وجليل الأمم، ومهما يكن الحال تصل ايطـورية حتى بيروت، التي هـي قـــائمـــة على بعـــد عشرين فرسخاً إلى الشمال من صيدا، وفي المربع التاسع والخمسين تقوم قلعة ادوم(طلعـة الدم)، التي تقوم على الجانب الأيمن، على الطريق من القـدس حتى أريحا، وفي المربع الثــاني والسبعين توجـد هيروديوم(جبل الفـريـديس) حيث كـان هيرود قـــد دفن، وفي السـابـع والستين تقـوم مسعـدة، التي هي قلعـة حصينة لا ترام، بنيت من قبل هيرود فـوق تلة حقيلةHachilah ، وفي الفـراغ الثـالث عشر، والمربع الرابع والعشرين، تقوم المجـدل، التي هي قلعة مريـم المجدلية، وهي تمتلك سهـلاً واسعاً موائماً للرعي، وذلك على طرفيها الغربي والشمالي، وفي السابع والأربعين توجد عمان، القائمـة في مكان بديع، مليء بجميع أنواع الأشياء الجيدة، — وفي الســادس والخمسين تقـوم عـاي، التـي تقـدم ذكـرها في القسم الأول — الفصل الثالث، وفي التاسع والستين تقوم مدينة الزيب، وعلى مقـربة من القفار، وهي تعـرف باسم الزيف، فهناك أخفى داود نفسـه، ويقع إلى الجنوب منها مباشرة قفار معين، التي يوجد فيها جبل الكرمل،

حيث سكن نابال Nabal ، وفي الفراغ الرابع عشر، والمربع الثاني توجد صوبا، التي دعيت في مزمور سليمان باسم برج لبنان، وفي الخامس عشر قادش — نفتالي(قدس) التي جاء منها برق بن أبي نعوم، الذي قاتل ضد سيسرا فوق جبل الطور، وكانت هذه إحدى مدن اللجوء، وكانت خصبة جداً، وفي الثالث والأربعين بيت أوليا، وفي الحادي والثلاثين قلعة كوكب الهوا Belvoir وفي الرابع والثلاثين بيسان التي تعرف أيضاً باسم سكيزوبولس، وهي قائمة فيما بين جلبوع والأردن، وعلى أسوارها كانوا قد علقوا رؤوس شاؤول وأولاده، وفي الثالث والأربعين تل أوزه(أوتياسير — شمال شرق شكيم) حيث حكم ملوك إسرائيل أولاً، وفي الرابع والخمسين تقوم بهوريم Bahurim وصخرة بوهان Bohan ، وفي الثالث والستين تقوم تقوع، حيث ولد عاموس، وهناك دفن بعدما طعنه الملك آحازيا بمدية في جبهته، وتقع هذه المدينة على مقربة من قفار تقوع، وبين تقوع وعين الجدي يقوم وادي التبريك، حيث هزم يهوشافاط(شعفاط) الأدوميين وبني عمون، وفي الفراغ الخامس عشر والمربع الثلاثين (يوجد المكان حيث) قاتل برق ضد سيسرا، وفي الثالث والثلاثين(مكان) آخر معارك شاؤول، وفي الرابع والخمسين توجد شجرة نخيل دبورة التي نقرأ عنها في سفر القضاة: ٤ / ٥(نخلة دبورة في عطارة شمالي البيرة) وفي الخامس والخمسين بيت إيل أو لوز،حيث رأى يعقوب السلم، وفي السابع والخمسين عفريم(عفرة — الطيبة)، وفي التاسع والخمسين بيت حاني، وفي الثاني والستين مجدل عدر، وفي السابع والستين بيت صور، وفي الفراغ السادس عشر والمربع التاسع عشر، توجد صفد، وفي الثاني والعشرين نفتالي — توبيت، وفي الخامس والعشرين دوثان[خان جب يوسف]، عند سفح جبل بيت أوليا، وهو مكان غني بأشجاره ومروجه، وفي هذا المكان يمكن رؤية الجب الذي ألقي فيه يوسف، وهو على مقربة من الطريق الذي يقود إلى جلعاد، وهو الذي يتصل في بيت صيدا بالطريق

الذاهب من سورية إلى مصر، ويصعد هذا الطريق من دوثان قرب جبل بيت أوليا، ومن هناك يستمر عبر سهل أسدرايلون(مرج ابن عامر) وذلك على طول سفح جبل الطور، وعلى الجانب الأيسر عبر سهل مجيدو، حيث يصعد جبل عفرة، ويمر عبر غزة إلى داخل مصر، وتطلق كلمة دوثان على كل من البلدة والوادي، وحدث في وادي دوثان أن قام السوريون بالإحاطة باليشع(الملوك ٢ — اصحاح ٦)، وقد قادهم إلى وسط السامرة، وفي السابع والثلاثين البيرة، وفي الخامس والأربعين دان، حيث كان العجل الذهبي، وفي السادس والخمسين رامه، وهم يعتقدون بأن هذا المكان قد ذكر من قبل إرميا:«في الرامة سمع صوت»، وهناك رامه أخرى قرب تقوع، على الطريق الذي يقود إلى الخليل، وأخرى في منطقة سبط نفتالي، ليس بعيداً عن قلعة صفد، وأخرى قرب Sepploni، وكذلك أخرى قرب شيلوه، وهؤلاء جميعاً يقعن فوق تلال، وهناك أيضاً رامة أخرى قرب اللد، حيث تقدم ذكرها في القسم السادس — الفصل الرابع، وفي التاسع والخمسين القدس — المدينة المقدسة، التي تقدم وصفها في القسم السابع — الفصل الثاني، وفيما سيأتي في الفصل السابع، وفي الحادي والستين قبر راحيل، وفي السبعين الخليل، وذلك إلى اليمين من ممرا، وتقوم الخليل القديمة حيث حكم داوود لمدة سبع سنوات، فوق رابية على اليمين، وهي مهدمة، وعلى بعد ثلاث رميات سهم إلى الجنوب من هناك تقع الخليل الجديدة، حيث يوجد الكهف المزدوج، وعلى بعد رمية سهم طويلة إلى الغرب من الكهف يوجد حقل دمشق، الذي تقدم ذكره أعلاه(القسم السابع — الفصل الثاني)، وعلى رمية سهم نحو الجنوب، حيث يحفرون في الحقل، يوجد المكان الذي قتل فيه قابيل هابيل، وعلى بعد رميتي سهم من هذا الحفير نفسه، وذلك إلى الغرب، على تلة إلى الجانب الجنوبي من الخليل القديمة، هناك وسط الصخور كهف قياسه ثلاثين قدماً بالعرض، والقياس نفسه بالطول، حيث ناح آدم وحواء على هابيل، ومن الممكن

رؤية مكان فـراشهما هنـاك، مع نبع مـاء يتـدفق هنـاك، وفي الثـالث والسبعين دبير أو قريات — سفير(الظاهرية)، وفي الفراغ السابع عشر، والمربع السـادس توجـد لكش التي استـولى عليهـا أبناء دان، وسمـوها ليسدان Lesedan ، اشتقاقاً من اسم أبيهم، وهي تعرف أيضاً ببساطة باسم دان فقط، وقيسارية فيليب، وتعرف الآن باسم بانياس،وأمام باب هذه المدينة يلتقي(نهرا)«أر» و«دان» ويشكـلان نهر الأردن، وفي الثـالث عشر خيمة حابر القيني، وفي السـابع عشر كابول(النبي سبلان)، ويطلق المسلمون على هذا المكـان اسم قلعة زبلون، واسمها هذا لا يتـوافق مع مـا جـاء في الملوك الأول — الاصحـاح التـاسع، وفي الرابع والعشرين إربد، وفي الحادي والثلاثين المكان الذي قـاتل فيه جدعون ضـد أمالك Amalek ، وفي الثالث والأربعين سبسطية أو السامرة، وكان منظر هذه المدينة في غـاية الجمال ويشرف على منظـر بهي فـوق البحـر، وهي الآن نابلس، على بعد رميتـي سهم من بئر يعقوب، حيث نقـرأ عنه في يشوع — الاصحـاح الرابع(؟)، وعلى الطرف اليمين تقـوم جـرزيم، التي من المعتقد أنها المكان الذي أشـارت إليه المرأة السامرية عندمـا قالت:«تعبد آباؤنا في هذا الجبل»، وعلى الجانب الأيسر البلدة التي يعتقـد أنها شكيم القديمـة، أما شكيم الثانيـة فمن المعتقد أنها قـرية طوباس، وهما تبعدان عن بعضهما بعضاً مقـدار رميتي سهم، فضلاً عن هذا فإن الأرض التي منحهـا يعقـوب إلى يـوسف مـلاصقـة لهذا البئر، وهـي واد طويل، وخصب، وفـائـق الجمال، وقـد دفنت عظام يوسـف في شكيم، وفي الخامس والخمسين جبعه شاؤول حيث قتلت الـزوجة اللاوية(القضاة : ١٩ / ١٤)، وحيث كـان شـاؤول قـد ولد(صمـوئيل الأول : ١٠ / ٢٩)، وفي السـابع والخمسين Astaroth (Anathotl ?) [عند عطارة قـرب جبعـة]، وفي الحادي والستين بيت ساحـور العتيقـة، وفي الثـالث والستين بـزت(غـــربي بيت لحم)، وفي الســادس والستين بيـت هكاريم(جبل الفريديـس)، وهي مدينة قائمـة فوق رابية مـرتفعة،حيث

يمكن منها رؤية العربية كلها حتى جبل سعير، وأماكن اختباء داود، وجميع المناطق المحيطة بالبحر الميت حتى جبل عبريم، وإلى الغرب جميع شاطىء البحر من رامة الخليل حتى بئر السبع وقفار شور، وفي التاسع والستين ممرا حيث سكن إبراهيم، وكانت هناك البلوطة التي حدثنا إرميا بأنها بقيت حية حتى أيام الامبراطور ثيوديوس، وقد تابعت باستمرارنموها، وغدوها أكبر، ومنها نمت البلوطة التي يمكن رؤيتها في هذه الأيام هناك، والتي هي محل تبجيل، وهذه الشجرة، وإن كانت جافة، لقد تبرهن أنها دوائية، لأنه إذا ما حمل فارس قطعة منها معه، فإن فرسه لن يصاب بالعرج، وفي الفراغ الثامن عشر، والمربع الحادي عشر، توجد حاصور، وهي مدينة حصينة جداً(يشوع ١١ / ١)، وفي الحادي والعشرين تقوم NAASON في الوادي، وتقوم في الثلاثين عين دور، وفي الخامس والثلاثين جرزيل، على الجانب الغربي من جبل جلبوع، وذلك فوق مكان مرتفع بعض الشيء، وهي تعرف الآن باسم زرعين، وأمام أبوابها يمكن رؤية كفر نابوت، وينبع إلى جانب المدينة نبع، وعلى بعد رمية سهم عن جرزيل هناك مشهد فائق الجمال، إنه مشهد الجليل كله حتى جبال فينيقية وجبال الطور والكرمل، وجبل عفريم، وفي الثامن والثلاثين توجد زمين أو زليم(سيا) حيث شفا المسيح المصابين بالجذام(لوقا : ١٧ / ١٢)، وفي السادس والأربعين هناك الهيكل فوق جبل جرزيم، الذي تقدم ذكره أعلاه(القسم الأول — الفصل العاشر) وهناك يوجد أمامها عيبال حيث بنى يشوع مذبحاً وقدم ضحايا إلى الرب، وكتب أيضاً سفر التثنية، وتبعاً لبعض الروايات الوصايا من واحد من الاثنين، وقد وضع قسماً من الشعب مع كاهن ولاويين فوق عيبال، وقسماً آخر مع كهنة ولاويين فوق جرزيم، وقد طلبوا التبريكات واستنزلوا اللعنات بالتناوب حسبما أمرهم موسى، وفي التاسع والأربعين لبنه(في خان لُبّن)، وهي قرية جميلة، وهناك لبنة أخرى في منطقة سبط يهودا، وفي الثامن الخمسين تقوم بيت عور التحتا،

وفي الحادي والستين بيت زكريا،(كذا والصحيح أن بيت زكريا في عين كارم) حيث حيث مريم ايزابل، وفي الفراغ التاسع عشر والمربع السادس والعشرين تقوم رومة حيث كان يونه قد دفن ومن هناك نقل إلى المشهد (Ravenna) ، وفي الثامن والعشرين الطور،وفي الثلاثين نين، حيث أقام المسيح ابن الأرملة من الموت، وفي الثالث والثلاثين قاتل أهاب ضد السوريين. وفي الخامس والثلاثين قتل الفرعون نيخو Necho يوسيا Josiah، وفي السادس والخمسين شيلوه فوق رابية، ويعرف هذا المكان الآن باسم النبي صموئيل، وهو على بعد أكثر من فرسخ من جبعة شاؤول، والمسافة نفسها من الرام، وهناك رقد التابوه، وخيمة العهد، الذي صنعه موسى، وفي السابع والخمسين الجيب(جبعون) الذي جاء منه الجبعونيون، وعقدوا معاهدة مع يشوع(يشوع: ٢٢) عند سفح رابية، وفي الثامن والخمسين بيت نوبة(صموئيل الأول: ٢٢ / ١٩)، حيث أمر شاؤول بقتل الكهنة، وفي الثامن والستين ناحال اشكول(وادي اشكول) حيث حمل رجلان عنقوداً من العنب(العدد : ١٣ / ٢٢)، وفي الفراغ العشرين، والمربع الرابع والثلاثين سولم[شولم] على لحف جبل الشيخ، وذلك على الجانب الأيسر للطريق الذي يقود إلى جرزيل، وغالباً ما طرق اليشع هذا المكان وهو على طريقه من الكرمل إلى جلجل[الملوك الثاني: ٤ / ٨]، وعبر من هناك من خلال بيسان في المنطقة السهلية للأردن، لأن الطريق أقل مرتفعات، ومن شونم جاءت أبيشج الشونمية، الفتاة التي احتضنت داود[الملوك الأول:١]، وفي السادس والأربعين كفر حارث، حيث دفن يوشع، وفي الثامن والخمسين تقوم سكوز Succoth ، وفي التاسع والخمسين عمواس، التي هي سيكوبولس (Nicopolis)Sycopolis ، ويصعوبة تدعى بيت لحم، بيت لحم اليهودية، لتمييزها عن الأخرى الموجودة في عفريم(عين شمس)، وفي السادس والستين زكلاج Ziklag [في تلال الخليل]، وفي الفراغ

الحادي والعشرين، والمربع التاسع عشر القديس جرجس(اللد)، حيث من المعتقد أن ذلك القديس قد ولد، وهي قرية قائمة في منطقة تلية، في وادي جميل وخصب يمتد حتى بحيرة طبريا في منطقة سبط أشير، التي قيل عنها في سفر التكوين:«أشير خبزه سمين»[تكوين :٤٩ / ٢٠]، وفي السابع والعشرين توجد الناصرة، وفي الثلاثين المزرعة، وفي الحادي والثلاثين قلعة الفولة، ورامة الفولة، وراء الطريق الذي يقود إلى جرزيل، وفي سهل جرزيل الكبير أو سهل مجيدو، وهو أيضاً يدعى باسم سهل الفولة، أو الجليل الأدنى، أو سهل منطقة الجليل، ويمتد هذا السهل من طبريا مروراً ببيت لحم إلى مجيدو وجبل عفريم ثم يعود عبر جبل الطور وبيت أوليا إلى طبريا، وفي الثالث والخمسين عين عريك(إلى الغرب من النبي صموئيل)، وفي السابع والخمسين قريات — جيريم، وفي الحادي والستين المكان الذي جرى تعميد الخصي فيه(عين — حنينا)، وفي الثاني والعشرين، والمربع الرابع عشر توجد تيرون(تبنين)، وهي قلعة حصينة جداً بنيت من قبل صاحب طبرية من أجل الدفاع ضد صور، وهي على سبعة فراسخ من صور، ومن أجل صور انظر القسم السادس — الفصل الخامس، وفي الثاني والعشرين قانا الجليل، وفي الخامس والعشرين الصفورية، التي من أجلها أنظر القسم السابع المقبل، وفي الخامس والخمسين مسيدا Maceda [أو مكيدا Makkedah شرقي اللد، وربما قرب وادي عجلون]، وفي السابع والسبعين تل الصافي[قرب بيت جبرين]، التي من أجلها أنظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وفي الفراغ الثالث والعشرين، والمربع الثامن والعشرين القلعة الملكية(معليا في التلال شرقي عكا)، وكانت ملكاً لطائفة فرسان التيوتون، وهي مليئة بالفواكه وجميع الأشياء الجيدة، والفواكه قليلة من حولها، وفي الخامس والثلاثين مجيدو أو الزوبا(في مرج ابن عامر)، وفي السابع والخمسين لكش Lachish (شرقي الرملة)، وفي الثاني والستين قبر المكابيين(المعروف أنه قرب

اللطرون)، وهذا يمكن رؤيتـه من البحر،لأن المكان يقف مـرتفعاً، وفي الثـاني والسبعين تمنه(تبنه)، وفي الفراغ الرابع والعشرين، والمربع الثـامن عشر تقع قلعـة مـونت فـورت(القـرين)، وفي المربع التـاسع عشر هناك قلعة كـانت ملكاً لفرسان طائفة التيـوتون، فوق جبال سهل ابن عـامر، وفي التـاسع والعشرين تـل القيمـون، حيث قتل لامخ قـابيـل بوسـاطة سهم، وفي السادس والثـلاثين قاقون، أو منحته(كـذا ولا علاقة بينهما)، وفي الخمسين شـارون(سهل يـافـا)، فـوق جبل شـارون، وفي التـاسع والخمسين بيـت شمـس، وفي السـادس والسبعين بئـر السبـع أو جبلين(بيت جبرين)، وقـد تقـدم وصف هذا المكان في القسم السـادس — الفصـلان الخامس عشر، والثـامـن عشر، وفي الفـراغ الخامس والعشرين والمربع الحادي والخمسين تقـوم اللـد أو ديوسبيـولس، وفي الفـراغ السـادس والعشريـن، والمربع الخامس والخمسين رامتـايم صـوفيم(صمـوئيل الأول: ١)، التي هي الرملة الآن(كـذا) وقـد تقـدم وصفهـا في القسم السـادس — الفصل الرابع، وفي الفـراغ السـابع والعشرين، والمربع السـابع صرفنـد الصيـداويين، وأمـام البـاب الجنوبي يمكن رؤية بيعـة قـائمـة في المكـان الذي جـاء فيـه النبي إيليـا إلى المرأة الصرفندية، وسكن هنـاك، وأقـام ابنهـا مـن الموت، زيادة على هذا، من الممكن رؤيـة الغـرفـة الصغيرة التي سكن فيهـا، وفي الخامس عشر اسكندرون، التي تقـدم وصفهـا أعـلاه في القسم السـادس — الفصل الثـامن، وفي السـادس والعشرين المكان الذي قتـل فيـه إيليـا أنبيـاء بعل(الملـوك الأول: ١٨)، وفي الحادي والستين عقـرون، وفي الخامس والستين أشدود، التي من أجلها انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وفي الفـراغ السـابع والعشرين، والمربع الثـالث صيـدا، التي هي مدينة عظيمة، كانت قائمة في سهل طويل، يمتد من الجنوب إلى الشمال، عند سفح جبـال لبنان الغـربيـة، وقـد بني بين خـرائبهـا مـدينة أخـرى صغيرة، لكنها حصينة، وهي قائمة من أحد الجوانب في البحر، ولها من

جـانبيهـا قلعتين حصينتين، تقـوم إحـداهما في الشمال فـوق صخـرة في البحـر، وقد بنيت هناك من قبل حجـاج ألمان، أمـا الثانيـة ففي الطرف الجنوبي، فـوق تلة، وامتلك فيها مضي هاتين القلعتين مع البلدة فرسـان الداوية، والأرض هناك خصبـة جداً، والهواء لطيف جـداً، وفي الثالث عشر، صور ، وفي الثـامن عشر عكا، وفي السابع والعشريـن حيفا، التي من أجلها انظر القسم السـادس — الفصل الثالث، وفي الثـلاثين قلعة الحجاج[عثليت]،وفي الأربعين قيساريـة، وفي السابع والأربعين أرسوف أو الطنطورة أو Antipatris ،وفي الثـــالث والخمسين يـافـــا، وفي الخامس والخمسين ميناء اليهـود(مينة روبين — شمالي يبنا)، وفي السـابع والسبعين غزة، ومن أجل هؤلاء جميعاً انظر الفصل المتقدم.

الفصل الرابع

أوضاع الجبال في المنطقة الواقعة فيما وراء الأردن، نحو الشرق

يمتـد جبل الشيخ فيما وراء الطريق الذي يقـود إلى حماة، الذي تقـدم وصفـه في الفصل السـالف، وانتبـه إلى أن في لبنان وجبل الشيخ وسعير أو سنير(كذا وسنير هو جبل الشيخ) وجلعاد، والمنطقـة التلية حول نبع أرنون، والهضاب بين عمان ومآب والعمـورية، كلها جبل واحد متصل، مع أن أجزاء متعددة منه تحمل أسماء مختلفة بسبب ارتفاع قممها، وأعلى هؤلاء جميعاً هو جبل جلعاد، وبنـاء عليه يمكننا الاستماع إلى إرميا وهو يقول:«جلعاد أنت لي، رأس من لبنـان»[ارميا : ٢٢ / ٦]، ونقبل صحة ذلك حرفياً، ويمتد جبل الشيخ المتقدم الذكر حوالي عشرة فراسخ، ومن بعـد ذلك تنعطف سلسلة الجبـال وتستـدير نحـو الجنوب، ويدعى أول هذه الجبـــال باسم جبل سعير أو سنير، وهـو ينتهي عند سفــوح جبل جلعـاد عند مكان يطل مواجهـاً مدينة بيسـان وجبل جلبوع، وآخـرهم ويدعى أيضـاً سعير، وهـو ينتهي قـرب القفـار، عند النهـاية الجنوبيـة لأرض الميعـاد، وهناك حسبما جـاءنـا الخبر في سفـر التكوين[١٤ / ٦]

ضرب كـدر لعـومـر والملوك الآخـريـن الذين معـه الحوريين في جبلهم سعير،لكنه لم يكن آنذاك يعـرف باسم سعير، ذلـك أنه حمل اسم سعير لأن عيسـو الذي حمل الجبل اسمـه منه لم يكن قـد ولد بعـد، ولهذا من المعتقد أنه دعي بهذا الاسم عن طريق التـوقع واستباقاً للحـدث، ونقرأ في سفر التثنيـة — الاصحاح الثالث(كذا):«أنتم مـارون بتخم أخوتكم بني عيسو الساكنين في سعير»[التثنيـة : ٢ / ٤]، وقد قيل هذا في قادش — بارينا، عندمـا كـانـوا على وشك القـدوم إلى جبل سعير هذا،لأننا لم نقـرأ أن بني إسرائيل قـد جـاءوا في ذلك الـوقت إلى جبل سعير هذا، الذي هو قريب من دمشق، وقد سكـن عيسو في هذا الجبل عندما رجع يعقوب من بلاد الرافدين، حسبما قـرأنا في«التكوين:٣١»، وذلك عندما أمسك لابان بيعقوب عندمـا أُستلب على جبل جلعاد، وكذلك مـا جاء في الاصحاح التـالي من أن يعقوب عندمـا كان على طريقـه التقى ملاك الرب وقـال له:«هذا معسكر الرب»، فـالمكان مـوجـود على ذلك الجبل نفسه، ومن هناك أرسل رسلاً إلى عيسـو،وعاد الرسل إليه وأخبروه بأن عيسـو كـان قـادماً لمقـابلتـه، ومعـه أربعمائـة رجل، وبناء عليـه أمضى يعقـــوب في المعسكر — أي محنايـم — تلك الليلة، وأرسل هـدايا إلى أخيه، ونهض باكراً، وأخذ زوجتيـه وأولاده، واجتاز مخاضة يبوق، التي تبعـد حوالي ثلاثة فـراسخ عن محنايم، وفي الاصحـاح الثاني والثـلاثين، رأى عيسـو قادمـاً، إلخ، وجـاء بعـد هذا:«فرجع عيسـو ذلك اليـوم في طريقه إلى سعير»(تكويـن:٣٣ / ١٦)، وهذا لا يمكن فهمه حسبما أشير إلى سعير، الذي هو قرب القفـار، إلى الجنوب، لأنه بعده يزيد على مـائة ميل، وذلك بسبب مختلف الزوجـات الـلائي تزوج منهن، فقـد كـانت عنده زوجه هي أهـوليبامة بنت عنى بنت صبعـون الحوي، الذي سكن في سكيزوبولس أو بيسان قرب بحيرة طبرية وغير بعيد عن جبل سعير، وزوجة أخرى هي بسمة ابنة إسماعيل، وأخت نبايوت، وقد سكن أبناء حوز في جبل آخر اسمه سعير ليس بعيداً عن قفار فاران، على مقربة من

مكان إسماعيل، جدهم لأمهم، الذي أخبرنا عنه في«التكوين ٢١» بأنه سكن في القفار، وصار رامياً بالقوس، وهناك أيضاً جبل ثالث اسمه سعير على حدود أشدود وعسقلان، في حصة ميراث سبط يهوذا، والذين سكنوا هناك عرفوا باسم الأدوميين، وإليهم ينتسب أنتباس Antipas، وابنه هيرود، وكل من ينتمي إلى عسقلان يدعى أدومي، ويمكننا أيضاً أن نقسم جميع الأرض فيما وراء الأردن هكذا: وأول منطقة إلى الشمال هي الطرخونية، وقد عرفت بهذا الاسم بسبب قلة ماء المطر، غير أنهم يجمعون ماء المطر في صهاريج وبرك وينقلونه من مكان إلى آخر بوساطة طرخونات(أنابيب مثل الأفاعي)، وعرفت هذه المنطقة في«يشوع ١١» باسم سهل لبنان، وهو يمتد حتى جمالا(الحصن شرقي بحيرة طبريا) وإلى بحيرة طبريا، وهناك في المقام الأول أرض عوص، وفي القسم التالي إلى الجنوب نصف سبط منشا، ثم يلي ذلك سبط جاد عند سفح جبل جلعاد، ثم سبط راؤبين، بما في ذلك مملكة سيحون ملك هشبون، ويلي هذا منطقة مآب السهلية دون جبل عبريم، في شطيم، حيث نزل بنو إسرائيل هناك لمدة طويلة أمام أريحا، وتمتد أرض مآب حتى البتراء في القفار، مسافة عشرين فرسخاً تقريباً، ويأتي أخيراً جزء من أرض عمون التي تمتد طولياً لتغطي طول البحر الميت، ويصل طرفها الجنوبي حتى ما حول جبل سعير، بقفار فاران قرب قادش — بارينا، وهناك على هذا الطرف قفار سيناء والبحر الميت، غير أن منطقة مآب ومنطقة عمون لم تكونا جزءاً من أرض الميعاد.

الفصل الخامس

وضع الجبال الرئيسية على هذا الجانب من الأردن

يبدأ لبنان بعد جبل الشيخ(انظر الفصل الثالث) وجبال لبنان الشرقية حيث حاصور على نهر الليطاني(القسم السادس — الفصل السادس)، وتمتد هذه لمسافة سفر خمسة أيام، وخمسة فراسخ دون طرابلس، ودون

هذا إلى الجنوب، يـأتي جبل شـارون(جبل يافـا)(انظـر الفصل الثـاني المتقـدم) وعلى مسافـة فـرسخ طويل واحـد من عبلين Abilene يقوم جبل بيت أوليا حيث قتلت يهوديت هولوفرنس، ومن الممكن رؤية هذا الجبل من جميع أجزاء الجليل تقـريباً، ويمتد باتجاه الغـرب ليصل إلى قانا الجليل، وعلى مقربة منه في الجهة الجنوبية الوادي في سهل دوثان، حيث غسلت يهوديت نفسها، وهو الذي اجتازته عندمـا عادت إلى بيت أوليا، ودون هذا الجبل نفسـه، في جهـة الجنوب، يوجـد سهل يمتـد من قـانا الجليل حتى صفـورية، وهوسهل خصب وجميل، ويأتي بعده جبل آخـر نحـو الجنوب، وهو الذي يمتـد من الناصرة في الغـرب حـوالي الثمانيـة فـراسـخ إلى الشرق، حيث دوثان(خـان جب يوسف)، وعلى بعـد فـرسخين من الناصرة يقـوم جبل الطور، الذي سيأتي وصفـه فيمايلي في الفصل السابع، وفيما وراء جبل الطور، نحـو الشرق يقوم وادي شوى، الذي هو وادي الملك، وعلى بعـد فـرسـخ واحـد من جبل الطور يقـوم جبل النبي ضـاحي(حـرمـون الصغير)، وهو هضبـة صغيرة، روابطهـا حرمـونية، وهي أرض مرتفعـة وليست جبلاً، وهي متصلة بجبل الطور وفـوقهـا عين دور، حيث سكنت المرأة التـي كـانت فيهـا روح عـادية(صموئيل الأول:١٨)، ويمتـد حـرمون، الذي على طرفـه الشمالي نعيم Naim، حوالي أربعـةفراسخ حتى نهاية بحيرة طبرية، وعند سفح جبـال الناصرة، والطور، وحـرمـون، وإلى جـانب البحـر، يقـوم جبل الكرمل، الذي في نهايتـه القصـوى، وذلك نحـو الجنوب الشرقي قتل لامخ قـابيل بسهم، ومـن أجل وصف للكرمل انظر مـا تقـدم، وإلى الجنوب خلف حـرمـون هناك جبـال جلبوع، وهي تمتـد من بيسـان إلى جرزيل نحو الشرق لمسافة ثلاثة فراسخ، وعلى بعد قرابة رمية سهم من هذا المكان، ينبـع نبع جـرزيـل، حيث نصب الفلسطينيـون معسكرهم عندما كان شاؤول في جلبوع، وهناك مجرى مـاء آخر يسيل من حرمون بين هذا النبع وبيسـان، ويجتمع بهذا النبع، ويتـدفقـان معـاً عبر وسط

الوادي إلى الأردن، ومقياس هذا الوادي حوالي الفرسخين بالعرض، وفيه قاتل جدعون ضد مدين Midian [القضاة: ١٢]، وقاتل أهاب ضد السوريين[الملوك الأول:٩] وكان ذلك في هذا السهل أيضاً، على الجانب المتجه نحو الأردن، لأنه الوادي المشهور، الذي يمتد بعيداً حتى البحر الميت، وبعد جلبوع ونحو الجنوب، تأتي البيرة، حيث تبدأ جبال السامرة، وبين هذه الجبال والأردن حوالي الثلاثة فراسخ، وتقع فيها أرض تمنه(تمّون)، التي تحتوي على جبال عالية جداً، وهي تمتد نزولاً إلى المنطقة السهلية للأردن، وأما الجبل الذي تقوم عليه البيرة،فيبعد مقدار فرسخين، وهو ينشطر إلى جبلين باتجاه الجنوب، وعلى أحدهما، وهو الذي قائم في الغرب، والذي هو جبل مرتفع، وضع فيه يربعام واحداً من العجلين الذهبيين، ووضع العجل الآخر على بعد نصف فرسخ، على جبل أعلى قائم باتجاه الشرق، ومهما يكن من أمر، فإن بعضهم يعتقد بأن ذلك قد كان في دان، التي تدعى ليش Laish ، وتقوم في الوادي بين هذين الجبلين شكيم التي هي نابلس الآن، وهي مكان فائق الجمال، لكن لا يمكن تحصينها لأن الحجارة من الممكن رميها من الجبلين هناك، ومن أجل عرض عن هذين الجبلين، انظر الفصل الثالث، ويأتي بعد هذا إلى الجنوب المنطقة التلية لليهود ية والقدس، ومن أجل عرض عن القدس، وصهيون، والجوار، انظر الفصل السادس، والفصل السابع، ومن أجل القرنطل، انظر الفصل الثالث، وتقع عين الجدي وراء القرنطل باتجاه الجنوب، وعين الجدي جبل مرتفع كثيراً على الشاطىء الغربي للبحر الميت، ولهذا الجبل شكل غريب حيث فيه شعاب صخرية منزلقة ووديان، وفي عين الجدي اعتادت نباتات البلسم على النمو، لكن في أيام هيرود صاحب عسقلان، أخذت الملكة كليوباترا هذه النباتات إلى مصر، بفضل مساعدة مارك أنطوني، وفي مصر يستطيع المسيحيون فقط العناية بها، وعند نهاية عين الجدي يقوم جبل الكرمل، حيث سكن نابال، ووراء ذلك تقوم عمالق -Am

alek، ويعد ذلك بـاتجاه البحر الأحمر تقوم قـادش — بارينا، التي منها أرسل مـوسى الجواسيس، وقد أقـام بنو إسرائيل هناك لمدة طويلة، ومن هناك أمروا بالارتحال حول جبل سعير الموجود في أدوم قرب قفار تل معين، نحـو الجنوب — الشرقي، ومن هناك رجعوا بوسـاطة طريق البحـر الأحمر، وجرى وصف قفـار تل معين في الفصل الثـالث، وجبل بيت لحم في الفصل العـاشر، وجبل رامـة في الفصل الثـالث، وليكن في هذا كفاية فيما يتعلق بالجبال.

الفصل السادس

مجاري المياه والأنهار في الأرض المقدسة

ينبع الأردن من سفح جبل لبنان(الفصل الثـالث)، ويقـولون بأن نهر دان ينبع من نبع اسمـه بركـة الرام(Phiale) التي تراها دومـاً مليئة لكنها لم تفض قط، وهي قـائمة في الفراغ السـادس والمربع الثامن عشر، ويقـولـون بأن سبب هذا، لأنهم وضعـوا قشـاً في ذلـك النبع فـوجـدوه ثانيـة في دان، ولهذا السبب قالـوا بأن ذلك هو النبع الحقيقي للأردن، ولهذا السبب أطلـق المسلمـون على ذلـك النبع اسم«ميـدان»، وهذا ترجمة لكلمـة معناها«مـاء دان»، وقـد دعـاه القـديس مـرقص دلمانوتة(مرقص:٨ / ١٠)، وسماه القديس متى مجدل(متى :١٥ / ٣٩)، وحين بدأ نهر الأردن على هـذه الشـاكلة فقـد فصل الايطوريـة عن الطراخونيـة، وهو يتدفق في البـداية ويسير باتجاه الشرق، لكن بعد ذلك باتجاه الجنـوب، وفي منتصف الطريق بين منبعـه وبحيرة طبرية يـدخل وادياً حيث ينتشر هناك فيتحول إلى مستنقعـات، وخاصـة عندما يذوب الثلـج مـن على جبل لبنـان، ويعـرف هذا المكـان بـاسـم بحيرة ميرون(الحولة)، وهـو المكان الذي تحارب فيـه يشـوع مـع يبين ملك حـاصور وأربعـة وعشرين ملكاً آخـرين، ويجف هذا الماء كله تقريبـاً في الصيف، وتنمو النباتات، حيث الأسود والدببة، وأمثالها من المخلوقات

تمتلك بيوتها، ومن ثم يمكن إقامة صيد ملكي هناك، ويجري نهر الأردن من هناك ليدخل بحر الجليل فيها بين كفرناحوم وكورزين، وعرف هذا البحر بهذا الاسم لأنه مجاور للجليل، وهو أيضاً يعرف باسم بحر طبرية، اشتقاقاً من أقرب مدينة منه، ويعرف أيضاً باسم بحر جنسارث، وذلك حسب رواية بيد Bede وتتولّد أمواجه الملتوية من الريح، أو من قطعة الأرض الصغيرة التي اسمها جنسارث، التي يجري عبرها متدفقاً، وتبعاً لبيد فإن طوله مائة وأربعين ستاديا، وأربعين ستاديا هو عرضه، ويتدفق الأردن بعد هذا ويجري باتجاه الجنوب، ويدخل إلى البحر الميت، الذي يفصل العربية عن اليهودية، وهو يمتد نحو الجنوب قرابة خمسة وثلاثين فرسخاً، أي أنه يمتد حتى قادش — بارينا وقفار فاران، ويعتقد بعضهم بأنه يمتد حتى البحر الأحمر، هذا والمسافة بين هذين البحرين تقدر بسفر خمسة أيام، ويعتقد الناس أن المياه على الطريق، التي ورد ذكرها في الخروج ١٥، والتي اسمها مياه مارة تأتي من هذين البحرين، وأعلن بعضهم أن مياه الأردن لا تدخل إلى البحر الميت، لكنها عندما تصل إلى هناك تبتلعها الأرض، لكن الذين يعرفون يقولون بأن هذه المياه تدخل إليه وتخرج منه، وأن مياه الأردن بالأخير تبتلع من قبل الأرض على مسافة ليست بعيدة من هناك، ولهذا ترتفع مياه البحر عندما ترتفع مياه الأردن، وذلك عندما يذوب الثلج من على جبل لبنان والجبال الأخرى، وعندما تكون هناك أمطار غزيرة، ولون هذا البحر دخاني بشكل دائم، وهو مظلم كأنه مدخنة الجحيم، ويصب نهر يبوق Jabbok في الأردن من الجهة الشرقية، وهو ينبع في الفراغ الثاني، والمربع الخامس والأربعين، ويجري أحيانا إلى الغرب وأحيانا إلى الشمال، وهو يدخل إلى الأردن على بعد ثلاثة فراسخ من بحيرة طبرية، وهو يشبه نهر أرنون الذي ينبع من جبل بسغا، ويدخل إلى الأردن تحت جازر، ومثل هذا يدخل نهران صغيران آخران إلى البحر الميت، أحدهما عند بدايته وثانيهما بعد ذلك بقليل على مسافة

تسعـــة فــراسخ إلى الجنوب، وفي الغــرب النهــر الصغير الذي دعـــاه يوسفيوس الأردن الصغير، من هناك يدخـل إلى البحر الميت، وهو ينبع عند القلعة الملكيـة (معليا)، وهو متصل بنهر صغير آخـر يأتي من قرب كـابول [الملوك الأول: ٩/ ١٣]، وهو يـدخل إلى بحيرة طبرية عند بيت صيـدا، وقـريب من المكان نفسـه، ولكن أكثـر نحـو الجنوب، هناك نهر صغير آخر يدخل فيها، ويأتي هذا النهـر من ينابيع موجودة على أطراف دوثان، وإلى جانب مجدله هناك نهر صغير آخـر يأتي من جبل بيت أوليا، ويدخل إلى البحـر، وينبع نهر قيشـــون الصغير أيضـا عند سفح الطور، على الجانب الشرقي حيث قـاتل برق ضـد سيسرا، ويتشكل هذا النهـر من ميـاه الأمطار التي تتساقط على جبل الطور، وجبل الشيخ، والتـلال الصغيرة لجبل الشيخ، ويجري جـزء منـه وينزل حتى نهاية بحيرة طبرية، بينما يجري الشطر الآخـر ليصب في البحر المتـوسط على بعد ميل واحـد من حيفـا، وثلاثة أميـال من عكـا، وهو يدخل إلى البحـر قـرب المكان الذي قتل فيـه ايليـا كهنة بعـل (الملوك الأول: ١٨)، ويتلقى هذا النهـر كثيراً من الماء من جبل عفـريم، ومن الأماكن التي هي حـول السامـرة، ومن جميع سهل جـزر يل العظيم، وجبل قـابيل (تل قيمون)، ومجيـدو، وهناك نهر صغير آخــر يتـــدفق من الجانب الشمالي لجبـل الشيخ، وهو يصب بالنهـر الذي يجري متـدفقـاً من نبع جـزريل، ويصب في الأردن دون بيت لحم، ويصب نهر يبوق أيضاً، وهو الذي تقـدم ذكره أعلاه — الفصل الثـالث— في الأردن مقابل العـال، ويجري نهر كيرث نزولاً من الجبل الذي أطعم فيـه ايليـا من قبل الصقـور، ويعبر إلى الشرق قـرب الفصيل، وقـد تقـدم وصف جب اليشع في الفصل الثـالث، فضـلاً عن هذا تجتمع المياه الموجودة حـول القدس بالمياه التي تسيل نازلة من جبل عين الجدي، وتدخل الى البحـــر الميت عند بدايتـــه، دون المكان الذي يصب نهر الأردن فيه.

وأول الأنهار التي تصب في البحر المتوسط، وهو موجود بالشمال: نهر الليطاني، الذي من أجله انظر أعلاه الفصل الثاني، ويأتي بعده باتجاه الجنوب «بئر مياه الحياة»، الذي تقدم وصفه أعلاه في القسم السادس— الفصل الثامن عشر، ويلي ذلك النهر الذي يجري قريباً من القلعة الملكية (معليا)، الذي يتدفق فيما بين القرين ويودين Iudyn ، ويدخل إلى البحر ويصب فيه قرب لمبرتي (حمصين)، ثم يلي ذلك— قرب عكا نهر يصب في البحر وهو ينبع على بعد خمسة أميال، ثم يأتي بعد ذلك نهر قيشون، الذي تقدم للتو وصفه أعلاه، ثم يجري بعد ذلك نهر من قرب سيسلك Sycelec ، وهو الذي يصب في البحر فيما بين قيسارية وأرسوف، ويأتي بعد ذلك نهر يجري من موضع بين بيت زكريا وعمواس خلال وادي ريفائيم Rephaim ، ويمر قرب الرملة، ويصب في البحر قرب يافا، وبعد هذا هناك نهر يجري نزولاً من قرب بيت صور، ويسير أولاً باتجاه الغرب، ثم ينعطف جنوبياً، ويجتمع مع النهر القادم من عين حقور في لحي، والذي يجري من الشمال، وقرب هذا المكان كان قد جرى تعميد الخصي (عين حنينا)، وهو يجري من هناك نزولاً إلى ستاؤل Staol قرب عسقلان، من جهة الغرب، ومن ثم يصب في البحر، ويأتي أخيراً نهر بيصور Besor ، الذي ينحدر من جبل الكرمل، فيما وراء بير السبع، وينعطف باتجاه غزه، ومن ثم إلى البحر.

الفصل السابع

الحج من عكا خلال الناصرة حتى القدس

كل من يود زيارة الأماكن المقدسة في أرض الميعاد المختارة، عليه أن يبدأ من الناصرة، حيث بدأ مخلصنا، ويبعد هذا المكان سبعة فراسخ عن عكا، وعلى الطريق إلى صفورية يجد الانسان قلعة، قيل ولد فيها جيمس ويوحنا ابنا زبدي [قلعة شفا عمرو]، ويرى الانسان في الناصرة المكان

الذي أعلن فيه ملاك الرب جبريل، إلى العذراء مريم المباركة بأن القدر الذي رسم منذ البداية من أجل مخلص العالم قرب موعد تنفيذه،وحول هذا وللمزيد من المعلومات انظر القسم السابع- الفصل الثاني،ويوجد في البيعة التي بنيت هناك ثلاثة مذابح،وقد نحتت هذه البيعة من الصخر،وذلك مثل بيعتا المهد والقيامة،وفي الحقيقة جزء كبير من المدينة القديمة قد نحت في الصخر،وهذا ما يمكن رؤيته في هذا اليوم،وهناك من الممكن رؤية الكنيس،الذي جعل منه الآن كنيسة، حيث تسلم المسيح سفر إشعيا، وقرأ منه«روح المولى الرب علي»[اشعيا: ٦١ / ١]، وعلى بعد رمية أربعة أسهم إلى جنوب المدينة يقوم المكان الذي يدعى«قفزة الرب»،وهو حيث أراد اليهود أن يرموه إلى مكان سحيق، لكنه نجا من بين أيديهم، ورؤي فجأة على طرف الجبل المقابل، وعلى بعد رمية سهم المكان الذي يمكن أن يرى فيه طبعة جسده على الصخرة، ومن ذلك الجبل يمكن للإنسان أن يرى جبل الطور، وجبل الشيخ(حرمون) الأصغر، وحرمونيم، وقرى: عين دور، ونين، وجرزيل، وعرض جميع سهل مرج ابن عامر الكبير وعمقه، وعلى بعد فرسخين من الناصرة تقوم الصفورية، وهي مكان ولادة القديسة حنة، وهناك قلعة جميلة جداً فوق البلدة، ويقال بأن يواكيم قد ولد هناك، وهذا المكان موجود في ديار سبط أشير قرب وادي الكرمل(وادي الملك)، وعلى مسافة فرسخين ونصف الفرسخ من صفورية تقوم قانا الجليل، التي جاء منها سمعان القاني وناثائيل، وفيها من الممكن رؤية المكان الذي وقفت عليه جرار الماء الست، حيث حوّل المسيح الماء إلى خمرة، وغرفة الطعام حيث كانت المائدة قائمة، وهذه الأماكن مثلها مثل الأماكن الأخرى التي عمل فيها المسيح معجزات، كلها تحت الأرض، وينزل الناس درجات كثيرة إليها، ويدخلون إلى كهف، مثلما يدخلون إلى موضع البشارة، والمهد، وأماكن أخرى كثيرة، ويبدو أن سبب هذا هو الهدم المتوالي للكنائس، حيث علت خرائبها فوق الأرض، وبعد

تسوية هذه الخرائب أقيمت فوقهـا أبنية أخرى، وبناء عليه بنى المؤمنون أدراجاً تقود إلى الأماكن الأصيلة، ومن ثـم قاموا بزيارة الكهوف، وعلى مقربة من هـذه المدينة، وفي جانب اليمين هناك رابية طـويلة ومستديرة، تقوم على سفوحها وجـوانبها المدينة، ودونها، نحو الجنوب، يوجد سهل جميل، وخصب، وممتع، وهو يمتـد نحـو الصفـورية، والنظام الذي على الحجاج اتباعه في زيارة هذه الأماكن هو الذهاب من عكا، والسير خمسة فـراسخ نحـو الشرق حيث تقـوم قـانا الجليل، ومنهـا إلى الجنوب عبر الصفـوريـة والناصرة، وعلى فـرسخين من الناصرة يقـوم جبل الطور، حيث تبدلت هيئة الرب، وهناك من الممكن رؤية خـرائب ثلاثة هياكل، بنيت بناء على رغبة بطرس، وهناك أيضـاً خرائب أبنية كثيرة، حيث هي الآن بيـوت للأسود وللحيـوانات المفترسـة الأخرى، وعلى هذا يوجـد هنا أيضـاً مكان مناسب للصيـد الملكي، والجبل صعب الارتقـاء، وهو مرتفع جداً، ومـوائم للتحصين، وعند سفحه، في الجانب الجنوبي، وعلى الطريق الذي يقـود من سـورية إلى مصر، يوجد المكـان الذي قابل فيـه مليكصـادق إبـراهيم، وهو عـائــد من قتل الملوك الأربعـة في المنطقـة المجاورة لدمشق، وعند سفحه في الجهة الغربية، في مقابل الناصرة، تقوم البيعة التي بنيت فوق المكان حيث قال المسيح لحوارييه: «لا تخبروا أحداً بالذي رأيتمـوه»، إلخ، في حين يسيـل من سفحـه، على الجانب الأيسر، نهر قيسـون، وعلى فـرسخين من الطور، نحـو الجنوب الشرقي، توجـد نين، حيث أقام المسيـح ابن الأرملة من الموت، وعلى مسافـة خمسة عشر فـرسخاً من هناك توجـد الناصرة، ومن هناك إلى القـدس طول الطريق مائة وثلاثة(؟).

الفصل الثامن

الحج خلال مدينة القدس المقدسة وجبل صهيون

عندما تزور هذه الأماكن الأعظم قداسة، التي لا يكاد يكفيها يوم واحد، عليك أن تدخل من باب بنيامين، أي من باب القديس ستيفن، ثم عليك قبل كل شيء أن تزور كنيسة الضريح المقدس، الذي هو المكان الأكثر قداسة في العالم، وهذه الكنيسة دائرية، وقطر الدائرة، ثلاثة وسبعين قدماً بين الأعمدة، من دون احتساب الأجزاء نصف الدائرية التي مقياسها ثلاثين قدماً، وهي قائمة حول دائرة الأعمدة، وحول ضريح الرب القائم في وسط هذه الكنيسة نفسها، هناك استدارة مفتوحة، وبذلك جميع القسم الداخلي من كنيسة الضريح المقدس مفتوح نحو السماء، وكنيسة الجلجلة مجاورة لهذه الكنيسة وهي ذات شكل مستطيل، وهي بمثابة شرفة لكنيسة الضريح المقدس، ولها سقف منخفض بعض الشيء، غير أن الكنيستين تحت سقف واحد، وقبل أن يتسلم المسيحيون الحكم في هذه الأجزاء، بنيت كنيسة بحجم بيعة فوق المكان الذي صلب فيه المسيح، وحيث وجد الصليب، لكن عندما تملك المؤمنون هذه الأجزاء لقد اعتقدوا أن هذا كان صغيراً، وضيقاً، ولذلك قاموا بتشييد بناء جديد، وعالي النفقات، وجميل، وقوي متين، ضم في إطاره جميع الأماكن المقدسة، وباب الضريح المقدس منخفض كثيراً وصغيراً، وقد جرى وصف شكل الضريح المقدس في القسم السابع — الفصل الثاني، وهو كهف من دون أية فتحات، ولهذا لا يوجد فيه مكان يمكن للضوء أن يدخل منه إليه، وهناك تسعة مصابيح تؤمن الاضاءة الدائمة، وهناك أيضاً كهف آخر أمام هذا الكهف الذي فيه الضريح المقدس، وله الطول نفسه، والعرض والشكل، وهذان الكهفان يبدوان وكأنهما كهف واحد، حيث يدخل الانسان من أحدهما إلى الآخر، وإلى داخل هذا الكهف الخارجي دخلت النساء عندما قلن:«من الذي سيزيح الحجرة من باب الضريح»؟ وقد انزاحت هذه الحجرة حتى باب الكهف الداخلي، وفي هذا اليوم هناك جزء كبير موجود أمام هذا الباب المتقدم الذكر، وقد نقل الجزء الباقي منها إلى جبل صهيون، حيث يستند

عليها أحد المذابح، وإلى جانب خلوة الضريح المقدس هناك عمود يحمل صورة تمثل القديس بانتاليون Pantaleon ، وكان عندما قام واحد من المسلمين باقتلاع عيني هذا التمثال، سقطت عيناه فوراً على الأرض، ويقوم جبل أكرا(الجمجمة) حيث صلب الرب على بعد مائة قدم وثمانية أقدام عن موضع الضريح المقدس، وعلى الانسان أن يصعد تسعة عشر قدماً فوق رصيف الكنيسة، إلى المكان الذي نصب فيه الصليب، والصدع الموجود في الصخرة حيث جرى تثبيت الصليب، يبلغ من الحجم مقدار ما يتسع لاستيعاب رأس إنسان، وهو عميق مفتوح من المكان الذي وضع فيه الصليب حتى رصيف الكنيسة، أي مقدار تسعة عشر قدماً، ومايزال لون دم مولانا يسوع المسيح ظاهراً حتى هذا اليوم في الصدع في الصخرة، وكان هذا الصدع موجوداً تحت يده اليسرى، وجرى بناء مذبح فائق الجمال قرب هذا المكان، حيث كانت يده اليسرى، وقد زين بالرخام، وقد عملت أرضية هذه البيعة ورصفت أيضاً بالرخام، أما الجدران فقد غطيت بالرخام، وزينت بأعمال الفسيفساء، والمكان الذي جرى تثبيت الصليب فيه عبارة عن فتحة عمقها كفان، وهي واسعة بما فيه الكفاية لاستيعاب رأس إنسان، وعلى بعد عشرة أقدام من الجمجمة، وعلى الجانب الأيسر، هناك مذبح يوجد تحته عمود، عنده جرى جلد الرب، وقد جلب إلى هذا المكان من بيت بيلايطس، وجرت تغطيته بحجر المذبح بطريقة يمكن بوساطتها لمسه، ورؤيته، وتقبيله من قبل المؤمنين، وهو حجري من نوع الرخام السماقي الداكن، مع بعض البقع الحمراء الطبيعية، وهي التي يدعوها العامة بقع دم المسيح، وقد جرى نقل جزء آخر من هذا العمود إلى القسطنطينية، وهناك مثل هذا مكان آخر، على الجانب الأيسر من الكنيسة، فيه عمود اسطواني صغير، يقال بأن يسوعاً قد ربط إليه وجلد، وعلى بعد اثني عشر قدماً إلى الشرق من المذبح، يذهب الانسان من أمام العمود، وينزل ثمان وأربعين درجة إلى المكان الذي وجدت فيه هيلانة(حنة)

الصليب، ويوجد هناك بيعة مع مذبحين، تحت الأرض، ففي هذا المكان تم العثور على الصليب، ومن المعتقد أنه كان واحداً من خنادق المدينة القديمة، التي كانت تطاح إليها الصلبان بعد إنزال الأجساد من عليها، والمكان الذي وقفت فيه العذراء المباركة قرب الصليب مع النساء الأخريات لم يكن تحت الذراع الشمالي للصليب، حسبما يعتقد كثيرون، بل أمام وجه الابن، تقريباً في مواجهة الغرب، ومن الممكن رؤية هذا المكان عند سفح الصخرة المتقدمة الذكر، وعلى مقربة منها يمكن رؤية المكان الذي غسل فيه يوسف الرامي ونيقوديموس يسوعاً بعدما أنزلاه من على الصليب، ويقال بأن الرب يسوع قد أشار إلى هذا المكان، وأعلن أنه كان وسط العالم، وهو يقوم في وسط شرفة جوقة المنشدين، وعلى الجانب الأيسر من شرفة جوقة المنشدين هناك موضع سجن المسيح، وقرب هذا المكان الذي قابل فيه مولانا مريم المجدلية، وذلك عندما قام من الموت، وقد افترضت أنه الحدائقي فقالت له: «سيدي، إذا كنت أنت قد حملته من هناك، أخبرني أين مددته، فأنا سوف أنقله»، وقد أقاموا في هذا المكان مذبحاً، ذكرى لهذا الظهور، وذلك فوق في مقابل الضريح المقدس، ويذهب الانسان من هناك إلى الباب الغربي، حيث تحولت القديسة مريم المصرية إلى الإيمان، بسبب أنها لم تستطع أن تدخلها مع بقية المسيحيين الآخرين، ويوجد أيضاً في هذه الكنيسة عدد كبير من المذابح المبنية بشكل جيد، والحسنة التزيين.

ويتوجب بعد هذا على الحاج أن يذهب إلى جبل صهيون، وعلى الطريق هناك — عبر مايقابل برج داود — يجد الانسان المكان الذي قتل فيه هيرود أغريبا جيمس أخو يوحنا بالسيف، ويقترف خطأ من يقول بأن رأسه قد جلب إلى هناك بأيدي الملائكة من يافا، ودفن هناك، وأول ما يجد الانسان على جبل صهيون كنيسة القديس المخلص، التي كانت في يوم من الأيام بيت كيفياس، ففيه سكن المسيح وأقام حتى

الصباح، بعدما اعتقل، وحدث هناك أيضاً أن قام رؤساء الكهنة مع جميع أعضاء المجلس بالبحث عن شهود زور ضد يسوع، في سبيل قتله، وفي هذا المكان حدث أن قام الكاهن الأعلى، وقال له:«أستحلفك بالرب الحي أن تقول لنا هل أنت المسيح ابن الرب» وقد أجابه يسوع قائلاً:«من الآن تبصرون ابن الانسان جالساً عن يمين القوة وآتياً على سحاب السماء»[متى:٢٦ / ٦٤ — ٦٥]، ثم قام الكاهن الأعلى بتمزيق ثيابه، لكن ما يشبه مئزر المسيح لم يمزق، الأمر الذي يرمز إلى نمط تهديم الكنيس وقوة الكنيسة، ثم أعلنوه مجرماً يستحق الاعدام، وبصقوا في وجهه، وضربوه ولكموه، وسخر آخرون منه واستهزأوا به وهم يضربونه، ولطموه على وجهه وضربوه وغطوا عينيه قائلين:«تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك»؟ وشتمه آخرون كثر منهم، وتفوهوا بالتجديف وهم يخاطبونه وفي العادة من الممكن رؤية جزء من العمود الذي ربط إليه حتى الصباح وجلد، وهناك أيضاً في هذا المكان من الممكن رؤية السجن، الذي سجن المسيح فيه بعد ارفضاض مجلس التعذيب، وبقي فيه حتى الصباح، حيث سمع ما لا يحصى من الشتائم وتحمل كثيراً من الاهانات من عبيد لا يساوون شيئاً، وهناك أيضاً حجر كبير فوق المذبح، وقد قيل بأنه الحجر الذي كان موضوعاً فوق ضريح المولى يسوع وعلى رمية حجر نحو الجنوب من هذا المكان، هناك المكان الذي سكنت فيه العذراء مريم الرائعة، بعد صعود ابنها إلى السماء، وهناك أيضاً العلية التي فارقت فيها هذه الحياة، وهناك أيضاً كنيسة القديس يوحنا الانجيلي، التي قيل بأنها أول كنيسة بنيت في العالم، وفي هذه الكنيسة اعتاد هذا الرسول على إقامة القداس لتلك الملكة الأكثر قداسة مادامت حية، واعتاد الناس أن يروا في هذا المكان صخرة حمراء، كانت تستخدم بمثابة مذبح، وقد أعلنوا بأنها جلبت من جبل سيناء على أيدي الملائكة، وذلك استجابة لدعاء القديس توما، وهو عائد من الهند، وعلى مقربة من المكان المتقدم الذكر قاعة العشاء الأخير، وهي بناء كبير

مبلط، فيه تعشى المسيح مع حوارييه، وغسل أقدامهم، وأعطاهم جسده ودمه، وظهر إليهم عدة مرات بعد قيامته، وقد جرى بناء بيعة تحتها، وهنا جرى اختيار متى حوارياً، وقد أنزلت الروح القدس على الحواريين، وجرى اختيار القساوسة السبعة، كما جرى رسم القديس جيمس الأصغر أسقفاً للقدس، ومن الممكن رؤية هذه الأماكن جميعها كل واحد منها على حدة، وهنا من الممكن رؤية الجرن الذي صب فيه المسيح الماء، لغسل أقدام حوارييه، وعلى مقربة قريبة من هناك قبور سليمان، وداوود، وملوك اليهودية الآخرين، جزئياً داخل كنيسة جبل صهيون، وجزئياً خارجها، في الطرف الشمالي، وليس بعيداً عن هناك ضريح القديس ستيفن، الشهيد الأول، الذي دفن فيه بعد العثور على جسده.

الفصل التاسع

الحج من عكا خلال الناصرة حتى القدس

عندما ينحدر الانسان قادماً من جبل صهيون، يجد المكان الذي عندما كان الحواريون يحملون العذراء الرائعة إلى قبرها في وادي شعفاط، أراد الكاهن الأعظم لليهود أن يختطف جسدها، لكن يده تيبست مباشرة، وهناك أيضاً كنيسة تعرف باسم كنيسة صياح الديك، حيث توجد حفرة عميقة فيها بكى بطرس بمرارة، ويمضي الانسان من هناك إلى الجنوب إلى الحقل الذي شري مقابل الثلاثين قطعة من الفضة، وهو المبلغ الذي باع فيه يهوذا المسيح، ثم يذهب الانسان إلى نبع سلوان، عند سفح جبل صهيون، على مقربة من قصر سليمان، ويتدفق منها الماء إلى البركة التحتا، وإلى بركة استحمام سليمان، ولا تتدفق هذه المياه بشكل دائم لكن بين آونة وأخرى، وتتلقى البركتان كلتاهما الماء من نبع جيحون، الذي ينبع في حقل القصار حيث حمل ربشاقة Reb-shakeh ضد الرب لدى سماعه بالناس على السور، وإلى الشرق وعلى

مقـربة مـن هاتين البركتين يجري نهر قـدرون، الذي يتغـذى من الميـاه المتجمعـة من الأراضي المرتفعـة، من ذلـك: من رامـة، ومن عين توت Anathoth ، ومن ضريـح ملكة عـــديـابين Adiabene ، ويمكن للانسان أن يسمع خرير اندفاع الماء وهو يتدفق من مكان بعيد من تحت ضريح العذراء، وهكذا تجتمع هذه الميـاه مع بعضها وتجري منحدرة إلى وادي جهنم Gehinnon ، الذي يدعى أيضاً باسم محلة توفت Toph-et ، وفي هذا الوادي أيضاً صخرة زحلت Zoheleth ، وجب روجل Rogel ، حيث صام أدونيا Adonijah عندما حاول أن يجعل نفسه ملكاً، فـالحدائق والبسـاتين تسقـى بميـاه نهر سيحـون، وعندمـا يمضي الانسان قاطعاً شعفاط وذلك انطلاقاً من نبع سلوان، في مقابلة الهيكل، يمكنه أن يرى عند سفح جبـل الزيتـون ضريح يهوشـافـاط(قبر زكـريا حاليـاً) ملك اليهودية، حيـث يوجد فـوقه أهرام جميل جـداً، وعلى بعد أكثر من رمية حجر إلى الشمال من هذا الضريح يوجد المكان الذي صلى المسيح فيه، وبعـد ذلك على مسافـة رمية حجر، توجـد كنيسة جيسماني، حيث الحديقـة التي دخل المسيح إليها مع حـوارييه، وذلك على جـانب جبل الزيتـون، وهي مـرتبطة بـالصخـرة المجـوفـة التي تطل من الجبل، فتحت هذه الصخرة جلس الحواريون، عندمـا قال المسيح لهم:«اجلسوا هنا وصلوا حتى لا تتعـرضوا للإغـواء»، ومن الممكن رؤية المكان الذي جلسوا فيه في هذا اليوم، ومن الممكن أيضاً رؤية المكان الذي أخذته فيه الحشود، وحيث جرت خيـانته من قبل يهوذا بوساطة قبلة، ومن الممكن رؤية عـلامة رأسه الأجـرد على الصخرة المنزلقـة، وكذلك آثـار شعره، ومن الممكن رؤية عـلامات أصـابعـه على الجانب الآخر من الصخـرة، وكأنهم قـد طبعوا فـوق عجين، ويقال بأن هـذه العلامـات قد حـدثت لدى محاولته تسلق الصخرة عندما اعتقل من قبل الحشود، وهذه حكاية مـدهشـــة، حيث تحدث الناس الذين عـانـوها، وحكوا أنهم لم يتمكنوا بالأدوات المعدنيـة ليس فقط من قطع أية قطعة مـن هذه الصخرة لا بل

لم يتمكنوا من خدشها وإثارة الغبار منها، ومثل هذا، نجد في المكان الذي صلى فيه، وبما أنه كان متألماً صلى لوقت طويل، وأخذ عرقه يتساقط مثل الدم فوق الأرض، كما أن علامات ركبتيه ويديه قد انطبعت فوق الصخرة، علماً أنه لا يمكن قطع شظية من هذه الصخرة ولا من الصخرة الأخرى، ويمر الطريق الصاعد إلى جبل الزيتون بين هذا المكان وجيسماني، مقابل كنيسة العذراء المباركة، والمسافة من باب الكنيسة المتقدمة الذكر، أي كنيسة جيسماني إلى باب البيعة الذي يقود إلى الكنيسة التي فيها ضريح العذراء الرائعة، خمسين خطوة، وذلك باتجاه الغرب، لكن في قلب الوادي، لابل على طول سفح جبل الزيتون، وكانت هذه الكنيسة قبل خراب القدس فوق سطح الأرض، غير أنها الآن دون سطح الأرض بشكل سحيق، لأن الرومان — كما أخبرنا يوسفيوس — حاصروا المدينة من هذا الجانب، وقطعوا أشجار جبل الزيتون، والأشجار الأخرى، وملأوها (أو ملأوه — أي الوادي؟) بالركام الذي نتج هناك، وبعد ذلك، أي بعد الاستيلاء على المدينة، تمت تسوية جبل موريا نفسه، وذلك خشية ترك هذا المكان الحصين قائماً، وأمر هدريان برمي أنقاض الهيكل وساحاته في نهر قدرون، وبذلك سبب إغراق المدينة بالملح، ونتيجة لامتلاء الكنيسة، ولأنها كانت عالية، ومقببة وذات أقواس، فقد تمت تغطيتها بالكامل، وصار ما فوقها أرضاً مسطحة، مع طريق عام فوقها، ومع هذا فقد بقي فوق سطح الأرض بناء مثل البيعة، الذي يمكنك الدخول منه، ومن ثم النزول حوالي الستين درجة تحت الأرض إلى الكنيسة نفسها، وهو من الرخام، مزين بشكل بديع، غير أن الكنيسة رطبة جداً، لأن نهر قدرون يمر من تحتها، وهو مليء بالماء من الأماكن المتقدم ذكرها، وهو أيضاً محتفظ بمجراه القديم، وعندما تكون هناك أمطار غزيرة، يفيض النهر المتقدم الذكر، ويملأ الكنيسة، إلى حد أنه غالباً ما تغطي المياه جميع الأدراج، وتتدفق المياه من باب البيعة القائمة عند رأسهم، والكنيسة منارة بنوافذ موجودة

في الطرف الشرقي، وإذا ما قدرنا شكل الأرض، نراها قد وضعت بشكل جيد، من أجل تلقي النور من جهة جبل الزيتون، وإلى جانب ضريح العذراء هناك ضريح القديس جيمس الأصغر، لأن المسيحيين قد دفنوه هناك، بعدما ألقى اليهود به من الهيكل، ولقد تقدم وصف ضريح الملكة حنة(هيلانة)، ولم تكن حنة هذه أم قسطنطين، بل ملكة عديابين، التي أطعمت أخوانها في القدس، عندما كانت هناك مجاعة في القدس في السنتين الرابعة والحادية عشرة من حكم القيصر كلوديوس، وبعدما ينهي الحاج زيارة هذه الأماكن عليه المضي عبر الطريق الذي قلنا بأنه يمر قرب ضريح العذراء، وبذلك يتبع المسيح، ويحذو حذوه، عندما جاء إلى القدس على ظهر أتان، في يوم أحد السعف، ويتوجب عليه أن يصرخ بصوت مرتفع مع حشود المؤمنين:«المجد لابن داود، مبارك الذي يأتي باسم الرب، سلام في السماء(كذا)، ومجد في الأعالي»، وقد دخل المسيح إلى القدس من خلال الباب الذهبي، ويقوم على مسافة رمية قوس من ها هنا، هيكل الرب، فوق جبل موريا، وفي هذا الهيكل كان يسوع موجوداً، عندما كان طفلاً عمره أربعين يوماً، فغنى سمعان له قائلاً:«الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام»[لوقا:٢ / ٢٦]، وجاءت النبية حنة[لوقا:٢ / ٣٦] وتحدثت إليه، وإلى جميع الذين كانوا يتطلعون نحو فداء في إسرائيل، وكان وقتها طفلاً في الثانية عشرة من عمره وقد وقف في وسط رؤساء الكهنة والكتبة وأخذ يعلمهم بواسطة أسئلته الحكيمة بدلاً من التعلم منهم، وهناك — عندما بلغ إلى حد الرجولة — تولى طرد الذين كانوا يبيعون ويشترون إلى خارج الهيكل، وقلب موائد الصيارفة، ومقاعد باعة الحمام قائلاً لهم:«لاتجعلوا بيتي مغارة لصوص»،[متى :٢١ / ١٢]، وهناك غفر للمرأة التي أخذت وهي تزني، وشملت مغفرته العقوبة والذنب، وهناك قذفه اليهود بالحجارة عندما قال:«أنا وأبي واحد»، وهنا فضل فلسي الأرملة على المنح الكبيرة للآخرين، وقد سوغ العطاء الشعبي

المتـواضع، وأدان الفريسيين المتكبرين، وقـام بعدة أعمال أخـرى تساعـد على خـلاصنا، والشكـل الداخلي للهيكل شكل مـربـع، ومســور من الداخل، ومقاسـه أكثر من رمية سهم في الطول وكـذلك بالعرض، وله من الجهة الغـربية بابان، يدعى أحدهما بـاسم الباب الجميل، ومن أجل عـرض حوله، انظر مـا تقدم: القسم الأول، الفصل الثـامن، وعند هذا الباب تولى بطرس شفاء الرجل الأعـرج(أعمال:٣)، وليس للباب الآخر اسم يعـرف به، ويوجد على الطرف الشمالي باب، وهناك باب آخـر على الجانب الشرقي يدعى باسم البـاب الذهبي، ويقوم فـوق كل واحد من هذه الأبواب برج مـرتفع، اعتـاد كهنة المسلمين على ارتقـائه والاعـلان عن شريعة محمد(ﷺ) وما من إنسـان يتجرأ على الدخول إلى هذا المكان المغلق،إلاّ وهو نظيـف القــدمين، ومن أجل هذا الأمــر جـرى تعيين حـافظي الأبواب أو البوابين، ويوجـد في وسط هذا المكان المغلق مكان مغلق آخـر، وهـو مـربع وأعلى من المكان الخارجي، وإليـه تصعـد من جهتي الغرب والجنوب بوساطة عدد متواصل من درجات السلالم، وفي وسط هذا المكان المغلق جرى بناء الهيكل، وذلك على المكان الذي شُري من قبل داود، وهو أرض بيدر أرونا اليبـوسي، وذلك من أجل أن يبني مذبحاً للرب، وهو المكان الذي أقام فيه الوباء الذي هاجم الناس، ومن أجل هذا انظـر سفــر صمـوئيـل الثـاني، وللهيكل ثماني زوايا وثمانيـة جوانب،وجـدرانه مغلفة بالرخـام ومزينة بأعمال الفسيفسـاء، ويقال إنه على مقربة من هيكل الرب يوجـد هيكل سليمان الذي فيه هيكلان، وما من مسيحي يمكنه الدخول إليه مالم يُسمع دعاؤه وفقاً لكلمات سليمان، وإذا لم يرد الحاج أن يدخل من خـلال البـاب الذي دخل المسيح منه إلى الهيكل، دعه يـدخل من خلال باب الوادي، الموجـود على مسافـة قرابة رميـة حجـر مـن السـاحـة المغلقـة الكبيرة في الهيكل، وذلـك من جهـة الجنوب، وقبل أن يدخل الباب سـوف يرى على جهة يمينه المكان الذي ربط فيـه القديس ستيفن، عندمـا رجم بالحجـارة، وفي هذا المكان صلى

وهو راكع على ركبتيه من أجل قتلته قـائلاً:«يا رب لا تجعل هذا الذنب في حسابهم».

الفصل العاشر

الحج إلى الأماكن المنسية في القدس

عندمـا تكون قـد دخلت إلى باب الوادي المتقدم الـذكر، ستمـر أولاً على جهة يمينك على كنيسة القديسـة حنة، حيث سترى فيها القبو الذي ولدت فيـه العـذراء مريم الرائعـة، وذلك في المكان الذي قـام فيـه بيت يواكيم والقديسة حنة، وعلى مقـربة من البركة الكبيرة التي تعرف باسم البركة الداخلية، والتي صنعت من قبل حزقيا، وفق الطريقة التالية: فقد أوقف المجـرى الأعلى لجيحـون، وجلبه مبـاشرة إلى الجانب الغـربي من مدينة داود، حيث حفـربصعوبة بالحديد في الصخـر، وذلك حسبما نقرأ في الإلهيات:٤٨ / ١٧، وقاد المياه في وسط المدينة إلى البركة، وذلك من أجل أن يتمكن الناس وقت الحصار من الحصول على ماء الشرب، وأن لا يكون بمقـدرة الآشوريون إعـاقتهم، لكنه قـاد نبع مياه جيحـون إلى البركة العليا، التي هي فوق بـركة استحمام سليمان، وكان هذا العمل قد بدأه آحـاز، لكنه لم يكمله، وأتى إشعيـا(٧ / ٣) على ذكـر هذه البركـة والنبع، وذلك لدى قـوله:«إخـرج وتقـدم الآن... إلى طرف قناة البركـة العليا، إلى سكة حقل القصار»، ودُعيت هذه باسم البركـة العليا، تقديراً لسليمان، ومن أجل ذلك أنظر الاصحـاح الثامن، وهناك بركـة رابعة في المدينة على جهة اليســار من باب الوادي المتقدم الذكـر، حتى وإن كانت القديسة حنة على اليمين، وتعرف هذه باسم بركة الضأن، على مقربة من مذبح الهيكل، ففيهـا اعتاد النتينميين Nethinims على غسل الضحايا، ومن ثم إحضارها إلى الكهنة، من أجل تقـديمها في الهيكل، ويرى هذا حتى هذا اليـوم، مع قناطرها الخمسة، التي اعتـاد المرضى على الانتظار تحتهـا حتى تتحـرك المياه، لأن كل من خطـا أولاً إلى داخلها بعـد تحرك

المياه يصبح معافى،(يوحنا: ٥ / ٤)وهنا شفى المسيح الرجل الذي كان يعاني من العجز منذ ثمان وثلاثين سنة، ويقول بعضهم بأن البركة الأولى التي هي قرب القديسة حنة هي بركة الضأن، لكنني لا أرى ذلك، ولم نقرأ عن مزيد من البرك في القدس، أو من حولها القريب، وبعد رؤيتك لهذه الأشياء من على جهتي اليمين واليسار، امض بشكل مستقيم على طول الطريق إلى الباب الذي أمامك، الذي يدعى باب القضاء، وهناك سوف تجد بيت بيلايطس، حيث جرى جلد حمل الرب البريء وسخر منه من قبل الجنود، وحيث لكم، وبصق عليه، وتوّج بتاج من شوك، وأدين أخيراً وحكم عليه بالإعدام، وهنا يوجد الطريق الذي يقود إلى الهيكل، وهو الذي من تحته قدم اليهود من الهيكل وهم يصرخون:«اصلبوه،اصلبوه»، وعلى مقربة من بيت بيلايطس يوجد بيت حنة، الذي اقتيد المسيح إليه أولاً، بعدما جرى اعتقاله من قبل الحشود في جيسماني، وهنا جرى استجوابه حول عقيدته، وكأنه معلم هرطقة، وقد لطم بكف يد عبد شرير، ومن هناك أرسل وهو في الأغلال إلى كيفياس على جبل صهيون، ومن أجل وصف لهذا البيت، انظر الفصل الثامن، وعلى مقربة من بيت حنة هناك كنيسة القديسة مريم صاحبة البجعة، وذلك في المكان الذي أغمي فيه على العذراء المباركة لحزنها، لدى رؤيتها ولدها البريء، وهو يحمل صليبه، وقد اعتراه الاعياء بسبب وزنه، وإلى هذا اليوم هناك صخرتان بيضاويتان عظيمتان، قد بنيتا في داخل القنطرة في مكان مرتفع، فعلى هاتين الصخرتين ارتاح الرب عندما كان يحمل الصليب، ولدى متابعة السير على طول الشارع المتقدم الذكر، يجد الانسان على جهة اليمين الطريق الذي يقود إلى باب القديس ستيفن، الذي عندما كان اليهود يقودون يسوعاً عبره، صدفوا رجلاً اسمه سمعان القيرواني قادماً من الريف، فأرغموه على حمل الصليب، وقد حمله حتى جبل أكرا(الجمجمة) حيث تولوا صلبه(كذا)، ومن أجل عرض حول هذا المكان، انظر الفصل الثامن، ولقد قيل بأن

قصر الملك هيرود قـد كان قـائماً قـرب كنيسة القـديسـة مـريم صاحبـة البجعـة، وليـس بعيــداً عن قصر هيرود، من الممكـن رؤية بيت يهوذا الخائن، حيث سكن مع زوجته وأولاده.

الفصل الحادي عشر

الحج إلى بيت لحم وإلى الخليل

بعد الحج إلى القـدس، وجبل صهيون، والأمـاكن من حولهما، عليك الذهاب عبر باب داود إلى بيـت لحم، التي تبعـد نحـواً مـن فـرسخين، باتجاه الجنوب، على جهة اليـد اليسرى للطريق إلى الخليل، غير أنها تقوم على بعد رمية سهم عن الطريق، وفي منتصف الطريق هناك توجد كنيسة حيث قـام إيليـا ببعض أعمال التـوبـة، وعلى مسـافـة ميل من بيت لحم يوجد ضريح راحيل، وهو موجود على جهة اليمين، قرب الطريق، وهو مغطى بقبـة جميلة، قـد بنيت من قبل يعقوب، الـذي وضع تحتها، فـوق قبرها اثني عشر صخرة عظيمـة، وذلك تبعاً لعـدد أسباط بني إسرائيل، وهذه الحجـارة باقيـة حتى هذا اليـوم، وعلى مقـربة من ضريح راحيل يوجد حقل البـازلاء الحجرية، حيث يقـال بأن المولى يسوع، كـان يجتاز مرة من هناك، فسأل رجـلاً رآه يحصد البازلاء، عن الذي كـان يحصده، فأجـابه«حجـارة»، وبناء عليه قـال له الرب:«ليكونوا حجـارة»، وهكذا تحولت البــازلاء إلى حجـارة، وإلى هذا اليــوم من الممكن العثــور على بازلاء متحجـرة هناك، وقد اعتـاد الحجاج على جمعها، ويصـل الإنسان أخيراً إلى بيت لحم، التي تقوم فوق جبل لابـأس بارتفاعه، غير أنه جبل ضيق، وهو يمتـد شرقـاً وغـرباً، والمدخل مـوجـود من جهـة الغـرب، ويوجد إلى جانب البـاب الجب الذي اشتاق داود أن يشرب منه، عندما كـان معوقـاً هناك، ويوجـد على الباب الشرقي هناك، كهف في الصخـر قـرب سور المدينة، وهو يبـدو حسب أساليب تلك المنطقـة، أنه اسطبل مع معلف منحـوت بالصخر، حسبما هي العـادة في تلك الأجزاء، ولا

أدري كيف يمكنني أن أمـــدح هذا الاسطبل، فهــو المكـان الذي ولد المسيح فيــه، ولد من العـذراء ، فكـان شمسـاً من نجمــة، وهناك نبع الصدق من الأرض، وأعطت أرضنا المزيـد؟ وبأي كلمات سوف أصف مجد ذلك المعلف الذي بكى فيـه الطفـل الرضيع، وقـد لفّ بقطع قماش رثة، أو لم يكن هو الـذي صنع السمـوات، وكـذلك المعجــزة الرائعـة، فصرخت الملائكة، وركـض الرعــاة ليروا، ولمعت النجــوم من عليين، وارتعب هيرود، وارتجت القـدس؟ يا بيـت لحم، مـدينة داود، تمجـدي بميلاد داود الحقيقي، صاحب يد جبّـارة، ومظهر وسيم، وكانت المدينة مدينة صغيرة، غير أنها غدت عظيمة بالرب، والذي كان من قبل عظيماً، جعلهـا هناك عظيمة، فأي مـدينة مـوجودة لـن تحسدها، عندمـا تسمع بإسطبلها الثمين، ويمجـد معلفها؟ ولقـد قيلت حولك أشيـاء مجيدة في كل مكان، فأنـت مـدينة الرب، وفي كل مكان يغنـي الناس:«ولسـوف يحكى بأنه ولد فيهــا، والعلي الأعلى سـوف يثبتهـا»[المزامير: ٨٧ / ٥]، وانتبه إلى أنه على مقربـة من الصخرة المتقدمة الذكـر، وتحته قام المعلف، الذي تمدد فيه ذلك الطفل الجميل المولـود حديثاً، والملفـوف بثياب رثة، تمدد إلى جانب الثور والأتان، ويبدو أنهما كـانا كهفاً واحداً، وفقط قسم إلى قسمين بوساطة باب أقيم فيـه، وبين الأدراج هناك واحد يصعد من البيعـة إلى شرفة المرتلين، وقـد حمل القش من المعلف إلى رومـا من قبل الامبراطورة هيــلانة، وهو محل تقــديس وعناية في كنيســة القــديســة مـريم[المجــدليـة] الكبيرة، وقـد دفن القــديـس جيروم على مقـربة من المعلف، وينزل الانســان من الكنيســة إلى مكان المهــد الأعظم جمالاً، بوساطة عشرة درجات، تقود إلى البيعـة، وداخل هذه البيعة معمول كله من الفسيفساء،وهي مبلطة بالرخام، وقـد بنيت بشكل عالي النفقات إلى أبعـد الحدود، ومن الممكن إقـامة قـداس فـوق المكان الذي ولدت فيـه العذراء المباركة، وذلك فوق ألواح من الرخام وضعت هناك، هذا ومن الممكن رؤية بعض الصخـور الجرداء التـي ولد عليهـا المسيح، وكـذلك

جزء من المعلف الذي مدد فيه، حيث ترك دونما تغطية، وتزار هذه الأماكن بتقوى عظيمة واحترام، ومن الصعب أن يجد الانسان كنيسة أجمل منها في العالم، أو واحدة تعادلها بالقداسة، هذا ويوجد فيها أجمل الأعمدة الرخامية، موضوعة على شكل أربعة صفوف، وهي جميلة متميزة ليس لعددها فقط، بل أيضاً لحجمها، فضلاً عن هذا إن القناطر الموجودة فوق الأعمدة معمولة بأكثر الفسيفساء جمالاً وأروعه، حيث يمثل برسومه التاريخ كله منذ خلق العالم حتى قدوم المسيح للحكم في العالم، زيادة على ذلك جميع رخام الكنيسة معمول من الرخام المختلف الألوان، وقد زين بوساطة تصاميم متنوعة رائعة، وجرت العادة على أن يحتفظ في كنيسة القديسة مريم في بيت لحم، وعلى الجهة اليسرى من الجدار، في مكان مخصص، بحبل الصرة العائد للرب وبغرلته، وعلى الجانب اليمين من السدّة، أي في الجانب الجنوبي، هناك الموضع الذي دفن فيه الأبرياء المقدسين، ومن الممكن رؤية مذبح مقام هناك، غير أن الشطر الأعظم منهم كانوا قد دفنوا في مكان يبعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من الكنيسة، وكان واحداً من السلاطين قد أمر بحمل الألواح الرخامية الثمينة لهذه الكنيسة المبجلة مع أعمدتها، إلى القاهرة، ليبني بها قصراً، لكن عندما مثل العمال مع أدواتهم في حضرة السلطان، لتنفيذ أوامره، خرج من الجدار السليم غير المهدم، الذي لا يمكن إدخال إبرة فيه، ثعبان له حجم مدهش، فقام بعضّ أول لوح وصل إليه، فما كان من اللوح إلاّ أن تفتت، وفعل الشيء نفسه باللوح الذي يليه، وتابع ذلك حتى وصل إلى اللوح الأربعين، ووقف الجميع مندهشين، وإثر ذلك صرف السلطان نيته وألغى قصده، وبناء عليه اختفى الثعبان، وبقيت الكنيسة منذ ذلك الحين، وهي باقية حتى هذا اليوم، مثلما كانت في البداية، ويحترم المسلمون جميع الكنائس المكرسة للعذراء الرائعة، وهم يجلون هذه فوق جميع المتبقي، ومن الممكن حتى هذا اليوم رؤية أثرالثعبان على كل واحد من الألواح، وكأنها قد حرقت بالنار،

وبالإضـافة إلى جميع مـا تقـدم إنه لمدهش حقاً، كيف تمكن الثعبـان من المرور فوق الألواح، وذلك لدى رؤية الجدار كم هوناعم ومصقول كأنه زجـاج، وعند الباب الشمالي لهذه الكنيسـة، يوجـد دير للرهبان، يصعـد إليـه الانسـان بوسـاطة عـدة درجـات، ومن الممكن أن يرى في الكهف الزنزانة التي تـاب فيهـا القـديس جيروم، وقـام بكثير من أعمال الترجمة والشروح المتعلقـة بالكتـابات المقـدسـة، وكـذلك يمكن رؤية فـراشـه، وغـرف العمل في الدير الذي كـان رئيسـاً له، وعلى رميـة حجـر باتجاه الشرق بالنسبة للكنيسة المتقدمة الذكر تقوم كنيسة القديسة باولا وابنتها يوستـوخيوم Eustochium، وقد بنيت فـوق المكان الذي تابتـا عليه، وفيها يمكن رؤية ضريحيهما، ويوجد تحت الكنيسـة المتقدمة الذكر كهف عظيم، يوجد فيه بيعة، قـد قيل لنا بأن العذراء قد جلست هناك مرة مع ابنها، وذلك من أجل أن تمتلك منفردة المزيد من المتعة بالنظر إليه، وهو الذي رغب الملائكة بحمله، ربٌّ ربٌّ، جـالس فـوق البراءة بجـلالتـه، جـالس فـوق عـرش مـرتفع، مسـاو بالمظهـر للأب، وذلك وسط مجد القـديسين، وقد ولـد قبل ظهور نجم الصبـاح، ويقـال بأنها عصرت في هذا المكان فـوق الأرض ما كـان في صدرها بشكل كـامل، ولذلك فإن الأرض هناك بيضاء، وتبـدو وكأنها حليب متخثر، ولقـد قيل إنه إذا ما فقـدت امرأة حليبهـا، يمكن أن تستعيده مبـاشرة، إذا ما وضعت قليـلاً من تراب هذه الأرض في كأس ماء، وشربـت ذلك، وعلى بعد ميل من بيت لحم، كـان الرعـاة — حسبما جاء الخبر في الانجيل — يقيمـون في الحقل، يرعـون قطعانهم طوال الليل، ولقـد كـان بإمكان رعاة آخـرون الحفاظ على القطعان التي عهد إليهم بالعناية بها في تلك الأرض نفسها، لولا أن خرج أسد من الغابة، والمعني بهذا قوى صلاح الدين، فذبحهم وكذلك لولا ما فعل البندقـداري، وهو ذئب المساء، حيث بدد شمل ما أبقـاه الأسد، ثم كـذلك لولا مـا فعله الملك المنصور، وهو فهـد سريع، متشـوق لصنع الشر، مثلما الفهد متشـوق لسفك الدمـاء، فاستـولى على

المدن التي كانت قد تركت لوحدها، وعلى بعد ثمانية أميال إلى الجنوب من بيت لحم، يقدم الانسان إلى الخليل، التي تقدم وصفها أعلاه في الفصل الثاني، ووصف وضعها ومكانها في القسم السابع، الفصل الثاني، وفيما يتعلق بأوضاع وأحوال الأماكن الأخرى في الأرض المقدسة، يمكن العودة إليه فيما تقدم في الفصل الثالث، وكذلك في الفصل الرابع.

الفصل الثاني عشر
أوضاع مملكة مصر

بما أنه قد قيل ما فيه الكفاية حول سورية وأرض الميعاد، حان الوقت لتحويل قلمي نحو مصر، ولقد رسمنا حدود أرض الميعاد عند الدارون في الفصل الثاني، ومع أننا مررنا مسايرين لساحل مصر في الكتاب الأول، القسم الأول — الفصل الخامس عشر، وباتساع أكبر في الكتاب الثاني، القسم الرابع — الفصل الخامس والعشرين، ومع أن الإشارة قد كانت حول هذه البلاد نفسها، يمكننا أن نقول إن المسافة من الدارون إلى قفط الـ Berouldi هي ثلاثين ميلاً، ومن هناك إلى السبخة المعروفة باسم سبخة بردويل ثلاثين ميلاً، ثم من هناك إلى نهاية خليج هذه السبخة ثلاثين ميلاً، ومن هناك إلى رأس القصرون خمسين ميلاً، ومن هناك حتى الفرما ثلاثين ميلاً، وكانت هذه المدينة فيما مضى حسنة التحصين بالأسوار، غير أنها فيما بعد لحقها الخراب،وصارت مسكناً للأفاعي، ومن الفرما إلى نهر تنيس خمسين ميلاً، لكن مدينة تنيس وراء النهر، وتبعد عنه حوالي خمسة وعشرين ميلاً، وهي قائمة فوق البحيرة، وقد وردت الإشارة إليها في المزمور ٧٨ / ١٢ قوله:«صنع أعجوبة في أرض مصر في بلاد صوعن»، فهناك كان موسى وهارون قد سكنا مع بني إسرائيل، وفي بلاد جوشن Goshen ، وحولها أخبر يوسف أخوته وأبيه بقوله:«سوف تقولون لفرعون: إن عبيدك هم رعاة، نحن،

وكـذلك آباءنا، قولوا هذا، حتى يمكنكم أن تسكنوافي أرض جـوشن»، ومن أجلها انظر القسم السادس — الفصل الثامن عشر، وكانت تنيس مدينة قديمة، ومحصنة بشكل جيد، وقد بنيت فوق أرض حصينة، لكنها في هذه الأيام مـدمـرة كلياً، ويعيش في خـرائبهـا فقط البـداة، بسبب مـراعيهـا، وثراء ريفهـا، فضـلاً عن هـذا هي مليئة بالطيـور الكثيرة وبالأسماك، ومن أجل عـرض عنهـا انظر القسم السـادس — الفصل السـابع عشر، ومن نهر تنيس إلى دميـاط مسـافـة أربعين ميـلاً بوسـاطة البحر، وكانت هذه المدينة تدعى قديماً باسم ممفيس، ومن أجلها انظر ما تقدم: القسم السادس — الفصل الثاني والعشرين، وعلى بعد فرسخين من البحـر بنى المسلمـون قرية طـويلة بدون تحصينات، وذلك من أجل ركوب السفن فيها، ومن أجل خزن بعض التجارات، وهذا المكان مليء بالفواكـه، والحبوب، والأشياء الأخـرى الجيدة، وذلك حتى مثل تنيس، ويجري واحـد من فـرعي النيل بين هذه المدينة ومـدينة دميـاط، ويتـابع جـريانه نحو تنيس، ويجري من هناك من خـلال قناة اسمها البحـرية، إلى الفـرمـا، ويدخل البحـر هنـاك، وهذا هو الميناء المصري الأول باتجاه أرض الميعاد، ومن دمياط إلى البرلس مسافة سبعين ميلاً، ومن هناك إلى مصب النهر في رأس البر Sturio، وعـرض هذا المصب خمسة أميـال، وطوله ثلاثين ميلاً، وهو كله حـوالي الثلاثين ميلاً مسـاحة، ومن مصب رأس البر إلى مصب رشيـد وفرع النيل هناك أربعين ميـلاً، ومن مصب رشيـد إلى برج أبي قير خمسة وعشرين ميـلاً، ومن هناك إلى الاسكندرية ثمانية عشر ميلاً.

وواضح مما تقدم أعلاه وقيل، بأ ن المسافة من الفرما إلى الاسكندرية هي مـائتين وثمانية وستين ميـلاً، وهذا هو عرض المنطقـة الساحليـة من مصر، لكن مملكة مصر تمتـد حتى ميناء السلطـان، وهو ميناء يقع بعيـداً عن الاسكندرية، ويبعـد عنهـا سبعين ميلاً باتجاه الغـرب، وذلك حسبما

تحدثنا في الكتـاب الثـاني، القسم الـرابع — الفصل الخامس والعشرين، والمسافـة من الاسكندرية إلى الفسطاط هي مائتين وثـلاثين ميلاً، وذلك عبر نهر النيل، والمسافة من الفـرما، عبر تنيس ودمياط إلى الفسطاط هي مائتي ميل فقط، وذلك على سطـح نهر النيل مثلما تقدم، ومن الفسطاط إلى أسـوان — التـي هي أقصى جـزء مـن مصر باتجاه الجنوب واتجاه الحبشة — هي مائة وأربعين ميلاً، ومن مـدينة أسوان المتقدمة الذكر إلى المكان الذي يعرف باسم قوص، عبر النيل، جاءت المسافة مائتين وستين ميـلاً، وفي قوص تشحن السفن بـالبضائع القـادمـة من عدن، وتعـرف الحبشة المتقـدمة الذكر بشكل صحيح باسم النـوبة، وهي مسكونة كلياً، من قبل المسيحيين، الذين اهتـدوا بوساطة القديـس متى، وإذا ما مضى الانســان صعـوداً فــوق النيل من دميـاط يصـل أولاً إلى بدالة، ثم إلى المنصــورة، حيث ينقسم النيـل، والفـــرع الأصغــر هو الذي يجري إلى الفرما، لكن المكان الذي ينقسم فيه النيل انقساماته الرئيسية، ويجعل من الجزء الأكبر من مصر جـزيرة، يدعى بـاسم الدلتــا، وذلك لأن شكل الجزيرة شكل مثلث، وهو مثل حـرف دلتـا، ويجري الفـرع الأكبر نحـو الاسكندرية، والفـرع الأصغر نحـو دمياط، ومن الدلتـا إلى عين شمس ثلاثة أميال، ويجري فـرع النيل من هنا باتجاه الشمال نحو مـدينة بلبيس، التي عرفت فيما مضى باسم Pelusium (تل الفرمــا)[القسم السادس — الفصل الثـامن عشر]، ويجري من هناك خـلال القفار نحـو الأرض المقدسة، ويدخل البحر قرب مـدينة العريش، وهي على مسافة سفر يوم من غــزة وبير السبع، وهـذا ربما الذي ورد ذكــره في العهــد القــديم باسم«وادي مصر»[الملوك الأول: ٨ / ٦٥، الملـوك الثـاني / ٢٤ / ٧]، وهناك كانت حدود ديار سبط يهوذا(العدد...) لكن لايمكن الملاحة به، وعين شمس بلدة جميلة جــداً، غير أنها ليست محصنة، ومثلهـا كــذلك جميع بلدان مصر الأخرى، باستثناء الإسكنـدرية والقاهرة، ومن الممكن أن يُرى في عين شمس والفسطاط الأمـاكـن التي سكنت فيهـا العـذراء

الرائعة مع ابنها عندما هربت إلى مصر خوفاً من هيرود، وبما أنها لم يكن لديها مكان تدخل إليــه للاستراحـة، فإنها دخلت إلى معبــد كـان فيـه ثلاثمائة وخمسة وستين وثناً، حيث كـان يحتفل طقوسياً تشريفاً لها في كل يوم من أيام السنة، إنما لدى دخول المسيح والعـذراء مريم سقطت جميع الأوثان، وبذلك تحققت كلمـة إشعيـا(الاصحـاح ١٩) في قـوله:«هو ذا الرب راكب على سحـابـة سريعـة وقـادم إلى مصر، فترتجف أوثان مصر من وجهــه»، وعندمــا حملت هذه الأخبــار إلى أفــرودوسيــوس Af-rodosius ، قــدم إلى المعبــد ومعــه كل جيشـــه، واقترب من الطفل الرضيع وتعبـده، وقال لجيشه:«لولا أن هذا هـو رب الأرباب، لما سجد هؤلاء أمـامـه، ولهذا إذا لم نكن حـريصين بأن نفعل مـا نرى أربابنا قـد فعلوه، لسوف نصاب بالرعب مثلما حدث لفرعون»، وهكذا فإن الرب المقـدس، الذي تفكر بالرحمة أثناء غضبـه، فأرسل ابنه إلى مصر، وبذلك قـدم برهاناً على غفـرانه، شفـى بذلك العـلاج جميع أوبئة مصر العشرة، وعلى مسافـة سبعة فـراسخ من عين شمس تقوم مـدينة الفسطاط،وهي مدينة محصنة بشكل جيد وعظيمة جـداً، وتقوم على الضفة الشمالية لنهر النيل، هذا ويجري وسط المدينة فرع كبير من ذلك النهر، وكذلك وسط مـدينة القاهرة(القسم السـادس — الفصل الثـاني والعشرون)التي هي مرتبطة بالفسطاط، وفي القاهرة يعود هذا الفرع إلى النهر الأساسي ثانية، ويوجـد إلى جانب القـاهرة شجرة نخيل قـديمة جـداً، وهي التي حنت نفسهـا للعـذراء المبــاركـة حتى تتمكن من قطف التمــر منهـا، ثم إنها انتصبت وعادت إلى وضعهـا ثانية، وعندما رأى الكفـار ذلك قطعوها، لكنهـا التحمت بأجـزائهـا ثانية في الليلة التـاليـة، ووقفت منتصبـة من جديد، ومن الممكن رؤية آثار القطع حتى هذا اليوم، ويوجد حول هذه المدينة كثيراً من الحدائق الرائعة، وعلى بعـد ميل واحد منها يقـوم بستان البلسم، التي هي شجــرة بحجم نصف شجــرة Mansus ، وحجم أغصـانها بقدر حجم داليـة عنب عمرها ثلاث سنوات، وأوراقهـا مثل

ورقـة ثلاثية الـوريقات صغيرة، أو مثل ورقـة الفيجن، لكن لونها أشـد بياضـاً، وعندما تصبح ناضجـة وذلك في حوالي شهـر أيار، يتفجر لحاء الأشجـار، ويتم جمع الماء في أوعية زجـاجيـة، ثم يوضع في وسط روث حمام ويجفف، وبهذه الوسيلـة يجري صنع البلسم الحقيقي، ويقـــال بأن هناك طريقـة أخرى لجمعه، وهـي باقتلاع الأوراق الموجـودة على الجهة المتوجهة نحو الشمس، ذلك أن الأوراق تلتصق بالساق، وعندما يجتمع عدد منها فوق بقعة واحدة من الأرض، يمتلكون ساقاً واحدة، وعندما تنتـزع الأوراق يتـدفق من السـاق مبـاشرة سـائل شفـاف جـداً وطيب الرائحـة، ويأخـذ بالتنقيط، وهذه الحديقـة يمكن سقـايتهـا من نبع مـاء واحد فقـط، التي قيل بأن العذراء المبـاركة قد غسلـت فيها قماش قماط الطفل يســـوع، ويجتمع النـاس من مسلمين ومسيحيين في أيام عيـــد الغطاس عند هذا النبع، ويغسلون أنفسهم تبركاً وصـدوراً عن التقوى، وهناك معجزة أخرى تحدث هناك، وهي أن الثيران التي تقترب من الماء المتقـدم ذكـره، لا تقترب من أي مـاء آخـر فيما بين منتصف يوم السبت حتى السـاعـة نفسها من يوم الأحد، حتى لو حاولت سلخهـا حية، وفي الفسطاط هناك أعجـوبة أخـرى جـديرة بالتـدويـن، ففي دير بني هناك وكـرس على اسم القـديس يوحنا المعمـدان، هناك صندوق يحتـوي على آثاره، وقـد اعتادوا على حمل الصندوق المتقـدم الذكر، والنزول به فـوق النيل مسـافة خمسة أميـال إلى كنيسة رهبـان أخرى، بنيت وكـرست على اسمه أيضاً، وبعد القداس يضعـون الصندوق في النهر، لمعرفة أي مكان رغب هذا القـديس بأن ترتاح آثاره فيـه، أي في هذا المكان أم في المكان المتقـدم، ومـا أن يضعـوه، حتى يأخـــذ الصندوق بالتحـرك أمـام أعين الجميع، ويسير بسرعة فائقة على عكس التيـار، ويبلغ من سرعة التحرك أن راكب فـرس يجري به بسرعـة كاملة لا يمكنـه أن يسبقه، وعلى بعـد خمســة فـراسخ من الفسطاط هناك بعض الأهرامـات الثـلاثيـة الشكل، وهي ذات ارتفاع شـاهق، وقد قيل بأنها كـانت أهراءات قمح يوسف،

وعلى بعد فرسخين منهم هناك خرائب مدينة طيبة، التي منها جاءت الفرقة الطيبية، ومرتبط بها قفار طيبة التي كان فيها في الأيام الخوالي حشد من الرهبان.

ويجري النيل من خلف الفسطاط، ويتدفق كله نهراً واحداً من أسوان، المكان المتقدم الذكر، وتبعد أسوان عن الفسطاط مائتين وأربعين ميلاً، ومن أسوان إلى مدينة مرواو مائتين وستين ميلاً، وتقوم مدينة أسوان تحت خط الاستواء،ولذلك لايشاهد فيها ظل عندما تكون الشمس في المحطة الأولى من برج السرطان، وتلقي مرواو في ذلك الوقت بظلها نحو الجنوب، وعليك أن تتنبه أنه صحيح أن المسافة من الفسطاط إلى أسوان، ومن أسوان إلى مرواو، هي مسافة طويلة، مع ذلك فإن الأرض ليس لها عرض إلاّ بالنادر، لأن هذا الطريق كله يساير النيل، الذي يمتلك جبالاً على كلا الجانبين، ولا يمكن العثور على منابع النيل، فيما يتعدى الجبال الموجودة على الجهة اليسرى من النوبة، التي يجري بينها، فخلف ذلك منطقة لا يمكن اجتيازها، ومن النادر حماية مصر من جهة البحر، ويوجد إلى الغرب منها ويحدها بلاد المغرب، التي تدعى برقة، وهناك قفار بينهما تحتاج إلى رحلة خمسة عشر يوماً، وإلى جهة الجنوب هناك قفار الحبشة، والرحلة إلى النوبة تحتاج إلى اثني عشر يوماً أو أكثر، وعلى الجانب الشرقي هناك فيافي طيبة، التي تمتد حتى البحر الأحمر، والرحلة تحتاج إلى ثلاثة أيام إلى مكان يدعى البرلس(كذا)(رأس بناس)، فهذا هو الميناء الرئيسي لمصر على البحر الأحمر، لأنه بالنسبة للذين يرغبون بالابحار نحو الهند، ونحو الجنوب الغربي، ونحو الشمال، هناك قفار واسعة تمتد حتى الأرض المقدسة، وهي التي تاه فيها بنو إسرائيل لمدة أربعين سنة، ولا يستطيع الانسان عبور هذه القفار إلى سورية بأقل من ثمانية أيام، وعل هذا نجد مملكة مصر محاطة من كل جانب — باستثناء ساحل البحر — بالرمال

والقفار، والمناخ في مصر صحي، والطعام جيد، والأرض أكثر اعتدالاً منها في فلسطين أو سورية، مع أنه من خلال وضعها، قد يخيل للانسان أنه سوف يجد العكس، وتسقى أرض مصر بمياه النيل فقط، ويبدأ النيل بالزيادة اعتباراً من عيد ميلاد القديس يوحنا(٢٤ — حزيران)، ويتابع الزيادة حتى أيام عيد تمجيد الصليب المقدس(١٤ — أيلول)، ويبدأ بالتناقص من هذا التاريخ حتى أيام عيد الغطاس، فوقتها تظهر الأرض الجافة، ويأخذ الفلاح برمي بذاره، والحصاد سوف يكون في آذار، ويقوم في وسط النهر عمود رخامي، فوق جزيرة صغيرة(جزيرة الروضة) وذلك خارج مدينة مصر القديمة، التي هي على مقربة من مدينة القاهرة، ووضعوا على ذلك العمود علامات، يعرفون من خلالها فيما إذا كان الموسم المقبل سوف يكون جيداً أم سيئاً، ويتم جمع الفواكه والخضار شروعاً من أيام عيد القديس مارتن(١١ — تشرين الثاني) حتى آذار، وتحمل الشياه والماعز مرتين في السنة.

ووصف الطريق من أرض الميعاد إلى القاهرة براً، وعبر القفار هو كمايلي:

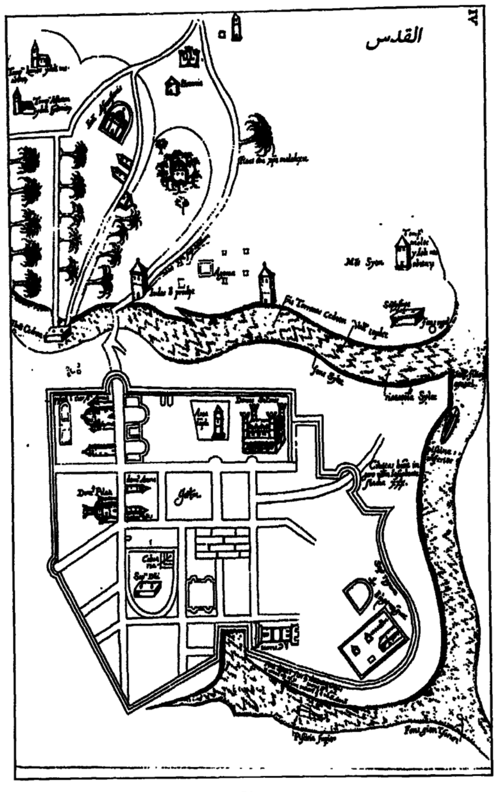
من غزة إلى الدارون ثلاثة فراسخ، والطريق جيد مع مياه كثيرة، ووفرة من الأعشاب، ومن هناك إلى رفح مسافة فرسخين، والطريق جيد، ووفرة من المياه مع جميع الأشياء، ومن هناك إلى Zasque أربعة فراسخ، ولا يوجد هناك رمل كثير، والطريق طريق كثير الأعشاب، وفيه كثير من المياه الجيدة، ومن هناك إلى الحسي Heus أربعة فراسخ، والطريق هو فوق الرمال، وفيه مياه جيدة إلى حد ما، ومن هناك إلى العريش أربعة فراسخ، والطريق كله فوق الرمال، وفيه مياه كافية، ومكان للبيع وللشراء ، ومن هناك إلى Burelaui أربعة فراسخ، وينقسم الطريق هنا إلى إلى طريق علوي، وطريق سفلي، والطريق السفلي هو الطريق الأكثر استخداماً، وهو يعبر مكاناً اسمه سبخة البردويل،

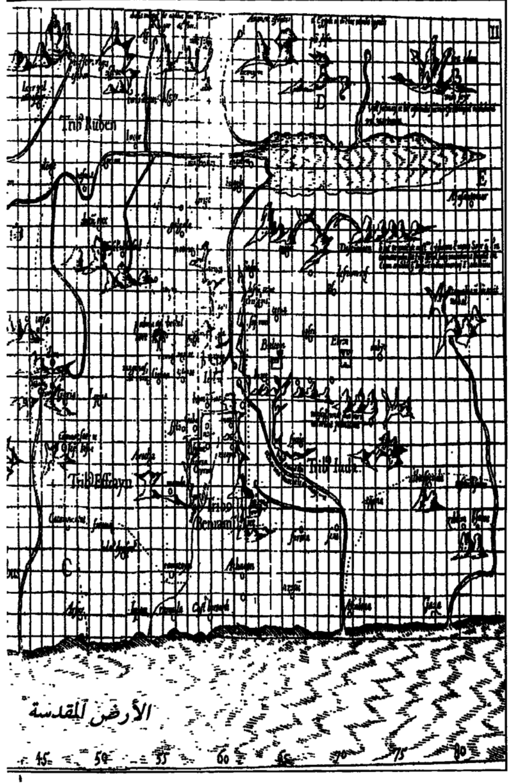
وهو المكان الذي فيه مـات الملك بلدوين، ومن Bouser إلى Tarade فرسخين، وهناك كثير من الأعشاب وماء جيد، كما ويوجد سوق هناك، ومن هناك إلى Asbede أربعة فراسخ، وهناك كذلك كثيراً من الرمال، ووفـرة من الأراضي المعشـوشبـة، وهنـاك أيضـاً سـوق، ومن هناك إلى Viteleb خمســة فــراسخ، وهناك الكثير من الـرمــال، والقليــل من الأعشاب، وماء سيء جداً، لكن هناك الكثير منه، ومن هناك إلى -Nah er Lersibia أربعـة فــراسخ، وهناك كثير من الرمـال، لكـن مع مـاء جيد، ومـن هناك إلى قطيا(كـذا)...فرسخ، وهذه قـرية جيدة، فيهـا ماء جيــد إلى حــد مـــا، وينقسم الطريق هنـا إلى طريقين: علوي وسفلي، والطريقـان معاً يقودان إلى [بركـة] الحبش Habesse ، وهي قرية رائعة، والطريق السفلي هو الطريق الأكثر استعمالاً بين الطريقين.

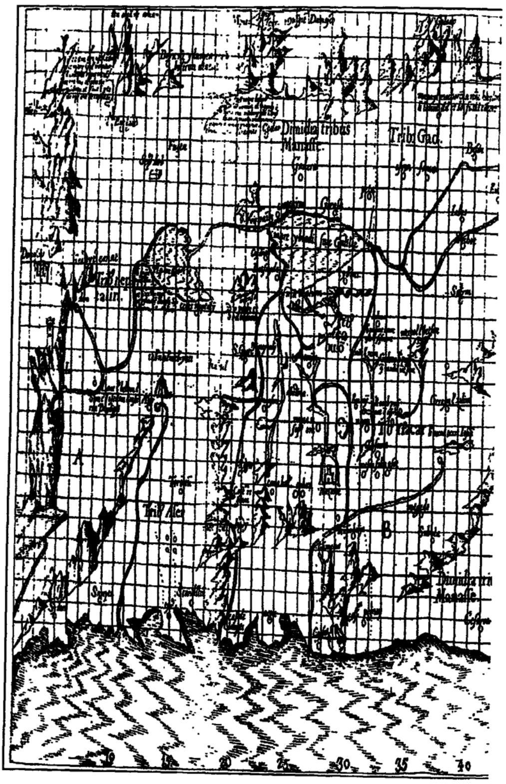
والطريق الأعلى هو كمايلي: من قطيـا(كذا) إلى العرس خمسـة فراسخ، وهناك كثير من الرمال ومـن الماء، لكنه ماء سيء، ومن هناك إلى بير أبي روق أربعـة فراسخ، وكثير من الرمـال، وماء سيء جـداً، ومرّ ومـالح، ومن هناك إلى Hucar أربعة فراسخ [حيث كثير من الرمال، والعشب، والماء الجيـد، ويوجـد سـوق هناك] ، ومن هناك إلى Hesiuone أربعة فراسخ] حيث كثير من الرمـال، وماء جيد من نهر، ومن هناك إلى Masinach ثلاثة فراسخ وهناك كثير من الرمـال، ومياه جيدة من نهر، وتبـدأ بعـد Sbesbie أرض مفلوحـة، ومن هناك إلى Vacaria — وهي قرية جيدة — فرسخين طويلين،وهناك كثير من الماء من نهر، ومن هناك إلى[بركـة] الحبش abesse ثلاثة فـراسخ، والطريق جيــد، والأرض خصبـة، والقرية مليئة بجميـع الأشياء الجيـدة، ومن هناك إلى بلبيس ثلاثة فـراسخ، والأرض هناك صـالحة للزراعـة، والقرية واسعـة وخصبـــة، ومن هناك إلى Abirelcara ثلاثة فــــراسخ، وهي أرض خصبة، ذات ميـاه جيدة، وفيهـا الكثير منها، ومن هناك إلى Hus أربعة

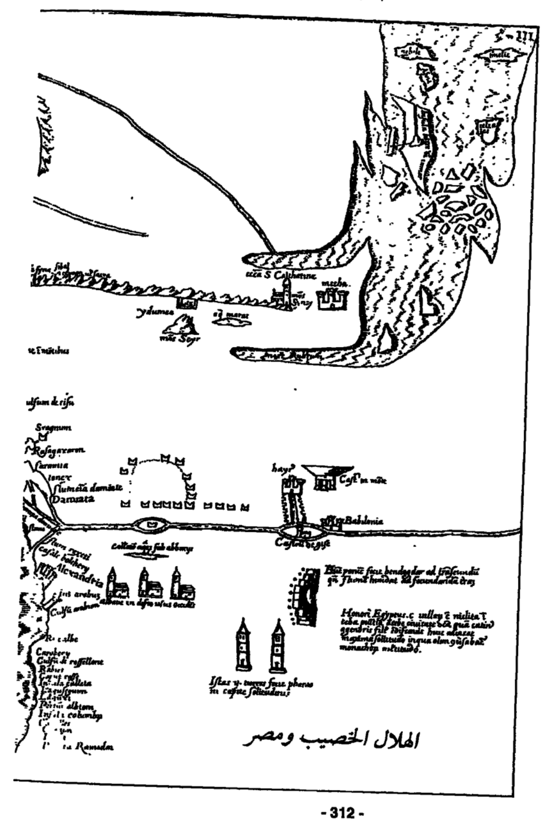
فراسخ، حيث الأرض خصبة، والماء جيد، وهناك كثير منه، ومن هناك إلى Quiriai ثلاثة فراسخ، حيث الأرض خصبة وكثيرة الثمار، ومن هناك إلى القاهرة ثلاثة فراسخ والطريق جيدة.

والطريق السفلي: من قطيا إلى الغرابي أربعة فراسخ، حيث كثير من الرمال، وقليل جداً من الماء، وهو ماء مالح، ومن هناك إلى القصير خمسة فراسخ، حيث كثير من الرمال، وكثير من المياه، لكنها مياه سيئة جداً، ومن هناك إلى بيرخيس أربعة فراسخ، وليس هناك الكثير من الرمال، وهناك وفرة من الماء، لكنه ماء مالح، ومن هناك إلى الصالحية — وهي قرية جيدة — أربعة فراسخ حيث الكثير من المياه الصالحة، ومن هناك إلى [بركة] الحبش Habesse ستة فراسخ، وهو طريق جيد فيه وفرة من الماء الجيد من نهر، ومن هناك إلى القاهرة، كما من قبل، وعلى هذا تمتد القفار إلى حوالي السبعين فرسخاً، والأرض المفلوحة إلى حوالي العشرين أو أكثر، ما بين غزة والقاهرة.

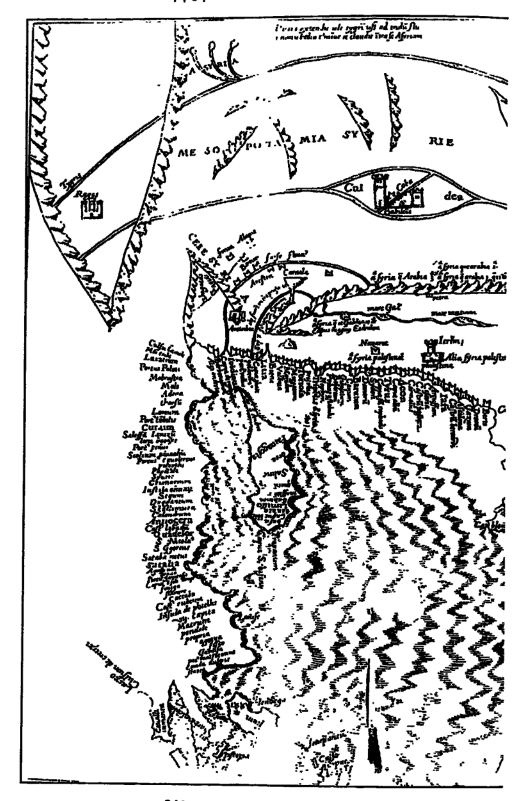

القدس

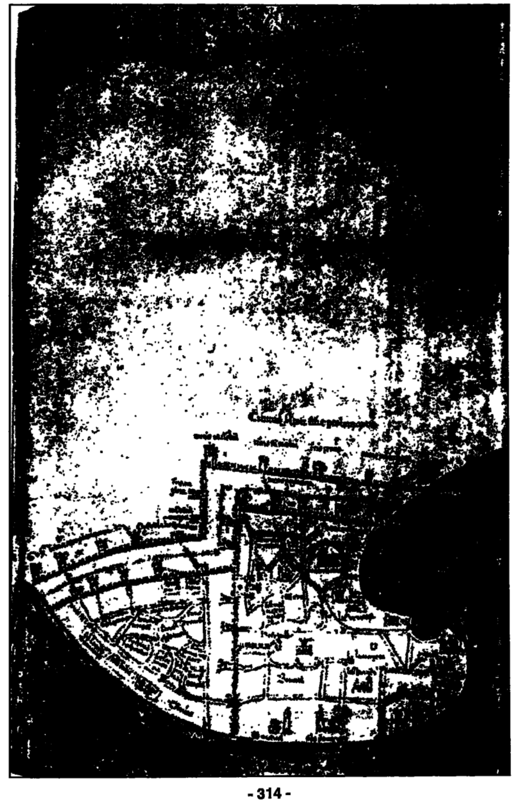

Trib Ruben
Trib Effrayn
Trib Iuda
Benjamin
D
E
C
الأرض المقدسة
45
50
55
60
65
70
75
80


Dimidia tribus
Manasse.
Trib. Gad.
Trib. Aser
20
25
30
35
40



الهلال الخصيب ومصر


ME SO PO TA MIA SY RIE
Col dea
mare Gal
Assyria palestina
Alia syria palestina



القسم الخامس عشر

الاجراءات الموائمة للحفاظ على الأرض المقدسة، مع تجنب العثرات والأخطاء الكثيرة التي ورد ذكرها، وهو في خمسة وعشرين فصلاً.

الفصل الأول

الاجراء الضروري للاحتفاظ بها، دراسة للخطط العسكرية، وللقيام بتدريب متواصل على استخدام الأسلحة.

شرحنا فيما تقدم معائب كثيرة سواء في الحياة الخلقية أو في الانضباط العسكري، حيث ارتكب الشعب المسيحي في مجالها أخطاء كثيرة في أرض الميعاد، ولهذا زال من هناك كل وجود كاثوليكي، ولكن«لأن سماع خبره فقط يخيف» كما يقول إشعيا ٢٨ / ١٩، ولأن الشرور الماضية تساعد على تجنب المستقبلية، وتقدم الحيطة المناسبة مما لحق من مساوىء، نحاول بحق أن نقطف ما هو نافع، أي الأمان من المخاطر والأغلاط، وكذلك أن نقدم ناموساً للحياة، وطريقة للسلوك، وهنا نجد أولاً أن المؤمنين قد قصروا في الانضباط العسكري مراراً كثيرة، ونجد أن الصليبيين كثيراً ما تحرشوا بالمسلمين وأثاروهم عندما كانوا مرتاحين غير هيابين، مما جعلهم ينفرون بأعداد كبيرة، فيحرقون القرى أحياناً مع القلاع والمدن، وعندما كانوا يقعون في ضيق لم يكونوا يحسنون التخفي، أو إرسال رسل للتهادن، غير متنبهين لما أوصى المسيح به في لوقا ١٤ / ٣١ — ٣٢«وأي ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر في حرب لايجلس أولاً و يتشاور هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف الذي يأتي عليه بعشرين ألفاً، وإلاّ فما دام ذلك بعيداً يرسل سفارة ويسأل ما هو للصلح»، لاسيما عندما يشهدون أن العدو هو أغنى وأكثر ثروة وأعظم دهاء، وأشد ضراوة، وأقوى بالعدد والعُدد، وتطلب إرادة الرب

في مثل هذه الظروف منا التواضع بسبب الخطايا وعندئذ إنه لضرب من الحماقة أن نتعجرف ولا نقدم على عقد اتفاقية منقذة، ونحذوا حذو ما فعله يواكيم وصدقيا، كما جاء في القسم الأول — الفصل السادس، وما فعله الملك اللاتيني الثاني في القسم السادس — الفصل الرابع، فقد اختار هؤلاء، على الرغم من قلتهم القتال ضد عدو شرس وكثير العدد — انظر القسم الثاني عشر — الفصل الأول، ذلك أنهم حتى بعد أن احتلت مدنهم كانوا لا يعرفون إلى أين المهرب، وهكذا يروى بأن البندقداري قال لبعض المسيحيين بعد احتلاله لأنطاكية:«حقاً أيها المسيحيون إنكم أغبياء وبلا فطنة، لأنكم لا تعرفون كيف تقاتلون، ولا كيف تعقدون الصلح، ولا كيف تهربون في الوقت المناسب»، ولهذا إنه بعد احتلال الأرض المقدسة، نرى بين الأمور المطلوب المحافظة عليها، من المناسب تماماً درس الانضباط العسكري والتمرين المتواصل عليه، ويتوجب اتخاذ قرار علني بفرض تعليم فيجيتيوس Vegetius في مقرر الشؤون العسكرية، وأن تتم قراءة غيره في المدارس من قبل معلمي فن الحرب، وذلك في أمكنة موائمة، وذلك كما كان الرومان يعملون قديماً، وبموجب ذلك يعلمون العسكريين والمهتمين بشؤون الحرب، لأن عليهم التمرين المتواصل، حتى إذا طرأ طارىء يكونوا متأهبين لمجابهة المخاطر، وآخذين حذرهم، لأنه كما يقول فيجيتيوس:«في الحرب ليس المهم العدد، بل الفن والتمرين هما يعطيان بالعادة الغلبة»، وهكذا نجد أن أماتوس روفوس Amatus Rofos عندما ضايقته الأعداد الكبيرة من الداشيين Dacis ، أمر القلة التي معه، أنها إذا رأت المعركة تنقلب نتائجها ضده، بالانقضاض من خلف العدو، وبالظهور في قمم الجبال وهم يصدحون بالأبواق، على أمل أن يرعب هذا الأعداء، فيديرون ظهورهم.

ويتوجب اتخاذ قرار، تحت طائلة عقوبة محددة: إن على جميع سكان

القـدس، لا بل أيضـاً على جميع سكـان مملكة القـدس الالتـزام — على الأقل مـرة في الاسبـوع — أن يتمـرنوا على الـرمـاية بالقـوس، أو على الرماية بالمنجنيق، سـواء أكانوا في المدن أم في القـرى، ومثل هذا نقرأ في سفر الملوك الثاني أن داوود قد أمـر أن يتعلم يهوذا الرماية بالقوس،لأنه سمع أن الملك شـاؤول وابنه يوناثان قد أصيبـا برشقة سهـام، وكذلك قـــال الأب الأكبر لليهـــود في(سفــــر التكويـن:٤٨ / ٢٢)[لابنه يوسف]:«وأنا قـد وهبت لك سهماً واحداً فـوق أخوتك أخـذته من يد الأموريين بسيفي وقوسي»، وكذلك لم يكن سكيبيو Scipio الإفريقي يرى أن بإمكانه إحراز النصر إلاّ إذا وزع على جميع الجهـات رماة قوس منتخبين ، يطلقون السهـام من بعيد فيرعبون الأعـداء، وإذا كان بعض الناس يتمتعـون بالتدرب على الحرب بالرمـاح الطويلة، فليعكفوا أيضـاً على التـدرب على الرمي، فكثيراً مـا تكون إسهـامـاتهم مفيـدة جـداً في الحروب، وهكذا للدفــاع عن أرض الميعــاد المقــدســة يصير الشعب المسيحي بارعـــاً، وفي الوقت نفســه يتم تجنب كسل المقـــاتلين، ذلك أنه بؤرة لجميع الرذائل، فقـد نادى حـزقيـال هكذا وأعلن عن إثم اليهـود قـائـلاً:«هذا كان إثم أختك سـدوم الكبرياء والشبع من الخبـز وسـلام الاطمئنان»(حـزقيـــال:١٦ / ٤٨)، وقـد جعل التــدرب على الســلاح الرومـان يخضعـــون العــالم — حسب فيجيتيـوس — وإلاّ مـــاذا كـان بمقدور تلك القلة مـن الرومان ضد حشـود الغاليين والإسبـان، وضد مكر الأفارقـة، وفطنة اليونانيين، ففي جميع الميادين يتفـوق التدريب على الجرأة، وقلة متــدربة هـي الأسرع نحــو النصر، والكثــرة الجاهلة هي الأسرع نحو الفـرار، ولايظنن أحد أنه ضـد القداسـة انصراف الانسان نحـو الجندية للدفـاع عن الحق والوطن، فقـد قال هيرونيمـوس -Her onymos في رسالتـه إلى بونيفـاسيوس Bonifacius :«إياك أن ترى أنه غير ممكن للمـــرء أن يرضي الرب إذا كـــان يقـــاتل بـالســلاح في الحروب»، ففي هذا الميـدان كـــان الملك داود القـديس، وغيره كثير من

الأبرار في تلك الأيام، وكـان هذا أيضاً وضـع الجند الذين سألوا يوحنا المعمدان عما يتـوجب عليهم أن يفعلوا،فأجابهم قائلاً:«لاتظلمـوا أحداً، ولا تشوا بأحد، واكتفوا بعلائفكم»[لوقا: ٣ / ١٤]، فهو لم يحرم عليهم القتال تحت السلاح، بل أمرهم بالاكتفاء بأعطياتهم.

الفصل الثاني

الفائدة الكبرى للعازمين على الذهاب إلى قتال العدو، بعدم كشفهم عن مقاصدهم وخططهم.

قـد روي بأن واحـداً من الشعـراء قد قـال:«إذا فهمك العـدو، فقـد خسرت المعـركة»، ولذلك كـان القـادة أصحاب الفطنة يبـذلون أقصى جهـودهم حتى يخفـوا عن العـدو مقـاصـدهم، وبناء عليـه عندمـا ألح أحدهم على ميتليـوس بيوس Metellius Pius بالسؤال قـائلاً:« ماذا ستصنع غـداً»؟ أجـابه«لـوأجـابك على ذلك قميصي لأحـرقتـه»، ورأى بورتيـوس كـاتو Portius cato أن المدن الاسبـانيـة التـي قهـرها في الحرب قد تتمـرد عليه، اعتماداً على كـونها محصنة، فكتب إلى كل واحدة منهـا، يهددها بالحرب إذا لم تهدم تحصيناتها على الفـور، وأمـر أن ترسل الرسائل إلى كل واحـدة منها في يوم واحـد، وبإخفائه مقـاصده، فكرت كل واحـدة من تلك المدن أن الأمـر قـد صـدر إليهـا وحـدها، وكـان يستهدف منعهـا من التحالف ضد أوامره، وعندمـا ذهب ج . ليليوس G. Lelius إلى سفاقس، أخـذ معه وفداً من القـادة ومن أمراء السرايا، على أساس أنهم عبيد، فيما هم في الحقيقة كانوا جواسيس، وكان إذا ظن أن أحـدهم معـروف من قبل الأعـداء، كـان يؤدبه بالعصـا مثل تأديب العبيـد، حتى يخفي وضعـه، وهكذا نجح مخططه، وكـان ميثـريدات Mithridates عندمـا حـاصره بومبي، قد فكر بـالهرب في اليوم التـالي، ولكي يخفي نواياه وعـزمه على ذلك، تقـدم على جبهة واسعـة، واقترب من مـواقع العدو، وعقـد اجتماعـات عـدة حتى لا يلفت انتباه العـدو،

ولكي لا يثير الريبـة لدى العـدو أمـر بـإشعـال النيران الكثيرة في جميع أرجـاء المعسكر، وقــام بعـد ذلك عند الهجيع الثـاني مـن الليل بقيـادة جيشه، فعبر من خلال وسط معسكر العدو.

ولدى وقـوع جيش لوسيـوس فيريوس Lucius Furius في مأزق خطير، أخفى قلقه لئلا يخاف الباقون، وارتد بعد ذلك بقليل كما لو كان سيهـاجم العدو من كل صـوب، ثم لف جيشـه واقتاده سـالماً، والجيش نفسه لم يكن يعرف مـاذا يجري، وتعلمنا هذه الأمثلة بما فيه الكفاية، كم هو مجدي لقـائد المعـركـة إخفاء نـواياه سواء لإلحاق الأذى بالعـدو، أو لتأمين سـلامـة جماعته، والتتـار هم أكثـر من يلجأ إلى الأخـذ بأسبـاب الحيطة، حيث يروى عنهم أنهم لايدعون أحداً يدخل إلى معسكرهم أو يخرج منه دون موافقتهم حتى لا تنكشف مقـاصدهم إلى الأعداء، وهذا مـا لم يفعلـه الصليبيـون عندمـا استـولوا على دميـاط، وهكذا عنـدمـا انكشفت خططهم جُرحوا وأسروا ، ثم اضطروا إلى إرجاع دمياط(انظر القسم الحادي عشر — الفصل التـاسع) ومثلهـم كـان أهل عكا، فإنهم عندما نصبوا الكمائن لم يعـرفوا كيف يخفون خططهم فقتلوا(انظر القسم الثاني عشر — الفصل الثامن).

الفصل الثالث

ضرورة الاهتمام بمعرفة خطط أعدائهم.

المسلمون كثيرو الاهتمام بمعرفـة مقاصد أعدائهم، وأكثـر ما يسعون نحوه هو معـرفة ما يجري بين المسيحيين، ليس فقط في الأماكن القـريبة منهم، بل في الأماكن النائية عنهم.

وكان م. كاتو M. Cato عندما أخفق بطريقـة من الطرق بالتعرف إلى ما كـان يدبره الاسبان، أمر ثلاثمائـة من جنوده بالهجوم على معسكر الأعـداء، ليجلبوا سـالماً بأحدهم، وكـان بعـدما عـذبوه أن اعترف بكل

أسرارهم، وباح بها، ذلك أن معرفـة مخططات الأعـداء تفيـد في تجنب المخاطر، لأنه كما قال القديس غريغوريوس:«تجرح السهام المنتظرة أقل، وتحتمل الشرور أكثر إذا تسلحنا ضدها بترس الاحتراز المسبق»، ولذلك أرسل أهل قرطاج إلى الاسكندر هملقـار وبعثوا رجلاً قـاسياً، انتقل إلى عنده وتظاهر بأنه منفي ليكسب صـداقتـه، وليتمكن بذلك من الكشف عن خططه، فيأمن أذيته، ويهيء ما يلزم ضدها.

وكذلك عندمـا رأى القنصل أميليوس عن بعد كثرة من الطيـور قد طارت من الغـابة أدرك أن كمائن تنصب هناك ضـده، وهكذا لما كشف مخطط الأعداء أفلـت من المخاطر، وتصلح هذه الطريقـة أيضاً لمضـايقة العدو، وخاصة عندما يتم الكشف عن نقاط الضعف لديه، وهكذا فعل سكيبيـو الافـريقي، عندمـا بعث مع ليليـوس إلى سفاقس قـادة وأمـراء سرايا منتخبين، وهم يرتدون ألبسة العبيـد حتى يراقبوا بكل دقـة قوات ذلك الملك، ولكي يتفحص هؤلاء مـواقع الجيش المعـادي بحـرية أكبر، أفلتوا جواداً عن عمـد، وطاردوه كما لو كان هارباً، وداروا يبحثون عنه في كل مواقع المعسكر، ولدى عودتهم تحدثـوا عن كل ما شاهدوه، وهنا بعدما عرف سكيبيو كيف عليه أن يهاجم العدو ، أنشب المعركة.

ويفيـد هذا لطمأنة النفس أيضاً، ويحكـى أنه عندما كـان القنصل ج. مـاريوس محتـاراً حول حـرب سمبروكـو Cympruco مع الغاليين واللغاريين Ligurii، أرسل إليهم رسائل أمـرهـم في مطلعها أن عليهم قبل نهار حدده لهم النظر فيما جـرى معهم من الالتزام بالمعـاهدة، وكرر بعـد وقت بعث الرسـائل إليهم، وعندمـا تأكد بأن الرسـالة الأولى قـد وصلت إليهم، أدرك أنهم يضمرون شن الحرب ضـده، وقتها ارتاح من الشك الذي ارتابه.

وهكذا قصّر الصليبيـون كثيراً في التنقيب عن أسرار المسلمين، وهذا يمكن ملاحظته من خلال أخبار الأحداث التي سردناها من قبل، فلقد

وجـدنا مـرة أن واحـداً من البـداة المسلمين دل الصليبيين على معبر بالنهـر(راجع القسم الثـاني عشر — الفصل الثـاني)، وهكذا عندمـا لم يكن بين الصليبيين مخبرون بل خونة، حل بهم مـا حل بحق لأنهم كانوا يقبلون أن يخالطهم دون تمييز الهراطقة والكفرة(أرثوذكس ومسلمين).

الفصل الرابع

أمثلة عديدة حول ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتجنب المخاطر الكثيرة التي تتعرض الجيوش لها بالعادة وهي على طريقها .

مع أن كل مـا هو متعلق بالعدو، ومـا هو مختص به ينبغي البحث به بسرية مطلقـة — حسبما أوردنا في الفصل الثـاني المتقـدم — إن من بين الأمور الواجب إتمامها بسرية أكبر أمر تنقلات الجيش وتحركاته، وهكذا نجـد الاسكندر الكبير قـد تمكن من احتـلال اليـونان، لأنه وصل قبل الوقت الذي كان متوقعاً وصوله فيه، وبالطريقة نفسها احتل التتار مدناً عـديدة، لا سيما دربند، أو باب الأبـواب ، ولتجنب المكائـد والمخـاطر ينبغي التنقل بالجيش بسرية، وإذا تمّ ذلـك ببراعة من قبل القـائـد، فإن مخاطر كثيرة يمكن تجنبها.

وهكذا نجد قستوريوس Questorius عندما كان في إسبانيا، ضغط عليه العـدو من الخلف، لذلك توجب عليه عبور نهر هناك، فقـام فحفر عند ضفته خندقـاً على شكل هلال، ثم ملأه بمواد مشتعلة، وأوقـد فيه النيران، ومن ثم عبر النهـر بحـرية، في حين كـان ذلك متعـذراً على أعدائه.

وكـذلك عندما عجـز غريسـوس Gressus عن عبور نهر من محل كان قليل المياه، ولم يستطع أيضاً بناء جسر، حفر قناة من وراء معسكره، وحـوّل إليهـا مجرى النهـر، ومثل هـذا عندمـا وجـد هرقـل مـوفـد

سرتوريوس Sertorius في إسبانيا، نفسه محصوراً بين الجبال، وقد أقبل إليه عـدد كبير من الأعداء، ووجد أن طريقـه للافلات صعب وطويل، قام بحفر خندق بالعرض بين الجبال، وملأه بمواد مشتعلة، ثم أوقد فيه النيران، وبذلك أقام حاجزاً بينه وبين العدو، وأفلت.

وعندمـا وجـد بركليس Pericles الأثيني نفسـه مطوقـــاً من قبل العـدو، وجميع الممـرات مغلقـة في وجهه،إلاّ مخرجـان، أقـدم على حفـر خندق عميق وكبير، كما لو أنه كان يستهدف عزل العدو، هذا من جهة، وتظاهر من جهة أخرى بأنه عـازم على الانقضاض على الأعداء، فتركوا جميعاً جهة الخندق وتجمعوا أمام المخـرج الآخر، وعند ذلك مدّ جسوراً فوق الخندق، وعبر ومعه جيشه.

ولكي يخدع داريـوس شعب السكيـت Schytas ، انسحب من معسكره، وترك فيـه الكلاب والحمير، فلما سمعـوها تنبح وتنهق، خُيّل إلى هؤلاء الأعداء أن داريوس مابرح هناك.

ومثله غيره ربطـوا الثيران إلى الأشجـــار، فتراءى للنـاس من سماع خوارها الكثير أن أصحابها مـايزالون هناك، وكان آنو Anno عندما حـاصره الأعداء قـد اختـار مكاناً مناسبـاً جداً لـلافلات، فجمع مـواد خفيفة أضرم فيها النيران، ووقتها تجمع أعداؤه لحراسة بقية المنافذ، وهنا أمـر جنوده بالعبور من خـلال تلك النيران، بعدمـا أمرهـم بأن يضعـوا أمام وجوههم الترسة، وأن يغطوا سيقانهم بالثياب.

وعندما ضغط فابيوس Fabius على هانيبعل، وحاصره في مكان شديد الخطر، ربط في قرون الثيران حـزماً وأضرم فيها النيران وأطلقها، فأخذ القطيع الهائج يركض هنا وهناك، وأشعل النيران في الجبل من كل جهة، فخاف القـائد الروماني من الكمائن والمصائـد، فجمد جنده حيث هم، وهكذا أفلت المغربي سالماً.

وصـــدف أن قـــاد القنصل إميليـــوس بولس Aemilius Paulus جيشـه في طريق ضيق جـداً عند الشاطىء، فحمى جـوانب جيشـه بأن صف الأسرى على الأطراف، وبسببهم امتنع العدو عن رمايته بالسهام.

وعندما كـان بورو Poro يمنع الاسكندر المقـــدوني من عبور نهر ايداسبن Idaspen ، أمر أتباعه أن يركضوا بعزم نحو الجهة المقابلة من النهر، فتبعهم بـورو، خشية منه أن ينفذوا العبـور من هناك، وعند ذلك أمر الاسكندر جيشه بالعبور من الجهة العليا.

وهكذا إذا كان القادة البارعين قد تخطوا المخاطر، بأخذهم بإجراءات احترازية متنوعــة وقـادوا جيــوشهم ســالمة، على عكس ذلك تصرف بلدوين الأول ملك القدس عندما أقبل ليـواجه ثلاثين ألفاً من المسلمين بين اللد والرملة، فأوقع نفسه مع أتباعه في موقع حرج جداً، وفعل مثل هذا أيضاً قرب جبل الطور.

الفصل الخامس

كيفية إقامة المخيم

يتـوجب دومـاً أن يقـام المعسكر — خاصـة إذا كـان على مقـربة من العدو — في مكان آمن حيث تتوفر كمية من الأخشاب والعلف والماء، ولهذا عندمـا خـدع الخونة امبراطور ألمانيــا ومعـه ملك فـرنسا وملك القدس أثناء حصارهم لدمشق، فبدلوا موقعهم المناسب بموقع آخر لا ماء فيه، دحروا وتخلوا عن حصار دمشق، وبالطريقة نفسها هزم صلاح الدين غي لوزغنان وأسره.

وإذا كـانت الإقامـة ستطول يتـوجب اختيار المكان الصـالح، والمناخ الجيد، لنصب المعسكر، كذلك ينبغي تجنب أن يكون هناك جبل قريب، ولا بأس أن يكون المكان مـرتفعـاً حتى لا يسهل على العـدو احتـلاله، ومن غير المناسب أيضاً أن تكون هناك كثـرة من سواقي المياه، فإن أهل

دمشق قد دحروا التتار بسبب ذلك، كـذلك ينبغي تجنب حصر الجيش الكبير في مكان ضيق، أو زج الجيش الصغير في مكان ممتـد أكثـر من اللازم، ويجب نصب المعسكر حسب المعطيات والظروف، بحيث يكون أحيـاناً مـربعاً، وأحيـاناً مثلثـاً، وأحيـاناً على شكل نصف دائـرة، وذلك حسبما يقتضي وضع المكـان،هذا وإن الشكل المربع والمستطيـل أنسب في حالة الدفاع، وللشكل المستـدير مفعولاً أكبر، وإذا لم تكن هناك ضرورة قصـوى ينبغي عـدم تثبيت الأوتاد في الأرض،بل ليصنع منهـا ما يشبـه الجدار بارتفاع ثلاثة أقدام فوق سطح الأرض، وأن يكون أمامها خندق عرضـه تسعة أقدام وعمقـه ثمانية أقدام، إنما ينبغي إحـاطة النقاط التي يكون ضغط العدو عليها شديداً بخندق عـرضه اثني عشر قدماً وعمقه تسعة أقـدام، وأن تحاط قمة الخندق بسواتر خشبية متينة جـداً، هذا وقد اعتـاد الجنود أن يحملوا كمية منهـا معهم، وأن يكوم منهـا على الأرض تلة يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام، لكن إذا حالت مقاومة العدو دون ذلك، فلينظم الفرسـان جميعاً مع الرجالة في الوسط على شكل جبهـة قتال، في حين يتبعهم الباقـون، وهكذا نجد يوليـوس قيصر أثناء الحرب الأهلية، عندما قاد قواته ضد أفرانيوس Afranius ، ووجد نفسه غير قادر على التقـدم دون التعـرض للخطر، صف جيشــه على شكل ثلاثة صفـوف الواحد وراء الآخـر، وحفر خندقاً عمقـه خمسة عشر قدمـاً، لجأ إليه مع جنده عند غياب الشمس.

ويلزم فـوق كل شيء أخذ الحيطة في أن لا تتم مـواجهة الأعـداء من جهتين في وقت واحـــد، فإن ذلك يعـــرض لأكبر خطر داهم، ويترك المجـال واسعاً للخـوف ، وكـذلك ينبغي السهـر الشديـد على حراسـة المعسكر، وينبغي إضـاءة الأمـاكن الهامـة لتـوفير الرؤية من بعيـد، لئلا ينقض العـدو فجأة، وعلى كل عنصر أن يكون سلاحـه جاهزاً بالقـرب منه.

وينصب المسلمون معسكراتهم حسب نظام دقيق، حيث يضعون في الوسط سرادق السلطان، ومن حوله الأشراف والرجالات الأشداء حيث يكون تعدادهم حوالي الألفين،ويدعى هؤلاء باسم الحلقة السلطانية، ثم يوزعون ما تبقى ويرتبونه حسب تلك الدائرة، وهم يتبعون هذه الطريقة وينفذونها جميعاً، وهي مناسبة، ذلك أن كل مسلم يعرف في أي دائرة هو، وفي أي دائرة ينبغي أن يكون، ومكان خيمته بالتمام والكمال.

الفصل السادس

توضيحات وأمثلة تدل على خطورة ترك العدو يستدرجنا إلى خوض المعركة.

لاتترك الأوضاع في الحرب مجالاً للمغالطة، والمغالطة هي أن تفيد عدوك، وتدعه يؤذيك، ولذلك ينبغي أن لا تصنع أي شيء حسب هوى عدوك،لئلا تكون أنت نفسك عدواً لنفسك، ويؤذي هذا أكثر ويضر وقت التحام الجيوش، من ذلك مثلاً نجد روجر أمير أنطاكية، قد انطلق بتحريض من المسلمين وإثارة، دون أن يكون لديه أدنى أمل بوصول نجدة مرتقبة، فقتل بسيف الأعداء هو وكامل الجيش الصليبي تقريباً، وفي الحقيقة لإنشاب القتال ينبغي اغتنام الفرصة المناسبة، لا الخضوع إلى إرادة العدو، على هذا عندما بلغ سكيبيو في إسبانيا أن جيش أسدروبعل، قد زحف إلى القتال صباحاً دون تناول للطعام، ضبط جنوده، وأمرهم بالجلوس وبتناول الطعام، وعندما حل بالعدو التعب من الوقوف الطويل تحت السلاح، وعرف أن الأعداء قد جاعوا وعطشوا، أخرج جيشه وتقدم به، فأحرز النصر.

ومثل هذا حدث في إسبانيا مع متللوس Metellus ، فقد زحف هرقل ضده عند شروق الشمس في وقت من السنة شديد البرد، وتقدم

نحو خنادقـه، فضبط متللوس قواته، وانتظر حتى الظهـر، وإذ شعر بأن الأعداء قد تعبوا انقض عليهم ، وانتصر.

وكذلك عندما كان بوستوميوس Posdtumius في صقلية يقاتل ضد البونيين،(أهل قرطاج) جعلهم يتقدمون كل يوم مسافة ثلاثة آلاف قدم منه، حيث كـان يقاومهم برخاوة ودونها شـدة عند خندقه ويشتبك معهم بمعارك خفيفة، واستمـر الوضع هكذا حتى سئم أهل قرطاج من هذه الرتابـة، وكـان هو قـد ترك جنده داخـل الخنادق وكل شيء معهم جاهز تماماً، وفي النهـاية تمكن مع جيشه المرتاح من التغلب على جيشهم الذي هدّه التعب وأرهقه العوز.

ولاحظ أبقـراط الأثيني أن أعداءه يتناولون الطعـام دوماً في السـاعة ذاتها، فأطعم أتباعه في ساعة مبكرة، وهاجم أعداءه وهم يتناولون طعام الإفطار، وأمسـك بهم فجأة، بحيـث لم يترك لهم مجالاً للحـــرب، ولا للانصراف، وعنـد اقتراب حلول الظـلام أرجع جنـده، وتركهـم تحت السلاح، وبينما أعـداؤه يتناولون طعام العشـاء وهـم غير معبئين للقتال، هجم عليهم، ومثل هذا فعل فولك ملك القدس، فهـو عندما عرف أن المسلمين يرتاحون بين أنطاكية وحلب، من أجل تضييق الخناق على أهل أنطـاكيـــة، سبقهم ليلاً، وهـم مايزالون في خيامهم داخل معسكرهم، وبطش بهم، وكذلك عندما وجد صلاح الدين الحشد الصليبي في مكان خطير، وهو يعـاني من العطش الشـديد، هاجمه قبل أن يصل أفـراده إلى الماء، وانتصر على الملك وعلى الجيش الصليبي.

الفصل السابع

مواصفات المكان الموائم لخوض المعركة.

مثلما يجب لدى إقـامـة المعسكر أخذ الحذر، وعـدم تمكين العـدو من أخـذ الأمـاكن المرتفعـة (انظر الفصـل الخامس، المتقـدم أعـلاه)، هكذا

يجب، عندما يلتحم القتال، اختيار المكان الأعلى، ووفق هذا اختار كنويوس بومبيوس . Cneus Pompeius في كبدوكية مكاناً مرتفعاً لمعسكره، حيث ساعد انحدار المكان جنوده في هجومهم، فتغلب بسهولة على عدوه بفضل عملية الانحدار، ومثله فعل يوليوس قيصر عندما ذهب للحرب ضد فرناس Farnace ابن ميثريدات Mithridatis فنصب محلته على رابية، وكان هذا تدبيراً موفقاً منه، أمن له الانتصار، ذلك أن الجرف المطل من الرابية فوق البرابرة وهم في الأسفل، ردهم فوراً على أعقابهم، وكان هانيبعل عندما ذهب للحرب ضد مارسيليوس، قد هاجمه من جانب الطرق المنخفضة ومن المرتفعات، واستعان بوضع الأرض كحصن، وبذلك تغلب على ذلك القائد الشهير؛ ولاحظ هانيبعل أيضاً عندما كان قرب بلدة كان Ca-nas أن الرياح جنوبية، وأنها تثير عند الصباح الرمال وتنشر الغبار، فنظم صفوفه بشكل جعل فيه قوة الرياح تضربه بمجملها من الظهر، في حين تصدم الرومان وتصفعهم في وجوههم وعيونهم، وهكذا بسبب ما لحقهم من ضيق أحرز عليهم نصراً حاسماً مشهوراً، وأقدم كليومنس اللاكدموني Cleamenes Lacedaemonius عندما كان يحارب ضد هسبياس Hyspias الأثيني، الذي كان يتفوق عليه بعدد الفرسان، أقدم على قطع عدد من الأشجار، ورماها في الميدان الذي كان ينوي أن يخوض المعركة فيه، وبذلك جعله غير صالح لحركة الخيول، وأيضاً عندما خاف الايبيريون في إفريقية أن يحاصرهم الحشد الغفير من الأعداء، مع أنهم كانوا أشجع منهم، استداروا من خلف النهر، وانقضوا على من كان قريباً منهم، وبذلك حطموا بالنهاية الحشد كله، وكذلك عندما لاحظ أنطيبوس Antipus

اللاكدموني أن الأفارقة فاقدين للامل، وكانت قواتهم معتمدة على الخيول والفيلة، وكانوا يسلكون طريق التلال، فيما كان الرومان يمسكون بالسهول، وتعتمد قواتهم على الرجالة، عند ذلك قلب مصير

الحرب، بمجرد تبديل الأماكن، حيث قـاد الأفارقة نحو السهل، فتمكن بوساطة الفيلة من تبديد صفوف الرومان.

وكان إبامنناداس Epaminundas قائـد الطيبيين في أثناء مواجهته لأهل لاكـدمونيا قد أمر خيالتـه بأن يركضوا ذهابا وإيابا حتى يتعالى الغبار، وفي هذه الأثناء استـدار مع الرجالة، وانقض على الأعداء من الخلف وهم غارون، فصرعهم.

ومما تقـدم، وبناء عليـه، على قـائـد الجيش أن يتنبـه لاختيـار المواقع المناسبـة، وعليـه أيضـاً أن يدفـع بالعـدو إلى حيث البقـاع الخطرة، وأن يتقصى بعناية لدى اختيـاره للأمـاكن حتى يكون على معـرفة تامة بها، وبما أن الخطر أثناء الحروب ليس أقل منـه أثناء السفـر في البحـار وعلى ظهر المراكب، عليه أن يسعى لامتـلاك خرائط مكتوبة أو مرسـومة، قد دون عليها تعـرجات الطرق، مع ايضـاح الأخطار بقدر مـا يكون ذلك ممكنا.

وليكن لديه أيضا مستشارون أمناء، فإنه بسبب عدم أمانتهم نقرأ بأن الاسكندر خـذل في الهند، ومثل ذلك حـدث مع امبراطور ألمانيـا، ومع فـولك ملـك القـدس، كما كـاد خليفتـه الملك بلـدوين أن يهلك بسبب صعـوبات المكان، لولا أنه أنقـذ بأعجوبة ربـانية، ولحقت الهزيمـة بغي لوزغنان على يدي صـلاح الدين، نتيجة للنصيحـة الفاسدة التـي تلقاها من كونت طرابلس، حيث دله على موقع غير مناسب.

الفصل الثامن

الاحتياطات الواجب اتخاذها لدى قيادة الجيش لخوض المعركة.

كـان بامكاننا أن ندرك مـن الفصل المتقـدم، بما فيـه الكفـاية، وأن نتـوصل إلى أنه من المستحسن عـدم انشـاب القتـال بلا روية، ويفضل ذلك على أن يسلم المرء نفسه للحظ دون أن يتخذ الاحتياطات الموائمة،

لذلك يتوجب قبل خوض المعركة، الالتزام فوق كل شيء ، بالأوامر والأنظمة، لأنه حيث تكون هناك مجموعة بلا نظام وأوامر، يكون هناك الخزي، يضاف إلى هذا أن النظام والتعبئة في أثناء المعركة يرعب الأعداء، وجاء في الكتاب المقدس في شعر نشيد الانشاد، (٦/ ٤): «مرهبة كجيش بألوية»، ولقد كان التتار ينظمون قواتهم تحت قيادة أمراء عشروات، وأمراء مئات ، الخ... وبذلك تمكنوا من بسط سيطرتهم على الهند، وينبغي كذلك أن يعين لكل كتيبة راية خاصة بها، حتى إذا ضل أحد الجنود سبيله يعود إليها بسرعة، ولهذا السبب ذاته من المفيد أن يشار إلى أمراء العشروات وإلى أمراء المئات، على خوذهم أو في مكان آخر بعلامة مميزة لهم؛ وليكن مع الصليبيين رماة قسي ورماة مجانيق كثرة، يكونون مختلطين بهم، يردون هجمات المسلمين، ويكونوا متنبهين جيداً لعقر خيولهم الخفيفة، ذلك أن المسلمين ليسوا من الرجالة الجيدين، وليحذروا من اطلاق السهام طائشة بلا هدف أو جدوى، وكذلك ليكن عدد الرجالة كبيراً، بحيث إذا لم يكن بمكنتهم مرافقة جميع الفرسان. يكونوا وقتها من حولهم مع رماح طويلة، وليكن هؤلاء متكتلين ومجتمعين مع بعضهم في كتلة واحدة، بشكل لايتمكن فيه أحد من الدخول بين صفوفهم، وليكن بينهم حملة رماح يردون عنهم بالترسة نشاب المسلمين، ويؤمنون لهم التغطية، ويتوجب على هؤلاء أن يكونوا من الخارج أشبه بجدار، أما في الداخل فيجب أن لايكونوا مكتظين حتى لايضايق بعضهم بعضاً، ولكي يتركوا لرماة النشاب المجال للتصرف بحرية، ذلك أن هؤلاء هم الذين يعرقلون حملات المسلمين، وعلى هذا ينبغي أن يحملوا معهم الرماح والخناجر والسهام والنشاب المتنوع بوفرة، وليحذروا كل الحذر أن تتخلخل صفوفهم وأن يتباعدوا عن بعضهم، حتى لايقعوا بسهولة تحت سيطرة الأعداء ومكايدهم فيقهرون، وعليهم أن يتعلموا مما يفعله المسلمون، في العودة والانضمام إلى بعضهم، وذلك إذا ما حدث طارىء فصلهم عن

بعضهم، وليعاودوا رصّ صفوفهم، ومستندين إلى الاشارة التي تصدر إليهم، وبهذا سوف يتجنبون المخاطر، وسيكونوا مرهوبين أكثر من قبل المسلمين.

وإذا كان قصدهم الأخذ بخطة دفاعية فقط، فلتكن صفوفهم على شكل دائرة، وينبغي أن تكون كثيفة لئلا تتفكك، على أن يوضع في الواجهة الذين هم أحسن تسليحاً حتى يتحملوا الضربات، لكن إذا كانت خططهم هجومية، فلتكن صفوفهم على شكل هرمي، ففي هذه الحالة لايمكن ضعضعتها بسهولة، وإذا ما تبين أن عدد الأعداء قليل، فقد يكون من المفيد العمل على تطويقهم، ووقتها ينبغي أن تكون الصفوف مفتوحة من الامام، ومقفلة عند الساقة، بحيث تأخذ شكل كماشة، أما تشكيلة الصفوف المربعة فإنها لاتفيد أصلاً أحداً من الناس، وعلى قائد المعركة التنبه إلى أحوال الطقس وإلى أوضاع المكان، وذلك حسبما ذكرنا في الفصلين المتقدمين، وليتنبه أيضاً إلى معرفة من عنده عدد أكبر من الفرسان والرجالة هو أم الاعداء، وفي العادة يدافع الفرسان عن أنفسهم في السهل بشكل أفضل، أما في التلال والأحراش فالمشاة أفضل، وليحاول أن يعرف أين موقف الاشداء من الخصوم، وأين الركيك فيهم، وأين الاكثر قوة، وأين الأشد ضعفاً.

وكان ج. سكيبيو عندما ذهب إلى إفريقية ليقاتل هنون، قد لاحظ أن الإسبان قد وقفوا عند الجناح الأيمن، وكان يعرف أنهم أشداء، لكنهم يعملون لمصلحة غيرهم، ووقف الأفارقة عند الجناح الأيسر، وكانوا أدنى قوة، لكن أشد شكيمة، فرتب صفوف جنوده بحيث وضع عند الزاوية اليسرى نخبة جنوده، وخفف عن الجهة الأخرى وأرسل الجند من هذا الجانب للوقوف ضد صفوف الأفارقة، وهكذا عندما تمكن من تبديدهم وهزيمتهم، استطاع بسهولة الحصول على استسلام الإسبانيين. وكان الملك فيليب المقدوني عندما لاحظ أن مقدمة جبهة العدو متراصة

ومكونة من الجنود النخبة، قد أمر باقتحام الجهة الضعيفة، وهكذا بلبل الجبهة.

وعندما جابه برمانس Parmenes الطيبي صفوفاً قوية جداً من الفرس، درّب ضعفاء جيشه، وأوصاهم أن يلوذوا بالفرار عند أول صدمة، ومن ثم الاختباء داخل الأحراش وبين الأماكن الصخرية والمتعرجة الوعرة، أما هو فقد اتجه مع نخبة قواته نحو من هم أقل عدداً، وهكذا اختل ميزان القوى بين صفوف الفرس، فأحاط بالجيش كله وبدده.

وكان سكيبيو الإفريقي عندما توجه لمحاربة أسدروبعل في إسبانيا، قد سار بجيشه بانتظام لمدة أيام متواصلة، وقد ترك النخبة في الوسط، وكان أعداؤه يزحفون أمامه باستمرار وفق النمط ذاته، فبدل سكيبيو تعبئة صفوف قواته، ووضع الأشداء من النخبة على الجناحين والضعفاء في الوسط، وفي الساقة، وتولى بنفسه قيادة الجناحين، وتقدم على شكل هلال، وبذلك استطاع بكل سهولة أن يدحر الفئات الضعيفة من جيش عدوه، وحقق الانتصار.

ومثل هذا لما اكتشف ميتللوس في إسبانيا أن هرقل قد مركز في القلب فرق المحاربين الأشداء، خفف القوات المتمركزة في الوسط من جيشه، وجعلها لا تنشب القتال مع قلب قوات العدو، قبل تحطيم الجناحين، فعند ذلك يحاط القلب من كل جانب ويدمر.

وعندما قدم كاسترونيوس Castronius اللاكدموني إلى نجدة المصريين ضد الفرس، ولمعرفته أن الفرس يرهبون الإغريق أكثر من سواهم، قام بتغيير التعبئة، فوضع الاغريق في الصفوف الأولى، وبدّل سلاحهم وزيهم، ووضع خلفهم المصريين، وقاوم حملة الفرس بضراوة، والفرس يعتقدون أنهم يقاتلون ضد المصريين، وعندما أطلت

بعـد ذلك صفـوف المصريين وحشـودهـم خيل للفـرس أنهم الإغـريق فتراجعوا.

ولكي يثير سيلا Silla الخلل بين صفوف العــربات التي أرسلت ضـده لضعضعـة صفـوفـه، أثار البلبلة بينهـا بغـرز أوتاد على طريقهـا، وبالطريقة نفسها أوقف يوليوس قيصر عربات الغاليين المسننة.

ووضع استياغس Astiages ملك الميديين في أثناء حربه ضد الفرس المقاتلين الأشداء في مؤخرة جيشه، وأبلغهم أنهم إذا لم ينتصروا، لن يعاود وضعهم في المقدمة، وبذلك دحر الأعداء.

الفصل التاسع

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لهزم جيش العدو.

فيما كـــان ابـن القنصل بابيريـوس كيرســـور Papirius Cursor يقاتل ضـد السانيت Sanites ، وهم يبدون صــــلابة في القتال، أمربعض راكبـي البغال أن يجروا على الأرض آلات ضجيج، وأن يثيروا بها ضجـة عظيمة، ولما رآها صرخ لقـد بات النصر حليفنا، وذلك حتى يتحمس جنده وينالوا مجد تلك المعـركـة، وبالفعل استعاد الرومـان عند هذا العمل ثقتهم بأنفسهم، وارتعب العـدو، ولاذ بالفرار، وعندمـا كان القنصل فابيوس Fabius يقاتل ضد السـانيت، فصل عن صفوف قواته حملة الرماح، وأمرهم بالصعـود إلى ظهر تلة كانت هناك، كان من الممكن النزول منها إلى ساقة جيش السانيت، وبذلك هزمهم.

وعندمـــا اشتـد الضغط على أميتيــوس روفـوسAmitius Rufus من قبل الداشيين Dacis ، وكان عـددهم كبيراً، أمر قلة ممـــن معه، أن يقومـوا حالما يرون أن المعـركة قـد احتدمت بالإطلال على مـؤخرة الأعـداء من جبل كـان هناك، وأن يمـلأوا الجبل بأصـوات الأبواق، وبهذا خـــاب أمل الداشيين وأداروا ظهـــورهـم لأعــدائهـم، وصنع

سيلبيتيوس Sulpitius الشيء نفسه ضد الغاليين، وفي أثناء حرب جوغارتا Jugarta ضد ج. ماريوس ركض أمام صفوف الرومان، وهو يصرخ أنه قتل ماريوس، وبهذه الوسيلة هزم الحشد الروماني الكبير، ويمثل هذا هزم فاليريوس ليفينوس Valerius Le-vinius الأعداء، عندما ركض وهو شاهر سيفاً يقطر دماً وينادي كاذباً: لقد قتلت بيروس Pyrrhus .

وعندما كان ميرونيدس Mironides الأثيني يشك بنتيجة القتال ضد أهل طيبة، أطل فجأة على الجناح الأيمن لجيشه، وصرخ بأنه قد فرغ لتوه من دحر الجناح الأيمن للعدو، فثار حماس جنوده، ودبت النخوة بين صفوفهم، والخيبة في صفوف العدو، وبذلك انتصر.

ولدى مواجهة كريسوس Cressus لخيول أعدائه، وكانت قوية جداً، تصدى لها بقطيع من الجمال فارتعبت الخيول من منظرها غير المألوف، وجفلت وهي مرعوبة، ولم تكتف بأن رمت من كان على ظهورها، بل نشرت الفوضى بين صفوف الرجالة.

وكذلك كثيراً ما استعان ملك إبيروتي Epeyroti في حروبه ضد الرومان بالفيلة، وكذلك فعل البونيون القرطاجيون.

وربط الاسبان أثناء حربهم ضد هملقار حزماً من القش مشبعة بالقار والكبريت ووضعوها في عربات كانت تجرها الثيران، وعند إعطاء الشارة ببدء المعركة أضرموا النيران بالعربات، ودفعوا بالثيران نحو الأمام، فنشروا الفوضى بين صفوف الأعداء وضعضعوها.

وفي أثناءحرب التركيوننس Traquinenses ضد الرومان، تقدم عدد كبير من حشدهم بلباس الكهنة، وهم يحملون المشاعل، وانتشروا بشكل مرعب بين صفوف الرومان، فأثاروا الفوضى فيها.

الفصل العاشر

بعض الاجراءات الاحتياطية، والأمثلة لإعادة تنظيم الجيش في حالة إصابته بانتكاسة.

الذي يستطيع إعـادة تنظيم جيشه، عندمـا يبدأ بالتفكك والانحـلال هو كمن ينقذ أتبـاعه من براثن الموت، ففي تلـك الظروف ينبغي إظهار القسط الأكبر من الحنكـة، ذلك أن الفـرار من صفـوف القتـال ينشر الرعب في النفوس، ولقـد أجبر المسلمون أحيـاناً الصليبيين على الفرار، إتقاء لرشقات خفيفة من النشاب، مع أن المؤمن الحقيقي يبعد عن نفسه الخوف وينفيه، لعلمـه بأنه يقاتل في سبيـل قضية محقة، وأنه بعـد التعب سوف ينال المكافأة، وهل من قضية محقة أكثر من إزالة العار عن المسيح وعن الشعب المسيحي، أو ليس من المخجل بالنسبة للشعـوب المسيحية أن تسكت شريعـة الإنجيل، وأن تعلن شريعـة أخـرى واحـدة فقط، في أرض حملت فيهـا العذراء بالمسيح الرب، وفيهـا هناك ولد، وهناك تألم، وهنـاك أنزل إلى القبر، وهنـاك تدبـر الخلاص في وسط الأرض، حيـث يمكننا أن نردد مع سفـر المكـابيين١ / ١:«صـار اسم القـدس غـريبـاً، وهجرها المولودون فيها، وبقدر ما كان عزها صار عارها».

ليته يهب واحـد من الناس مثل يهوذا المكابي، يساعـده أخوته كلهم، فيحـاربون حـرب الرب بفرح، وليلبس يهوذا الحديد كـالجبـار، وليكن كـالأسـد الذي لا يخاف قـدوم أي كان، وقـد قـال الرسـول بولص في رسالته إلى العبرانيين(الاصحـاح: ١١ / ٣٢ — ٣٤):«جدعون وباراق وشمشـون ويفتـاح وداود وصمـوئيل والأنبيـاء الذيـن بالإيمان قهـروا ممالك،صنعـوا بـراً، نالوا مـواعيـد، صـاروا أشـداء في الحرب، هزمـوا جيـوش غـربـاء»، وهل أفيـد وآمـن من ذلك الموت الذي يحصل فيـه الانسان على غفران لكافـة خطاياه؟ وبموت مثل هذا لا تفنى أجسادنا، بل تتبـدل إلى مـا هو أحسن، ويقـول صـاحب سفـر الرؤيا(الاصحـاح الثاني:١٠):«كن أميناً إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة».

وحـدث أنه عندمـا احتل البندقـداري صفـد، قـام بإعطاء الأمـان للمؤمنين إذا استسلم إليـه من في القلعة، وضمن مـواكبتهم حتى مدينة عكا، وبعدمـا تسلم القلعة دعا المسيحيين إلى اعتناق شريعـة محمد(ﷺ) وتملق إليهـم، وفي الغـــداة هددهم بـالموت، لكن اثنان مـن الرهبـــان الفـرنسيسكان الصغـــار قضيـا الليل يشـدان من عـزيمتهـم بالنصـائح المقدسـة، فاختاروا إكليل الشهادة، وسـال عند منحدر الجبل ليس قليل من الدم بل نهر، ويحكى أنه تكلل بالاستشهـاد في ذلك اليوم مـا لا يقل عن خمسمائة شخص.

وأمـر بعد هذا بتجـريد هذين الراهبين، واسـم أحدهما يعقـوب دي باديو Padio ، واسم الآخر جيروم دي جـانوا Janua ، وكان معهما مقدم فـرسان الداوية، ثم أمـر بجلدهم بكل قسـوة، واقتيدوا أخيراً إلى حيث استشهـــد البـاقـــون، فهناك أكمل استشهـــادهم بقطع رؤوسهم، وغطى ذلك الملك الهمجي أجسـادهم المقـدسـة بالردميـات، ومع ذلك كان يشـاهد في ساعات الليل، على مـرأى من المسلمين، نوراً عظيماً كان يشع مـراراً منهم، ولـذلك لا مسـوغ للمسيحيين أن يخافـوا في الحرب، وإذا قوي الضعف البشري على القائد، فليعمد إلى الاقتفاء بأعمال القادة الكبار.

من ذلك أن سيرفيـوس توليوس Servius Tullius الفتى، عندما رأى حملة الرايات لديه في أثناء الحرب التي شنهـا الملك تاركينوس ضد السابيين Sabinos، يقاتلون بـاسترخاء كبير، انتزع إحـــدى الرايات، وأرسلها إلى بين الأعـداء، ولاسترجاعها قاتل الـرومان بشجاعة فـائقة، حيث استردوها وأحرزوا النصر.

وأعلن سكيبيو، عندما رأى جيشه بدأ يتخـاذل، أنه يعدّ عدواً له كل من يرجع إلى المعسكر، وفي حالة مماثلة قـال ق.فوريوس Q.Furius ، أنه لن يدع أحـداً يعـــود إلى المعسكر إلاّ إذا كـان منتصراً، وهكذا أعـاد

جنوده رص صفوفهم وأحرزوا النصر.

وأمر فوليوس بريسكوس Fuluis Priscus لما تردد حامل رايته في تنفيذ أوامره بالهجوم على العدو، بقتله، ولما تمّ ذلك ونفذ خاف الباقون، وانقضوا على الأعداء، وصنع كوسوس كورنليوس Cosus Cornelius، قائد الفرسان، مثل هذا، وعندما بدأ بعض الجنود في قوات القنصل ق.أتيليوس Q. Attilius بالهرب إلى المعسكر، حيث تصدى لهم بصفوف جيشه، وأعادهم إلى ساحة القتال ضد العدو، وعندما تراجعت كتائب دي سيلا D. Silla أمام ميتريتكو Mitritico ، استل سيفه، واندفع نحو مقدمة الصفوف وخاطب الجنود قائلاً:«إذا سألكم أحد أين تركتم الامبراطور قولوا تركناه يقاتل في بوشيا -Boe tia»، فخجلوا من ذلك، ورجعوا كلهم وتبعوه.

وخاف فيليب أن لايتمكن أتباعه من الصمود أمام هجمات السكيت، فمركز في المؤخرة الفرسان الأكثر إخلاصاً له، وأمرهم أن لا يدعوا أحداً من المقاتلين يهرب من ساحة الوغى، وإذا أصر أحد على ذلك وتمادى بفعلته فليقتلوه، ولهذا فضل أتباعه أن يقتلهم العدو على أن يصرعهم رفاقهم، وبذلك أحرزوا النصر، وقد قيل الشيء نفسه عن أستياغس Astiages ، في الفصل الثامن أعلاه.

الفصل الحادي عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لنصب كمائن للعدو.

من الممكن معرفة كم هي الكمائن مفيدة للمقاتلين من خلال الأمر الذي وجهه الرب إلى يشوع، إذ قال له:«اجعل كميناً للمدينة من ورائها»[يشوع:٨ / ٢]، وعندما تظاهر يشوع بالهرب، لحق به سكان المدينة، بحيث لم يبق واحد منهم فيها، وعندها انبعث الذين كانوا مختبئين في الكمائن، ودخلوا المدينة، وأفنوها بالحرائق».

وعندما كـان سكيبيو الإفريقي يواجـه معسكران: أي جيش سفاقس وجيش قـرطاج، أضرم النيران في المعسكر الأول، حيـث كـانت هناك مواد كثيرة قابلة للاحتراق، فهرع رفـاقهم لنجدتهم، وقد خيل إليهم أن النار اشتعلت قضاء وقدراً، فقتلهم بالكمائن.

وعندما كـان بومبي في إسبانيا، شرع بتركيـز عناصر تخرج من جيشه سراً، وتظاهر بالخوف واستدرج العدو المطارد له إلى أماكن موبوءة، وفي المكان الذي كـان يرغب به استدار وهاجمهم من الأمـام ومن الجوانب، وظل يوقع بهم الضربات حتى أبادهم.

وعندما سمعت الملكة تاماريز Tamaris بموت ابنها، أخذت تبحث عن طريقة تروي بها غليـل انتقامها، فأحـاطت الأعداء بالكمائن خدعـة، وتظاهرت بالانسحاب تغـريراً، واستدرجت قـورش إلى مكان ضيق، فقتلته وقتلت معـه نحواً من عشرين ألفـاً من الفرس، ووضعت رأس الملك في قـربة مليئة بـالدم وألقت بها وهي تقـول مخاطبـة إيّاه بشكل وحشي:«اشرب من الدم الذي طالما تعطشت إليه، فقد كنت دائماً تتعطش إليه».

وفي أثناء حـرب بومبي ضد ميثـريدات Mithridate ، صف في الغـابة ثلاثة آلاف جندي وعبـأهم على شكل رتلين، ووضع معهم قسماً خفيفاً من الفـرسان المسلحين، وتظاهر بالخوف، واستـدرج الأعداء إلى أبعـد من مـوقـع الكمائن، ثم ضربهم من المجنبتين، إذ صـار الهاربون يصطدمون ببعضهم وجهاً لوجه.

وكان ملانتوس Melantus قائد أثينا، قـد تحداه وطلبه للمبارزة فـرداً مقـابل فـرد، فاستجـاب وعندمـا وصل إليـه سمع عـدوه يقـول له:«أنت مجرم، كيف تـأتي ضـدي أنا وحـدي، ومعك رفيـق»، فـالتفت ليرى من الذي يرافقه، فصرعه عدوه بضربة واحدة.

وأخرج أبقراط الأثيني من السفن فرقة من الجنود لديه، ووضعها في كمائن، وأمر بعد ذلك السفن بالإقلاع وكأنها محملة بالجنود، وأن تبحر علناً، فاطمأن اللاكدمونيون، وهنا أقدم على حين غرة، فضربهم من الخلف، وأذلهم في الطريق.

وعندما كان هانيبعل في كان أمر ستمائة من الجنود البدو بالفرار، ولكي يصدقهم الرومان تخلوا لهم عن ترستهم وسيوفهم، وعندما وصلوا إلى الفرقة الأخيرة، فإنهم مثلما فروا راكضين، كروا مرتدين نحو أعدائهم، حيث استلوا السيوف القصيرة التي كانوا قد أخفوها والتقطوا ترستهم من على الأرض، وضربوا صفوف الرومان.

وتجسس هانيبعل نفسه أيضاً على معسكر القائد الروماني فوليوس Fuluius ، فوجده مهملاً للتحصين، ثم علم بعد ذلك أن لا جرأة كبيرة لديه، ولهذا أظهر لحراس المعسكر الروماني قبل بزوغ الفجر، والظلام ما يزال مخيماً، قلة من الفرسان، وللحال سحب فوليوس جيشه، وقتها احتل هانيبعل المعسكر الروماني بمهاجمته من الجهة الخلفية، وانقض على الرومان من وراء ظهورهم، فقتل ثمانية آلاف من نخبة جنودهم، وقتل معهم قائدهم.

وبعد أن كان فرياتوس Veriatus لصاً صار قائداً للكلتبيروس Celtiberos في الحرب ضد الرومان، وفي إحدى المعارك تظاهر بالانهزام أمام الفرسان الرومان، واستدرجهم إلى مكان وعر ومرتفع، وبعد أن أفلت هو عبر ممرات كان يعرفها واعتاد عليها، دفع بالرومان إلى مستنقع غرقوا فيه وقتلوا.

ولاحظ ج فوليوس G.Fuluius عندما وصل إلى تخوم الرومان أن جيش الفلسيكي Falsici كان أكبر من جيشه بكثير، فنصب معسكره، وبعث ببعض جنوده لحراسة بعض الأبنية القريبة من

معسكره، حتى يظن الفلسيكي أن جماعتهم قد فعلوا ذلك، فتفرقوا للنهب.

وعندما أرسل أهل قرطاج هانيبعل ضد الأفارقة، علم أن أولئك القوم يتشوقون إلى شرب الخمرة، ولذلك شن عليهم هجوماً خفيفاً ثم توقف، وتظاهر بعد ذلك في ساعة متأخرة من الليل بالفرار، بعد أن ترك في معسكره خوابي مليئة بالخمرة الممزوجة باللُّفان، وهي مادة مفعولها ما بين السمية وتسبيب النعاس، فانتشى الأفارقة فرحاً واحتلوا المعسكر، واحتسوا الكثير من تلك الخمرة المزيجة، فما لبثوا أن ارتموا مثل الأموات، وهنا ارتد عليهم فأسر منهم من أسر، وقتل من قتل.

وتظاهر المسلمون عندما كان الصليبيون يحاصرون عكا، ويعانون من الجوع، تظاهروا خديعة بالهزيمة، فاستدرجوهم إلى نهب المواد الغذائية وسواها، وفيما الصليبيون راجعون قد أثقلتهم المنهوبات، ارتد عليهم المسلمون ووجهوا إليهم ضربة قاضية.

وعندما لاحظ القائد هانيبعل نفسه عدم وجود الحطب في منطقة صحراوية، ترك القطعان الكثيرة التي كانت معه في أحد الوديان، وجاء الرومان وحملوا معهم اللحوم نصف نيئة، فما كان منه إلاّ أن أعاد جيشه ليلاً وشدد الضغط عليهم بكل عنف.

وكان أهل هي HY في حرب مع الأريتيريين، فقبضوا على واحد منهم قدم إليهم متجسساً، وقتلوه فوق مكان مرتفع، ثم ألبسوا واحداً منهم ثيابه، وأعطى إشارة إلى الأريتيريين من فوق ذلك المرتفع، أن يهجموا، ففعلوا فوقعوا بالفخ.

الفصل الثاني عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية والأمثلة لقطع طريق الفرار على

العدو، أو لتسهيل فراره.

كان الاغريق قد عقدوا العزم على منع ملك الفرس خسرو Xerxes من الانسحـاب عن طريق تحطيم الجسر القـائم على طريقـه، لكن تيميستكل Themistocles خشي من دفـع الأعـــداء إلى اليأس، فيبذلون وقتهـا كل قواهم، فأرسل خـادمه إلى خسرو حتى يحتل الجسر، ويعجل بالهرب.

وعندما حاصر قيصر الألمان، وصـاروا يقاتلون ببسالة بسبب يأسهم، أمر بتركهم يذهبون، وطارد بعد ذلك الفارين.

وعندمـا وصل الخبر إلى جيـش ت. مـارتيـوس T.Martius بأن القـادة البونيين قـد قتلوا، وإذ شرع أفـراد جيش قرطاج يقـاتلون بعنف حتى يحققوا الانتقام، أخلى السبيل أمامهم وتركهم يتفرقون، حيث خلى بينه وبينهم مسافة كافية للهروب، ثم كرّ عليهم وقتلهم دون أن يعرض جماعته للخطر.

ولما عاد القنصل مانيليوس Manilius من ميدان القتال، وجد أن المعسكر الرومـــاني قـد احتلـه المتمـردون، وأن جميع أبـوابه محاصرة، والأعداء في الداخل، فانقض عليهم كالمسعور حتى أنه سقط في القتال، وعندمـا لاحظ بعـض رجـاله ذلك وكـانوا في الطـرف الأقصى من المعسكر، فتحوا منفذاً ليخرج منه المتمـردون، وبعد أن خرجوا وتبددوا، وصل القنصل الثاني، وطاردهم.

ومثل هـذا فعل بنو إسرائيل عنـدمـا اشتـد القتـال ضـد سبط بنيامين(القضـاء:٢٠) تركوا لهم مكاناً يهربون منه، حتـى يقعوا في كمائن قد نصبوها لهم من قبل.

وبعدمـا احتل بيروس Pyrus ملك إبيروتا Epirota إحدى المدن، رأى أن سكانها قد ضـاق بهم الأمر، وأغلقـوا الأبواب، وأخذوا

يحاربون بشدة، فبادر ففتح لهم منفذاً، وترك لهم مجالاً يهربون منه.

وترك بيروس نفســـه في جملة مـــا ترك مـن وصـــايا وأوامـــر قـوله:«لاتقاومـوا العـدو المصر على الفرار، ليس فقط حتى لا تحرجـوه بسبب المضايقة، وتدفعوه لبذل مقاومة أشد، بل لكي يسهل عليكم قتله فيما بعد، ولكي لا تكونوا من الظافرين الذين دأبوا على الشر».

الفصل الثالث عشر

بعض الاجراءات الاحتياطية، والأمثلة لإخفاء الكمائن، ولتضليل الأعداء.

بقدر مـا يكون أحدهـم مقدراً ذا قيمـة كبيرة لدى الأعداء، بقـدر ما يخسر من الجرأة والبســالة، ولذلك من الضروري أن تخفي على العـــدو كل النواقص الضرورية.

فلدى خوض توليـوس هوستليوس Tullius Hostilius ملك الرومـان الحرب ضـــد الفيغنت Vegentes وصل الألبـــــان إلى بعض التـلال القريبة بعـدما تخلى عنهـا الرومان، وهنا أعلـن جهارة أن ذلك تم بأمر منه حتى يطوق الأعداء، فهدأت نفوس الرومان المضطربة وتحطمت قلوب أعدائهم.

وعندمـا عرف سيلا بـوجود من يتآمـر في جيشه للاستسـلام، أرسل مبعـوثين من قبله يطوفـون في أرجـاء الجيش كله، وقـال بأن ذلك يتم بتـدبير منه، وبذلك أخفى مظاهر الهزيمـة الواضحـة، وشدّ من عـزائم الجنود.

وكـان هانيبعل قـد جلب معـه ثـلاثة آلاف نجـار إلى إيطاليـا، وعند وصـوله تخلوا عنه وهجروه، فما كـان منه — حتى لا يضطرب الباقـون — إلاّ أعلن أنـه هو الذي صرفهم، ولهذا السبـب كسب الذين بقيـــوا

معه.

وعندما لاحظ لوكولوس Lucullus أن الفرسان المقدون الذين كانوا معه لمساعدته، اتفقوا سوية والتحقوا فجأة بالأعداء، أمر بالنفخ بالأبواق، وأرسل الفرق التي كانت تحت إمرته، وشن بها الهجوم على الأعداء، وفضل ملاحقة الفارين بالنبال، فاضطروا إلى العودة إلى الرومان، وهاجموا العدو معهم.

وعندما انهزم الرومان الذين كانوا مع القنصل ت. كونتوس كابيتولينوس T. Quintus Capitolinus كذب مصرحاً، قبل أن تفلت الأمور، بأن قنصلاً آخر على الجناح الآخر قد هزم الأعداء، فتماسك من كان معه، وأحرز النصر.

ومثله فعل ج. مانليوس G. Manlius في حربه ضد المتمردين، فعندما جُرح زميله فابيوس Fabius الذي كان يقود الجناح الأيسر، أقبل مع مجموعات من جنده نحو المنهزمين، صارخاً في وجوههم بأن زميله حي، وأنه موجود في الجناح الأيمن، وقد حقق النصر، وبرباطة الجأش هذه استرد معنويات جنده، وانتصر.

الفصل الرابع عشر

بعض الاجراءات الضروري اتخاذها في حال تحقيق النصر في المعركة، وإجراءات احتياطية ضد الفارين.

بعدما غلب ج. ماريوس التيوتون في الحرب، حاصر فلولهم، وكان الليل قد حل، فترك من جيشه جماعة ترعبهم، وتتركهم طوال الليل بدون نوم، فنتج عن ذلك أنه تمكن في اليوم التالي من هزيمتهم بكل سهولة، كونهم لم ينعموا بالراحة.

وعلى عكس ذلك تصرف بلدوين الرابع، ملك القدس، بعد أن هزم

نور الدين(كذا)، فصرف بعض البارونات، ولذلك عندما عاد المسلمون لم يسلم المسيحيون من الإبادة إلاّ بالفرار، وبالطريقة ذاتها، وللسبب نفسه لحقت الهزيمة عند قلعة هنزيط ببعض البارونات الواصلين من فرنسا.

وبعدما غلب نيرو Nero البونيين رمى برأس أسدروبعل في معسكر هانيبعل، حتى يحطم معنوياته ومعنويات جيشه بالبكاء على أخيه، ولكي يدركوا أن لا أمل بوصول النجدة إليهم.

وأرسل جوسلين أيضاً برأس بلك إلى الصليبيين المحاصرين لمدينة صور، وبذلك اغتم المسلمون وحزنوا كثيراً،

وأمر ل. سيلا L. Silla برفع رؤوس القادة المقتولين في الحرب على أسنة الرماح، حتى يراها الواقعون تحت الحصار في مدينة بنسترا Penestrae، وبذلك حطم تصلب المتصلبين.

وبعدما تغلب إرموكراتس Ermocrates السرقسطي على القرطاجيين في المعركة، أعاد معه عدداً كبيراً جداً من الأسرى، ولخوفه من أن تخفف الحراسة عليهم وأن تتدنى، لأن المنتصرين بطروا بسبب النصر، ومالوا نحو المآكل، وركنوا إلى الطمأنينة، نشر إشاعة بأن جيشاً من الفرسان قادم في الليلة التالية، وكانت نتيجة ذلك الاحتراز والانتباه أكثر للحراسة.

وينبغي أن لا يتوزع المنتصرون حالاً لجمع الغنائم وللنهب.

فهكذا فعل التيوتون بعد انتصارهم، فتفرقوا للنهب، فانقض عليهم شارل ملك صقلية، وهم متفرقين، وانتصر عليهم بسهولة، وهذا ما فعله يهوذا المكابي عندما انتصر على جناح من جيش جورجياس(المكابيون الأول:٤) فقال لشعبه:«لاتطمعوا بالغنائم لأن الحرب ما تزال قائمة بيننا»، وأطلت وقتها مع جورجياس فرق الجيش

تراقب مـن الجبل، ورأت هذه الفــرق مــا يحدث، وأن يهوذا واقف في السهل مستعـد للقتال، فحـل بين صفوفهـا الرعب، وهربت، ووقتـذاك فقط رجع يهوذا إلى المعسكر ليأخذ الأسلاب.

ومثل هذا الاحتراز ضروري لا بل ضروري جـداً بالنسبـة إلى الذين يقــاتلون ضـد المسلمين، ذلك أن المسلمين يحسنون الفــرّ والانصراف، ويعـرفون بـالوقت نفسه أيضـاً، ويحسنون الكرّ، حيث يقـومـون بجمع بعضهم بعضاً للعودة، لأنهم يقفون عن بعد، ويقومون بمراقبة ما يعمله الصليبيون، فإذا رأوهم قد تفـرقوا وانشغلوا بالغنائم والأسلاب يكرون عليهم وينتصرون.

ولهذا يمدح الغاليون، لأنهم عندما ذهبـوا للحرب ضد أتيلا، سلموا إلى بعض الحراس كل ما كان معهم من ذهب وفضة، وهكذا إذا تقلبت حظوظ القتال، وكان اليوم عليهم، يكونوا قد أنقذوا كنوزهم، وتركوها للناجين من أصحابهم.

كذلك فعـل تريفون Tryphon ملك سورية عنـدما هرب من أمـام أنطيخوس، حيث ذر المال ونثـره على طول الطريق، وبذلك أفلت من جنود أنطيخوس، لأنهم تمهلوا لالتقاط الدراهم.

وعندمـا هزم كونت متللو بيـو Metello Pio في المعـركة ضـد ق.سرتوريوس Q.Sertorius ، أمر سرتوريوس جنوده بالانصراف متفرقين، ولكي لا يعتقدوا أن في الفرار أمن، أوصاهم بأن يتجمعوا من جديد في مكان عينه لهم.

ولم يصنع الصليبيـون صنيعــاً مماثلاً عندمـا وقعــوا أسرى مع الملك لويس قـرب القلعـة المسماة سرياقوص، ولم نقـرأ أنهم لجأوا في مـرة من المرات إلى مثل هذا التدبير والاحتياط.

الفصل الخامس عشر

طرق متعددة لإلقاء الحصار، والاجراءات الاحتياطية اللازمة.

يأتي الضرر الأعظم إلى المحاصرين من خلال النقص بالمياه، لذلك ينبغي أثناء الحصار المراقبة بكل عناية لمعرفة من أين تصل المياه، فعندما حاصر أولفرنس Olofernes بتوليا Bethulia أمر بكسر قناة الماء، فجال جنده يفتشون عنها، ولما اكتشفوها وضعوا حراسة مشددة على الينابيع، مما جعل رئيس الكهنة، يقرر بعد خمسة أيام استسلام المدينة.

وكذلك يجب محاصرة الطرق ومراقبتها من حيث تصل المواد الغذائية، وقبل وقت حصاد الغلال، فهكذا فعل فابيوس ماكسيموس Fabius Maximus حيث أقدم على تدمير حقول الكامباني Campani ، ثم انسحب حتى يزرعوها من جديد، ويفقدوا البذار، وعندما أنبتت أتلفها، هذا ونجد أن أساليب متنوعة قد استعملت من أجل سحب الحبوب من المحاصرين، من ذلك أن ديونيسيوس Dio-nysius ، أراد — بعدما احتل مدناً كثيرة — أن يهاجم الريجينيوس Reginos ، الذين كانت لديهم غلال كثيرة، فتظاهر بالمسالمة، وطلب أن تقدم المواد الغذائية إلى جيشه، وعندما استنفد القمح الذي كان عند أهل المدينة هاجمها.

وكان عندما حاصر الاسكندر لوكاديا Leycadia ، وكانت غنية بالمؤن، بدأ باحتلال القرى التي في جوارها، وسمح أن يهرب إليها السكان حتى تنفد المؤن التي فيها بسرعة.

وتظاهر فالاريس أغريجنتنوس Fallaris Agrigentinus بأنه تعاقد مع إحدى الجماعات التي أراد إخضاعها، ووضع عندها كميات من القمح برسم الأمانة،لكي تأكل قمحها بدون حذر، ولما نفد ما

عندها، طلب استرداد ما أودعه، ومن ثم تغلب عليها عن طريق التجويع، هذا وهناك المزيد من الأساليب لخداع المحاصرين.

فلقد احتل هانيبعل مدناً كثيرة في إيطاليا، وهو يرتدي ألبسة الرومان ويتكلم لغتهم، لأنه تعلمها من كثرة الاستعمال أثناء تلك الحروب الطويلة.

وهكذا احتل المسلمون مدناً كثيرة للمسيحيين، عندما بدا لهم أنهم قد انتصروا.

وكان قائد جيش أثينا قد أحرق هيكل ديانا خارج إحدى المدن، فخرج أهل المدينة للعمل على إطفاء النيران تاركين المدينة بلا دفاع فاحتلها.

وفي أثناء قيام ألسيبيادس قائد جيش أثينا بحصار مدينة أغريجنتيا Agrigentia الجيدة التحصين، سأل مجلس المدينة أن يتداول معهم حول بعض الشؤون العائدة للمصلحة العامة، وفيما كانت جماعة المجلس مجتمعة معه، تاركين مدينتهم بدون حراسة، هاجمها جيش أثينا، وكان مستعداً لتلك المهمة، واحتلها.

وألقى أنطيخوس في كبدوكيا القبض على مكاريين كانا يحملان على البغال حنطة لقلعة محاصرة، وألبس اثنين من جنده لباس المكاريين، وسلمهما وظيفتهما،وبالطريقة ذاتها دخل الأرمن إلى إحدى القلاع، وهم يخفون سلاحهم،وخدع المسلمون قرب عكا مسيحيين كثيرين.

وعندما أدرك ب. كورنليوس صعوبة الاستيلاء على مدينة دلفينا Delvina، لأن كل من كان في أحوازها كان يهب للدفاع عنها، شرع باحتلال بلدات الأحواز، فاستدعت كل منها مقاتليها للدفاع عنها، وعندما باتت دلفينا من دون من يهب لنجدتها، استولى عليها.

وعندمـــا عجـز القنصل كـورنليــوس روفينوس Cornelius Rufinus عن احتلال بلدة كـروتونا Crotona ، تظاهر بالانسحاب، وبعدما صرفت الذين قدموا لعونها، عاد فاحتلها عاجزة.

وبعدما غلـب مانغو Mango، قائـد جيش قرطاج القائـــد بيزون Pisone ، شــاهده يطل من أحــد الأبـراج، فخشي أن تكون هناك نجـدات قـادمة إليـه، فأطلق سراح أحـد الأسرى لديه ليقنع النجـدات القـادمـة أن بيـزون وقع أسيراً، فخـاف هؤلاء وهـربوا وبذلك أكمل نصره.

وعندمـا كـان ثليوبيـداس Theleopidas الطيبي يهاجم بلدتين معاً في آن واحد، أمر أن يرسل إليـه أربعة فرسان مكبلين بسرعة كبيرة، وأضـاف إلى هذه الخدعـة أنه أمـر بـإشعـال النيران في غـابة كـانت بين البلدتين، ليعطي انطبـاعـاً ووهماً أن المدينة تحترق، وأمـر بالوقت نفسـه بجر بعض الرجال وهم يلبسون زي تلك المدينة.

وأرسل فـــابيـوس مكسيمـــوس عندمـا كـــان الأربوس Arpos منشغلين في مســـاندة هانيبعل ستمائــة فــارس ليتسلقــوا في ليلة دهماء الأسوار من الجهة الأقل تحصيناً في المدينة، وقد سـاعدتهم أصوات المياه المتساقطة، ولدى إعطائـه إشارة متفق عليهـا، هاجم الأربوس من الجهة الأخرى.

وأمر كاتو Cato بمهاجمة إحدى المدن من قبل أكثر الجنود ركاكة لديه، وترك المحــاصرين ينتصرون ويطاردون المهـــاجمين بحماس، وعند ذلك قـام مع الكتــائب الجيـدة التي احتفظ بها ، باحتــلال المدينة التي فرغت من المقاتلين.

وهكذا فعل سكيبيو في سردينيـا، حيث تظاهر بالفرار، فلحق به أهل المدينة، وعند ذلك استــولى على المدينة بوساطة فـرق كـــان خبأها على

مقربة من هناك.

واستولى هانيبعل على جميرا Gemera بالأسلوب نفسه.

وتظاهر بنو إسرائيل أيضاً بـالهرب(انظر سفر القضاة) عندمـا عقدوا اجتماعاً لقلع أبناء بنيامين من المدينة، وبذلك احتلوا جبعة، وقتلوا خمسة وعشرين ألف مقاتل منهم.

ولم يصنع عموري، ملك القدس، هكذا عندما كان يحاصر دمياط مع جيش امبراطـور القسطنطينيـــة بل إنه اضطـر بعـــد انتظار طـويل إلى الانسحاب بسبب الجوع والبرد.

وعندمــا ذهب الملك هيغ Hugo مع الأمير ادوارد لهدم مـدينة كاكو Caco ، عدلا عن ذلك ولم يحاصراها لأنهما وجدا غنائم.

الفصل السادس عشر

توصيات مفيدة للعساكر وتعليمات.

من المفيـد توجيــه قـادة الحروب وتزويدهم ليس فقـط بالأمثلة، بل إعطائهم أيضــاً قـواعـد ثـابتـة، وتعليمات غير قـابلـة للخطأ أبداً، ففي الحروب والحمـلات العسكرية هناك قـاعـدة هي: كل مـا يفيـدك أنت، يضر عدوك، وكل ما يضرك أنت، يفيده هو.

لاتعمل شيئاً يحرك العدو إليه، ولاتخفيه، واختر ما يبان في رأيك أنت أنه الأفضل والأنسب اختيـاره، واحذر أن تعمل ضـد نفسك إذا بدأت تقتـدي بما يعمله العـدو لنفســه، وفي الحرب من يكون أكثـر سهـراً في الشـدائد، ومن يثـابر على إجـراء التمارين للجنود، يكون الأقل تعرضـاً للخطر، ولاتكلف جندياً بأمـر صعب مـا لم يكن كفؤاً للقيـام به، وعند الوقـوع في ضيـق، وأثناء الارتبـاك والكمائن، من المفيــد أكثـر أن تدرأ عـدوك لا أن تقـاتله، وفي تلك الظروف الحظ أقـوى من الشجـاعـة،و

المخطط الأنجح لإنجاز مهمة ما، هو معرفة ما من شأنه أن يحول دون نجاحها، وفي العادة يفيد أكثر أن يكون المقاتل صاحب قضية عادلة، من أن يكون صاحب مهارة في القتال، وعند ملاقاة العدو، أو مهاجمته، عنصر الثقة هو المهم، في حين يلحق الهاربون بالعدو ضرراً أعظم ويحطمونه أكثر من القتلى، والاحتفاظ باحتياط كبير في مؤخرة الجبهة، أفضل من نشر الجنود على جبهة واسعة في المقدمة، ومن الصعب التغلب على من يستطيع الانتقام، أكثر ممن معه جحافل الأعداء، وقلة مدربة مقدمة للنصر، والمحصلة الحتمية لجمهور غشيم هي في العادة الهرب، وكثيراً ما يكون المكان والزمان أهم من المهارة في الحرب، وقلة هم الذين يلدون رجالاً أقوياء، وكثرة هم الذين يصيرهم التدريب كذلك، ولا تصفّ قواتك للقتال مالم يكن عندك أمل بالانتصار، ولا شيء يثمر أكثر من التقدم بانتظام، وينبغي التقيد به، إلاّ إذا تعلم الجيش الزحف السريع المتوازي، ودوماً يتعرض للخطر الجيش غير المنظم والموزع، ويتوجب أخذ أقصى حيطة حتى لا يحل شيء بمن ليس عندهم خبرة، إذا ما حصلت شدة، ولا يغلب العدو بالسلاح المحلى والمزين، بل بالمهارة في استعماله، وبالرعب، ويمكن الاصلاح في باقي الحالات، بعد ارتكاب الخطأ، أما الغلطة في الحروب فلا يمكن تداركها، ذلك أن عقوبتها تنزل حالاً، وخضع العالم للشعب الروماني ولمجلس شيوخه، بفضل التدريب على السلاح، وخبرة الجيش، والانضباط في المعسكر.

ويزيد الانضباط العسكري الشجاعة والخبرة في القتال، ومن اعتاد على الحياة الخشنة، فذاك الذي الخوف عليه من الموت أقل في الحرب، ولا شيء يفيد ويجدي أكثر من ترتيب المعدات في المعسكر، ومن أن يقضي الناس هناك الليل والنهار وكأنهم قد حملوا مدينتهم معهم، وهكذا إذا حلت بهم شدة، ووقعوا في الخطر، يجدون ملاذاً، ولا يقتلون

مثل البهائم، ويقهر بدون سيف من لا يجهز القمح وباقي الحاجيات.

ما ينبغي أن يكون، ابحثه مع كثيرين، واعلم أن الحكماء هم أعين القادة، وما تريد أن تعمله ابحثه مع قلة، بل الأفضل أن تبحثه مع نفسك فقط، ولا يعمد القادة الصالحون إلى القتال العام، إلاّ في بعض الظروف الاستثنائية، أو عندما تضطرهم حاجة كبرى.

ويُطلب من الجندي: الكفاءة بالعمل، والسرعة، والقوة، والتدريب على السلاح.

ومن الموائم أن يُضم إلى الجيش: حدادون، ونجارون، وجزارون، وصيادون.

ومن شيم فرقة النخبة أن لا تهرب بسهولة، وعدم إغفال الشهامة تجعل الجندي مؤهلاً، والخجل من الفرار يجعله منتصراً.

والمطوقون تزداد بسالتهم بدوافع اليأس.

ولا مسامحة لمن يستسلم للاهمال، عندما تكون المعركة للخلاص.

ولاتُطلب كثرة العدد، إذا كانت الفرائص ترتعد فوراً، وإذا كانت النفوس لا تسعى فقط إلى التهرب من سهام العدو بل من مواجهته.

ويكفي حتى الآن ما ذكّرنا به حول الانضباط العسكري، وعلى كل حال، كل ما لم يرد ذكره هنا من قواعد وأمثلة يعوض عنه في المدارس.

الفصل السابع عشر

وجوب الاكتفاء بملك واحد بعد الاستيلاء على أرض الميعاد.

يجب بعد الاستيلاء على أرض الميعاد تنصيب ملك يتأمر على الجميع، ويحكم شعبه بفطنة وعدل، ويهزم الأعداء ويرعبهم، وذلك حسبما يوصي الكتاب المقدس إذ يقول سفر التثنية في الاصحاح السابع

عشر:١٤ — ١٥: «متى أتيت إلى الأرض التي يعطيك الرب إلهك وامتلكتها وسكنت فيها، فإن قلت أجعل عليّ ملكاً لجميع الأمم الذين حولي فإنك تجعل عليك ملكاً الذي يختاره الرب إلهك».

واستخدم كلمة ملك لا ملوك، وكما قلنا من قبل إنه ينبغي اختيار قائد واحد للجيش، حتى يستتب السلام، وتتحقق الوحدة بشكل أعم، حيث يجب فوق كل شيء تجنب الانقسام، والانقسام قد يحلّ بسهولة بين المؤمنين، إذا حصلوا على انتصار، وذلك بسبب تنوع لغاتهم، وتعدد بلادهم، واختلاف تركيباتهم الاجتماعية، وشبه سلطان مصر نفسه بأفعى لها ذنب واحد وعدة رؤوس، علماً أنه لا يمكن للذنب واحد أن يتبع عدة رؤوس لها رغبات متنافرة، وذلك بشهادة المسيح في قوله:«لايمكنكم خدمة ربين»،وبناء عليه، ينبغي انتخاب ملك واحد، لكن ليس كيفما كان، أو بدون مبالاة، بل اختر الذي اختاره لك الرب إلهك، بحيث يكون ممن يكره ما هو عيب، ومتحلياً بالفضائل، ويؤثر ما هو نافع، ويمقت الإثم، وليكن مثل داوود آخر، مسحه الجميع بقلب واحد في حبرون(سفر صموئيل الثاني — الاصحاح الخامس)، وانتزع نير الجزية من يد الفلسطينيين، وضرب مآب وأذل المآبيين، وجعلهم عبيداً يدفعون الجزية، وانتشر صيته، وعندما رجع ضرب السوريين في وادي صوبا، وصارت أدوم بكاملها تخضع لداود.

وليكن مثل سليمان آخر، الذي كانت الأرض تشتاق لرؤية وجهه، وكان بفضائله أعظم من سمعته وصيته، وقد استولى على جميع المنطقة الواقعة عبر نهر الأردن، وخضع له كل ملوك تلك المناطق، وفي كل مكان حوله كانت له مشاركات(سفر الملوك الثاني — الاصحاح الرابع)، وكان سكان يهوذا وإسرائيل يعيشون بدون خوف، كل واحد منهم تحت كرمته وتحت تينته، وكذلك حصّن حزقيا المدينة، وجرّ إليها المياه، فبالحديد نقب الصخور وحفر بئراً(أخبار الأيام الثاني: ٣٠، سفر

ابن سيراخ: ٤٨)، وأخيراً ليكن مثل يوآش الذي أرسله الرب ليعيد الشعب إلى التوبة، وفي أيامه أزال جميع الأرجاس، ودعم التقوى(أخبار الأيام الثاني: ٢٤ / ١. ابن سيراخ:٤٩).

على هذه الشاكلة ينبغي أن يكون ملك القدس، حتى يتمكن الشعب المسيحي هناك من النمو عدداً، والارتقاء مرتبة، وقد أحسن الشاعر أنتي كلاديوس Anticladius حين قال:«الناس على شاكلة ملوكهم، والقرارات التي تدغدغ أحاسيس الناس لا تستميلهم، بل الذي يستميلهم هو حياة حكامهم».

فهكذا كان غودفري المختار من الرب والمحبوب، وكذلك الذين خلفوه، الذين جبوا الجزية من سلطان مصر ودمشق.

الفصل الثامن عشر

يتوجب على الملك الامتناع عن النفقات غير الضرورية وغير ذلك من الأباطيل:

ومثلما قدمنا من قبل بعض الارشادات المفيدة المتعلقة بالانضباط العسكري، من المفيد أن نضيف إليها أيضاً — فيمايلي — بعض النصائح المرتبطة بالمثل الأخلاقية والحياة المستقيمة، ونحن إذا قرأنا بوعي ما تقدم وذكرناه، نلاحظ أن الصليبيين قد افتقروا إلى الخلتين، وسلف أن أشرنا أعلاه بشيء من الايجاز إلى أن الشعب يكون بالعادة مثلما ملكه، وأنه كما يكون حاكم المدينة يكون سكانها(ابن سيراخ:١٠)، وتقدم بنا القول«بأن الناس في العادة على شاكلة ملوكهم».

ولا يظنن الملك أنه معفى من تطبيق الشريعة عليه(سفر التثنية — أعلاه)، بل عليه الالتزام بطاعة الناموس المعطى له من السماء، وعندما يتوج ملكاً:«لايكثر لنفسه الخيل»[التثنية ١٧ / ١٦]، لكن هذا لا يعني عدم اقتناء الخيول الجيدة، والفرسان لحماية المملكة، بل المحظور هو

الاكثار للأبهة والجاه مثلما حدث مع سليمان[الملوك الأول: الاصحاح الرابع] حيث ورد أنه كان لدى سليمان أربعين ألف مزود لخيل مراكبه واثني عشر ألف فارس، وجاء في موضع آخر أنه كان لديه عشرين ألف فارس.

فلتمنع عن الملك هذه العجرفة وهذا الاسراف كي لا يثقل شعبه، ويصبح هو صلفاً جباراً، ذلك أن الذي قصده المشرع بكلمة«الخيل» هو «الحشم» والحاشية وكل ما يمت إلى الملك، وقد تطرف سليمان وتجاوز الحدود في ذلك، حيث كان طعامه«لليوم الواحد ثلاثين كرّ سميذ، وستين كرّ دقيق. وعشرة ثيران مسمنة، وعشرين ثوراً من المراعي،ومائة خروف ما عدا الأيائل والظباء واليحامير والأوز المسمن»، وعمل مجنباً من ذهب مطروق، وثلاثمائة مجن من ذهب، كل ذلك لإظهار أبهة ملكه ويذخه، وهذه كانت كلها من استخدامات الحرس الذين كانوا ينامون عند باب الملك، وكان يتقدمهم لدى خروج الملك فرسان شبان، يتولون توزيع العطور من حوله، وكانوا يفعلون ذلك حتى عند مرابض الخيول، ويحلّون أسلحتهم ويطلونها بالذهب حتى إذا ضربتها أشعة الشمس تبرق لمعاناً، وقد أرهق هذا الاسراف كله الشعب الذي كان خاضعاً لسليمان، وعبر عن ذلك سفر الملوك الأول — الاصحاح الثاني عشر، عندما صرخ الناس من أفراد الشعب إلى ابنه رحبعام قائلين:«إن أباك قسى نيرنا،وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك»، وعندما أجابهم بعكس ما طلبوه وهددهم بما هو باهظ أكثر، خسر الأسباط العشرة،وجرّ الانقسام إلى المملكة.

وما الذي يفيد الملك الفائض من السلاح أو المسلحين؟ وكان لما رأى أفلاطون ديونيس Dionys طاغية صقلية وقد أحاط نفسه بالحرس، قال له:«أي شر صنعت حتى لزم أن تقيم حولك هذه

الحراسة»؟!وقال سناكوس Senecus في كتابه إلى نيرون عن الرحمة:«حصن واحد لا يمكن اقتحامه هو محبة الشعب»، فليتنبه الحكام والبـــارونات إلى هذا:إذا كـــان لا يجوز للملـك أن يكثــر مـن الخيل والفـرسـان من أجل الجاه، فكم هـو بالحري أن لا يكثـروا من الكلاب والطيـور الجارحـة، والقـردة، والحيـوانـات البرية المختلفـة، التي تهبهـا الطبيعة.

ولعلهم أخطأوا، وتمادوا أكثـر من اللازم في هذه الأمـور، ذلك أنهم تعـودوا كثيراً على التعلق بالمهرجين، وصرفـوا أنفسهم عن الاستماع إلى من وعظهم بالحقيقـة، وقالوا: إنه شرف للزعماء أن يتمـرنوا على الصيد للترفيـه، وأن يـلاعبـوا طيــور السماء، وأن يجمعـوا الخيــول السريعـة، والمخمل المطرز، وغير ذلك من المقتنيـات، فهل هنـاك من يجهل كم كل هذا التنعم هو من عفونة الكسل والاستخفاف؟

وقــال الفيلسـوف تيمــوستكل Themistocles :«ينبغي إبعـاد القضاة عـن اللعب وعن كل مـا ليس فيه رصـانة، لئلا يبـدو أن المصلحة العامة هي لعبة يلتهون بها».

الفصل التاسع عشر

الجرم الذي يقترفه الملك الفاسد الأخلاق، ضد المملكة.

إذا كـــان يتــوجـب على ملك القــدس الامتناع عما هـو باطل وغير رصين، كـونه بؤرة للخطايا، بات متـوجبـاً عليـه أيضاً أن يقـدر مـدى العناية التي عليـه أن يتجنب بموجبهـا الخطايا الأكثـر جسامـة التي من شأنها، أن تجلب آخرته، ليس وحده فقط، بل وآخرة المملكة كلها، لابل والشعب كله، وتجر على الجميـع عــدم التــوفيق والخطر، ولذلــك من الموائم أن يلتزم بذاته بالقاعدة التالية:«ألا يرجع الشعب إلى مصر بسبب كثـرة الخيل»، ذلك أن البـذخ والبـاطل لدى الملك يقـودان إلى الخطيئة،

وخطيئة الملك تعيد الشعب إلى مصر، أي إلى ظلمات الخطايا، فقد قال أمبروز Ambros في رسالته إلى الرومانيين:«يعمل الأدنى ما يرى الأعلى يفعله»، وقال ايرونيموس أيضاً إلى الأسقف هليودوروس:«إقامتك في البيت هي كمن هو واقف أمام المرآة، وهي معيار للانضباط العام، فكل ما يعمل هناك يظن الناس أن عليهم الاقتداء به»، وهكذا قاد يربعام عشرة أسباط إلى عبادة الأصنام كما لو كانوا في مصر، ولهذا السبب تم تدمير المملكة على أيدي الآشوريين، وكذلك أفسد يوشع ملك القدس نخبتها، عندما زاغ عن وصايا الرب وابتعد،(انظر الفصل المقبل)، ولذلك لم يعد كلام الرب يخرج لا من دبير Dobyr ، ولا من إفود Ephod ، وبسبب خطيئة داود، عندما أجرى الاحصاء للشعب جرى قتل الآلاف العديدة(صموئيل الثاني: ٢٤)، وهكذا يتضح صدق ما جاء في سفر ابن سيراخ — الاصحاح العاشر قوله:« مثلما يكون قاضي الشعب يكون الخادمون له، ومثلما يكون رئيس المدينة يكون جميع سكانها».

ولأن نتائج الخطيئة تشمل الشعب مع الملك، فإنهم بحق يتسربلون بالعقوبة المشتركة، وعن هؤلاء قال الرب في سفر حزقيال:«الملك ينوح، والرؤساء يتسربلون بالدهش، وأيدي الناس معفرة بالأرض، وما يفعلونه يذهب سدى».

وهكذا عدّ الملك متحملاً لمسؤولية الذين أعادهم إلى مصر(إلى الخطيئة) بمثله السيء الذي ضربه لهم، ولهذا توجب على الملك أن يتحلى بالفضائل، حتى يضرب لشعبه المثل الأعلى بالأخلاق الفاضلة، ويحثهم عليها، مثلما يفعل الرأس في الأعضاء، حتى لا يستحق التوبيخ الذي وجهه إيليا إلى آحاب بقوله:«أنت مقلق إسرائيل، أنت وبيت أبيك»، ولكي لا ينتحب الشعب في النهاية ويردد ما جاء في المراثي:«هدني وساقني في الظلمة وليس في النور»، ثم يستطرد فيقول(مراثي: ٥ /

٥):«نتعب ولا راحة لنا، أعطينا اليد للمصريين والآشوريين لنشبع خبزاً».

الفصل العشرون

كيف ينبغي على الملك، بدافع من القناعة، وبإرشاد من العقل لجم شهواته وملذاته الجسدية.

مثلما يمتثل الجميع، في المدينة الحسنة التنظيم،لأوامر الملك الواحد، ويطيعونها، هكذا يتوجب على من يريد العيش باستقامة أن يخضع كافة شهواته لسلطان العقل، وألا يسعى أبداً وراء شهواته(ابن سيراخ:١٨)، بل عليه لجم نفسه، وإبعادها عن الملذات التي نتشارك بها مع البهائم(كتاب الأخلاق الثالث)، والذي يسعى خلفها دونما رادع ليس مؤهلاً لأن يحكم على غيره، بل بالحري أن يكون تحت حكم غيره، ممن يتبعون حكم العقل، مثلما قال الرب على لسان نوح، عندما أوصى أولاده في سفر التكوين — الاصحاح التاسع(٢:):«ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض»، فإنه ذكر«الحيوانات» ولم يذكر «البشر» حتى لا يخاف العقل، بل تخاف البهيمية من تسلط الانسان، فالرذيلة هي من الأمور القابلة للاشتهاء(الأخلاق الثالث)، ومثلها عدم القناعة، وهي تشبّه بالطفل«والويل لأرض ملكها طفل وحكامها يأكلون منذ الصباح»(ابن سيراخ ١٠)، وعلى هذا من الضروري أن تدار الحواس وقوة الغرائز بوساطة العقل، فالعقل ضروري مثلما المعلم ضروري للطفل، وقد قال بولس الرسول في رسالته إلى تيطس - الاصحاح الثالث(الصحيح إلى ثيموثاوس: ٣ / ٥):«وإنما إن كان أحد لا يعرف أن يدبر بيته، فكيف يعتني بكنيسة الرب»؟ وعلى هذا على ملك أرض الميعاد المختارة أن يتعلم بطريقة عمله ونمط سلوكه، كيفية

إدارة شـؤون جميـع شعبـه، وأن يكون حسبما قـال كلـوديانو Clau-diano في قصيدة عن الأخلاق:

«إذا استولى عليك الرعب، إذا استحـوذت عليك شهوات كثيرة، إذا استدرجوك إلى الغضب»

«إذا طغت عليك الرذائل وأرهقتـك، وإذا ثارت في داخلك رغبـات آثمة فتحملها»

«وإنك حقاً ستمسك بزمام جميع الأمور» .

«عندما تتمكن من أن تكون سيد نفسك وملكها».

ويقـول بلوتارخ Plutarchus في وصـاياه إلى تـراجـان:«لن تصنع شيئاً باستقامـة تامة ما لم تتخلى عـن نفسك، وإذا ما لزمت ذاتك بالسير حسب الفضيلة، فإن كل ما سينتج سيكون مستقيماً».

وبما أنه بين الملذات الحسية، تعدّ الملذات الجنسيـة أهمها، فإنها ذكرت باسمهـا عندمـا حـرمهـا قـانون الملـوك في سفـر التثنيـة:١٧ / ١٧ في قوله:«ولا يُكثر له نساء لئلا يزيغ قلبه».

وعلى هذا الأسـاس كم هو بالأحرى تحريم اقتراف الزنا، أو الاتيـان بأية قباحة، وإذا اعترض معترض، انطلاقاً مما ذكر عن داود الملك، وابنه سليمان، اللذان اتخذا زوجـــات كثيرة نجيب: لما فهم داود المثـل الذي ضربه له ناثان، أقر بأنه ابن الموت(صموئيل الثاني:١٣...)،وعن سليمان قـال سفـر ابن سيراخ: ٤٧(/ ٢١) بعـدمـا تحدث عن عظمتـه وعن أعماله:«أمال فخذيه إلى النساء فكان وصمة في مجده»، وحين اتخذ هيرود هيروديا خلافـاً للناموس، أمر بقطـع رأس يوحنا(متى:١٤. مرقس:٧)، وحين لم يأبه بلدوين الأول، أول الملوك اللاتين على القدس، بهذا الأمر، حل رباط الزوجية الذي يلتزم به الانسـان نحو الآخر منذ البدء، وأقفل

على الملكة وألقاها في أحد الديرة، في دير القديسةحنة، قرب بركة الضأن، وعلى مقربة أيضاً من باب شعفاط، وتزوج كونتسة صقلية، التي كانت تمتلك الأملاك الكثيرة، وكانت مطلقة روجر أخو روبرت غويسكارد، وحين فعل ذلك ضربه المرض، وخسر أخيراً مملكة صقلية وأبوليا، وعرّض مملكة القدس وأملاكها للانقسام والكراهية لمدة طويلة.

وكذلك ايزابيلا[ابنة عموري الأول] التي خلفت أختها الملكة سيبيلا، تخلت عن همفري، وتزوجت من كونراد، بل لنقل إنها تمرغت في الزنى، لأنه بشهادة المعلم معلم الحق«كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني»[لوقا: ١٦/ ١٨) هذا من جهة ومن جهة ثانية:«وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزني»، وإنه لأمر بشع لا يليق بشرف الملوك، لابل إنه لا يكاد يترك للضالين، أن يفسخ إنسان الزيجات المعقودة، أو أن يضاجع نساء غير شرعيات، أو أن يربط واحداً بكثيرات، خلافاً لوصية الرب، ولما حرمته الكنيسة، ولهذا على الملك أن يلجم شهواته وميوله، تحت سلطان العقل حتى لا تنزلق نفسه إلى الخطيئة، ولئلا تتلطخ نصاعة سمعة الملك بأوحال الخطيئة، وتفسد سيرته الشعب، في حين إنه لوبقي على الفضائل، لأمكنه إبقاء الشعوب الكافرة المقيمة من حوله تحت نير الجزية، ويقول توليوس Tullius ، في كتابه عن المتناقضات:«هل هناك من لا يستطيع أن يلجم شهواته»؟.

فليلجم الملك أولاً شهواته الجنسية، وليحتقر الملذات، وليبعد الوصمات عن نفسه، وعندها ليبدأ بالحكم، وذلك بعدما تأمر على أسياد مكروهين، وعلى ما يجر العار والمخجلات».

الفصل الحادي والعشرون

كيف يمكن للملك لجم شهواته وملذاته الجسدية وتأمين

الثروات الوافرة.

كما أن جميع الأشجار قابلة للتطعيم في الجذع المناسب، هكذا جميع الآثام مطعمة بالبخل حسبما قال[بولس] الرسول في رسالته الأولى إلى تيموثاوس — الاصحاح السادس(:١٠):«لأن محبة المال أصل لكل الشرور الذي إذا ابتغاه قوم ضلوا عن الايمان وطعنوا أنفسهم بأوجاع كثيرة»، ثم عاد فقال:«وأما الذين يريدون أن يكونوا أغنياء فيسقطون في تجربة وفخ وشهوات كثيرة غبية ومضرة تغرق الناس في العطب والهلاك»، ذلك أنه«ليس هناك من هو أكثر إثماً من البخيل»(سفر ابن سيراخ)، ولا نتحدث هنا فقط عن الطمع بالثروات، وهو الجذع الذي تطعم عليه كل الشرور، بل نريد أيضاً الطمع بالثروات الحسية والشهوانية، التي يتوجب على الملك الامتناع عنها(انظر الفصل المتقدم)، ويقول كتاب الأخلاق عن داء الحب:«الحب الشهواني يتغذى بالثروات»، ولذلك لانتزاع وصمة جميع الرذائل ومنبع الرذائل الجنسية خاصة، قضي في قانون الملوك:«وفضة وذهباً لايكثر له كثيراً»[التثنية:١٧ / ١٧]،وذلك حتى لا يقوم مجد الملك على مصائب الكثيرين الذين يرغمون على حرمان أنفسهم من الضروريات في حين كان الأنسب لهم الاستفادة منها، والقادرون على عمل الخير لغيرهم يستحقون فخر تسميتهم ملوكاً، وإلاّ بأي حق يكدس الثروات من يملكها باسم غيره؟ ولا يجوز أن يفرض ضرائب خاصة ذاك الذي يعترف بأنه يفرض ضرائب عامة، وبما أنه يلزم التخفيض من الامتيازات لا توسيعها، يجب أن نتأمل بعناية — بعد استرداد الأرض المقدسة — وننظر ما هو الأكثر فائدة للاحتفاظ بالمملكة، وهل يجب تحويل مداخيل تلك الأرض إلى ضريبة تغذي صندوق الملك، حتى تصرف في وقتها على الرجال المحاربين، وذلك حسبما يتدبره الملك، وكما يتصرف سلطان مصر حتى الآن، أم أنها يجب أن توزع بعد احتلال الأرض على البارونات والجنود

ورجـال الحرب، الذين يخدمـون الملك والمملكة لقـاء رواتب محددة، وتحفظ المداخيل الفـائضـة عند الملك حتى يتمكن من أن يقـدم بسخـاء المسـاعـدات لـرجـال الدين وللرهبـان وللعلمانيين، وخـاصـة المعـاقين والمعوزين، وبشكل أخص إلى الذين يكونوا قد تعبوا في احتلال الأرض المقـدسـة، أو خـدمـوا في بلاط الملك، وكـذلك لبنـاء الكنائس والديرة ولترميمها، وللعناية بالمرضى، والمحرومين من المساعدة الزمنية، وإذا تم التـوصل إلى رأي أنه أجدى وأكثـر فـائـدة القيام بتـوزيع المداخيل على المدن والقـلاع، فلربما يكون ذلك أكثـر فـائدة لمدن بعض المجمـوعـات القوية في أوربا أن تقيم توأمـة مع تلك المدن، بحيث يكون لها مداخيل الاقطاع نفسـه تحت الولاء لها، وبذلـك يكون لها عليهـا سلطة إدارية، وتعطي لكـل ذي حق حقـه، وتدفـع إلى الملك وإلى المملكة شيئاً من رسومات ملاحتها، أو ترسل له بعض الجنود، أو تقدم له الخدمتين معاً، لأن كل إنسان يسعى بجهد أكبر للمحـافظة على ما هو له، وبالفعل إننا نرى أن بعض أقسام بيزنطة يحافظ عليها أهل البندقية حتى اليوم بفضل تلك الطريقة، وبما أنه يلزم بناء القلاع ورفع التحصينات وإشادتها ليس فقط في الأرض المقدسة، بل في العـربية وفي الداخل السوري وفي مصر، وذلك ليس فقط من أجل الدفاع عن المملكة بل أيضاً من أجل الكسب الكبير، وللخيرات الدنيـوية التـي سـوف تتـدفق بوفـرة، عندمـا تنفتح أمامها شواطىء مصر وسـورية، ومهما كانت الطريقة — من بين الطرق التي ذكـرناها أعـلاه — التي سـوف تعتمـد بخصـوص الترتيبـات في المملكة، يحتفظ الملـك في جميع الحالات دومـاً لنفسـه بمنطقـة تكون ضريبتهـا له حتى«يكـون له مثـاقيل كثيرة مـن ذهب ومن فضـة» ولكي«لايعلق قلبه بها»[مزمور: ٦٢ / ١٠] إذا كثرت بتدبير من الرب.

ولقـد خسر موريتيـوس Mauritius الامبراطورية بسبب تمسكه بالذهـب، لأنه عندمـا وجـد في أرض معـادية له، ورفـض أن يدفع

للجنود أعطياتهم، طلبوا فوقاس فانتزع الراية الامبراطورية وهرب موريتيوس مع زوجته وأولاده الخمسة إلى إحدى الجزر، وأمر فوقاس بقتلهم.

ولطمع شاؤول بغنائم العمالقة استدرج إلى عصيان أوامر الرب، فخلع من الملك، وبعد اقتراف آخاب لجريمة القتل، لأنه كان يشتهي ضم كرم نابوت، سمع الرب يقول له على لسان إيليا:«هل قتلت وورثت أيضاً، ثم كلمه قائلاً: هكذا قال الرب: في المكان الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس دمك أنت أيضاً»[الملوك الأول:٢١ / ١٩]، ويقول سفر ابن سيراخ(٣١):«طوبى للغني الذي لا يسعى وراء الذهب، ولا يتكل على كنوز الفضة، من هو ذاك فنمدحه»؟، ومثلما الملك يلحقه الدمار بسبب بخلهُ، مثل هذا أيضاً إنه يشع خاصة بسبب كرمه».

وكان بوليكراتس POlicratis ، ملك أهل جزيرة ساموس، الذي اشتهر أثناء حياته بكرمه وبصنعه الخيرات، قد تمكن من الوصول إلى الهند، لأن كل من اشتهى أن يقطف من عنده ثمرة شيء، كان يهبه إياها، وعلى هذا ليسع ملك القدس، وأرض الميعاد، وأن يتصرف بكرم وسخاء وذلك حيث يلزم ويناسب، حتى يتجنب كراهية حشمه أو الخاضعين له ولسلطانه، وبذلك يدفع الخطر عن نفسه وعن مملكته، وعند انتشار هذه السمعة عنه، يجذب الشعوب الغريبة إلى عنده، ويرعب أعداء المسيح والشعب المسيحي.

الفصل الثاني والعشرون

اهتمام الملك بشريعة الرب وغيرته عليها، وطاعته لوصاياها.

يقول سفر الحكمة:«الملك الحكيم ثبات الشعب»، ويقول سفر ابن سيراخ:١٠ / ٣ :«الملك يدمر شعبه، وتعمر المدينة بعقل ولاتها» ،

ويقول الشاعر بواتيوس Boetius مخاطباً الفلسفة في كتابه الأول، في «التعزية»:«أنت قررت على لسان أفلاطون أن الجمهوريات ستكون سعيدة إذا تسلم إدارتها من يدرسون الحكمة باستمرار، أو صدف وكان حكامها ممن دأبوا على الحكمة»، وعلى هذا تقول الحكمةفي سفر الأمثال:«بي أنا يملك الملوك، وبي يشرع المشرعون القوانين العادلة»، ودون تلك القوانين ثيودسيوس، وجستنيان،وليون، فكانوا من عالم لم يكن له شكل عالم آخر، وذلك عندما كرسوا العدالة للعالم، وأتحفوه بشرائع كما لو كان هيكلاً.

وبما أن كل الشرائع باطلة وغير فعالة، إذا لم تأخذ شكل الشريعة المقدسة، وبناء على هذا عن حق ما جرى تدوينه في سفر التثنية، قوله في قانون الملوك:«وعندما يجلس — الملك — على كرسي مملكته يكتب لنفسه نسخة من هذه الشريعة في كتاب»[التثنية: ١٧ / ١٨] وأضاف:«أيها الملوك اتعظوا وتعقلوا بشريعة الرب، وتأدبوا يا قضاة الأرض، إن شريعة الرب كاملة، وترد النفس، وشهادة الرب صادقة تعطي الحكمة للصغار»[المزامير:٢ / ١٠ ،١٨ / ٨].

ولايقطع التشريع الصادر عن القيصر، أو عن الناس، دابر كل خطيئة، لا بل قد يجيز في بعض الأحيان مخالفة ما معينة، أما شريعة الرب، فهي التي لا عيب فيها، وهي تحرم الخطايا جميعاً، وتجمد الشريعة البشرية اليد، ولا تجمد النفس، وتبدل شريعة الرب النفوس وتعيدها، وبسبب تنوع الأعمال البشرية لا يمكن للشريعة البشرية أن تتناولها بما فيه الكفاية، في حين تعطي شريعة الرب، شهادة أمينة، ومعرفة كاملة حتى للصغار، وبعدما تبحر فيلادلفوس Philadelphus بنقاء تلك الشريعة وكمالها، طلب من المؤمنين بالرب الحصول على نسخة منها، حتى يفهم بوضوح أكبر ما يتعلق بالرب، ويحكم شعبه بعدالة أكبر، وإذا كان الملك قاصراً في السن، أو كان بسبب إهمال أهله لا يحسن

القراءة والكتابة، فليحضر لمساعدته ناتان النبي، وصادوق الكاهن.

ولهذا أضاف في قانون الملوك:«ليتخذ لنفسه نسخة من هذه الشريعة في كتاب من عند الكهنة اللاويين»[التثنية:١٧ / ١٨]، وهكذا ساند يهويا داع يوآش، فعاش باستقامة لكن لما رفع عنه المساندة اقترف الخطيئة(انظر ما تقدم القسم الأول — الفصل السادس)، وكان ملوك الوثنيين يتخذون الفلاسفة معلمين لهم، فلقد اتخذ الاسكندر أرسطو، واتخذ نيرون سناكوس Senecus واتخذ تراجان بلوتارخ، وإلى الاسكندرصاحب العبقرية الرفيعة كتب أرسطو كتاب«أسرار الفلسفة»، ولنيرون صاحب النفس المجرمة، كتب سناكوس عن«الرحمة»، وكان تراجان قد وصل إلى السلطة دون أن يطمح إليها، وإليه كتب بلوتارخ مجلداً لطيفاً عن التنظيم السياسي عرف باسم«معهد تراجان»، وهكذا عرف معلمون مشهود لهم تطبيق كلامهم حسب الأمكنة والأزمنة والأشخاص بالشكل الموائم، فليسع ملك القدس إلى الحصول على مثل هؤلاء الحكماء والوعاظ له ولشعبه، حتى يتولوا جعل الناس يكرهون الآثام ويصرخون ضد الرذائل باستمرار، مثلما صنع زكريا بن يهوياداع مدفوعاً بروح الرب، إذ وقف فوق الشعب وقال:«لماذا تتعدون وصايا الرب فلا تفلحون»[أخبار الأيام الثاني:٢٤ / ٢٠] لماذا تفعلون ذلك، وما الذي أحوجكم للمخالفة، طالما أن حفظ الوصايا سهل، وقد جاء في سفر التثنية:«الوصايا التي أنا آمرك بها هي ليست فوق طاقتك»، لماذا طالما عدونا لا يتغلب إلاّ على من يريد، ولأي طمع، طالما أن السعادة بحفظ الوصايا، ويقول المسيح في متى:«إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا»[متى: ١٩ / ١٧]، فالمدين يرد الفائدة إلى الدائن، وتعطي الأرض المزروعة بذاراً ثمارها لواحد ثلاثين ضعفاً، ولآخر ستين، ولآخر مائة، ولسوف ترد الحقيقة ما وعدت به، فإنه قال:«تأخذون مائة ضعف وترثون الحياة الأبدية»، ولكن لماذا أيضاً؟

وبأي خسارة؟ إذ إن هناك مخالفات تستوجب العقاب.

وقال المزمور:١٩ / ٢١:«انتهرت المتكبرين الملاعين الضالين عن وصاياك»، وقال الديان في متى:٢٥ / ٤١:«اذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لإبليس وملائكته»، فهم يذهبون إلى النار ويزداد عذابهم بقدر ما خسروا مكافأتهم، وبحق قال:«إلى النار الأبدية» فهذا لم يحدث عرضاً بل جاء تنفيذاً منطقياً، ذلك أن الملاحق ليس هو المجرم، بقدر ما هي الجريمة، وعلى هذا إن المتوجب هو البحث عن الذنب، ولا يجوز إخفاء مادته، وكذلك إن الخطيئة التي لا توضع نهاية لها تحترق في نار لا نهاية لها، وبما أنه ليس هناك أمل، إذ أنه ليس بإمكان أحد أن يَعِد بالنهاية بعد أزمنة طويلة، فإنهم سوف يشعرون بالألم في الوقت الحاضر، وفي كل الأجيال التي ستتبع، فعودوا إلى قلوبكم أيها الزائفون، أنتم يا من من أجل ملذات عابرة خالفتم وصية الوقت، فلماذا أنتم معرضون ذاتكم لمثل هذه الأنواع القاسية من العذاب، وهي أنواع غير منتهية، لا يكفي كلام للتعبير عنها؟ ونحن نرى أنه من أجل اتباع الوصايا بعناية وكما ينبغي، من المفيد — بالإضافة إلى المواعظ والارشادات المألوفة والمعطاة إلى العموم — إجراء تدريس نصوص الكتابات المقدسة، في مدارس اللاهوت، باللغات الشعبية على أيدي بعض الرهبان، وقد تمّ اختبار هذا الأسلوب في البندقية، وثبت أن الناس أخذوا يتجمعون بتقوى منذ الصباح الباكر، ليسمعوا القداس، وللمشاركة في الوظائف بعناية أكبر بعد الانتهاء من القداس الرباني، حيث تعطى لهم في ساعة مناسبة إرشادات متعلقة بالإيمان والأخلاق والوصايا، وعندما يجري تكرار ذلك يومياً، ويعاد إلى الذاكرة، يصيرون مؤهلين أكثر ليشرحوا لكل من يستوضح عن حقائق الإيمان، حتى يتجنب ما هو مؤذي ويتبع ما هو مفيد وأكثر جدارة، وقد أضاف قانون الملوك بعد أمره بأن يتخذ الملك لنفسه نسخة من كتاب الشريعة

فقال:«فتكون معه، ويقرأ فيها كل أيام حياته لكي يتعلم أن يتقي الرب إلهه، ويحفظ جميع كلمات هذه الشريعة، وهذه الفرائض ليعمل بها»[التثنية:١٧ / ١٩]، أما ما هو أجل وأدق، فإنه يبحث بالحوار مع من هم متعلمون ومختصون.

الفصل الثالث والعشرون

تقوى جلالة الملك ولطفه وعطفه على رعيته منذ بداية الخليقة.

لم يُسلط الانسان على الانسان، لأن الرب قال في سفر التكوين — الاصحاح الأول(٣٦):«وقال الرب نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا، فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء، وعلى البهائم، وعلى كل الأرض، وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض»، ولم نقرأ عن ذكر للعبودية إلاّ عندما انحرف الكافر حام عن طريق العقل ليعيش كالبهيمة، وسخر من سوءة أبيه السكران، لذلك ليعلم ملوك الأرض والمتسلطون عليها أن المتوجب عليهم هو التحكم بغرائزهم وبرذائلهم أكثر من تحكمهم برجالهم، ولا يصير أحد تحت حكم غيره،طالما هو سائر في الطريق المستقيم، وملتزم بمنهج العدالة، وعلى هذا نقرأ في قانون الملوك قوله:«لئلا يرتفع قلبه على أخوته»[التثنية: ١٧ / ٢٠]، وإنه لأخ حقاً ذاك الذي لا يتجاهل تقلبات الطبيعة المخلوقة، والذي يُمنّ عليه بذلك التراث، ومن لا تفصله الخطيئة عن مجموعة المؤمنين، وبناء عليه قال المسيح في متى:٢٣[٨]:«وأنتم جميعاً أخوة»، ذلك أن جميع المؤمنين يدعون أخوة المسيح، وقد جاء في الرسالة إلى العبرانيين:«لأن المقدس والمقدسين جميعهم من واحد فلهذا السبب لا يستحي أن يدعوهم إخوة»[٢ / ١١]، وليتنبه الملك وليأخذ بنصائح ابن سيراخ(في الاصحاح ٣٢).

فالاحتياط والحذر هو شأن الطغاة، ولا يجوز للملوك أن يخافوا وأن

يرتعدواحتي يستمروا آمنين، ولايؤمنوا سلامتهم بالسلاح، بل بالمعاملة الحسنة، فهذا ما قاله سناكوس في كتابه عن الرحمة:«ليس هناك من تليق به الرحمة أكثر من الملك، وعليه أن يكون حليماً، لأن شيم النفوس الكبيرة أن تكون هادئة ومطمئنة، وأن لا تأبه بالشتائم والاهانات، والنحل سريع الغضب وهو يترك إبرته مغروسة في مكان القرصة، وهكذا يكون بوضعه الاعتيادي، فإذا رمى بسهم الغضب بقي بدون سلاح، وينطبق هذا المثل على الملوك الكبار، ويقول كلوديانوس:«الحلم وحده يجعل منكم دائماً متساوين أمام الآلهة »، وحاول ثيودوسيوس إقناع الآخرين بفعالية الحلم إذ قال في مجموعة القوانين:«إذا خيل لأحد أن على أسيائنا أن تتمزق، فنحن لن نكتفي برفض الخضوع للعقوبة،لكن إذا صدر ذلك عن خفة فنحن نزدريها، وإذا كانت طبعاً منذ الطفولة فهي تستحق الشفقة، وإذا كانت صدرت عن إهانة، فنحن نسامح»، وعلى هذا إذا جرح الملك، فليعف عن أهل بيته، وعن من هم تحت سلطته.

ويقول سناكوس في الموضع ذاته أعلاه:«ولمنح العفو عن الذنب، إذا استطاع ذلك بأمان وإلاّ فليخفف من العقوبة»، وليكن أرحب صدراً في العفو عن الاساءات لدى المقربين إليه أكثر مما لدى الأغراب، وليس كريماً كبير النفس من يُكرم سواه من مال غيره، لأنه يعطي مما هو لغيره،وإن كان يتنزعه عن نفسه، ومثل هذا إنني لا أعدّ حليماً من يميل بسهولة إلى مشاركة غيره في المهم، بل الحليم الذي لا ينقاد بسهولة إلى الغرائز التي تحركه، وضعف الطبيعة البشرية هو نداء موجه إلى الملك كي يكون حليماً، وكذلك يدفعنا الميل المولود معنا نحو الخطيئة إلى الاشفاق على كل ما هو بشري، وهذا ما توحي به الطبيعة مع تبدل الظروف.

وكان ابن ملك الليديين قد بقي صامتاً إلى الوقت الذي أرادوا فيه

صلب أبيه، حيث صاح بقورش قائلاً:« اعف عن أبي يا قورش، واتعظ مما يحلّ بنا، ذلك أنك أنت أيضاً إنسان».

الفصل الرابع والعشرون
عدالة الملك وإنصافه وصحة أحكامه.

إذا فقد النظام وانعدمت العدالة تكاثـرت اللصوصية، لذلك يتوجب على ملك القـدس، أن يسن — بعـد الدراسـة والاستشـارة الخبيرة — قوانين توائم الأرض، والأحوال، والأشخاص، ذلك أن تطبيقها يضمن الاستقرار للمملكة، والاحترام للملك، والطاعة لدى الشعب، والسلام للجميع، ولقد كـانت المدينة المقدسة يسودها السـلام(مكابيون:٢ / ٣) عندما كـانت الشرائع تطبق فيها بدقـة بسبب أونيا، الكاهن الأعلى، وبما أن رذيلة الجسد الممقـوتة لدى الرب، والتهافت نحو الرغبـات، كانا في أكثر الأحيان — حسب الكتب — سبب خـراب أرض الميعاد المقدسة، وبما أنه من الثـابت أن أكثـرهـا سعيراً هو التمـرغ في وحـول الجنس، والسكر الدائم، لاسيما في الحانات الليلية حيث الغانيات اللائي يحرضن على الخطيئة، بالآلات الموسيقيـة، والرقصـات، و الحركـات الخلاعيـة، حسب عـادات البلد، يجب إلغـاء هذا كله بقـرار ملكي، على أن تبقى الفنادق كما هي الحال في البندقية، لاستقبـال الضيوف المسـافرين، الذين ليس لديهم بيـوت خـاصـة بهم، كما يمنع أن يكون عند الناس زمـارين ونادبات، يجلبونهم يوم دفـن الأشراف للبكاء والنحيب على زوال المجد البـاطل، فـالمسيح لم يرض إقـامـة البنت المتـوفـاة بحضـور تلك النسـوة(متى:٩ / ٢٣ — ٢٤)، ومن الأفضـل لو سنحت الفـرصـة إبدالهن، حتـى لا يحرم الميت من الصـلاة، وأن تـوجـه إليهن كلمات المخلص:«لاتبكين عليّ، بل ابكين على أنفسكـن وعلى أولادكن»[لوقـا: ٢٣ / ٢٨]، أمـا أنا الذي أتلوى في العـذاب، فليس هذا الذي يمحـو خطاياي، بل الأدعيـة الربانيـة، وذبيحـة القداس، والصـدقـة المخبأة في

حضن الفقير، وكافة أعمال التقوى.

وهناك من يمارسون — وخاصة النساء بينهن — أعمال السحر والشعوذة المتنوعة، فهؤلاء يشاركون المنشقين والهراطقة والملحدين، ويتعلمون أعمالهم، التي كثيراً ما تحولت إلى تشكيك، وخراب، وهناك رذائل كثيرة كانت سبب الدمار، وسبب خسارة أرض الميعاد المقدسة، هي من الضروري اقتلاعها، ومحوها كلياً بتدابير ناجعة.

وعلى الملك السهر حتى يطبق الجميع القوانين المشروعة، وذلك بكل عناية، وبدون استثناء كما هو مدون في البند الأخير من قانون الملوك، وهو قوله:«ولئلا يحيد عن الوصية يميناً أو شمالاً»[تثنية: ١٧ / ٢٠]، والمقصود«بيميناً» الأقوياء، «ويشمالاً» الضعفاء أو الغرباء، فقد جاء في سفر التثنية قوله:«احكموا بين الناس بما هو عدل، وسواء أكانوا من أهل البلد، أو من الغرباء»، وينبغي أن لا تكون هناك محاباة لأحد، بل كما تسمعون للكبير اسمعوا كذلك للصغير، وقد يكون أراد«بيميناً» التوزيع بدون تمييز، «وبيساراً» القساوة بدون عنف، حيث يتوجب على الملك، اتخاذ الموقف الوسط في أحكامه، ويكون هذا باعتماد العدالة التي تلطف الرحمة قساوتها، وهكذا فعل المسيح حين ضرب مثلاً بمعالجة السامري، حيث قام هذا السامري لدى معالجته للجرح بمزج الخمرة التي تحرق وتعض بالزيت، والزيت هو لطافة الرحمة، ومثل هذا جمع في تابوت العهد مابين عصا القساوة، والمنّ، الذي هو العذوبة والحلاوة، ويقول غريغوريوس في الكتاب العشرين من قانون الأخلاق — الباب الخامس والأربعين:«تفقد صرامة النظام ورحمته من قيمتيهما إذا صار التمسك بواحدة دون الأخرى»، ذلك أن المطلوب من الحاكم نحو شعبه استعمال الرحمة التي تفيدهم بالحق، والنظام الذي يقسو عليهم بحب».

الفصل الخامس والعشرون

إعادة موجزة لكل ما قيل بشأن الحفاظ على الأرض المقدسة بعد استردادها.

مثلما حدث في الماضي، وطرد اليبوسي واليهودي، وفيما بعد المسيحي، بسبب إهانتــه الخالق، كما تقـدم وقلنا في القسم الأول كلـه، وأيضـاً في الثامن والتاسع من هذا الكتاب، هكذا نرى أن احترامه للرب والحرص على حفظ وصـاياه، سـوف يحفظهـا كاملـة، ويحفظها للعبـادة المسيحيـة وللاسم المسيحي، وبدون ذلك سيكـون كل مـا يصنع عبثاً، ولن يكون ضمانة، كما بينت جميع أجــزاء هذا الكتـاب، فلقــد بحثنا واسترسلنا في سرد الوقائـع بجد وبإسهاب لتـوضيح هذه المسألة، ثم إنه بعـد احتلال الأرض ينبغي إدارتها بفطنـة، وبشكل مفيــد، حسبما ذكـــرنا أعـــلاه، ويتوجب بناء قلاع وتحصينات في مواضع موائمة، لصد الهجمات المباغتة من قبل الكفـــار، وخـاصـــة في مصر والعـربيـــة، وحـوران، والأردن، وأنطاكية وكليكيـة، ودمشق، وذلك مثلما بنى الأقدمون ضـد عسقلان، أو المصريين قلعة زبليم Zebelim حيث كانت مــدينة بئر السبع من قبل، والمغـارة البيضاء، وغـزة، وجبليم Jbelim أي جت Geth ضد سوبعل Sobal السوري، والمونيين، ومونتريال، أي الكرك، وهو الموقع الذي كـان يعـــرف من قبل باسم بتراء الصحـراء، وبنو ضـــد طرابلس شقيف تيرون، وكذلـك صفد بين طبريا وعكا، والقرين على مقـربة من جبل الطور .

ويلزم في كل وقـت انتـــزاع الأسلحـــة من المسلمين، وكـل مـــا هو ضروري بقـدر مـا يكون ذلك ممكناً بسهولـة، وهناك حاجـة للتـدريب المتـواصل للمـؤمنين السـاكنين هناك على القـوس وعلى المنجنيق، وعلى اتخاذ كـافة الاحتيـاطات الحربيـة، كما قيل في مطلع هذا القسم، وعليهم كـذلك ممارســة أعمال المحبـة، والالتـزام بالتقـوى، التي تكاد التمارين الجسدية أن تكون بلا قيمة إزاءها.

ولقد جاء في الرسالة الأولى إلى تيموثاوس قول[الرسول بولس]:«وروض نفسك للتقوى»[٤ / ٧]، وعلى هذا يتوجب عليهم بناء مشفى في كل مدينة يعمرونها، كما قيل من قبل، وعليهم أيضاً عندما يشرعون بتناول طعامهم أن يحسبوا حساب الفقراء، وأن يرسلوا حصة للمحتاجين، حتى يكون للمؤمنين جميعاً قلب واحد، ونفس واحدة، وعلى الأمراء والبارونات نبذ البدعة، وأن يتصرفوا كرجال، وأن لا يحتفظوا بالأولاد كالنساء مع زوجاتهم، بل بالحري ليتولوا إرسالهم إلى البلاط، عندما يبلغ أحدهم العاشرة من عمره،ليعيشوا مع البارونات، ولكي لا يتشربوا الأخلاق النسائية، وليحكم الملك شعبه بالحلم، فقد قال أحدهم:«إذا كان الملك متمهلاً في العقوبة، فليكن سريعاً بالمكافأة»، وليتذكر دائماً أنهم سوف يكونون معه في المستقبل ملوكاً، وورثة في الملكوت السماوي، وليقض بالعدل للجميع حسب الحق، ولتكن عنده شدة خاصة ضد الذين يستغلون القادمين الجدد لنجدة الأرض المقدسة، ولمعاقبة الآثام الجنسية، بل الذي عليه هو محوها من الأرض المقدسة، فقد جاء في سفر التثنية:«لاتكن بغي بين بنات إسرائيل، ولا زنيم بين أبناء إسرائيل»، وليكن الجميع أكثر من باقي الشعوب الكافرة«خاضعين للملك، يعتمد عليهم، أما بالنسبة للولاة، فهم بمثابة مرسلين من قبله للانتقام من فاعلي الشر، وللثناء على فاعلي الخير»، وبما أنه من الصعب أن نرضي الرب دون الإيمان(عبرانيون:١١، كورنثوس الأولى:١٥)، ولأن الأحاديث الشريرة تفسد الأخلاق الحميدة يتوجب الحفاظ على نقاوة الايمان والأخلاق، وبعد أن يكون قد جرى طرد المسلمين، وكذلك الباقين الذين على شاكلتهم، من الذين خلعوا نير الطاعة للكرسي الروماني المقدس، ولم يعودوا يخضعون له بكل تواضع واحترام، وكذلك الذين بطقوسهم المختلفة ابتعدوا عن الكنيسة فيما هو جوهري في الايمان، إلاّ إذا عادوا إلى القطيع وإلى حضن تلك الأم الحنون، وذلك بعد أن يكونوا قد تركوا لهم المجال،

ويجب أيضاً أن يقتلع من الأرض العرافون، وأيضاً المنجمون، والسحرة كلهم، لأن كـلامهم ينتشر ويتسرب كـالسرطان، وكثيراً مـا يتفشى، فيصيب الأبرياء، ولا يجوز قبـول من هم خطاة معروفـون، ولا الرجال أصحاب الآثـام الفظيعة، من القادمين مـن بلدان الغرب، فقد تقـدم لنا إيضاح أنهم سببوا أكثر من سواهم دمار الأرض المقدسة وخرابها.

وللحفـاظ على هذا كله بالتمام والكمال، ينبغـي إقـامـة آباء للكنيسـة ورعاة لها، يتـولون رعاية قطيع الرب بالعلم والمعرفـة(إرميا:٣)، وتكون حيـاتهم وأعمالهم قـانونيـة، ويحافظون على الأكليروس في حيـاة لائقـة، وينبغي كذلك اعتماد رهبان نظاميين، من النخبة المجربة، فيجري إرسال بعضهم للوعظ والتعليم حسبما قلنـا أعـلاه، وللتبشير بنامـوس الحيـاة، والملـك الحسـن، على أن تكـون لـديهم غيرة على الـرب وعلى الايمان، فيتولون مـلاحقة الهراطقة والمنشقين، والسحـرة، والعرافين، وذلك بكل عناية وجرأة، ملقين جانباً كل مجال للخوف.

ولا يتصـورن أحد أنه سيكون قـاسياً إذا لاحق الهراطقـة هناك بمثل هذه الطريقـــة، لأنه فضـــلاً عما ذكـرناه أعـــلاه يقـــول الرســـول في غـــلاطيـة:٥(/ ٧ —٩٠)«كنتم تسعـــون حسناً، فمن صـــدكم حتى لا تطاوعـوا للحق، هذه المطاوعـــة ليست من الذي دعـاكم. خميرة صغيرة تخمر العجين كله».

وهؤلاء هم الذين قـال عنهم المسيح:«احذروا الأنبيـاء الكذبة الذين يأتون إليكم بثيـــاب الحمـلان»، ذلك أنه مـا من شيء يدمـــر أكثـر من التظاهر بالخير، فإن الشر، عنـدمـا يكون مخفيـاً تحت ستـار الخير لا يثير الريبـة، طالما أنه غير معروف، وثيـاب الحمـلان هي كلمات التملق التي يتفوه بها الهراطقة، وهي كافة مظاهر التدين والتقوى، وهي التي جعلت الشرقيين يحيدون عن حقيقة الانجيل، وكأنها ثوب لبسوه واختفوا تحته، حتى يضلوا غير المتيقظين، بينما هـم في الداخل ذئـــاب خـاطفـــة، وفي

داخلهم حقــد لا يخمـد، وجشع لا يشبـع لتمـزيق نقــاوة الايمان عند القطيع، فيخطفون الحقيقـة وينتزعـونها من قلوب المؤمنين، ولكي تعلم أنك لن تجنـي من ذلك أية فــائــدة أضــاف:«هل يقطف من الشــوك عنب،أو من العـوسج تين»؟، وهكذا إنك لن تقطف ثمرة الحيـاة لا من الهراطقـة، ولا من أي من غير المؤمنين، وفي هذه الأثناء يجري اجتـذاب الكاثوليـك إلى صفــوفهم الممقــوتة، بسبب الانقطاع عـن الطقــوس الكنسيـة، وبسبب عــدم الرغبـة بسماع شيء عن الـرب، وأيضـاً بسبب بعض مكاسب الثروات التي تتمازج مـع اجتماعاتهم، ومع الزيجات التي يعقدونها، والتي كـانت من أسباب تزعـزع متانة الإيمان في قبرص، وفي جـزيرة كريت، وفي إمـارة آخيا، وهذا مما لا شك فيـه عند الكثيرين من الشعب، لابل حتى أيضاً عند قسم من الجنود.

ولا يعترض أحـد فيقـول:«لايهلك الانســان إذا وجـد بالقـرب من الخطر، ومع ذلك إنه أضمن له أن لا يكون قـرب الخطر، وعندما يكون الأمـر متعلقـاً بأمــور الايمان وبضرورة الخلاص، ينبغي اختيـار مـا هو أضمن.

وأخيراً، ينبغي — بعـد طرد الكفرة مـن الأرض المقدسـة — العمل على اجتـذاب الكاثوليك والمؤمنين من كافـة أنحـاء المعمورة، اجتـذابهم وكأنهم غرسـات جديدة، غـذتهم مياه النعمـة، فيعطون ثمار الحياة،«لأنه هكذا قـال الرب لرجال يهوذا ولأورشليـم احرثوا لأنفسكم حـرثاً ولا تزرعوا في الأشواك»[إرميا:٤ / ٣].

ولكي يتشجع القـادمـون الجدد للمجيء عن طيبـة خـاطر ويكونوا مفيـدين، رأينا أنه من الموائم ومن النافع، لو قـام الحبر الرومـاني، نائب المسيح بتحريض الذين يريدون الابحار إلى الشرق، على البقاء في الشرق مهما كـان جنسهم — ذكوراً وإناثـاً — ومهما كانت حـالتهم، شرط أن لايكون بينهم مـن هو خــاطـىء معــروف ومشهــور، أو مجرم، حتى

نتجنب، — كما قلنا أعلاه — امتلاء الأرض بمثل هؤلاء، لا بل حتى لا نفسد بهم، على أن يترك الأمر إلى حكم الأساقفة، وأن يمنح البابا القادمين الصفح والغفران الكامل عن خطاياهم، وأن يتم ذلك بوساطة مبشري الإيمان، الذين يعلنون كل هذا، وينشرونه في كل مكان، وأن يتدبر بالطريقة المناسبة شؤون سفرهم، ومساعدتهم المناسبة، لئلا ينقطعوا بسبب الفاقة عن متابعة هذا المشروع التقوي.

وعلى الملك، وعلى سائر الذين يمتلكون الأرض المحتلة، أن يؤمنوا للقادمين الجدد أراضي للإقامة فيها، ولبناء بيت وبستان وكرم، وذلك مقابل مبلغ سنوي محدد يدفعونه، وبعد هذا تكون هذه العقارات ملكاً أبدياً لهم ولورثتهم، وإذا وجد أنه من الأنسب منحهم أراضي زراعية يعتنون بها، وتقدم لهم المساعدة في سبيل ذلك وفي سبيل اقتناء المواشي، وسائر الأشياء المحتاجة والمناسبة فليفعل.

فهكذا اجتذب الملك بلدوين الأول الكثيرين ليسكنوا في القدس، ويجب أخذ الحذر خاصة في البداية، حتى لا توضع العراقيل أمام المؤمنين القادمين إلى الأراضي المحتلة مع بضائع وحاجيات أخرى، وأن تفرض عليهم مكوس وأتاوات، وأن يسمح لهم بكل حرية أن يستثمروها كما يطيب لهم، وبهذه الطريقة تتوافر الخيرات، وتكثر المتاجرات، ولا سيما مع تدفق الآخرين بغية السكن في الأراضي المقدسة، ووقتذاك سوف تتدفق على سكان الأرض الحاجيات الضرورية بكثرة، ويلقون من وراء ذلك المنفعة، فهذا ما احتاط له في مدينة القدس بلدوين دي بورغ.

ولهذه الأسباب، ومع مرور الزمن، ولأن المكوس، ليست في نظر العامة إلاّ سرقة وسلب لابسة ثوباً قذراً، لايحل فرضها إلا في حال الضرورة القصوى، وبعد مداولات طويلة، وباعتدال كبير.

وهذا مختصر لما عـددنـاه مساوىء ينبغي تجنبهـا، ومحاسـن يتـوجب اتبـاعهـا حتى نمتلك أرض الميعـاد المقـدسـة بفائـدة وأمـان، وسـلام، واستمرار، وراحة، وليت ربنا يسوع المسيح يشفق على دموع وتوسلات الشعب المسيحي، فيهبه إياها، لعـزته ومجده، ولتحقيق الأمنية التي طالما انتظرتها الكنيسة المقـدسة، والذي«هو مع الأب والروح القـدس يمجد ويعبد، إله واحد»، آمين.



المحتوى

الصفحة	الموضوع
١٦١	الفصل التاسع — كيف ينظم القبطان الجيش
١٦٣	الفصل العاشر — كميات الميرة
١٧٠	طريقة توزيع الاغذية
١٧٢	تخمين أسعار المواد الغذائية
١٧٣	الفصل الحادي عشر — عدد الغلايين
١٧٤	أنواع الغلايين
١٧٥	الفصل الثاني عشر — صناعة أدوات الملاحة
١٧٨	الفصل الثالث عشر — أنواع باقي السفن
١٨٣	الفصل الرابع عشر — شروط الابحار إلى مصر ومقتضيات ذلك
١٨٤	الفصل الخامس عشر — المواصفات المطلوبة من الأشخاص الذين تريد الكنيسة التعاقد معهم
١٨٥	الفصل السادس عشر — شكل تبديل عناصر الجيش
١٨٨	الفصل السابع عشر — أماكن توفر رجال بحر جيدين
١٩٠	الفصل الثامن عشر — حول الملاحين في ألمانيا
١٩٥	الفصل التاسع عشر — التبشير بحملة صليبية عامة
١٩٧	الفصل العشرون — عدد الرجال اللازمين لكل غليون
٢٠٠	رواتب طواقم الغلايين
٢٠٢	راتب ثلاثمائة فارس وخدمهم
٢٠٤	الفصل الحادي والعشرون — تنبيهات احتياطية


Bibliotheca Alexandrina
0414609